

مشكلات علم النفس



مؤلف: د. أيزنك ترجمة: د. جابر عبد الحميد هابر د. يوسف محمود الشيخ
مراجعة وتقديم: د. أحمد زكي صالح

دار النهضة العربية

مشكلات علم النفس

تأليف

هـ . ايزنك

ترجمه

دكتور جابر عبد الحميد جابر

دكتور يوسف محمود شيخ

مراجعة

دكتور أحمد زكي صالح

الناشر
دار النهضة العربية
٣٢ شارع عبد الخالق شروت

مقدمة الطبعة العربية

إن المتابع لتطور الدراسات النفسية في مصر يلاحظ تقدماً هائلاً فيما أحرزته هذه الدراسات من نجاح وتقدم ويتمثل ذلك في نواحي مختلفة من حياتنا المعاصرة ولعل أول ما يسترعى الإلتباه هو تعدد أقسام علم النفس في الجامعات إذ صعد عدد الأقسام من كرسى واحد في قسم الفلسفة حتى عام ١٩٤٠ إلى سبعة كراسي منها خمس في جامعة واحدة وهذا التعدد في أقسام علم النفس يدل دلالة قاطعة على إدراك مجتمعنا العربي المعاصر لقيمة الدراسات النفسية وأهميتها في تخطيط القوى البشرية .

أما في مجال الخدمات فنحن نجد أن الخدمات النفسية الآن أصبحت تقدم في أكثر من ناحية فالقوات المسلحة المصرية لها جهازها النفسى الذى يقوم بعمليات الانتقاء والتوزيع من أولى المستويات وهى مستويات التجنيد العادية حتى يعالج المشكلات النفسية فى أعقد صورها وفى الخدمات المدنية أصبح إنتقاء الموظفين واختيارهم يقوم على أسس نفسية فى جزء كبير منها كما أن التوجيه التعليمى والمهنى الآن بدأ فى اتباع الطرق النفسية فى توزيع الطلاب على الأنواع المختلفة من المدارس الفنية والمعاهد العليا الفنية كما أن العلاج النفسى لم يعد قاصراً على الأطباء وحدهم بل اشترك معهم فيه ذوو الاختصاصات العليا فى علم النفس وفروعه المختلفة ويكامل هذا كله ما تتضمنه المكتبة العربية من مؤلفات قيمة فى علم النفس وما ينشر من بحوث يعتبر الكثير منها بحوثاً أصيلة فى مجالات الدراسات النفسية .

وهكذا كان تطور ونمو الدراسات النفسية فى مصر متوازياً مع تطور ونمو المجتمع فى مختلف نواحيه ولا شك أن هذا التطور يملى علينا ضرورة مراجعة الكثير من مشكلاتنا العلمية ومدى نجاحنا فى تطبيق ما تصل إليه عن طريق الدراسة النظرية وفى مجال التطبيق العملى ولذلك كان لزاماً علينا بين

الفينة والآخرى أن نحاول مراجعة مفاهيمنا العلمية الأصيلة وتقويمها بناء على حاجيات المجتمع العربي الملحة وخاصة في مرحلة النهضة العلمية الراهنة وقد أختير كتاب الأستاذ أيزناك لترجمته إلى اللغة العربية وكان عنوان هذا الكتاب في أصله الانجليزي .

Uses And Abuses of Psychology

وقد إختارنا لهذا الكتاب عنواناً عربياً هو : مشكلات علم النفس وذلك لأن الكتاب يعرض في أصله مجموعة من المشكلات النظرية التطبيقية في علم النفس ويحاول أن يناقشها بأسلوب بسيط لا يخرجها عن إطاره العلمي كما أنه يجعلها ميسرة للقارئ العادي . ولو أن المؤلف لم يكن قد مارس العمل في مجالات علم النفس المختلفة ما استطاع أن ينجح هذا النجاح في معالجته لموضوعات هذا الكتاب وقد كان اختيارنا لهذا الكتاب على أساس ما لمسناه من تشعب تطبيقات علم النفس في جمهوريتنا الأمر الذي ترتب عليه أن طرقة بعض المحدثين الذين يدعون لأنفسهم الدراية بالعلم مع عدم تمكنهم من أصوله وأساسه ومناهجه ولا شك أن القارئ العادي سيجد الكثير من المشكلات التي تثار حوله ويتقدم البعض في محاولة لكتابة بعض الوصفات أو الروايات ، لإيهام الآخرين أنها رسائل ناجحة لحل هذه المشكلة والتخلص منها .

وكان هذا كافياً في حد ذاته لاختيار هذا الكتاب حيث أنه يعالج الرد على المعارضة ومن ليس لديهم القدرة على التصور العلمي للسلوك الإنساني ، أما موضوع هذا الكتاب فهو بعض المشكلات الكبرى في الدراسات النفسية النظرية والتطبيقية مثل مشكلة قياس الذكاء وما يعترضها من مفاهيم غامضة ومشكلات علم النفس المهني ومشكلات السلوك غير السوي أو المنحرف وما تتمضئها من نظريات بعضها وفق الهوى والبعض الآخر منها يبنى على أسس علمية أصيلة ومشكلات علم النفس الاجتماعي ما يحيطها من

عموض وعدم ادراك لطبيعة السلوك الانساني كما يحدث في جماعات .
وقد اتبع المؤلف في معالجة هذه المشكلات جميعاً أسلوباً علمياً خالياً من
الجفاف العلمي الذي نقابله في كتب علم النفس المعاصرة فلم يخرج عن نتائج
البحوث التجريبية التي أجريت في كل ميدان وحاول أن يربط بينها كما أنه
لم يتوان في نقد بعض الاتجاهات التي تدعى لنفسها ما لم يثبت بالتجريب
والملاحظة وهكذا أضاف للكتاب ميزة بجانب انتقاء موضوعات
ومشكلات وهي صفة موضوعية المنهج الذي اتبع في مناقشة مشكلات
هذا الكتاب .

وفي رأي أن الكتاب قد حقق ما وضعه له مؤلفه من أهداف في تبيان
الحق والباطل في كثير من المناحي النفسية المعاصرة كما أنه يفتح آفاق متعددة
أمام طلاب الأبحاث العليا في الدراسات النفسية وهكذا يجمع هذا الكتاب
بين بساطة المرشد في مفاهيم علم النفس العلمية والتطبيقية وبين عمق الأستاذ
الجامعي الذي يدرس المشكلة فيضع يديه على أسباب الخلاف والقصور .

وإني أود قبل أن أختم هذه المقدمة أن أشيد بالمجهود الفذ الذي بذله
المترجمان الزميل الدكتور يوسف محمود الشيخ والزميل الدكتور جابر
عبد الحميد لما تميزا به من الأمانة في الترجمة والدقة في التعبير والبصر في
الأسلوب مما جعل مهمة المراجع سهلة ميسورة فإليهما أقدم شكرى على الأمانة
والدقة التي اتبعها في نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية .

الفهرس

صفحة

١	مقدمة الطبعة العربية
١	الباب الأول : قياس الذكاء
١٧	الفصل الأول : ما الذى تقيسه إختبارات الذكاء ؟
٣٩	الفصل الثانى : القدرات العقلية الأولية
٦٥	الفصل الثالث : نمو الطفل الذكى
٨٥	الفصل الرابع : هل ينحط ذكؤنا
	الباب الثانى : علم النفس المهنى
١٠٧	الفصل الخامس : من كل حسب قدرته
١٢٩	الفصل السادس : استخدام الاختبارات فى انتقاء الطلاب
١٤٨	الفصل السابع : إختبار الأفراد وتقويمهم
١٧٢	الفصل الثامن : العمل والإنتاجية والدافعية
	الباب الثالث : السلوك غير السوى
١٩٣	الفصل التاسع : السواء والجنس والطبقة الاجتماعية
٢١١	الفصل العاشر : آثار العلاج النفسى
٢٢٨	الفصل الحادى عشر : التحليل النفسى والعادة والاشراط
٢٤٠	الفصل الثانى عشر : ماهى أخطاء التحليل النفسى
	الباب الرابع : سيكولوجية الاتجاهات
٢٦٧	الفصل الثالث عشر : سيكولوجية القوالب السلوكية فى الخلق القومى
٢٨٨	الفصل الرابع عشر : اقتراح جالوب والرأى العام
٣٠٨	الفصل الخامس عشر : علم النفس والسياسة

مقدمة

قال «كليمينسو» ، في إحدى لحظات تأملاته العميقة إن الحرب عمل جد خطير لا يمكن أن يترك أمره لقادة الجيوش . وفي السنوات الحديثة تزايد الشعور بأن العلم عمل بالغ الخطورة لا يمكن أن يترك أمره للعلماء كلية ، ذلك لأن حياة الإنسان المعاصر منذ ميلاده حتى مماته تتحدد وتتأثر إلى حد كبير بالكشوفات العلمية الكبيرة التي عادة ما يتعذر عليه فهمها فيطلق عليها « هذه معجزات » ، وتعتبر مثل هذه العبارة من نافلة القول إذا كنا بصدد الحديث عن الكشف في مجال علم الطبيعة ، بيد أن قلة من الناس هي التي تدرك مدى تشكل حياتهم بتطبيق كشوف العلوم الاجتماعية وخاصة ما حدث من تقدم حديث في علم النفس .

ومع هذا اصطدم كل واحد منا بطريقة أو بأخرى وواجه مزايا وعيوب تطبيق علم النفس على حياة الإنسان . فنحن نتخذ قرارات فيما يتصل بمستقبل تربية الطفل على أساس اختيارات ذكاء نطبقها في سن مبكرة في الحادية أو الثانية عشر ، والحق أن نظام التربية الحديث كله يقوم على كشف ونظريات سيكولوجية حديثة نسبياً ، ويتحدد توزيع الجندي على سلاح من أسلحة الجيش أو على عمل خاص أثناء الخدمة ، بل وتتحدد ترقيته إلى مرتبة الضابط جزئياً عن طريق الاختبارات النفسية . ويخضع اختيار المواطنين الكبار من رجال الإدارة والحكم إلى طرق حديثة في الانتقاء والتوجيه . ويؤثر التوجيه أو الانتقاء المهني على آلاف كثيرة ممن يعملون . وتقاس الاتجاهات عن طريق اقتراع جالوب وغيره ، وتستخدم نتائج مثل هذه الأنواع من الاستفتاءات والمسح المؤسسات الحكومية التي تحاول الكشف عن الحقائق وتراعى كثير من البرامج الإذاعية والمنتجات التجارية الأرقام التي تتمخض عنها هذه الأبحاث والتي تتصل باستجابات المستمعين .

ويبحث علماء النفس أفضل ظروف للعمل وأفضل توزيع لفترات الراحة وحوافز العمل وانتشار الإشاعات وأسباب الاضطراب والقلق في الصناعة وعددا كبيرا من مواضع الصدام في الكيان السياسي والاجتماعي ، ولا يسلم الكبار في السن من فحصهم فيدرس علماء النفس نموهم العقلي والانفعالي بدراسة مستفيضة ويترتب على نتائج هذه الدراسة اتخاذ إجراء مناسب .

إن هذه النظرة السريعة لحياتنا المعاصرة تبين الدرجة التي استطاع بها علم النفس حتى الآن أن يؤثر في حياتنا ويغير منها . وقد يكون هذا التأثير غير ملاحظ . ولكن بما لا شك فيه أن تأثيره في عقول أفراد الحلقتين الرابعة والخامسة واضح كل الوضوح إلى حد أنه أدى إلى ثورة أثرت في نمط حياتهم تأثيراً أشد وأكبر مما أحدثته الثورة الصناعية في عقول الناس في مستهل هذا القرن .

إن بداية الثورة الجديدة يمكن أن تحدد معالمها بدقة ملحوظة في الكشف العلمية الجديدة التي توصل إليها بينيه وسبيرمان وشيرن في ميدان اختبار الذكاء والتي وضعت موضع الاختبار بتطبيقها عملياً في الجيش الأمريكي خلال الحرب العالمية الأولى . ولقد تمخض نجاحها الفائق عن علم نفس ثابت وأصبحت جزءاً لا يمكن الاستغناء عنه في جميع عمليات الانتقاء . وقد يكون من المشوق أن نقبس الأعمال التي يحتوي عليها دليل الجيش الأمريكي ، تلك التي يتوقعها ذوو السلطة فيه من استخدام اختبارات الذكاء ، والهدف من الاختبار في الجيش الأمريكي هو تحديد وانتقاء الأفراد الذين يدل ذكاؤهم المرتفع على قدرتهم على التقدم أو أداء مهام معينة . وتعيين الأفراد ذوي الذكاء المنخفض الذين لا يصلحون للتدريب الحربي العادي والتوصية بوضعهم تحت الطلب أو الاحتياط ، كما أن هذه الاختبارات تيسر للمستولين تكوين تشكيلات متجانسة . إما في قدراتها العقلية العامة أو في صفات عقلية خاصة تؤهلهم لعمل معين . وانتقاء الأفراد للأنواع المختلفة من الواجبات العسكرية أو المهمات الخاصة ، واستبعاد الأفراد

الذين يبلغ ذكؤهم من الانخفاض حداً يجعل من المستحيل ضمهم للجيش على الإطلاق .

إن النجاح الذى حققته اختبارات الذكاء فى هذا العمل الصعب أصبح السبب فيما ترتب على ذلك من خيبة الأمل ، فقد قام آلاف من المتحمسين وهم يحملون المبادئ العلمية لاختبارات الذكاء ، ولكن بسبب شغفهم فى استخدام هذه المستحدثات وحاولوا تطبيق عمليات الاختبار التى تشيع فى الجيش فى المؤسسات الصناعية والتجارية . وأدت المزايم المبالغ فيها التى ادعاها هؤلاء الدخلاء إلى نتائج لا يمكن تجنبها اتسمت بالحدة وبقاء الأثر ، وأصبح كثير من الأذكياء لعجزهم عن تمييز الغث من الثمين ومدعى العلم من العالم الحقيقى مرتابين فى علم النفس كارهين له ، ونقلوا هذا الاتجاه إلى تطورات جديدة أخرى ودعاوى مماثلة .

واستلزم الأمر قيام حرب جديدة وما ارتبط بها من مراجعة جميع مشكلات الانتقاء لتكى يتم التغلب على هذا العداء . وقد تمكن علماء النفس أن يبرهنوا برهنة قاطعة على تفوق أساليبهم على أساليب الآخرين ، وبلغ البرهان من الوضوح والإقناع حداً جعل كل المعارضين فى النهاية يقبلون على استخدام الأساليب النفسية فى الانتقاء . ويعتبر تقبل القائمين على عمليات الانتقاء بالجيش لهذه الأساليب فى كل قطر على الرغم مما هو معروف عنهم من تحفظ أقوى دليل وأوضح شهادة تدعمها ، ولو أن هذا التقبل اتسم بالتردد أحياناً . وقد استخدمت أساليب الانتقاء هذه فى أيام السلم وامتدت إلى مجالات أخرى غير الجيش لا تقل عنه تحفظاً وحذراً كما بقى استخدامها فى الخدمات المدنية .

ولسوء الحظ ليس هناك ما يضمن أن ما حدث من قبل لن يتكرر . حدوثه ، فالمتحمسون غير المتروين يحاولون مرة أخرى أن يوسعوا استخدام هذه الطرق إلى مجالات قد لا تناسبها ، ويقدمون دعاوى يستحيل فى الوقت الحاضر تحقيقها ، ويستندون فى عملهم هذا إلى اعتقادهم بالصواب وبحقهم

الذى يستند إلى نظام أو آخر . ومن الممكن جداً أن يرفض رجل الشارع الذكى نتيجة لخطئه الجيد مع الردى . وينسب خطأيا الادعاء إلى أولئك الذين جدوا فى إرساء بدايات علم حقيقى .

إن هذا الخطر حاد على وجه خاص لأنه فى هذا المجال يحظى الشيطان بأفضل التراتيل ، ويحتاج المواطنون فى المجتمع الديمقراطى إلى أن يخبروا بلغة واضحة لا غموض فيها بحقيقة الوضع الراهن فى الميدان العلمى وأن يقال لهم ما يمكن وما لا يمكن عمله فى الوقت الحاضر . وما هى التطورات والتغيرات التى تجرى وماذا يحتمل أن يحدث لها فى المستقبل القريب . وبغير هذه المعرفة سوف تنشأ ثغرة خطيرة بين العالم والمواطن تمنع الواحد من استخدام أسهام الآخر ، وما يقدمه على أفضل نحو ، وتشجع سوء الفهم الذى أساء إلى ما بينهما من علاقات لفترة طويلة وما زال يسمى إليها ، ومع هذا فلسوء الحظ ولأسباب مختلفة قد تقاعس علماء النفس عادة عن الكتابة إلا لعلماء النفس الآخرين وفضلوا أن يتركوا العرض المبسط لما حققوه إلى أناس ليس لديهم الأساس العلمى الضرورى الذى يمكنهم من عرض الحقائق العلمية على أساس راسخ ودون أن تتوفر لديهم القدرة على القول « نحن لا نعرف » بدلا من « التأكيد » وهكذا أدى شيوع علم النفس إلى تشجيع الاتجاهات المبالغ فى التفاؤل عند البعض والمبالغة فى التشكك عند الآخرين .

ولقد كتبت هذا الكتاب على أمل أن أعيد هذا التوازن إلى حد ما ويدل عنوانه على الاتجاه الاساسى الذى يشمل الفصول المختلفة . فكلامنا تعالج تطبيق الكشوف النفسية على مشكلات اجتماعية . وفى بعض الحالات يبلغ الدليل من القوة حدا يجعل من الممكن أن نقول إن هناك مجالا لفائدة المجتمع وأن من عدم الحكمة أن نغفله . وفى بعض الحالات الأخرى تتجمع لدينا دلائل قوية تسمح لنا بأن نقول إن لدينا طريقة أو أسلوبا يعتبر فى الوقت الحاضر عديم النفع وأنه ينبغى إما أن نطرحه جانبا أو نحسنه . تحسينه

هائلا . وفي بعض الحالات نجد أن الإجابة الوحيدة الممكنة هي أننا لا نعرف
ما يكفي لنقول ما إذا كان إجراء معين مفيداً أو غير مفيد . وأننا في حاجة
ماسة إلى بحث الموضوع ، وقد اخترت مجالات حيث يقل الشك في التوصل
إلى إجابة عنها ، ويحتمل أن عدداً قليلاً من علماء النفس الذين درسوا هذه
الأدلة بعناية يختلفون معي حول نقاط ثانوية ، ويحتمل أنهم حين يختلفون
سوف يسكرون ذلك حول مبالغتي في النقد أو المحافظة العلمية .

ولا شك أن هذه النقطة تحتاج إلى بعض التوضيح ، فمن المعروف أن
معظم علماء النفس يعملون في الميدان التطبيقى والتربوى والإكلينيكي
والصناعى والحربى أو الإرشادى . وعليهم أن يتخذوا قرارات على أساس
ما يتوافر لديهم من شواهد ، فإذا كانت الاحتمالات ترجح حلاً على آخر حتى
ولو كان الترجيح ضئيلاً فإنهم سوف يختارون بما يتفق مع لديهم من أدلة ،
وهذا بكل تأكيد عمل صائب لأن الواقع يقضى بضرورة اتخاذ قرار بأننا
لا نستطيع عادة أن ننتظر حتى نكتشف حقائق جديدة ولكن هذا ليس
طريق العلم ، فالعالم الحق يهتم بالتوصل إلى الإجابة الصائبة ، وليس من
حقه الخسب أن يقول إنه على أساس الأدلة الحاضرة ليس من الممكن أن
نصل إلى أى نتيجة محددة بل يعتبر ذلك من واجبه أيضاً ، وقد يغضب هذا
بعض إخصائى علم النفس المشتغلين بالمسائل التطبيقية ، والذين يعتقدون أن
طريقة ما تودى الغرض على أفضل نحو ولكن من الضرورى اتباع ما أسلفنا
لكى نحتاط ضد التعصبات المفجرة لبعض القضايا العلمية .

وما يلقى ضوءاً على هذا التقسيم الثنائى التجربة التالية ، طبق باحث
تأمريكى اختباراً على مجموعتين من علماء النفس ، إحداهما من العلماء النظريين
والأخرى من العلماء التطبيقيين ، وكان الاختبار أساساً هو لعبة الحبة
«والكستيان» ، وهى لعبة مؤداها إخفاء الحبة تحت إحدى الكستيانات الثلاث
وعلى الفرد أن يخمن تحت أى كستيان توجد الحبة ، وبعد أن شرح الاختبار
انتزع الفاحص الحبة تماماً بحيث يستحيل على أى واحد تحديد مكانها لأنها

غير موجودة ، ثم انتظر حتى يحدد عدد المرات التي يتوصل بعدها أفراد كل مجموعة إلى أنه لا توجد حجة على الإطلاق . وقد أثبتت النتائج التجريبية الفروض المتوقعة . فقد أعلنت المجموعة التطبيقية بعد حوالي ٦ مرات أن من المحتمل عدم وجود حجة إطلاقاً ، أما المجموعة النظرية فقد حاولت ما يزيد على ضعف هذه المحاولات قبل أن تنتهي إلى نفس النتيجة .

ومن الواضح الآن أن كل من المجموعتين لا يمكن أن تكون متأكدة ، ففي كلتا الحالتين كان السؤال متعلقاً بما هو محتمل ، فالمجموعة التطبيقية اكتفت بإقامة قرارها على احتمالات تبدو سليمة بالنسبة لمعظم الناس (حوالي فرصة واحدة من بين كل عشرة محاولات خاطئة) وتطلبت المجموعة النظرية عدداً من التكرارات إلى الحد الذي لم يصبح معه مجال معقول للشك مهما كانت النتيجة التي ينتهون إليها (حوالي فرصة واحدة من بين مائتين من المحاولات الخاطئة) وكلا النوعين من الاستجابات مفهوم ومعقول ومناسب فيما يتصل بالمشكلات والأعمال التي تواجه العلماء النظريين والتطبيين على التوالي ، وقد يشعر العالم التطبيقي بضيق شديد حين يرفض زملاؤه العلماء النظريون قبول معتقداته وطرقه التي يعتز بها دون أن يتطلبوا وثائق وبراهين تفصيلية ، وقد يتعجب العالم النظري حينما يتقبل زملاؤه التطبيقيون تقبلاً سهلاً الفروض والطرق التي يعوزها البرهان العلمي والتي أحياناً أخرى تبدو متناقضة ، ويحتمل أن عوامل الشخصية تلعب بعض الدور في خلق هذه القسمة الثنائية وكذلك مطالب الجامعات التي تعمل من أجلها وفي خدمتها هاتان المجموعتان من العلماء . أي أصحاب العمل والعلماء من ناحية والعلماء أصحاب الاتجاه العلمي الأصيل من ناحية أخرى .

ويمكن أن نمضي بهذا التمييز النظري والتطبيقي بطبيعة الحال إلى مدى بعيد ، وهو لا يتفق على أي نحو مع المنفعة ، فالعالم في برجه العاجي قد يتوصل إلى كشف تفوق كثير في نفسها إسهام زميله الذي يتفق كل

وقته في معالجة مشاكل الصناعة ، ويمكن أن نقبس مثالا من الاتجاهات التي أجراها سيشور Seashore خلال العقد الأول من هذا القرن على الخداع السمعي وهو فيما اعتقد موضوع نظري ليس له جوانب عملية مفيدة مهما أمضى في الخيال . ويمثل هذا الخداع في بعض النواحي الخداع البصري الذي نعرفه معرفة أفضل ، والذي فيه يؤدي اتجاه رؤوس الأسهم المرسومة في نهاية الخط إلى تغيير في إدراكه طولاً وقصراً ، أو التي فيها يظهر الاستخدام غير العادي لقواعده إدراك المنظور الأشياء على غير ما هي عليه .

وجاءت الحرب وجاء معها نوع خاص من السفن الحربية الصغيرة بما لها من شر وبسبب عدم توافر أدوات آلية يمكن معها تحديد مكان هذا النوع من السفن ، اعتمدت السفن الحربية على تقارير أفراد يجلسون في مكان بالسفينة يمكنهم من الاستماع إلى صوت هذه السفن الخطرة ويدينوا الاتجاه الذي يأتي منه الصوت ، وسرعان ما وجد أن هناك أخطاء رتيبة في هذه التقارير وأنها ترجع إلى الخداع السمعي واستشير سيشور ، فيما يتصل بطرق تصحيح هذه الأخطاء . ولقد نجحت أبحاثه النظرية في منع خطر هذا النوع من السفن حتى أمكن إتقان وسائل آلية خلصتنا من الأخطاء الناتجة عن تقدير الإنسان .

ولا ينبغي أن نتصور إطلاقاً أن الإنجاز النظري في علم النفس يعارض الاتجاه التطبيقي ، بل العكس هو الصحيح إذ أنهما يسيران جنباً إلى جنب متضامين نحو أهداف مشتركة قوامها زيادة في الفهم العلمي وتحقيق الفائدة الاجتماعية المرجوة منها ، ولسوء الحظ ظهر اتجاه اختلافهما حديثاً والسبب في هذا بسيط وهو أن المشكلات التي يحاولان حلها في المجال الاجتماعي مثل مشكلات التكيف والتوجيه النفسي والانتقام والنزعة والحرب والسلام مشكلات ملحة لا تستطيع انتظاراً ، الأمر الذي ترتب عليه أن فاق التطبيق حدود المعرفة . ويشعر كثير من علماء النفس بالرغبة في المساعدة في حلها بحيث أنهم ينسون أن المعرفة العلمية

وحددها هي التي تمكنهم من ذلك على نحو فعال ، وتكمن المشكلة في أن بعض العلماء التطبيقيين لا يحاولون إخضاع آرائهم ونتائجهم إلى نوع من التقويم العلمي الموضوعي ، وهم بذلك إنما يتركون مجال العلم الحقيقي ورغما عن ذلك فإنهم ما زالوا يدعون لأنفسهم ما يرتبط بالعلم من الشهرة والمكانة.

وقبل أن نتقل إلى الجزء الأساس من هذا الكتاب هناك نقطة أو نقطتان قد تتطلبان المناقشة . يجد كثير من الناس صعوبات هائلة في التمييز بين الاختصاصي النفسي والطبيب العقلي والمحلل النفسي ، وقد يكون من الجدير بالذكر أن نبين باختصار الفروق الأساسية بين هذه المجموعات فالاختصاصي النفسي يهتم بالدراسة العلمية لسلوك الإنسان وهو حاصل على درجة جامعية من كلية الآداب أو العلوم تشهد بأنه قد درس أصول هذا الموضوع ، وهذه الدرجة الجامعية الأولى لا تؤهله لممارسة عمل تطبيقي لأن ذلك يتطلب دراسات عليا بعد الشهادة الجامعية الأولى ، كما أن هذه الدرجة الجامعية الأولى لا تؤهله للقيام بأبحاث إلا بعد مضي عامين بعد التخرج في دراسات أكاديمية جامعية . وبعد ذلك قد تيسر السير قدما للحصول على الدكتوراه . أما الطبيب العقلي فهو شخص مؤهل طبيا قام بدراسة مقررات معينة بعد تخرجه في كليته تجعله متخصصا في الإضطرابات العقلية التي تنشأ عن أسباب متفاوتة . ولا شك أن المقررات في علوم النفس تكون جزءا هاما من هذا التدريب . والوظيفة الأساسية للطبيب العقلي هي معالجة الأمراض العقلية والعصبية ، أما المحلل النفسي فهو عادة طبيب عقلي تخصص في نوع خاص من العلاج وهو العلاج النفسي والذي يتقبل في الأساس تعاليم فرويد ، وقليل من المحللين النفسيين تنقصهم المؤهلات الطبية ولكن هذا يعتبر أمرا شاذا في هذا البلد ، والعلاقة بين علم النفس والطب العقلي يمكن أن تصور على أنها شيء شبيه بتلك التي توجد بين عالم الفسيولوجيا

والطبيب . ويمثل المحلل النفس الطبيب الذى تخصص فى نوع من المرض وعلاجه .

وفى بعض الأحيان نجد صراعا بين هذه المجموعات المختلفة ، وفى الولايات المتحدة كثير ما يقوم علماء النفس الإكلينيكيون بالعلاج أحيانا تحت توجيه طبيب عقلى ، وفى بعض الأحيان بغير ذلك .

ولا يرضى كثير من الأطباء العقليين عن هذا ، وذلك لأن الإنسان على حد قولهم ليس « شبحاً فى جسم » ، حيث يمكن علاج الشبح منفصلاً عن الجسم ، بل هو وحدة متكاملة حيث تتفاعل الوظائف العقلية والجسمية على نحو يجعل العلاج على أيدى غير الأطباء خطراً ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى نلاحظ أن كثيراً ما يطلق المحللون النفسيون دعاوى تكهنية عن مصير العالم وعن أصول الحرب والسلام وأسباب الاضطراب الصناعى أو طبيعة العنصرية ، وما إلى ذلك من دعاوى لا تعتمد إلا على أوهام المرضى العصائين مما يشير علماء النفس على هذا الغزو على أيدى قوم لا يدرون شيئاً عن مناهج البحث العلمى فى هذه الموضوعات وما يجب أن يراعى فى هذه المجالات من دقة موضوعية . ونستطيع أن نقول إنه رغمنا عن ذلك ، فإنه لا يوجد نوع من التعاون المنسجم بين أفراد هذه الجماعات على أساس مسئولياتهم الموزعة على كل مجموعة .

وسوف يتفق بالتأكيد علماء النفس والأطباء العقليون والمحللون النفسيون حول نقطة سينازعم فيها رجل الشارع وهى القدرة على التنبؤ بالسلوك الإنسانى فى النسبة لمعظم الناس أصبح التنبؤ فى العلوم الفزيائية شائعاً . ونحن نقبل دقتها الفائقة ونسلم بها تقريباً ولكننا نميل إلى أن نتشكك فى تطبيق الطرق العلمية للتنبؤ بالسلوك الإنسانى ، ونحب أن نشعر أننا نملك زمام أنفسنا على نحو ما ، ولسنا خاضعين لقواعد وقوانين عامة تجعل وحدها التنبؤ ممكناً . ومع ذلك فقد اتضح بحق أن كثيراً من قراراتنا فى حياتنا اليومية تقوم على افتراض إمكان التنبؤ بالسلوك

الانسانى ، وأنه كثيرا ما تكون تنبؤاتنا عن أفعال الانسان أكثر دقة من تنبؤاتنا فى المجال المادى . فكثير من الناس قد تأخروا بسبب عيوب ميكانيكية أو آلية فى قطار أو سيارة ، ولكن القليل من يتأخر لأن السائق قرر فجأة أن يتوقف ليقطف بعض أزهار الأقحوان . وثمة انتظام كاف فى السلوك الانسانى يجعله قابلا للدراسة العلمية ، والسؤال الخاص عما إذا كان السلوك العلمى محددًا تحديدًا كاملاً يخرج بنا عن مجال التفسير القائم على الحقائق .

وهناك صعوبة كبيرة فى عرض خلاصة للتجارب النفسية ونتائجها فى لغة تستطيع الجماهير قراءتها وهى صعوبة مساوية فى حدتها لما يلقى عالم الطبيعة من صعوبة حين يحاول أن يعطى صورة واضحة عما يعمل . وعادة ما تصاغ نتائج عالم الفيزياء فى أسلوب رياضى ، وكثيرا ما يستحيل على أشد العلماء نبوغا ترجمتها إلى اللغة العادية بدقة . وبالمثل ترتبط نتائج عالم النفس بالرياضيات والإحصاء بحيث أن فهمها فهما سليما يكون مستحيلا دون إلمام ببعض المعارف فى هذه المجالات . وقد يكون عالم الإحصاء بالنسبة لكثير من رجال الشارع إنسانا يتوصل إلى استنباط خط رياضى مستقيم من افتراض غير مسوغ لكي يصل إلى نتيجة بعيدة . ويبدو عالم الإحصاء بالنسبة لعالم النفس على أنه يزوده بوسائل لا يمكن الاستغناء عنها تمكنه من أن يفرز التفاعل المعقد بين الحقائق التى تواجهه فى كل منعطف ، فإذا كانت هناك إكاذيب كبيرة وإحصائيات فإن الإجابة المتقنة للإحصاء ستحول بين عالم النفس وبين استنباط نتائج خاطئة من بياناته ، ومن الخطأ أن نتصور أنه بتسوية سمعة الإحصاء يمكننا أن نتجنبه ، فمعارضة الإحصاء كثيرا ما تعنى استخدام أساليب إحصائية ليست على درجة كبيرة من الكفاءة .

ولو سلمنا بأن علم الفيزياء وعلم النفس ينقصهما الاتصال السهل فكيف السبيل إلى التغلب على هذا النقص ؟ إن عالم الفيزياء فى موقف يحسد عليه فقليل من

الناس يتصورون أنفسهم خبراء في ميدانه أو أنهم يعرفون أكثر مما يعرف ، وبالإضافة إلى ذلك تؤدي الشهرة العظيمة لهذا العلم بالناس إلى تقبل عباراته دون برهان واضح ، ولكن ما أعظم إختلاف موقف عالم النفس ؟ فقليل من الناس يقرون من أعماقهم دعواه بأن لديه معرفة أفضل منهم عن السلوك الإنساني . ولا يشعرون أنهم يعرفون عن الإنسان أكثر مما يمكن أن يأتي به كتاب علمي في علم النفس ، ولديهم استعداد لتقبل قضاياه دون دليل واضح ، والويل لعالم النفس إذا كانت براهينه — ولا مفر من أن تكون — متضمنة لتجريب معقد وصيغ رياضية ! إذ سيرفضها الناس بعد فحصها فحصاً عادياً على أنها غير مفهومة ، وعليه أن يمدحهم ببرهان دون أن يذكر الطرق التي يقوم عليها .

ولقد حاولت أن أترك المواد الصعبة المعقدة من هذا الكتاب بقدر الإمكان ولقد تجنببت تقريباً تجنباً كاملاً ذكر الرياضيات والإحصاء ويعني هذا لا محالة أن كثيراً من العبارات أقل دقة بكثير مما يمكن أن تكون عليه لو اختلف الأمر . على أن القارئ الذي يشعر بنقد أي عبارة معينة ينبغي أن يذكر قبل أن يلفظ نقده الظروف التي في ظلها كان يعمل الكاتب . وإذا ظل القارئ شاعراً بعدم الرضى فما عليه إلا أن يرجع إلى الدراسات النفسية المتخصصة ويلم بما تحتوي عليه من حقائق ، ولو فعل هذا فقد يجد أن من الضروري أن ينفق عدة سنوات في دراسة الرياضة والإحصاء يتبعها دراسة للفزياء والكيمياء وعلم الوراثة وعلم الاجتماع والاقتصاد وعلم وظائف الأعضاء وعلم الأعصاب والتشريح وعلم الأحياء وعدداً كبيراً من العلوم الأخرى التي لها علاقة وثيقة ومباشرة بعلم النفس الحديث .

وينبغي أن يقوم حق نقد النتائج والنظريات العلمية على أساس المعرفة لا أن يتعرض له الناس في سهولة ويسر .

وكتوضيح لتويع النقد الذى كثيراً ما يوجه لعلم النفس يمكن أن أقتبس فرصة أثرت في تأثيراً ملحوظاً . لقد سئل أحد الوزراء في الحكومة الإنجليزية سؤالاً في البرلمان عن استخدام اختبارات معينة في عمليات الانتقاء ودأت إجابته على تفكير ضحل وجعل مطبق وطريقة متحيزة في الجدل وهي تميز ، رجال السياسة في معالجتهم للموضوعات العلمية . ولقد لوح بالاختبار المذكور وهو في يده مهددا ثم مضى يقرأ أحد الأسئلة فيه وهو سؤال يبدو أن له علاقة ضئيلة بالموضوع الذى وضع الاختبار من أجله ، ومضى الوزير يقول إن مثل هذه الاختبارات واضح أنها عديدة الفائدة وأنه يرفض استخدامها وقد أقام جدله على عدم الصلاحية الظاهرة .

وهنا يجب أن نشير إلى بعض الأمور الهامة ، فالاختبار المشار إليه يتضمن مجموعة من الأسئلة الثابتة الصادقة تترتب على الإجابة عنها تصرفات معينة ، كما أن الاختبار يحتوى أيضاً على مجموعة أخرى من الأسئلة المموهة التي تفيد في جعل هدف الاختبار غير واضح . ولقد استشهد الوزير بسؤال من النوع الأخير ولا يمكن أن تتخذ علاقة السؤال بهدف الاختبار عذراً عن الاستغناء عن الاختبار كله ، وحتى لو كان السؤال الذى استشهد به من بين الأسئلة التي تتصل بالموضوع فمن الصعب أن ندرك كيف يستطيع المرء أن يحكم على قيمته بالفحص البسيط ، فالسؤال الذى يميز بين الفرد الممتاز والفرد الضعيف على مستوى عال من الدلالة ، هو سؤال جيد بغير شك ، أما السؤال الذى يخفق في التمييز فهو ردىء . ولو أن التمييز بين الأسئلة الجيدة والردئية يمكن أن يتم بالفحص البسيط لكان ذلك حسناً . ولكن أسوء الحظ وجد استحالة ذلك تماماً . فالاختبار يحتاج إلى سنوات طويلة من البحث التفصيلي قبل أن نعرف صدقه وكثيراً ما نجد أن أسئلة الاختبار الجذابة في مظهرها لاقيمة لها على الإطلاق ، بينما أسئلة أقل جاذبية تكون ناجحة .

وحتى لو أن السؤال الذى نحن بصدده يتعلق بالموضوع وأظهر تمييزاً هزيلاً إلا أنه قد يستحق البقاء في الاستفتاء كقياس لصفة هامة معروف

أنها تؤثر في الإستجابات على أسئلة أخرى ، وهكذا نجد أن بعض الناس يحاولون أن يعطوا إنطباعات حسنة عن أنفسهم في إجاباتهم عن الاستفتاءات بدلا من أن يجيبوا عن الأسئلة في صدق ولأقصى حد تسمح به قدراتهم . وكثيراً ما يشمل الاختبار مجموعة خاصة من الأسئلة تقيس هذا الميل وتجعل في الامكان استبعاد أثرها في الاختبار .

وهذه الحادثة قد اقتبسناها لأنها تمثل على أنحاء شتى الأسلوب غير الدقيق الذي كثيراً ما يبتذل الأساليب السيكولوجية مغفلاً الحقائق إغفالا كلياً . وما يكتب في الصحف اليومية عن اختبارات الذكاء قد يزودنا بمثال آخر ، فالحقائق إما أن تشوه بحيث لا يتعرف عليها كلية أو تغفل تماماً . وتعطى أهمية لأراء الصحفيين أكثر وزناً من تلك التي تعطى لذوى الخبرة الطويلة في ميدان قياس الذكاء . ولا يدخل في الحسبان التعقيدات الهائلة للشككة ، وتحلل الشعارات والعبارات الجزئية محل المناقشة التفصيلية وليس من العجيب مع هذا أن نجد أن معظم الناس لا يعرفون أين يقفون فيما يتصل بعلم النفس وأنهم ينظرون إليه على أنه خليط من السحر والشعوذة . وهدف هذا الكتاب أن يبين أن علم النفس ليس هذا أوداك ولكنه مجرد علم في فترة حياته المبكرة التكوينية وأنه لم يتقدم تقدماً يكفي للإجابة عن جميع الأسئلة الحيوية التي كثيراً ما توجه إليه ، ولكنه الآن في موقف يمكنه من تقديم الحلول لبعض مشكلاتنا .

وأحد المقتضيات الهامة لكي يتقدم علم النفس في طريقه هذا هو أن يفهمه الجمهور فهماً أعمق .

أيزنك

البَابُ الأول

قياس الذكاء

الفصل الأول

ما الذى تقيسه اختبارات الذكاء ؟

أدى التوسع الهائل فى استخدام اختبارات الذكاء وخاصة فى المدارس إلى الشعور بحقيقة مشكلته . ماذا تقيس ، فى الواقع اختبارات الذكاء ؟ ويتراوح مدى الإجابة عن هذا السؤال ، بين الطرفين المتضادين ، فمن ناحية يتساءل المؤمنون بهذه الاختبارات لماذا يسأل هذا السؤال ؟ إنها تقيس الذكاء بطبيعة الحال ؟ ومن ناحية أخرى يقف أصحاب الشك المطلق الذين يجيبون عن السؤال السابق بقولهم : إنها تقيس حيلا يهلوانية كتلك التى يلعبها القروء ، وحتى علماء النفس أنفسهم يميلون إلى أن يتغير لون إجاباتهم وفق المجال الذى يسألون فيه سواء أكان هذا المجال مجال جماعة علمية متخصصة أو مناقشة يومية مألوفة ، ولا يدفعهم إلى هذه الاستجابة جهالهم بالإجابة الصحيحة بقدر ما يدفعهم إدراكهم لتعقيد المسألة . فمضى المفهوم العلمى بتقيد تقيداً وثيقاً بعملية القياس كلها وبالتكوين النظرى الذى يلائمه . وعزل سؤال وتوقع إجابة عنه مع عدم وجود معلومات عن جميع المتغيرات الأخرى التى يجب اعتبارها يؤدى بالتأكيد إلى أن الإجابة التى نحصل عليها ستكون غير مرضية وجزائية فى الظاهر . فبدون وضع كتاب بأسره مملوء بالبيانات التجريبية والعلاقات الرياضية المختزلة التى يتعذر فهمها ، والتى تتضمن المصفوفات الرياضية لجرام Gramian matrices والمدلولات الرياضية لكرونيكر Kronecker's deltas فمن المستحيل الإدلاء بإجابة دقيقة . ومع ذلك فقد يكون من الممكن الإدلاء بإجابة كاملة إلى حد ما فى فصل مختصر إذا رغب القارئ فى التسليم بالرياضيات الموجودة كما هى دون مناقشة .

وينبغي علينا أولاً أن نظهر عقولنا من رأى يستند إليه التفكير الجماهيري، فقالوا ما يظن أن المفاهيم العلمية إنما تشير إلى أشياء موجودة فعلاً وأن مهارة العالم تكون في عزل هذه الأشياء الموجودة وقياسها . وهكذا فقد يظن أن للأجسام طولاً وأن العالم يكتشف هذه الحقيقة ثم يمضي قدماً لقياس ذلك الطول . وبالمثل فقد يظن أن لدى الناس ذكاء وأن العالم يكتشف هذه الحقيقة ثم يتقدم نحو قياس هذا الذكاء . وهكذا فقد نعالج قوانين علمية ومفاهيم موجودة في الطبيعة مستقلة عن الإنسان قد يمكن اكتشافها بالبحث المباشر . وهذه النظرة الشائعة إلى العلوم لا تعد صحيحة بالمرّة . ولقد عبر ثurstone عن الوضع الحقيقي حينما قال : إن المسلم البكامن وراء العلوم جميعها هي أن عدداً غير محدود من الظواهر يمكن فهمه على أساس عدد محدود من المفاهيم والتكوينات الفرضية . وبدون هذه العقيدة لا يكون للعلوم أى دافعية، وإنكار هذه العقيدة يكون بتأكيد الخواء الأولى للطبيعة وبالتالي تفاهة المجهود العلمى . والتكوينات التى تفهم الظواهر الطبيعية فى ضوءها هي ابتكار من صنع الإنسان . واكتشاف أحد القوانين العلمية ما هو إلا مجرد اكتشاف أن إحدى أفكار الإنسان تصلح لتوحيد ومن ثم تبسيط وفهم نوع معين من الظواهر الطبيعية . وينبغي ألا يتبادر إلى الذهن أن للقانون العلمى وجوداً مستقلاً بذاته عثر عليه أحد العلماء ممن أسعدهم الحظ بالصدفة . فالقانون العلمى ليس جزءاً من الطبيعة بل هو سبيل إلى فهمها فقط .

وإذا رجعنا إلى مثالنا الخاص بالطول فسوف نرى كم كان هذا التحذير ضرورياً ، فإذا قسنا طول شخص أو طول قضيب معدنى فى الضيف فسنجد أنهما أطول مما يكونا عليه فى الشتاء ، وإذا قسنا مسافة معينة بالنسبة لعدد المرات التى نطبق فيها القضيب المعدنى عليها فقد نجد اختلاف المسافة تبعاً

لدرجة الحرارة السائدة وقت القياس . وتبرر هذه الحقائق كما وفقاً للقانون
العلمي الذي يربط بين ظاهرتي الطول ودرجة الحرارة والذي ينادى بأن
الأجسام تتمدد بالسخونة وتنكمش بالبرودة . ونحن نضع هذا القانون لأنه
يساعدنا على توحيد ملاحظتنا ويجعل وصفنا للطبيعة أبسط ويساعدنا على
الفهم . وطول الشخص حينئذ ليس شيئاً مطلقاً فهو تكوين اشتق من
النظرية العلمية وهو متشابه مع كثير من المفاهيم الأخرى التي تبدو سطحياً
ذات علاقة ضئيلة به .

وبالمثل فالذكاء ليس شيئاً يوجد مباشرة في الطبيعة قد ننجح في عزله
وقياسه ، فهو مفهوم نجده صالحاً لوصف سلوك الإنسان ، . إنه أحد فروع
علم النفس الذي سيتناول أوجه النشاط المتعددة للناس كموضوعه المركزي .
فالجزء الأكبر من نشاط الإنسان هو ما يفرق بين الأفراد ، بالنسبة لأدائهم
الظاهر . وكما يكون من المناسب افتراض وجود قوى فيزيائية في وصف
حركات الأجسام الطبيعية ، فمن الطبيعي أن نسلم كذلك بوجود قدرات
كأسباب أولية لإنجاز عمل معين بنجاح بواسطة بعض الأفراد كما نفترض
غياب هذه القدرات في حالة إخفاق أو فشل البعض الآخر في إنجاز العمل .
وقد تصلح هذه الملاحظات كتحذير نافع لأولئك الذين يجادلون بأن
الذكاء في رأيهم هو القدرة على اكتساب المعلومات أو القدرة على التفكير
المجرد أو هو معادل للحكمة أو السرعة في التفكير أو العمق أو مركب من
بعض ما سبق أو شيئاً آخر مختلفاً تمام الاختلاف عنها . وعادة ما يستمر
الجدل وذلك لأن اختيارات الذكاء لا تقيس بوضوح هذه الصفات الخاصة ،
فهو إذن بالتأكيد لا تقيس الذكاء مهما تقيس من أمور أخرى . وكما لاحظ
« هوبز ، Hobbes » ، « فالكلمة هي كنز العقلاء ولكنها ملهاة الأغبياء » .
ويخشى أنه في عدم وجود تعريف متفق عليه للحكمة أو العمق أو القدرة
على التعلم ، والافتقار إلى مقاييس مقبولة لهذه الصفات أن نوحدها بينها وبين
الذكاء ومن ثم ننتهي إلى نتائج معينة تتعلق بالدرجة التي يمكن قياس هذه

الصفات بواسطة اختبارات الذكاء الحالية . ولا شك فلن يكون هذا مجرد تلاعب بالألفاظ يقصد به التضليل وهذا يعقد المسألة أكثر مما يساعد في حلها ، ويستبدل عدداً من المصطلحات الغامضة عديدة المعنى بدلا من المستويات الواضحة الموضوعية التي ترغب في قياس صلاحية اختباراتنا بالنسبة إليها .

وهناك الدليل الكافي على أن العامة لا يتفقون على تعاريف الذكاء ، وهناك دليل مماثل على أن علماء النفس لا يتفقون كثيراً فيما بينهم إذ سئلوا عن تعريف صريح لفظي للذكاء ، وهذا لا يعني أن جميعهم لا يشيرون إلى نفس الشيء ، فإذا أخذنا مادة معينة (س) وسألنا أحد الساسة وكذلك صاحب « جراح » وربة بيت أن يعرفوها فقد يقولون « إنها كانت سبب المتاعب الحالية مع كثير من دول الشرق الأوسط » ، أو كانت السبب النهائي للقوة المحركة للسيارات ، أو أنها تستخدم في « إزالة البقع » . وهذه التعاريف يخالف بعضها البعض الآخر تماماً ولكنها تشير إلى نفس الشيء وهو ما يسميه غالبيتنا بالبتروول ، ومع ذلك فإن هذا التباين في التعاريف لا يعني أننا نستطيع استخدام أى واحد منها كعيار تقارن اختباراتنا به لأن مثل هذا الاختبار قدسني تماماً ومخالف للمنهج العلمي . وقد نحاول بلباقة لذلك خطة مخالفة تماماً ونلجأ إلى ما يعرف بالتعاريف العملية .

والتعريف العملي في تمايزه عن اللفظي هو تعريف يضع موازين عملية متفق عليها وتعتبر مشتملة على المعرف بالرغم من عدم وجوده في صيغة خالصة . وهكذا قد يوافق كل واحد تقريباً على أن الذكاء مطلوب للنجاح بالمدرسة أو الجامعة أو ليكون الفرد موظفاً كفئاً أو رجل أعمال ناجح أو للقيام بعمل عقلي عموماً من أى نوع بدرجة بارزة عالية من النجاح . وبالمثل فقد يوافق كل واحد على أن عكس الذكاء المرتفع أظهره ضعف العقول والأطفال المتأخرون في تعليمهم والأشخاص الذين على الرغم مما يبذل من جهود مستمرة فإنهم لا يجيدون حتى الأعمال البسيطة نسبياً . ومن

الواضح أن عوامل أخرى تسهم في النجاح في هذه المجالات مثل التعليم الجيد والعلاقات الشخصية المناسبة والحظ والمثابرة والثبات الانفعالي . بيد أنه رغم ذلك فإن الذكاء هو الذى يلعب الدور الأكبر في النجاح في هذه المجالات . وبالتالي فقد نتوقع أن تظهر اختبارات الذكاء درجات مرتفعة للناجحين ودرجات منخفضة للفاشلين في المدرسة والجامعة والأعمال التجارية والوظائف المختلفة الأخرى والمهن السابق ذكرها ، فحيث يكون أداء الحاصلين على درجات مرتفعة ضعيفا في عملهم فإننا نتوقع أن نكون قادرين على أن نحزى هذا الفشل إلى عدم ثباتهم الانفعالي أو بعض العوامل المتدخلة الأخرى . وحيث يجيد الحاصلون على درجات منخفضة عملهم فإننا نتوقع أن نجدهم يجدين في عملهم أو مرتبطين بأشخاص مهمين أو بارزين في نواح أخرى غير الناحية العقلية .

وتؤيد الحقائق المعروفة لدينا هذه التنبؤات وسوف نقدم في الفصول الأخيرة من هذا الكتاب أدلة مفصلة عن العلاقات الوثيقة بين النجاح في المدرسة وفي الجامعة وفي الحياة فيما بعد من جانب والدرجات المرتفعة في اختبارات الذكاء من جانب آخر . وبالمثل فهناك في العادة علاقة وثيقة بين نتائج اختبارات الذكاء وتقديرات الذكاء التي يقوم بها المدرسون والأساتذة والمشرفون والمديرون وغيرهم من أولئك الذين يكونون في مراكز تمكنهم من الحكم على قدرات المفحوص . ولقد أجريت مئات عديدة من الدراسات على هذا النهج . ومن وجهة النظر العملية فهذا الدليل يعد كافيا لتبرير استخدام اختبارات الذكاء في انتقاء الأفراد والتنبؤ بنجاحهم . ولكنها من وجهة النظر العلمية تفتح كثيراً من الآمال التي يسعى لتحقيقها .

والسبب الرئيسي لعدم الرضا يبدو كما لو كان هذا . أفترض أننا أردنا أن نقيس طول شخصين باستخدام الياردة فإننا سنجد أن (س) أطول من (ص) بغض النظر عن الياردة التي استخدمناها . وينبغي أن نجد أنه إذا كان (س) أطول من (ص) وأن (ص) أطول من (ع) فإن (س) سيكون

كذلك أطول من (ع) ، فإذا لم تثبت هذه العلاقات فإننا نشك في دقة مقياسنا ، وعلينا أن نراعى بدقة الظروف التي أجرى فيها القياس فإذا وجدنا أن الأخطاء البسيطة للقياس كالتى لا يمكن تلافي حدوثها في جميع القياسات المادية والعقلية لا تعد مشغولة عن هذا التشتت فسوف نضطر إلى اعتبار أن مقاييسنا ينقصها ما يسميه علماء النفس « أحادية البعد » وهذه صفة هامة وشرط للقياس العلمى جدير بالمناقشة فى شىء من التفصيل .

نفرض أن الجمل الذى يضرب به المثل يحاول أن ينفذ خلال ثقب الإبرة . ففى محاولة التنبؤ بنجاح هذا المشروع الخطر علينا أن نعرف إرتفاع الجمل وعرضه وإرتفاع الإبرة وعرضها ، فبحصولنا على هذه القياسات « الأحادية البعد » نستطيع أن نتنبأ بدقة معقولة . ولكن إذا فرض أننا أعطينا فقط ضخامة الجمل أى عرضه مضروباً فى إرتفاعه ، وكذلك مساحة ثقب الإبرة المحسوبة بنفس الطريقة فهذه الضخامة تعد قياساً « متعدد الأبعاد » وتزودنا ببيانات قليلة ، فثقب الإبرة قد يكون أكبر من الجمل ومن ثم فإن الجمل قد يلتصق به ، وقد يكون إرتفاع الثقب فيه من الطول ما يفيض ولكن عرض جذع الجمل يكون كبيراً . وهكذا فالتنبؤ المبني على الاختبارات والمفاهيم التى تكون غير أحادية البعد يكون أقل فى دقته وقوته عن التنبؤات المبنية على الاختبارات الأحادية البعد .

ولقد افترضنا فى مثالنا أن « الضخامة » كانت مفهوماً مبني على أساس طريقة متفق عليها تقوم على الجمع بين الارتفاع والعرض ، وبمعنى آخر فلقد افترضنا أن الأبعاد الحقيقية المتضمنة وطريقة تركيبها كانت معروفة ولكن نفرض أنه بدلاً من ذلك كان لدينا أفراد يقدرّون ضخامة مجموعة من الجمال . فقد يهتم أحدهم بالارتفاع ويهمل العرض تماماً فى حسابه ، وقد يبنى آخر حكمه كاية على العرض وقد يتخذ شخص ثالث طريقاً وسطاً بين هاتين النهايتين وأن رابعاً قد يتأرجح أحياناً بين شخص وآخر وأحياناً بين شخص وآخر . فإذا أسندنا تنبؤاتنا على هذه الأحكام فمن المحتمل أن تكون صحيحة أكثر

عما تسمح به الصدفة . ولكن من وجهة نظر القياس الدقيق والتنبؤ الناجح من الواضح أننا سوف ندفع الثمن غالبا لاهمالنا تحليل مفهوم « الضخامة » إلى أبعاده الرئيسية .

وحتى هذه النقطة فإن المفهوم الأصلي ، للذكاء ، الذي دافع عنه الرواد الأوائل لهذا المجال والاختبارات التي وضعوها كانت مفاهيم « ضخامة » ومقاييس لها ، فلم يعرفوا المكونات ذات الأبعاد المتعددة التي تكون هذه « الضخامة » ولم يتفقوا عليها . إذ اقتنعوا بحقيقة أن الاختبارات الموضوعة على أساس هذا المبدأ سارت سيرا حسنا وأهملوا جميع النقد لديه ، أنه لم يوجد أساس منطقي تستند إليه عملياتهم في القياس وأن النتائج غالبا ما كانت متناقضة فقد يحصل الشخص (أ) على درجات أحسن من الشخص (ب) في اختبار استانفورد - بينيه . وقد يحصل (ب) على درجات أكبر من (ح) في اختبار متاهة « بورتيس » Porteus وقد يحصل الشخص (ح) على درجات أعلى من (أ) في اختبار ألفا ومن الممكن أن نبين أن نتائج كهذه لا يمكن أن تعزى إلى الأخطاء العشوائية في القياس وأن التفسير الوحيد المعقول هو أن هذه الاختبارات المختلفة هي مركبات من أبعاد أساسية مختلفة للقدرات في نسب مختلفة . وفي أي الحالتين نحتاج إلى تحليل مفصل بالرغم من النجاح الواضح لاختبارات الذكاء التقليدية القديمة . ومثل هذا التحليل يؤدي حتما إلى قياس أثير دقة وإلى التخلص من عدم المطابقة كالتى سبق ذكرها ، والغريب أن مثل هذا التحليل المتقدم قد واجه بعض المعارضة .

ويرجع أحد أسباب هذه المعارضة إلى محافظة كثير من مستهلكي اختبارات الذكاء . فالمعلمون والأطباء العقليون والأخصائيون الاجتماعيون قد تعودوا جميعاً على استعمال مفهوم نسبة الذكاء الذي يهدف إلى قياس الذكاء العام للشخص^(١) .

$$(١) \text{ نسبة الذكاء } = \frac{\text{العمر العقلي}}{\text{العمر الزمني}} \times ١٠٠ =$$

ونسبة الذكاء هي نموذج لقياس « الضخامة » غير أن فائدتها العملية التي لا يرقى إليها الشك أعمت كثيراً من الناس عن عيوبها المؤكدة ، وهناك سبب قوى مماثل وهو انصراف رغبة كثير من الناس (بما فيهم بعض علماء النفس مع الأسف) عن اتقان جبر المصقوفات والطرق الرياضية الأخرى المطلوبة لإجراء تحليل الذكاء إلى جزئياته المكونة له ، ولكن جاءت المعارضة الرئيسية من الذين يشعرون أنهم يتناولون فيما يتصل بنسبة الذكاء مفهوماً يصف قوى الفرد العقلية الكلية بدرجة تفوق من حيث الصحة الطرق التحليلية الأخرى . ومن الطبيعي حقاً أن « الضخامة » تدلنا على أن الجمل أكثر مما يدلنا عليه « الارتفاع » ، حتى بالرغم من أن « الضخامة » اصطلاح غامض لا يقاس بدقة ، بينما « الارتفاع » مفهوم موحى يقاس بدقة . ولكن « الارتفاع » و « العرض » باتحادهما يقدمان لنا أكثر مما تقدمه « الضخامة » ، دون فقدان للصرامة والدقة في الحقيقة مع كسب في كليهما . وبالمثل فإذا اخترنا تعبيرنا عن قوى الشخص العقلية في حدود رقم واحد

== حيث يعرف العمر العقلي بالنسبة لقدرة الطفل على أداء الاختبارات بنجاح التي يستطيع الطفل المتوسط في عمر معين أن يؤديها . وهكذا فالطفل الذي يحل المسائل التي يستطيع ٥٠ ٪ من أطفال عمرهم ٩ سنوات أن يحلوها يكون عمره العقلي ٩ . يحرف النظر عن عمره الزمني . فإذا حدث أن كان عمره الزمني ٩ سنوات في ذلك الوقت فيكون متوسط القدرة وتكون نسبة ذكائه $\frac{9}{100} \times 100 = 9$ لأن نسبة ذكاء الطفل المتوسط هي ١٠٠ من التعريف . وإذا كان عمره الزمني ٦ سنوات يكون من الجلي أنه طفل ذكي جداً ومتقدم فنسبة ذكائه $\frac{6}{100} \times 100 = 6$. وإذا كان عمره ١٢ سنة فإنه يكون متأخر الذكاء وغيباً . وتكون نسبة ذكائه $\frac{12}{100} \times 100 = 12$ ويجد في كل ٢٠٠ طفل طفلاً واحداً نسبة ذكائه أعلى من ١٤٠ أو أقل من ٦٠ إذ أن حوالي ٥٠ ٪ من الأطفال تتراوح نسبة ذكائهم بين ٩٠ و ١١٠ وتكون نسبة ذكاء ضعاف العقول دون مستوى ٧٠ . غير أن التشخيص للضعف العقلي يعني جزئياً على اختبارات الذكاء وأحياناً يكون هذا الرقم مضللاً .

فقط فن المفروض أننا قد نستخدم شيئاً مماثلاً جداً لنسبة الذكاء بينما نحتاج بقوة على أن ما محتاج إليه ليس رقماً واحداً ولكن عدة أرقام طالما توجد أبعاد للناحية العقلية . ولحسن الحظ فلا يوجد أى سبب يجبرنا على استخدام مظهر واحد ، فتصورنا لذكاء الشخص يكون « بروفيلا » ، يبين نقط قوته ونقط ضعفه وليس متوسطاً وحيداً .

ومع ذلك فإن وصفنا لا يعد كاملاً وغالباً ما استغلت هذه الحقيقة للحط من قيمة المحاولات المبذولة لقياس الذكاء ، ولهذا السبب يجب أن نضعها في اعتبارنا ، فكما يشير ثرستون Thurstone إذ سلمنا أن القدرات هي الأسباب الأولية للفروق بين الأفراد في أدائهم الظاهر فإن الفروق الواسعة بين الأفراد في تحصيلهم تكون قابلة للبرهان كوظائف لعدد محدود من القدرات المرجعية ، وهذا التسليم يتضمن أن الأفراد يوصفون على ضوء عدد محدود من القدرات وهذا يناقض المفهوم الخاطيء . وأنه طالما أن كل شخص يختلف عن غيره من الأشخاص في العالم فإنه لا ينبغي إطلاقاً أن يصنف الناس تصنيفات جماعية معينة . وينتج عن كل تصنيف في الوصف العلمي للظواهر الطبيعية . فقدان في مدى المطابقة بين المفهوم العلمي المثالي من ناحية وبين الأحداث الفردية للخبرة من ناحية أخرى . فمن وجهة نظر الخبرة المباشرة يعتبر الوصف العلمي بالضرورة ناقصاً . ودائماً ما يجابه العالم مشكاة توهان في غمرة الخبرات اليومية غير المتطابقة ، ويلوح أنه من المناسب الاعتراف بهذه الخاصية للعلم عل ضوء الحقيقة التي تقول بأن الوصف العلمي لشخص يكون غير صادق مالم يتناول ما يعرف « بالموقف الكلى » ، فدراسة الناس لا تصبح علمية لأنها حاولت أن تكون كاملة ولا ينتفى عنها صفة الصدق لأنها محدودة ، وسيكون الوصف العلمي لشخص ناقصاً من وجهة الذوق العام مثله مثل وصف الأشياء الأخرى في سياقاتها في العلوم المختلفة . والأمثلة التي تعبر عن نموذج الاعتراض الذي يشير إليه ثرستون متعددة ومن ذلك غالباً ما يقال

إن الشخص القلق يكون معوقاً في الذكاء نتيجة لقلقه حتى أن الاختبار لا يعطى صورة صحيحة عن قدراته الحقيقية . وعلى هذا فلا يمكن قياس الذكاء منعزلاً بل ينبغي أن ندخل في حسابنا الشخصية الكلية للمفحوص . وتحليل الذكاء وفصله عن حاجات الشخص وخبراته ودوافعه يعد « ذرياً » ومضللاً . ولكننا نقوم بالتأكيد بنفس الشيء بنجاح تام في العلوم الفيزيائية ؟ فقد نقول في قياس طول قضيب معدني إننا نقصر القضيب عند قياسه خلال موجة من البرد إذ أنه قد يكون أكثر طولاً في حرارة الصيف . وهذا صحيح تماماً لأن « الطول » ودرجة الحرارة ، ليسا متغيرين مستقلين عن بعضهما إذ ينبغي أن نعرف كليهما تماماً كما نعرف القانون الوظيفي الذي يحدد العلاقة بينهما قبل أن يكون وصفنا دقيقاً إلى حد معقول . وبالمثل فمن الممكن أن يتفاعل القلق والذكاء ، وحل المشكلة الموجودة لا يكون بإعطاء تقدير عام « للضخامة » مبني على الجمع بين الاثنين ولكن بقياسهما منفصلين عن بعضهما البعض وذكر القانون الرياضي المضبوط الذي يتفاعلان وفقاً له . ونستطيع قياس « القلق » بدقة كقياسنا « للذكاء » ، تماماً (كما سيأتي ذلك في الفصل العاشر) ونستطيع تجريبياً زيادة قلق الشخص وملاحظة آثاره على درجات اختبار الذكاء وكذلك نستطيع دراسة أشخاص يعانون من القلق ونبين ما إذا كانت درجات ذكائهم تتحسن كلما تناقص قلقهم . وتبدو نتيجة التجارب من هذا النمط أن القلق يعوق الشخص إلى حد ضئيل في إداء اختبار الذكاء . ولكن في الحالات المتطرفة حقيقة يكون الأثر واضحاً إلى حد يتطلب التصحيح .

ومن المحتمل وجود كثير من الفروض الأخرى ذات طبيعة مماثلة عن التفاعل بين الذكاء ومظاهر النواحي الانفعالية وغير العقلية للشخصية . ووجود مثل هذا التفاعل لا يجعل القياس الدقيق للقدرة مستحيلاً إذ ينبغي أن نشجعنا على بحث مثل هذه الفروض بعناية فائقة ومحاولة ذكر قوانين التفاعل بدقة كلما أمكن ذلك . ومجموعة المفاهيم التي نعمل بها ما هي إلا

تقريب مبدأى قد يكون علينا أن نستعد كثيراً منها وتحاول مفاهيم جديدة غيرها - ومع ذلك فمن حيث المبدأ - نستطيع أن نذكر أنه قد يمكننا عن طريق التحليل الصارم المفصل أن نكشف عن المفاهيم إلا كثر إفادة وكذلك عن أسلوب تفاعلهما .

أى نوع من التحليل يكون مطلوباً لتفتيت مفهوم « الضخامة » ، للذ كاء إلى متغيرات كثيرة أحادية البعد ؟ قد نستطيع محاولة ذلك بما يعرف « بتجارب التأمل الذاتى » Schreiftishe experiments أى بالجلوس على المكتب والتفكير فى المسألة بالتأمل الباطنى ثم بعد ذلك وضح نتائج تفكيرنا بإسهاب فى كتاب ضخمة مؤثر . وهذا بالتقريب ما قام به الفلاسفة خلال التاريخ ويبدو أن النتائج الرئيسى لهذه التأملات كان نظرية « الملكات » ، وطبقاً لهذه النظرية فلدى الإنسان عدد كبير من الملكات يمكنه من أداء واجباته المختلفة - ملكة الذاكرة والتخيل والاعتبار وما إلى ذلك . وكثيراً ما اعتبرت هذه الملكات موجودة فى جزء خاص من المخ ، حتى أن أصحاب علم الفراسة Phrenologists ذهبوا أبعد من ذلك فزعموا أنه بتحسس نتوءات رأس الشخص يمكنهم تبين أى الملكات نمت نمواً كبيراً على وجه الخصوص وأياها كانت بالغة الضعف فى نموها . ورسمت خرائط للمخ توضح مناطق محددة للملكات وأثرى كثير من الناس لقيامهم بهذه اللعبة وهى « الكشف عن الخلق » حتى أن العلماء الجادين تورطوا فى هذه التأملات . والحقيقة أن تاريخ هذه الحركة كله يصلح كتحذير بين ضد نزعات مشابهة فى ثوب جديد .

وعلى وجه العموم أعيب علم نفس الملكات وعلم الفراسة إلى حد ما للسخافة الواضحة فى تفسير تذكر شخص ما بإرجاعه إلى ملكة الذاكرة ، والدليل الوحيد على هذا يقوم على أن الشخص قد تذكر هذا الشيء وذلك إلى حد ما لأن الاثارة الكهربائية للمخ أصبحت ممكنة ، وما أدى إلى تحطيم مزاعم علماء الفراسة أن يجدوا أنه عندما تثار « المنطقة العشقية » فإن المريض لم يندفع وراء الممرضات ولم يلاحقن بصيحاته المتحرقة ولكن هن

إصبع قدمه الكبير فقط دون اكتراث . وعلى أى حال فلقد ترك علم نفس الملكات أثاره على حديثنا الدارج وعلى ممارستنا التربوية فعندما نعلم الأطفال اللغة اللاتينية كي نحسن ذوقهم المنطقي أو نجعلهم يتذكرون حوادث التاريخ ليحسنوا ذاكرتهم فإننا نعمل عندئذ وفقاً لأفكار علم نفس فلسفى عفى عليه الزمن وضحت مزاعمه الرئيسية بواسطة العمل التجريبي خلال القرن الماضى.

ويحتمل أن تنجح إذا أنعمنا النظر فى الأنماط المختلفة لاختبارات الذكاء الموجودة الآن وسألنا أنفسنا عن كيفية اختلاف بعضها عن بعض . وسوف نوجه اهتمامنا أولاً إلى المادة التى تتكون منها اختباراتنا فبعض الاختبارات يستخدم الكلمات والبعض الآخر يستخدم الأعداد بينما يستخلص بعضها مواداً بصرية مثل الرسومات ويستعمل بعض آخر أشياء عيانية مثل المكعبات الملونة والألغاز وما شابه ذلك . ومن المحتمل أن يتفوق بعض الناس فى تناول نوع واحد من المادة بينما يتفوق الآخرون فى تناول نوع آخر . وعندئذ يوجد لدينا اتجاه واحد يمكننا أن نبحث فيه عن قدراتنا الفرضية .

وبعد ذلك يمكننا أن نبحث عن العمليات العقلية المطلوبة للقيام بعمل معين . فقد يطلب منا فى اختبار أن نتعلم محتوى إحدى الفقرات وفى اختبار آخر أن نذكر شيئاً ما وفى اختبار ثالث أن نقوم بأحكام استقرائية بينما قد يكون عملنا الرئيسى فى اختبار رابع ذا طبيعة إدراكية . ويكون هذا النمط من التصنيف عسيراً كعمل مبدئى نظراً لضآلة معلوماتنا عن العمليات العقلية التى يتضمنها أى عمل عقلى خاص ولكن كفرض ربما نتركه قائماً .

وثمة طريقة للتمييز بين أنواع الاختبارات على ضوء التفرقة بين السرعة والقوة فربما تتطلب بعض الاختبارات أكثر من غيرها إجابات سريعة من المحتمل أن تكون سطحية ، بينما تقيس اختبارات أخرى عمق فهمنا وليس سرعته . وكاحتمال على الأقل ينبغى أن نهتم بهذا التمييز ، فكثير من نقاد

اختبارات الذكاء قد عبروا عن فكرة كهذه شاكين من أن اختبارات الذكاء تميل إلى التركيز على السرعة أكثر من العمق .

وهكذا فلدينا ثلاث طرق ممكنة يمكن أن يمضى فيها تحليلنا قدماً ، وهي على أساس الفروق في مادة الاختبار والفروق في العمليات العقلية وكذلك ما يمكن أن نسميه الاختلاف في الكيف . فكيف يمكن تحقيق هذه الفروض أو إظهار أن أساسها غير سليم ؟ ولعل أكثر الأساليب صلاحية وفاعلية ما يقوم على الطريقة الإحصائية التجريبية التي تعرف بطريقة التحليل العاملي ، وتبنى هذه الطريقة على قانون بسيط جداً ، فإذا أعطيت مجموعة من اختبارات الذكاء إلى مجموعة كبيرة متنوعة من الأشخاص فعندئذ سيدين لك كل اختبار ترتيباً ، لجودة ، الأداء مبتدئاً بشخص على القمة وآخر عند القاع ، ويتوزع بقية الأشخاص بالترتيب فيما بينهما . فإذا قاس اختباران نفس العملية العقلية في نفس المادة مع الاحتفاظ بالكيف ثابتاً في كليهما ، فإنهما ينبغي أن يعطيا نفس الترتيب للأشخاص فيكون الشخص الموجود في القمة واحداً في كلا الاختبارين ، أما الشخص الموجود في القاع فهو كذلك في كليهما . ومن الممكن أن تؤدي أخطاء الصدفة إلى تغيير هذا الترتيب بطرق لا يمكن التنبؤ بها ، ولكن ما نتوقعه عموماً يعد معقولاً وهو في الحقيقة وليد الممارسة الواقعية . فإذا أعد اختباران ليفيا بهذه الشروط فإنهما يبينان درجة عالية من الاتفاق فيما بينهما ، وفي بعض الحالات يكاد يكون الاتفاق تاماً .

وإذا أخذنا الآن اختبارين يختلفان في نواح معينة يستعمل كل منهما أنماطاً مختلفة من المادة أو عمليات عقلية متباينة أو يختلف في تأكيده للسرعة والقوة ، حينئذ تكون رتب الأفراد في كلا الاختبارين وفق جودة أدائهم أقل تشابهاً . فكلما كانت الاختبارات غير متشابهة قل الاتفاق المتوقع في نظام الرتب حتى نصل إلى نقطة يختلف فيها اختباران عن بعضهما تماماً فتكون معرفة من قام بأحسن أداء في أحدهما لا تدلنا على شيء بالنسبة لأداء هذا الشخص في الاختبار الثاني . وبعبارة

أخرى فكلما ازداد التشابه بين اختبارين بالنسبة للمادة والعملية العقلية والكيف ازداد التماثل في أداء الأشخاص في الاختبارين . ، بالعكس فكلما قل التشابه بين اختبارين بالنسبة لهذه النواحي الثلاث قل التشابه في أداء الأشخاص .

ومن الممكن تحويل مفاهيم التشابه ، وعدم التشابه ، التي قد تبدو مهمة إلى تعبيرات رياضية موجزة باستخدام ما يعرف بـ معامل الارتباط ، وتتراوح قيمة هذا المعامل بين الواحد الصحيح (الذي يعبر عن الاتفاق الكامل التام) إلى صفر (الذي يعبر عن عدم الاتفاق) . وأحياناً نلاحظ بعض المعاملات السالبة كما في حالة وجود ميل عند شخص لأن يجيب الإجابة في اختبار (١) بينما يسيء الإجابة في الاختبار (ب) والعكس . ومثل هذه المعاملات السالبة نادرأ ما تظهر فيما يتعلق باختبارات الذكاء . وقد تفيد بعض الأمثلة في توضيح معنى هذا المعامل فنحن نعرف أن هناك نزعة في أن يكون طوال القامة أصغر وزناً من صغار القامة ؛ ومعامل الارتباط بين الطول والوزن هو حوالي ٠.٦٠ أى يقع على مسافة مساوية تقريباً بين الاتفاق التام وعدم الاتفاق . ومعامل الارتباط بين الذكاء والطول حوالي ٠.٢٠ أى أنه ضئيل إلى حد يتعذر معه القيام بتنبؤ معقول عن ذكاء الشخص عند معرفة طوله بالرغم من وجود علاقة بين الذكاء والطول . ومعامل الارتباط بين طول الذراع الأيمن للشخص وطول ذراعه الأيسر هو ٠.٩٨ . وهو قريب جداً من التمام . غير أن الارتباطات الموجودة بين طول أنف الشخص وحجم قدميه منخفضة .

ونستطيع الآن أن نعيد صوغ فرضتنا — وهو أن الاختبارات المتشابهة من حيث المادة والعملية والكيف تميل إلى أظهار ارتباطات عالية فيما بينها ، بينما تظهر الاختبارات المختلفة في ناحية واحدة أوفى جميع النواحي ارتباطات منخفضة . فكلما كبرت درجة التشابه بينها زاد مقدار معامل الارتباط بينهما . وكلما قلت درجة التشابه بينها قل مقدار معامل

الارتباط . وإذا عكسنا هذه العبارة فقلنا — كلما كان مقدار معامل الارتباط كبيراً كان التشابه عظمياً بين الاختبارات . وكلما كانت قيمة معامل الارتباط ضئيلة كان التشابه بين الاختبارات ضعيفاً . ولعل هذه الصيغة الأخيرة أكثر صلاحية إذا أن ما نلاحظه في الواقع هو الارتباطات الموجودة بين الاختبارات ونستطيع أن نستنتج منها التشابه الكبير . وتعد عملية التحليل التي يتم بها ذلك عملية معقدة ، فلقد بينت النتائج الحديثة اتفاقاً واضحاً بين كثير من الباحثين فيما يتعلق بطبيعة القدرات الرئيسية أو العوامل الكامنة في عملية وضع اختبارات الذكاء . فلقد عالجت هذه النتائج جميع الفروق في القدرة تقريباً سواء ما يتعلق منها بالإختلاف في نوع مادة الإختبار أو الكفاية في مختلف العمليات العقلية ، أما فيما يتعلق بالعلاقة بين القدرة والسرعة فقد كانت الأبحاث فيها نادرة نسبياً حتى وقت قريب جداً .

وعرفت العوامل^(١) الرئيسية المعزولة بالقدرة اللفظية (ل) والعلاقة اللفظية (ط) والقدرة العددية (ع) والقدرة المكانية (ك) والقدرة الإدراكية (در) والذاكرة (ذ) والتفكير الإستقرائي (ف) ومن العسير وصف هذه القدرات عند عدم وجود الاختبارات المبينة عليها والتي عرفت على أساسها . وبناء على ذلك فلقد ذكرت بعض الأمثلة في الفصل الثاني

(١) تبدو مثل هذه العوامل ظاهرياً وكأنها تماثل الملكات التي سبق نقدها بقسوة في الجزء المتقدم من هذا الفصل . ويروج الفرق الرئيسي بين هذين المفهومين إلى اشتقاقهما . فأثبتت الملكات على أساس الملاحظة غير المنظمة وذكر التعميمات جامدة معينة ولتحيزات كانت سائدة في ذلك الوقت . أما العوامل فهي محددة بعناية على أساس العمليات التجريبية الإحصائية التي تتبع التوجيهات المعتادة للطريقة العملية ، ولا ينبغي أن يسمح للتشابه العرضي أن يحجب الفروق الجوهرية بين « الملكات » و « العوامل » ولتجنب التورط اللفظي غالباً ما نميز العوامل بالحروف وليس بالكلمات وتبين هذه الحروف عقب التصنيف اللفظي لكل عامل .

لوحداث الاختبار التي تميز كل عامل ، ومعظم الأمثلة في مستوى سهل وسيكون من الواضح للقارىء كيف يمكن بسهولة جعلها أكثر صعوبة . ويشمل الاختبار الصحيح وحدات في جميع مستويات الصعوبة وتعطى التعليمات الكاملة وتخصص دقائق قليلة لكل عينة من المسائل كي تتأكد أن جميع الأشخاص قد فهموا ما نتوقع منهم أن ينجزوه .

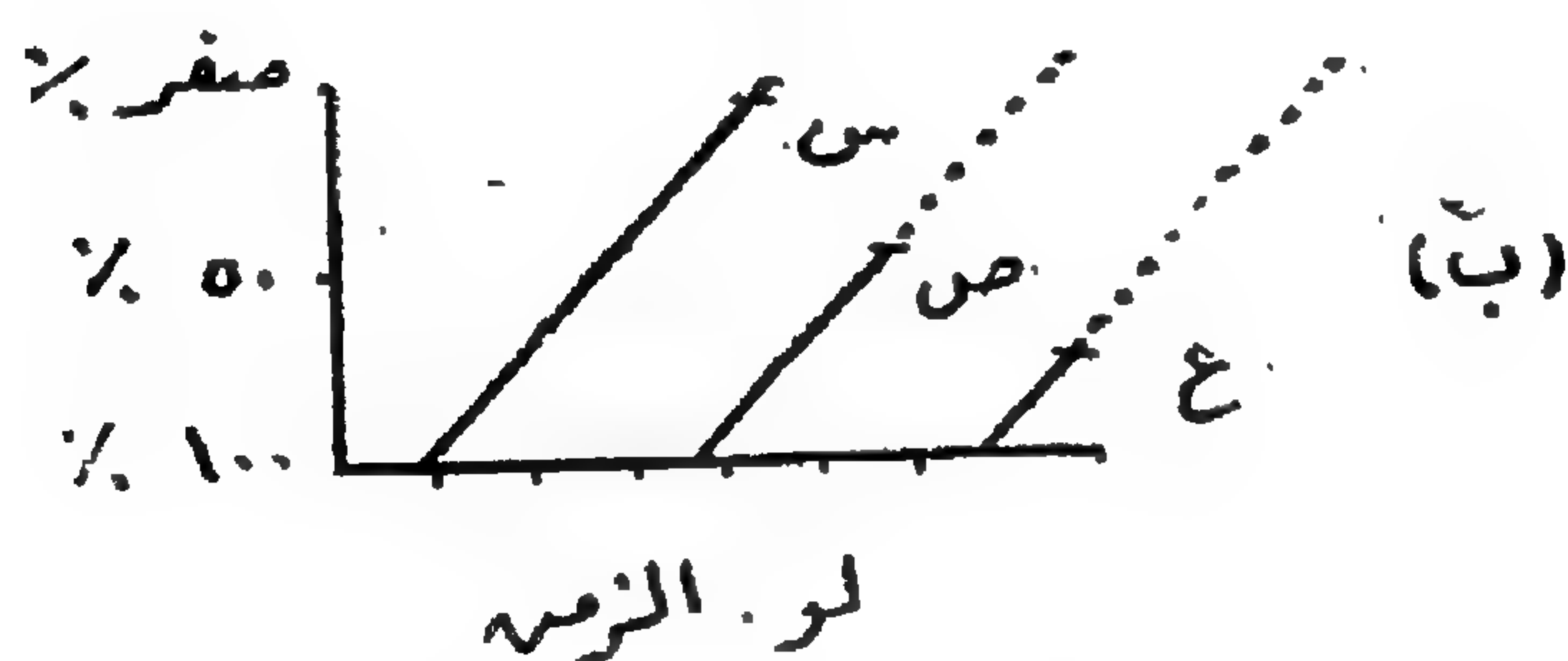
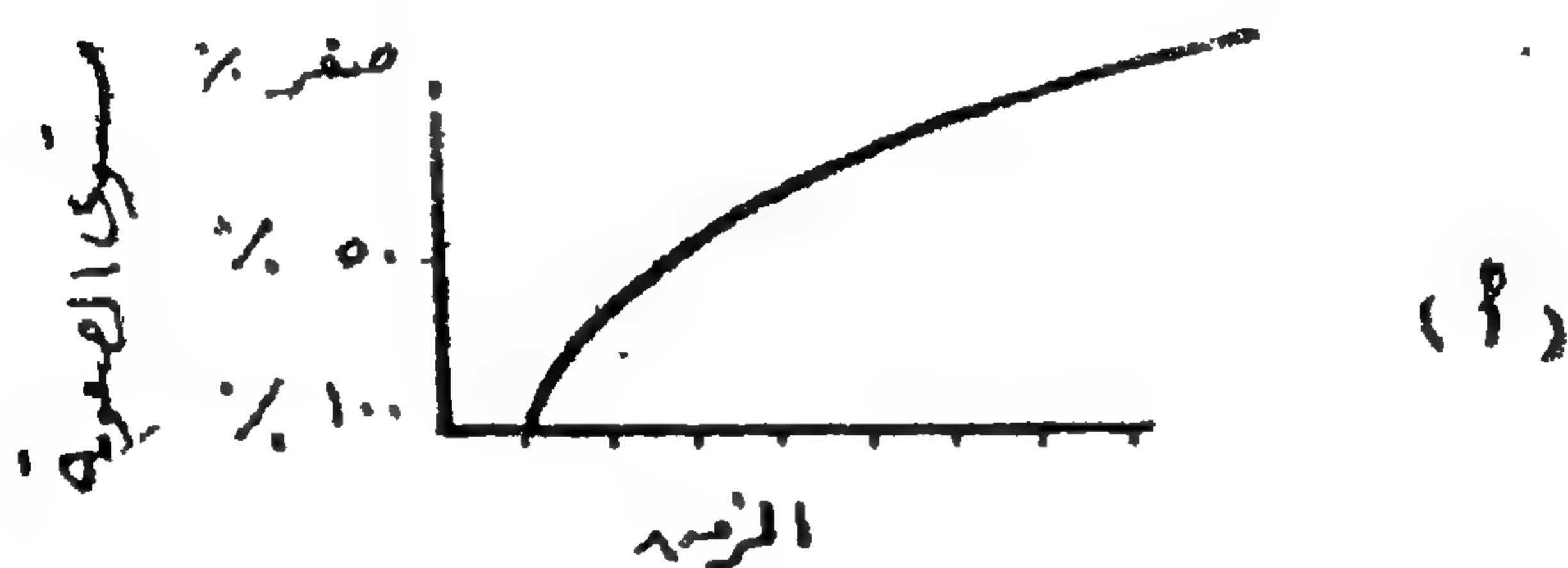
وهذه العوامل أو القدرات السبع مستقل الواحد منها عن الآخر نسبياً ، أى أن استقلالها عن بعضها غير تام . فالشخص الذي تكون درجاته مرتفعة في اختبارات تقيس أحدهذه العوامل يميل إلى أن تكون درجاته مرتفعة كذلك في اختبارات للعوامل الأخرى . وبالرغم من أن هذا الميل العام يكون أقل في قوته بكثير عن ذلك الذي يربط بين اختبارات نفس القدرة الواحدة ، يمكننا أن نوجد بين هذا الميل العام للأداء الجيد في جميع هذه الأعمال المتنوعة بمفهومنا الفرضي للذكاء (وهذه مشكلة) . فلنتظر الآن إلى العوامل المختلفة ونعتبر أيها يبدو مكوناً لاختبارات تتطلب أعظم مدى للصفات التي نسميها عادة « بالعقلية » . فمن المحتمل أن يتفق معظم الناس على أن الاختبارات التي تكشف عن تماثل في التفكير تتطلب ذكاء أكثر من غيرها وتلك التي تكشف عن العوامل اللغوية أو العددية تأتي في المرتبة الثانية ، أما الاختبارات الأخرى فهي تتطلب قدراً أقل من الذكاء ، وهذا الرأي الذاتي الخالص والقبلي تتمخض عنه الارتباطات بين الاختبارات فالصفة التي تشترك فيها تظهر على أوضح نحو في اختبارات التفكير ويقل وضوح ظهورها ذلك في الاختبارات اللغوية والعددية ، وتكون قليلة جداً عن ذلك في اختبارات الذاكرة أو الاختبارات المكانية . وهكذا نصل إلى رأي عام عن الذكاء كقدرة تستند إليها جميع العمليات العقلية ولكن بدرجات متفاوتة تكون أكثر لزوماً وأهمية للبعض وأقل لزوماً وأهمية لغيرها . وبالإضافة إلى هذه الصفة العامة التي قد نسميها « الذكاء » ، أو التي قد نفضل

أن ترمز إليها باحتراس بالحرف (ع) . وثمة قدرات خاصة تمكنتنا من معالجة أنماط معينة من المشكلات بكفاية خاصة إذ تيسر لنا استعمال بعض العمليات العقلية بيسر وكفاية . وليس من المحتمل أن القدرات السبع التي اكتشفت هي القدرات الوحيدة التي يمكن عزلها ، أذ توجد بعض الدلائل في الأبحاث الحديثة لقدرات أخرى كثيرة . ومع ذلك فهذه القدرات السبع تعد أوضح القدرات رسوخاً ومن ثم فإنها قد تنوب هنا عن بقية القدرات جميعاً .

وحتى الآن فإننا لم نهالج مسألة السرعة والقوة . فعلم النفس يقف على أرض أقل ثباتاً ويرجع ذلك جزئياً إلى أن الاهتمام بالمفاهيم فترلعدة سنين فلم يتجه البحث إلى حل هذه المسألة . وحديثاً أوقف الاهتمام من سباته ، ولما كانت بعض النتائج التي توصلت إليها التجارب ذات أهمية بالغة فبدأنا حاول تلخيصها الآن . وللقيام بذلك فسوف أستخدم نتائج ومفاهيم د . فورنو D . Furneaux الذي يعد في الأصل مسئولاً عن حل هذه المسألة القديمة :

فاذا نظرنا إلى مثال اختبار الذكاء الذي سنورده فيما بعد وهو عبارة عن مجموعة من سلاسل الحروف ، ولنفرض أننا قد كوناً مجموعة كبيرة من هذه العناصر ونطبقها على عينة ممثلة لفئة معينة في زمن غير محدد . ونستطيع حينئذ أن نحدد مستوى الصعوبة لكل عنصر على أساس نسبة من ينجح أو يفشل في الإجابة عنه . فالعنصر الذي ينجح في حله ٩٠٪ من عينتنا يعد عنصراً سهلاً نسبياً بينما يعد العنصر الذي لم ينجح فيه إلا ١٠٪ عنصراً صعباً نسبياً وإذا طبقنا اختباراً مكوناً من عناصر في مستويات مختلفة من الصعوبة على عينة جديدة من الأفراد فقد نحصل على استجابة من بين تلك الاستجابات الثلاثة : قد تكون إجابة الشخص صحيحة أو خاطئة أو قد يفقد الأمل في التوصل إلى حل فيترك العنصر دون إجابة . ومعظم اختبارات الذكاء تعطى درجة كاية مبنية على عدد العناصر المحلولة حلاً صحيحاً في فترة

معينة وهى لذلك تخاط هذه الأساليب الثلاثة الممكنة لحل المسألة حلاً معقداً
فإذا رغبتنا فى تحليل دور السرعة يجب محاولة فصل أنماط الإجابة هذه
بعضها عن البعض الآخر . ويتطلب ذلك قياس الوقت الذى يستغرقه
كل شخص فى حل كل مسألة ، ومن الواضح أنه لا يمكننا الحصول على
أى نوع من المتوسط المعقول بقسمة عدد المسائل المحولة حلاً صحيحاً على
الوقت الكلى المستغرق وذلك لأن بعض الناس يكونون قد قضوا
جزءاً كبيراً من الوقت فى الادلاء بأجابات خاطئة أو فى مسائل ينصرفون
عنها فى النهاية بينما قد يصنع غيرهم وقتاً ضئيلاً جداً فى هذا السبيل .



وإذا قمنا بذلك نستطيع أن نرسم بيانياً الوقت الذى يستغرقه أى شخص
واحد فى إجابة عناصر فى مستوى صعوبة معين . ولقد أجرى ذلك فى شكل
١١ وسنرى أنه كلما ارتفع مستوى الصعوبة فإن الوقت المستغرق يتزايد
ولكن ليس بنفس النسبة ، ويمكننا التغلب على هذه المشكلة باستخدام
لو غاريم الزمن (لو الزمن) وتصبح العلاقة إذا قمنا بذلك بين المتغيرين
(لو الزمن ومستوى الصعوبة) عبارة عن خط مستقيم كما فى شكل اب ،
فقد رسمت نتائج ثلاثة أشخاص هم س ، ص ، ع وسنرى أنه يمكن تمثيل

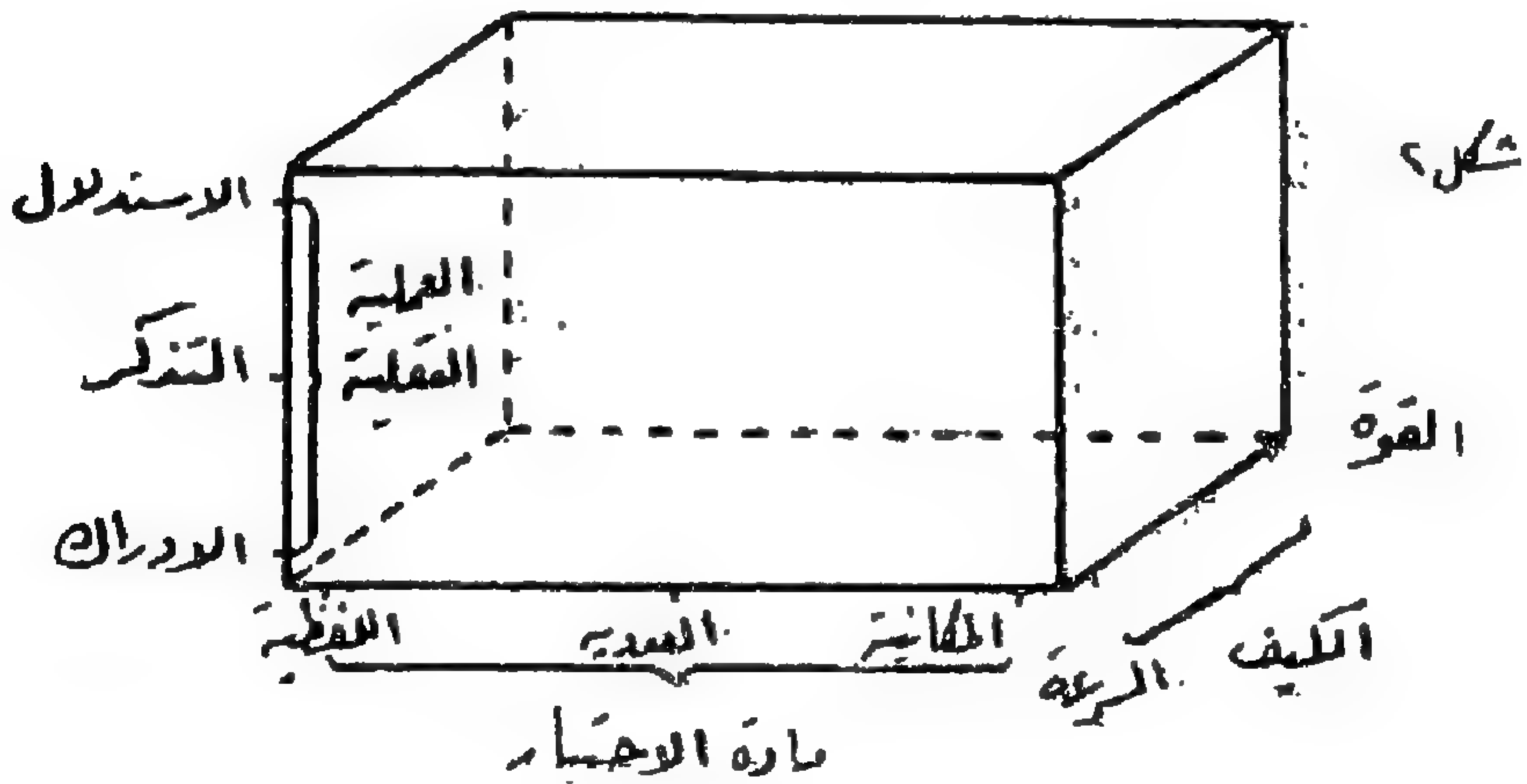
نتائجهم بخطوط مستقيمة وأن جميع الخطوط تكون ذات ميل مساو ومتوازية، وهذه نتيجة تجريبية قد لا يمكن التنبؤ بها ولكن أهميتها الكبرى في أنها تبين أننا نتناول في قياسنا ثابتاً يعتبر من الثوابت العامة (في إطارنا الثقافي) طامساً فقد الكثير من الناس الأمل في قدرتهم على الحصول عليه في علم النفس .

وستتضح حقائق معينة من الرسم حيث س أسرع في جميع مستويات الصعوبة عن ص ، وص أسرع في جميع المستويات عن ع . ويحل ع عناصر . ولكن إلى مستوى متواضع من حيث الصعوبة ، وينجح ص إلى مستويات متوسطة من الصعوبة بينما ينجح س حتى في المستويات المرتفعة نسبياً من حيث صعوبتها . ولا بد لنا من تحديد النقطة التي يتقاطع عندها خط كل شخص مع المحور الأفقي (السرعة التي يحلون بها العناصر الصعبة كالتى يستطيع عملها أن يحلها كل واحد) مع سرعة ذلك الشخص وأعلى مستوى للصعوبة يستطيع أن ينجح عنده بقوته . ول سوء الحظ يوجد مظهران لنقائص هذه الفكرة . إذ يوجد من الأسباب ما يجعلنا نتوقع أن أداء الشخص للمسائل يعتمد من ناحية أخرى على رغبته في الاستمرار في البحث عن إجابة أى مانسمة مثارته . فإذا كان هؤلاء الأشخاص الثلاثة مثابرين إلى درجة كبيرة وراغبين في الاستمرار للعمل في كل مسألة لفترة غير محدودة من الوقت فعندئذ قد يمثل أداءهم بالخط المنقط لا امتداد الخط الأصلي في شكل اب الذى يمثل أداءهم العقلى . وعلى هذا الأساس قد ينجح حتى الأغبياء نسبياً من الناس في حل المسائل الصعبة على شرط أن يتوافر لديهم الرغبة في الاستمرار للعمل بينما قد يخفق الأذكاء نسبياً من الناس في حل المسائل السهلة نسبياً إذا لم تتوافر لديهم الرغبة في بذل وقت أكثر لحل المسألة . وبما لا شك فيه أن لهذا النقد حجته القوية الذى يتفق بالنأ كيد مع وجهة النظر العامة في أن الأداء العقلى المرتفع هو نتاج السرعة الكبيرة للعمل العقلى مقترنا بالمشاورة في هذا العمل . وبالطبع ينبغي أن نتذكر أن مقياسنا للزمن هو مقياس لوغار يتمى حتى أن

الزيادة المطلوبة في الزمن لحل مسألة صعبة تتفاوت بين الفرد الغبي والفرد الذكي إذ قد يتطلب عدة أشهر من المثابرة لحل مسألة قد يستطيع الشخص الذكي حلها في بضع دقائق . وهما كان الأمر فعاملا السرعة والمثابرة مستقلان عن بعضهما نسبياً ، وبالتالي فلا نستطيع التحدث عن « القوة » ك مفهوم أحادي البعد مفيد في علم النفس . ويقصد بقوة الفرد ما يصل إليه من حلول صحيحة للمشكلات في أعلى مستوى للصعوبة . ومن الجلي أن القوة مفهوم مركب يعتمد على المفاهيم البسيطة للسرعة والمثابرة . وجدير بالذكر أن أحد هذه العوامل البسيطة وهو المثابرة ليس صفة عقلية بالمرّة ولكنه وظيفة لتنظيم الشخصية والتكامل الانفعالي . أما في التنظيم المعرفي فإن السرعة في العمل العقلي تعتبر المحدد الرئيس الأولى للقدرة العقلية ، ومن ثم يمكن أن تؤخذ السرعة أحياناً ولأسباب معقولة على أنها القدرة العقلية العامة أو الذكاء أو العامل (ع) . ومع ذلك فحتى مثل هذا المزج للسرعة والمثابرة لا يدخل في حسابه كل تعقيدات سلوك حل المشكلة ، إذ أن الأدلة التجريبية دعمت المشاهدات اليومية بتوضيح أن الإخفاق في حل المشكلة غالباً ما ينتج عن كتابة إجابة خاطئة تحت تأثير أنها هي الصحيحة ، أو ينتج عن الفشل في المثابرة مدة كافية من الوقت ، تضافي هذه الملاحظة على تحليلنا صفة « الإهمال » . بالرغم من أنه قد تبين أن هذه الكلمة ليست جيدة لتستعمل كوصف لما يحدث في الواقع . ويوضح الدليل أن الشخص السريع المتلبر قد يدرك مع ذلك نجاحاً ضئيلاً نسبياً وذلك ببساطة تدخل هذه العملية التي تؤدي إلى تقبل الحلول غير الصحيحة وكأنها صحيحة ، وربما أيضاً إلى نيل الإجابات الصحيحة من أجل إجابات خاطئة .

وكما بين « فيرنو » Furneaux فإن الحقائق المألوفة هنا إذا روعيت ، مقترنة بعلاقات معينة بينها يمكن أن يعبر عنها رياضياً ، فإنها تؤدي مباشرة إلى فرض أفضل عن طبيعة عمليات المخ التي يستند إليها حل المشكلة . ووفقاً لوجهة النظر هذه فعندما تدرك مشكلة لأول مرة يبدأ عندئذ في المخ تتابع منتظم للوقائع ينتج عنها سلسلة من « محاولة الحلول » ، ولا يستلزم أن

تصبح «محاولة الحلول» هذه شعورية إذ يكون كل منها ييسر أسلوبا خاصا للتنظيم لجزء ما من تنظيم المخ . ويستند مفهوم السرعة العقلية على المعدل الذي تعمل به «أساليب التنظيم» وتتفكك ويعاد تنسيقها . وكما تكونت في المخ محاولة للحل فإن صلاحيتها تختبر كإجابة للمشكلة الحقيقية التي هي موضع الاعتبار ، وربما بنوع من «ميكانيزم» الامداد الذي يخدم نفس الغرض في الآلات الإلكترونية الحاسبة ، وفي هذه المرحلة يظهر «الاهمال» وربما كان «الخطأ» تعبيرا أفضل — طالما قد يحدث أن تفي محاولة للحل ببعض ما تتطلبه المشكلة — بما يؤدي إلى إنطلاق «ميكانيزم» الاختبار . فتنتج إجابة خاطئة ، وإذا لم يتدخل مثل هذا الخطأ فعملية القياس بحلول تجريبية واختبارها ستستمر إلى أن ينشأ حل صادق أو حتى يؤدي نقص المشيرة إلى تحويل الانتباه إلى مشكلة أخرى .



ودون الدخول في تفاصيل معقدة يمكننا أن نصل في نهاية إستطلاعنا إلى إجابة عن السؤال ، ماذا تقيسه إختبارات الذكاء في الواقع ؟ ، فإذا وضعت الإختبارات صوابا وفقا لخطوط تحليلية فإنها تقيس سرعة الأداء العقلي الذي يعتبر مكونة أساسية للكفاية العقلية ، كما تقيس سهولة خاصة في تناول أنماط مختلفة للمادة — كالاعداد والكلمات والرسومات وما إلى ذلك — وتدل على تفوق خاص في مختلف العمليات العقلية — مثل الإدراك والتذكر

والتفكير وما إلى ذلك ، كما أن هذه الاختبارات تتضمن أيضاً مكونات غير عقلية مثل المثابرة التي تعد ذات أهمية بالغة في تحديد الذكاء الفعال لدى الشخص أى قدرته على حل مشكلات ذات مستوى عال من حيث صعوبتها وتعقيدها . وهذه العلاقات المختلفة موضحة بيانياً فى شكل (٢) .

والاختبار ضعيف التكوين يقيس مزيجاً من هذه الأبعاد ممتزجة فيما بينها عشوائياً مما يترتب عليه غموض فى نسبة الذكاء الناتجة من هذا المقياس . أما الاختبار الجيد (أو مجموعة من الاختبارات) فإنه يعطى قياسات منفصلة لجميع هذه الصفات فتجعل من الممكن التوصل إلى بيان تفصيلي يظهر نقاط القوة والضعف عند الشخص وتسمح بالتنبؤ الدقيق بتحصيله فى المستقبل .

ويمكننا أن نستدل بما توصلنا إليه من نجاح باستعمال اختبارات غير جيدة التكوين فى حياتنا اليومية على ما يمكننا أن نتوصل إليه فى المستقبل حينها : نطبق فى الحياة العملية اختبارات تتفق مع التطورات النظرية الحديثة فى مباحث القياس العقلي . ولا شك أن الأدلة العديدة التى تبين أن الاختبارات الجيدة التكوين المبنية على أسس تحليلية دقيقة قد تضاعف دقة التنبؤ على النجاح فى الحياة العملية مثنى وثلاث .

الفصل الثاني

القدرات العقلية الأولية

يتضمن هذا الفصل أمثلة من اختبارات لتوضيح مناقشة طبيعة الذكاء السابق ذكرها في الفصل الأول . ويرجع السبب الرئيسي لسرد هذه الأمثلة إلى أن المناقشة النظرية البحتة لمفاهيم مثل القدرة الإدراكية ، والطلاقة اللغوية ، لا تعنى كثيراً بالنسبة لمن لا معرفة له بالأدوات الحقيقية المتبعة في قياس وتعريف هذه المفاهيم ، ولقد وافق الأستاذ روستون ، الذي يعد من الرواد في هذا الميدان والذي أرسى دراسة الذكاء على أساس ثابت على أن ينشر في هذا الكتاب بعض وحدات من اختبار هـ .

وينبغي أن نعرف أن هذه الاختبارات ليست كاملة ولكنها مجرد وحدات لتوضيح تعليمات الاختبار ، يتبعها وحدات قليلة على أن يقوم المفحوص بأدائها قبل بدء الاختبار نفسه لتبين إلمامه الصحيح بالتعليمات ، وبالتالي فسيجد معظم القراء سهولة هذه الصفحات . غير أنه سوف يكون من الواضح لديهم أنه يمكن بسهولة كتابة وحدات أكثر صعوبة من تلك الوحدات ، وأن من الممكن وضع اختبارات تناسب سن الخامسة متدرجة حتى مستوى سن الجامعيين المتفوقين .

دعني أؤكد مرة ثانية لأولئك الذين قد يشعرون بميل إلى الجدل إزاء التجميع الصحيح للاختبارات بأن هذا التجميع لا يعد جزافياً ، بل أملاه النموذج الواقعي لأداء مجموعات كبيرة من الأفراد .

١ - القدرة اللغوية

اختبار الأمثلة الشائعة

يبين هذا الاختبار قدرتك على فهم ما تقرأه ، فاقراء المثل ١ .

(١) أفلح بسفينتك عندما تهب الرياح .

بعد قراءة تلك للجمل الآتية ، أوجد الجملتين اللتين لهما نفس معنى المثل ١ .

X اطرق الحديد وهو ساخن .

... .. حين تعوى الذئب يعوى المرء معها .

X د جهر الدريس ، عندما تسطع الشمس .

... .. لا تجعل شراع سفينتك أكبر من اللازم .

وضعت علامة أمام كل من الجملتين الأولى والثالثة لأن لهما نفس معنى

المثل ١ .

ضع علامة أمام الجملتين اللتين لهما نفس معنى المثل ب .

(ب) تنمو الأشجار الباسقة من البذور الضئيلة .

... .. لا ينبت العشب في شارع مطروق .

... .. تفيض الأنهار الكبيرة من الروافد الصغيرة .

... .. يثبت الشاذ القاعدة .

... .. النهايات العظمى من البدايات الصغرى .

التصنيف اللغوي

يتضمن العمود (١) أسماء حيوانات ، ويتضمن العمود (٢) أسماء

قطع من الأثاث . ويحتوى العمود (٣) على بعض الكلمات الخاصة

بالحيوانات وقطع الأثاث . فالمكتب هو قطعة أثاث ، ولذا يكتب الرقم

(٢) بعده . ويكتب الرقم (١) بعد الشاة لأنها حيوان : وقد عولجت بقية الكلمات تحت العمود (٣) بنفس الطريقة .

١	٢	٣
بقرة	منضدة	مكتب
حصان	كرسى	شاة
طائر	مكتبة	سرير
كلب	مصباح	مطبخية
		قط
		حمار

ضع الرقم المناسب أمام كل كلمة من كلمات العمود (٣)

١	٢	٣
يمزق	يقاسى	يتوجع
يعذب	يتألم	يصلب
يعض	يخز	يسحق
يقرص	يتلوى	يوجع
		يتأوه
		يقطع

العلاقات اللفظية أو التمثيل

اقرأ الصف الآتى من الكلمات :

- ١ - قدم . ٢ - حذاء . ٣ - يد . ٤ - إبهام .
 ٥ - رأس . ٦ - قفاز . ٧ - أصبع . ٨ - مشبك .
 الكلمتان الأولى والثانية : قدم وحذاء بينهما علاقة معينة ، فالحذاء يلبس
 فى القدم ، والكلمة التالية هى اليد ، فأى الكلمات الخمس التالية لها يمكن

أن تتصل باليد بنفس الطريقة التي يبنتها العلاقة بين القدم والحذاء ؟ .
إن الإجابة الصحيحة هي القفاز لأنه يلبس في اليد ، ولذلك يكتب الرقم
(٦) في المسافة الخالية الموجودة على اليسار .

في التمرينين الآتين المطلوب منك أن تضع رقم الكلمة الرابعة التي
تكون علاقتها بالكلمة الثالثة كعلاقة الكلمة الثانية بالأولى .

(أ) الماء للسمكة . كا للطائر .

١ - الأزرق ٢ - العصفور ٣ - المحيط ٤ - السماء
٥ - المرتفع .

(ب) المحافظ للبدنية كا للسفينة : .

١ - الربان ٢ - الجنرال ٣ - الضابط ٤ - الجندي
٥ - المخزن :

٢ - الطلاقة اللغوية

الحروف المعاد ترتيبها

اعد ترتيب الحروف في كل سطر مما يأتي حتى تكون اسم حيوان
في السطر الأول (ب د هـ) يمكن تنظيمها لتكون (د ب هـ) فتكتب
هذه الكلمة في المسافة الخالية . وتكون الحروف في السطر الثاني (ل ك ب)
كلمة (ل ب) وهي المكتوبة في المسافة الخالية ، وب نفس الطريقة تكون
الحروب (ط ق هـ) كلمة (ق ط هـ) .

الحيوانات

ب د هـ	<u>دببه</u>
ل ا ب	<u>كلب</u>
ط ق هـ	<u>قطه</u>

أعد ترتيب الحروف فيما يأتي لتكوّن اسم طائر.

الطيور

ط ب هـ	—
غ ا ب س	—
س ق ص	—

إيجاد الكلمات

اكتب في الأماكن التالية كلمات كثيرة مختلفة كلما أمكنك بحيث تبدأ كل كلمة منها بالحرف (س) وتنتهى بالحرف (ل) ومن الممكن أن تكون تلك الكلمات طويلة أو قصيرة كما يمكنك أن تكتب أسماء أشخاص أو أماكن أو كلمات أجنبية ، علماً بأن الخطأ في هجاء الكلمة لا يؤثر في درجتك وتوضح الكلمات الثلاث الآتية أمثلة لذلك ، وبالقياس عليها اكتب عدة كلمات أخرى تبدأ كل منها بالحرف (س) وتنتهى بالحرف (ل) ..

١ - سهل .

٢ - سبيل .

٣ - ساحل .

تكوين الكلمات

كون أكبر عدد ممكن من الكلمات مستخدما فقط الحروف الموجودة في كلمة أ ج ي ال ، ويمكنك أن تستعمل كلمات طويلة أو قصيرة وأن تضم أسماء أشخاص أو أماكن أو كلمات أجنبية ، مع ملاحظة ألا تستخدم في الكلمة الواحدة حرفا أكثر مما يظهر في الكلمة الأصلية .

في السطور القليلة الأولى ذكرت عينات لتلك الكلمات فاكتب ما أمكنك من الكلمات مستعملا الحروف الموجودة فقط في الكلمة الأصلية أ ج ي ال .

١ — جاء .

٢ — لجأ .

٣ — أجل .

٣ — القدرة الرياضية

الرموز الدالة على الأعداد

المطلوب منك في هذا الاختبار أن تستعمل عشرين رمزا للدلالة على الأعداد ، وثمة رمز لكل عدد ابتداء من الصفر حتى (١٩) كما هو مبين فيما يلي ، فلاحظ أن الخط القصير يرمز إلى (٥) وأن النقطة ترمز إلى (١) فمثلا العدد (٩) يمثله خط قصير وأربع نقط ، ويمثل الصفر علامة على شكل حرف (٤) كما هو مبين .

٩ —	٨ ... —	٧ .. —	٦ . —	٥ —	٤ —	٣ ... —	٢ .. —	١ . —	صفر ٥
١٩ — — —	١٨ ... — — —	١٧ .. — — —	١٦ . — — —	١٥ — — —	١٤ — — —	١٣ ... — — —	١٢ .. — — —	١١ . — — —	١٠ — — —

وفي حالة الأعداد التي تزيد عن عشرة توجد الرموز مع بعضها كما يوضح ذلك مثال (٢) . وعندما يوجد رمزان أحدهما فوق الآخر فإن الرمز العلوى منهما يضرب في (٢٠) ويضرب السفلى في (١) وتكون الإجابة هي حاصل الجمع .

وبالنسبة للأعداد التي تزيد عن ٣٩٩ تستعمل ثلاث رموز كل منها فوق الآخر ويضرب الرمز العلوى منها في (٤٠٠) ويضرب الثاني في (٢٠) والثالث في (١) . والإجابة هي حاصل الجمع ويوضح مثال (٣) هذه العملية .

مثال (٣)	مثال (٢)	مثال (١)
١٢٠٠ = ٤٠٠ × ٠٠٠	١٢٠ = ٢٠ × ٠	٧ = ١ × ٠٠
١٦٠ = ٢٠ × ٠٠٠	٧ = ١ × ٠٠	
١٢ = ١ × ٠٠	١٢٧	
١٣٧٢		

والمطلوب منك الآن حل المسائل الستة الآتية مع ملاحظة أن المسألتين الأولى والثانية منها محلولتان .

الإجابة	مسافة للترقيم	الإجابة	مسافة للترقيم	٠٠ —
			١٣	$١٣ = ١ \times$	
				$١٤٠ = ٢٠ \times$	٠٠ —
		١٤٠	$١ \times = \text{صفر}$	٥
		٥ ٠ —			٠٠ — ٠٠٠ —

العمليات الحسابية

ضع الأعداد الصحيحة في المسافات الخالية بالجدول الآتي ، واحصل على المعلومات الضرورية من بقية الجدول ، واستعمل المسافة المتروكة أسفل الجدول لإجراء العمليات .

الطلاق				الزواج		السنة
عدد الزوجات المطلقات	عدد الأزواج المطلقين	الزيادة عن السنة السابقة	العدد	الزيادة عن السنة السابقة	العدد	
٢٥٠١٧	١٢٥٥١	١٠٠	٣٧٥٦٨	١٢٥١٢	٥٦٦١٦١	١٨٩٤
٢٦٩٣١	—	٢٨١٩	٤٠٣٨٧	٣٢٦٩٤	٥٩٨٨٥٥	١٨٩٥
—	١٤٤٤٨	—	٤٢٩٣٧	١٥٠١٨	٦١٣٨٧٣	١٨٩٦
٢٩٩٣٤	١٤٧٦٥	١٧٦٢	—	—	٦٢٢٣٥٠	١٨٩٧
١١٠٣٧١	٥٥٢٢٠	لا مجموع	١٦٥٥٩١	لا مجموع	٢٤٠١٢٣٩	المجموع

التفكير الحسابي

سيعرض عليك في هذا الاختبار بعض المسائل الحسابية المحلولة ، ومع كل مسألة أربعة إجابات إحداها صحيحة . والمطلوب منك وضع علامة أمام الإجابة الصحيحة . ويمكنك أن تستعمل المساحة الخالية على الصفحة كمسودة ولكن لا تضيع وقتك للحصول على الحل المضبوط .

يمكنك أن ترى في المسألة الأولى الآتية أن العدد الأول هو ٤ تقريباً والثاني ٨ تقريباً . ولما كانت $٧ \times ٤ = ٢٨$ فابحث عن الإجابة التي تقارب ٢٨ ، وهي الإجابة الثالثة وقد وضعت علامة أمامها .

$$\begin{array}{r} ٧٥٦٣٣٣٢٧ \\ \hline ١٤٢٠١٢٤٦٧ \\ \hline ٢٨٢١٣٣٠٥١ = ٦٨٢١٨٧ \times ٤٢١٢٣٩٥ \\ \hline ٥٦٢١٠٣٣٧٨ \\ \hline \end{array}$$

وفي المسألة الآتية تلاحظ أن البسط هو حوالى ٣٠ والمقام حوالى ٦ ولما كانت $٣٠ \div ٦ = ٥$ فإننا نضع علامة أمام الإجابة الثانية لأنها أقربها إلى ٥ .

$$\begin{array}{r} ٤٤٢٧٨ \\ \hline ٥١٨١٩ \\ \times \hline ٦٩٢٧١ \\ \hline ٨٢٤٢٩٣ \\ \hline \end{array} = \frac{٣٩٦٧١٨}{٥٧٢٦١}$$

ونظراً لأنك تعرف أن إجابة واحدة هي الصحيحة ، فهناك حيل كثيرة أخرى لاختيار الإجابة الصحيحة من بين الإجابات الموجودة . فمثلاً في المسألة التالية نجد أن $٣٠ \times ٣٠ = ٩٠٠$ ولذلك فإن ٢٩×٢٩ يجب أن

تكون أقل من ٩٠٠ وتستطيع كذلك أن ترى أن $٩ \times ٩ = ٨١$ ولذلك فالرقم الآيمن سيكون (١) ومن ثم تكون الإجابة الصحيحة الممكنة هي ٨٤١.

$$\begin{array}{r} \underline{\hspace{2cm}} \\ \underline{\hspace{2cm}} \\ \underline{\hspace{2cm}} \\ \underline{\hspace{2cm}} \end{array} \begin{array}{r} ٧٥٥ \\ ٨٤١ \\ ٨٦٥ \\ ٩٠١ \end{array} = {}^2(٢٩)$$

استخدم في المسائل الآتية أى حيل أو طرق مختصرة لمعرفة الإجابة الصحيحة وضع علامة أمامها ولا تضع الوقت في مراجعة الإجابات المضبوطة لأنه ليس في هذه الإجابات إلا إجابة صحيحة واحدة .

$$\begin{array}{r} \underline{\hspace{2cm}} \\ \underline{\hspace{2cm}} \\ \underline{\hspace{2cm}} \\ \underline{\hspace{2cm}} \end{array} \begin{array}{r} ٢٢٦٢١ \\ ٦٧٨٢ = ٤٨٦٥٣٧ \times ٣٠١٣٢٤ \\ ١٤٦٥٦ \\ ٢١٣٨٧ \end{array}$$

$$\begin{array}{r} \underline{\hspace{2cm}} \\ \underline{\hspace{2cm}} \\ \underline{\hspace{2cm}} \\ \underline{\hspace{2cm}} \end{array} \begin{array}{r} ٦٥٦٥٤ \\ ١٠٦٣٢٧ \\ ٩١٧١٣٦ \\ ١٣٤٦٩٧٣ \end{array} = \frac{٥٣٢٩٧٣٦}{٥٠١٢٥٨}$$

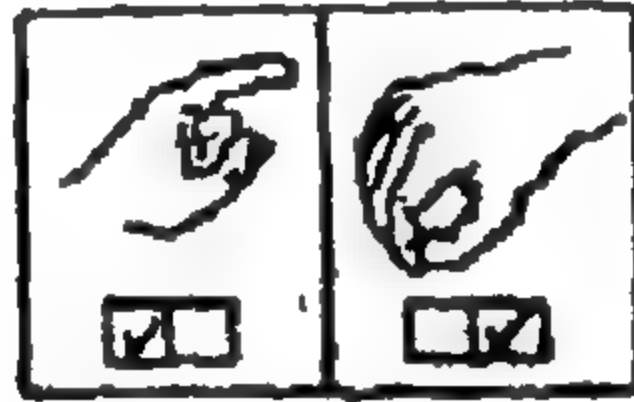
$$\begin{array}{r} \underline{\hspace{2cm}} \\ \underline{\hspace{2cm}} \\ \underline{\hspace{2cm}} \\ \underline{\hspace{2cm}} \end{array} \begin{array}{r} ٧٦٩٨ \\ ٩٨٧٥ \\ ١٣٥٦١ \\ ٢٠٦٧٩ \end{array} \begin{array}{r} + ٥١ + ٣ + ٧٢ + ٨٢٧١ + ١٣٥١ \\ + ٢٣ + ٤ + ٩ + ١٣ + ١ + ٢ \\ ١٦ + ٦ + ٤ + ٢٢ + ١٩ + ٨ \end{array}$$

١١٥٦٩	
٢٣٤١٧	(١٩٧)
٣٨٨٠٩	
٦٢١٨٧	

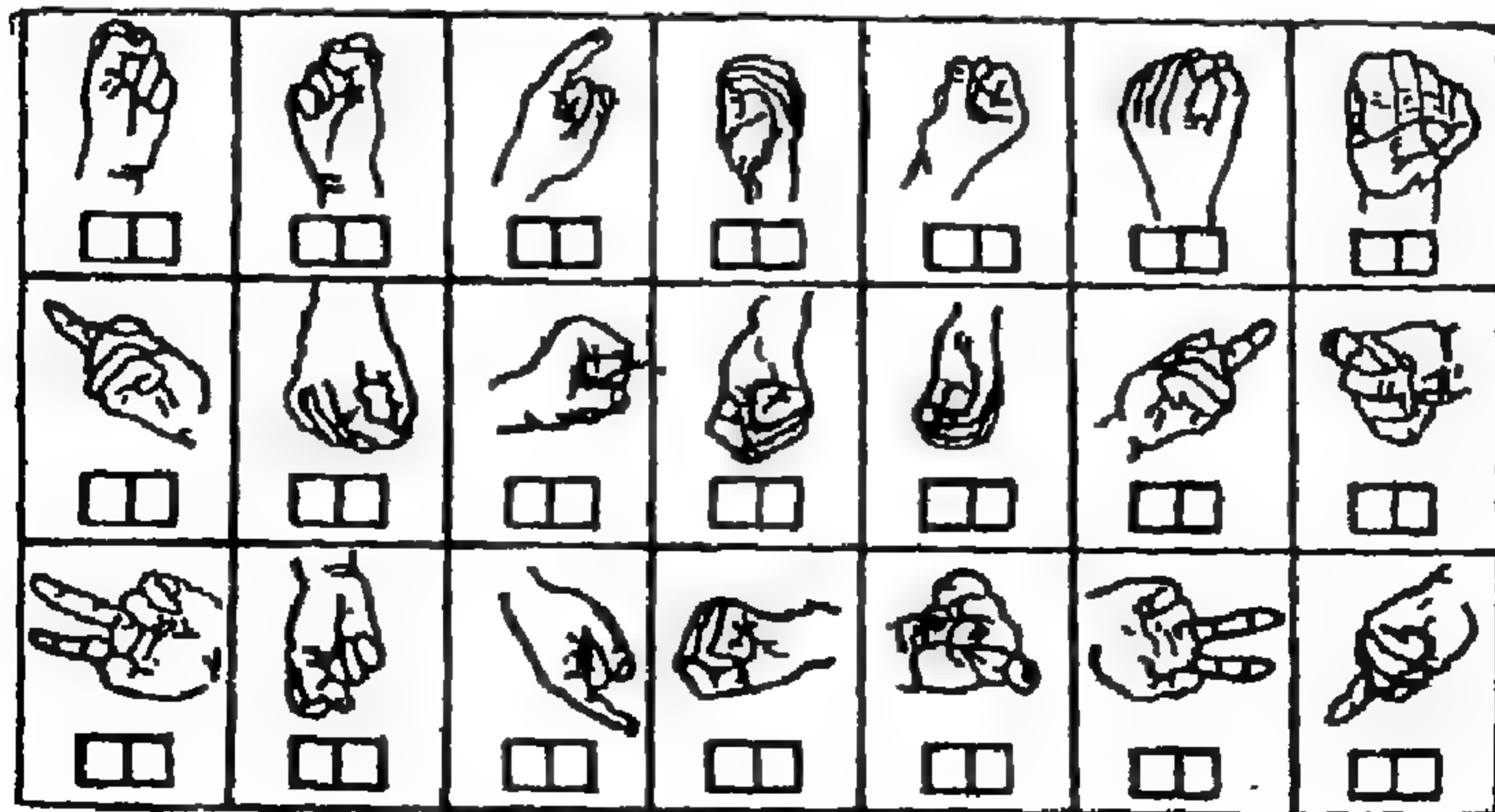
٤ - القدرة المكانية

اليدين

سترى في هذا الاختبار مجموعة من صور الأيدي ، وتمثل بعض هذه الصور اليد اليمنى ، بينما تمثل بعضها الآخر اليد اليسرى ، وسترى أسفل كل صورة مربعين صغيرين ، فإذا كانت الصورة تمثل اليد اليمنى فضع علامة في المربع الموجود على اليمين . وإذا كانت تمثل اليد اليسرى فضع علامة في المربع الموجود على اليسار ، كما هو واضح في العينين التاليتين ، والعلامة الصحيحة مبينة عليهما .



ضع الآن علامة أمام العينات الآتية بنفس الطريقة السابقة :



البطاقات

الصورة الموجودة هي لبطاقة تشبه حرف L بها ثقب في أحد نهايتها .



والبطاقتان التاليتان متشابهتان ، ويمكنك أن تحرك أحدهما دون عكسها على الصفحة فتطابق الأخرى تماما .



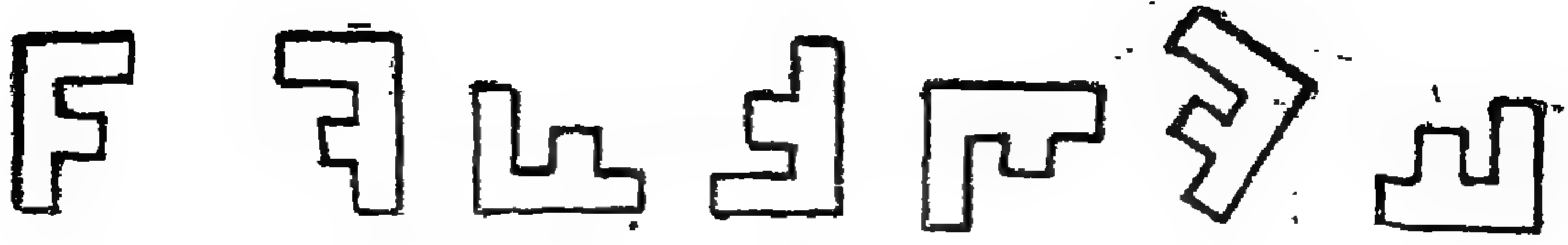
انظر الآن إلى البطاقتين التاليتين فهما مختلفتان ولا تستطيع أن تجعلهما تتطابقان على الصفحة دون عكس إحدهما .



وأمامك عدة بطاقات بعضها عليه علامات ، وعلى كل بطاقة من البطاقات التي تماثل البطاقة الأولى من اليسار علامة تبين ذلك .

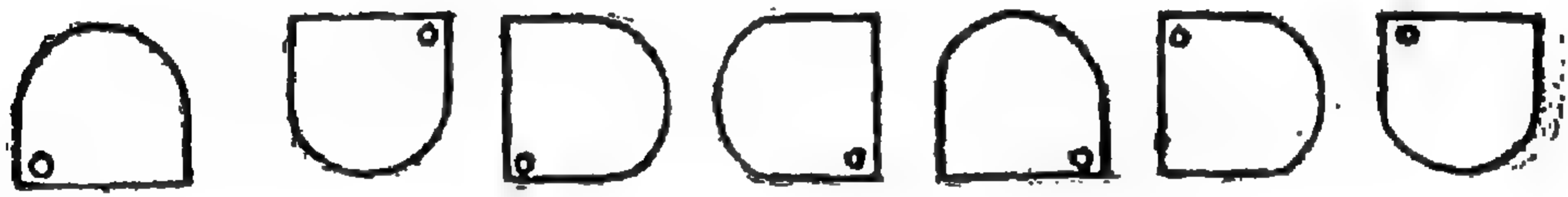
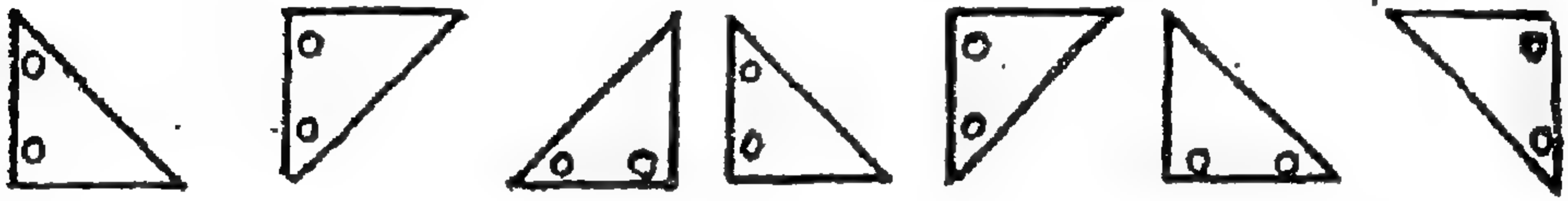


حدد في الصف الآتي جميع البطاقات المماثلة للبطاقة الأولى من اليسار .



يجب أن تكون قد حددت البطاقتين الثانية والثالثة فهما بمثابة البطاقة الأولى من اليسار .

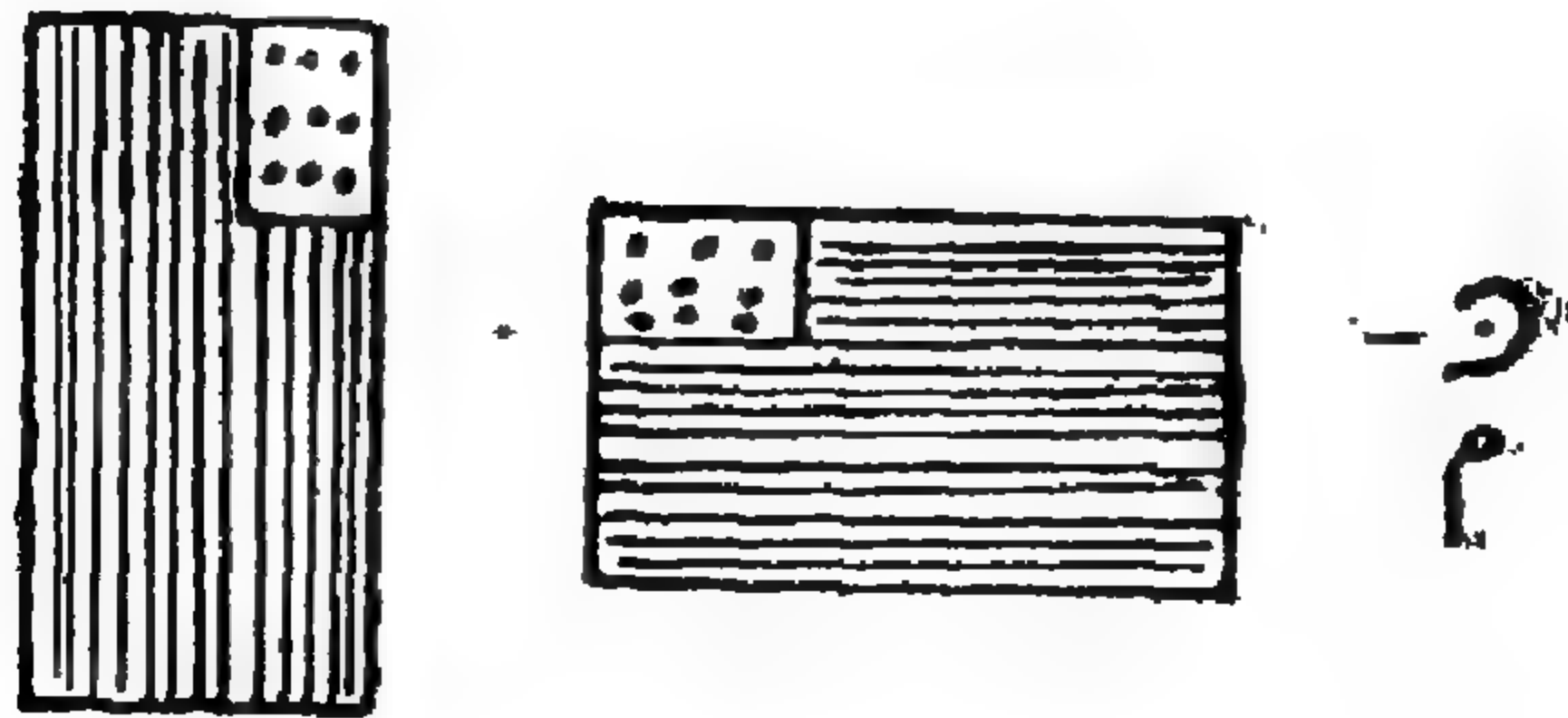
وثمة بعض بطاقات لتعلم عليها ، ففي كل صف ضع علامة على البطاقة التي تشبه الأولى من اليسار في الصف .



ويتضمن الاختبار عشرين صفًا يحتوي كل منها على سبعة أشكال .

الاعلام

يوجد صورتان للعلم وهما متماثلتان تمامًا . فيمكنك أن تحرك إحداهما بدون عكسها لتطابق الصورة الأخرى .



هذه علامة توضح أن الصورتين هما نفس الشيء .
والصورتان التاليتان للعلم مختلفتان فلا يمكنك أن تحرك إحداهما دون عكسها لكي يتطابقا تمامًا .



و م علامة تبين أن الصورتين مختلفتين .
واليك بعض الصور الأخرى لتضع علامات عليها فحاول أن تطابق
الصور بعضها على بعض عن طريق تحريكها دون عكسها بحيث تكون أفقية
على الورقة ، فإذا كانت صورتنا العلم نفسها فضع علامة ه . وإذا
كانتا مختلفتين ضع علامة م .



ينبغي أن تضع علامة ه للزوج الأول من الصور وعلامة م للزوج
الثاني ، ويحتوى الاختبار على ثمانية وأربعين عنصراً .

ه — القدرة الإدراكية

الأعداد المتماثلة

العدد الموجود في قمة العمود الأول من الأرقام ٦٣٤ ، ولقد وضعت
علامة أسفل كل ٦٣٤ في ذلك العمود . ووضع في العمود الثاني علامة
أسفل ٨٧٦ لأن هذا العدد هو الموجود في قمة العمود . كما وضع في العمود
الثالث علامة أسفل العددين ٧٩٥ لأن العدد ٧٩٥ هو الموجود في قمة
العمود الثالث .

والعدد الموجود في قمة كل عمود من الأعمدة الأخرى يتكرر مرة

أو أكثر في نفس العمود . فاوجد بسرعة هذه الأعداد وضع علامة أسفل كل منها .

٣٧٤	٢٧٩	٤٢٣	٧٩٥	٨٧٦	٦٣٤
٢٨٢	٣٦٣	٨٣٧	٥٨٣	٦٤٣	٦٩٣
٦٦٣	٦٤٣	١١٥	<u>٧٩٥</u>	٣٢٨	٨٥٠
٥٣٩	٢٧٩	٤٢٣	١٨٩	٩٣٢	<u>٦٣٤</u>
٣١٤	٣٧٥	٥٢٨	٣٤٢	٨٧٩	٥١٣
٤٧٥	٤٧٠	٩٦٩	<u>٧٩٥</u>	٣٧٥	٣٩٨
٥٧٦	٨٨٧	٢٧٤	٨٩٦	٤٧٠	٦٩٦
٣٧٤	٦٩٩	٤٢٣	٢٤٧	٦٩٧	<u>٦٣٤</u>
٨٥٠	٢٩١	٦٢٧	٢١٩	<u>٨٧٦</u>	٥٧٤
٦٧٧	٩٨٣	٤٢٣	٤٦٨	٢٩٤	٦٢٨
٨٤٦	٥٨٥	٩٦٢	٥٤٣	٩٨٢	<u>٦٣٤</u>

قراءة المرأة

الاحظ الكلمتين الآتيتين :

قطه
قلوع

الكلمة الأولى هي قطه ، والكلمة الثانية هي قطة كذلك ولكنها
كتبت بترتيب معكوس ..

والسطران الآتيان من الكلمات . كتبت الكلمات في السطر الأول منهما
كالاعتاد . بينما كتبت الكلمات في السطر الثاني معكوسة .

ي ر ب ط و ج د م ر ح ن ن ي ق ف ت خ ال ٥
ك ب ص ح ل ر ع ن م ز ه م ن ف ق ح ٥ ١ ٦ ٥

الكلمة الأولى في كل عمود من الأعمدة التالية مكتوبة كالاعتاد ويوجد
أسفلها ثلاث كلمات مكتوبة كتابة عكسية . وإحدى الكلمات الثلاثة المكتوبة
معكوسة هي نفس الكلمة الموجودة في قمة العمود . ويوجد خط أسفل
الكلمة المماثلة لتلك الكلمة الموجودة في قمة العمود .

ع ل م	ب ل د
٣ ل ٥	ل م ب
ل ٣ ٥	٤ ب ٦
٥ ل ٣	٦ ٤ ب

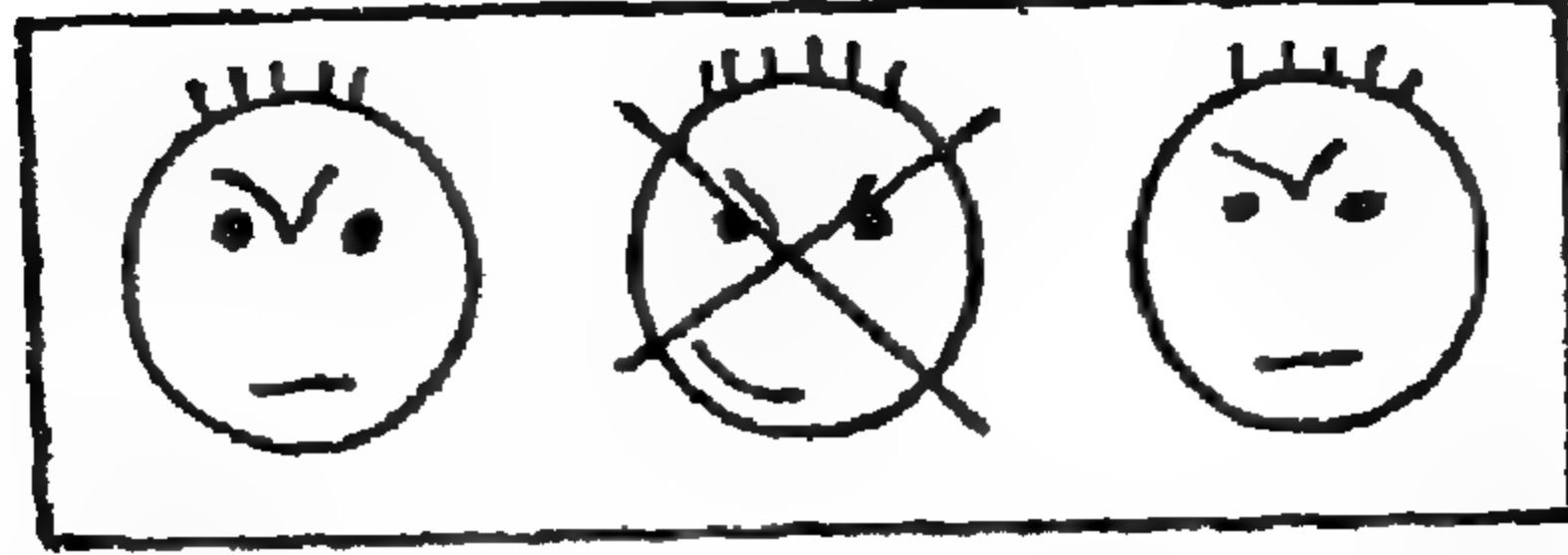
في الأعمدة التالية ضع علامة أسفل الكلمة المكتوبة معكوسة المماثلة
للكلمة الموجودة عند قمة كل عمود .

م ر ع ظ م	ح ص ا ن	ث ر و ة	ل ن ت ا ب	ص ب ا ح
٥ ٤ ٣	٥ ١ ٤	٤ ٥ ٣	ب ا ن ت	١ ٥ ب ٤
٥ ٤ ٣	١ ن ٥ ٤	٤ ٥ ٣	٥ ا ن ب	١ ٥ ب ٤
٥ ٤ ٣	١ ٥ ٤	٥ ٤ ٣	ب ا ن ت	١ ٥ ب ٤
٥ ٤ ٣	١ ٥ ٤	٥ ٤ ٣	ت ب ح ا	١ ٥ ب ٤

ويحتوى الاختبار على خمسين عمود بكل منها أربعة كلمات .

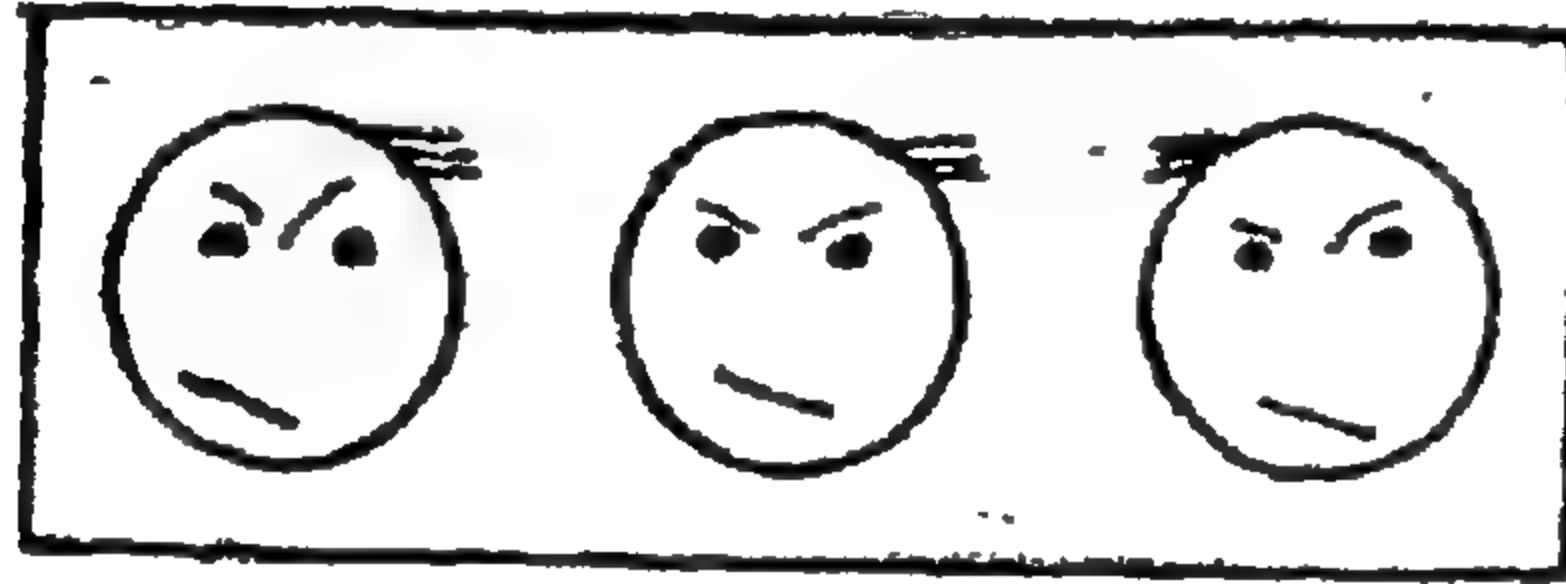
الوجوه

بهذا الاختبار صف من الوجوه أحدها مخالف للوجهين الآخرين وقد وضعت عليه علامة .

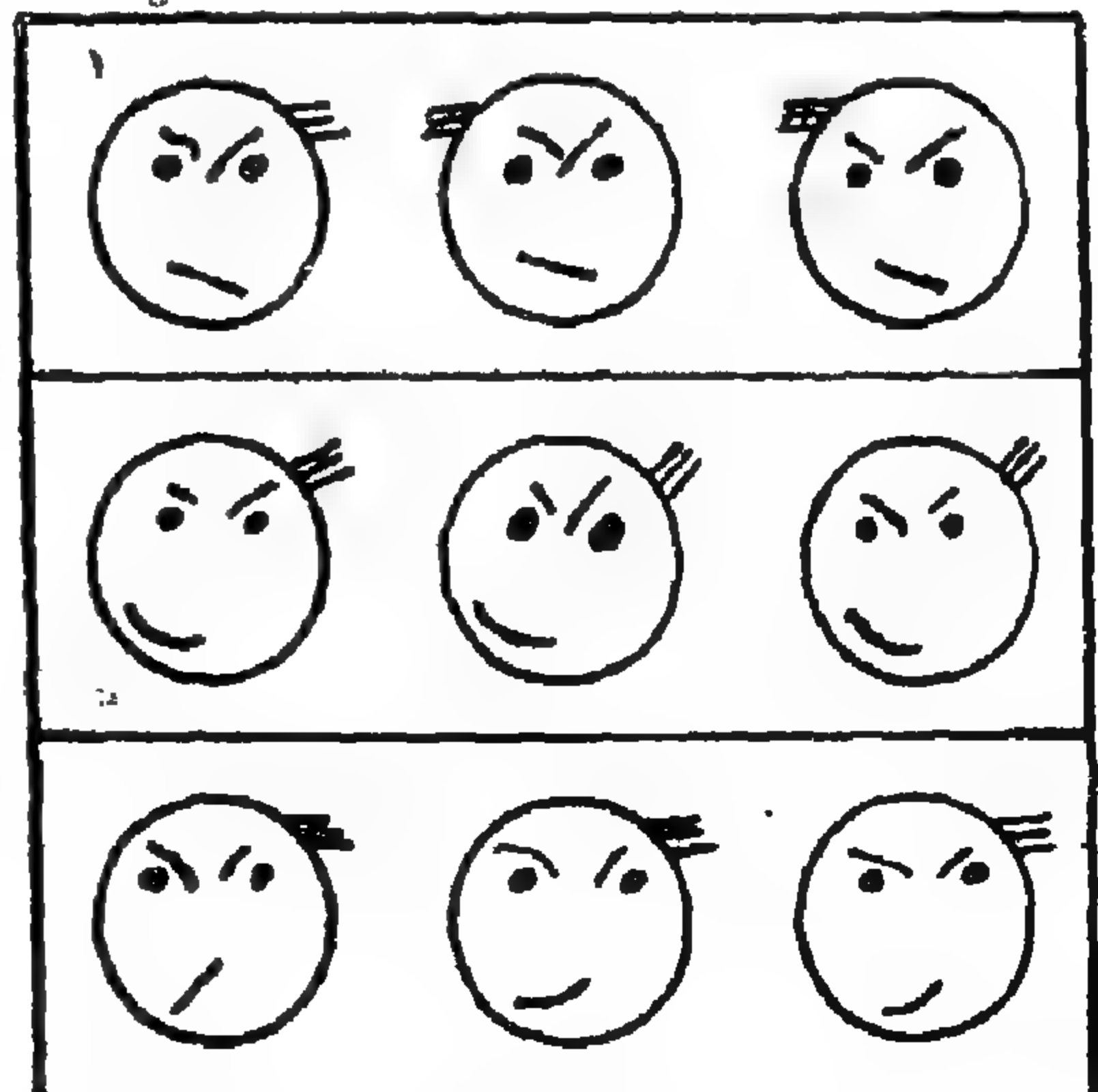
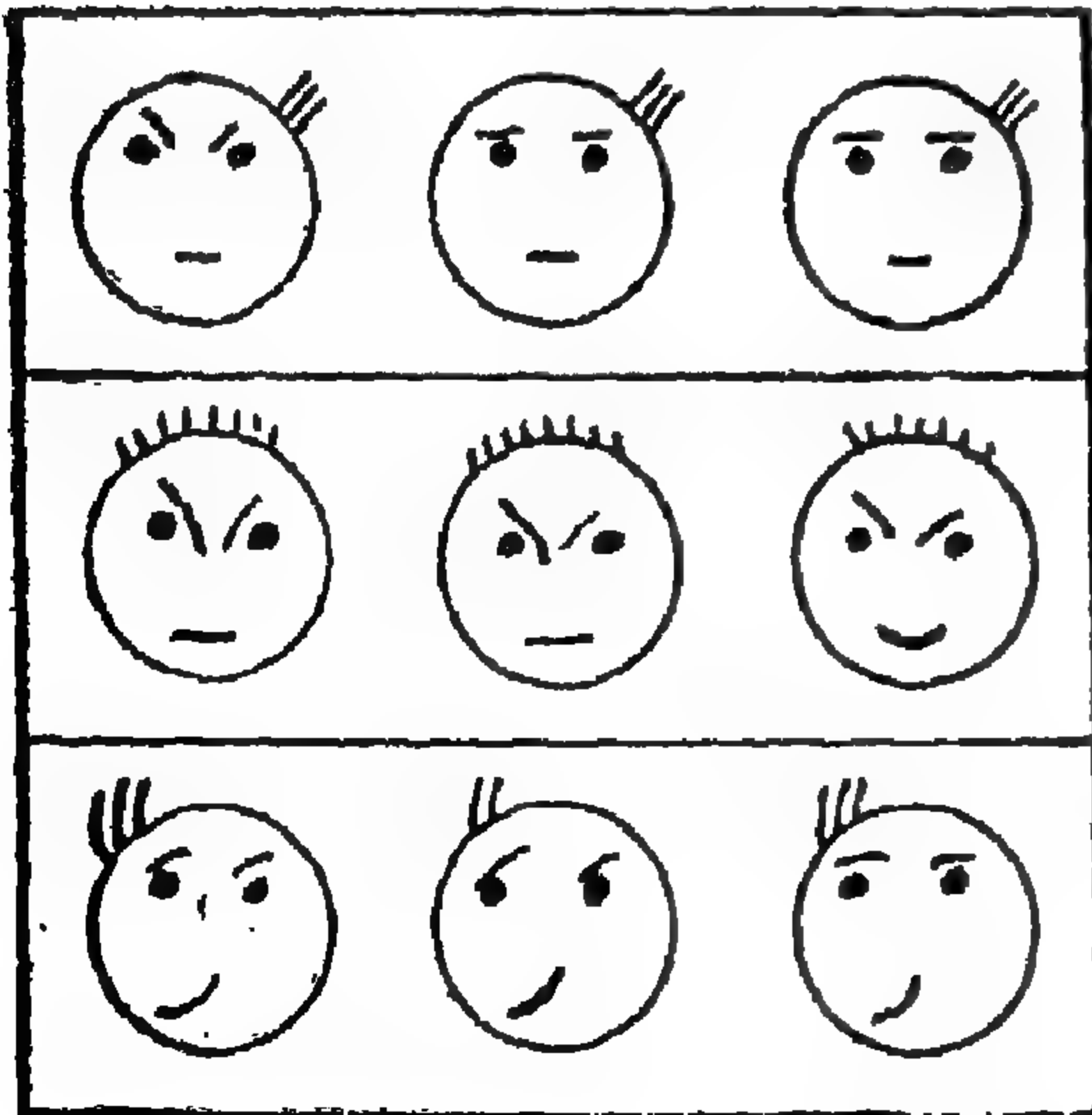


أنظر بدقة لترى لماذا وضعت العلامة على الوجه الأوسط ، والفهم هو الجزء المختلف .

وثمة صف آخر من الوجوه فالحصها بدقة وضع علامة على الوجه المخالف .



يجب أن تكون قد وضعت علامة على الوجه الأول من جهة اليمين . وإليك صوراً أخرى لنتمرن عليها فضع علامة على الوجه المخالف للوجهين الآخرين الموجودين معه في نفس الصف .



ويشتمل الاختبار على ستين صفاً من الوجوه .

٦ — التفكير الاستدلالي

الكتابة السرية

في العمود الأول ثلاث كلمات هي « شهد » و « شفق » و « دهش » ، وفي العمود الثاني كتابة سرية ، وقد كتبت الكلمات برموز سرية ، فكل عدد يرمز إلى حرف من الحروف ، وعليك أن تجد الحرف الذي يطابق كل عدد . وليست الكلمات بنفس النظام في العمودين الأول والثاني ، وعليك أن تكتب في العمود الأخير الخاص بالترجمة الكلمات بنفس الترتيب كما هو في الكتابة السرية .

شهد	٣	٨	٦	—	—	—
شفق	٥	٨	٢	—	—	—
دهش	٣	٨	٥	—	—	—

وثمة عدة طرق لحل مثل هذه المسألة وإليك إحدى هذه الطرق ، فافحص بدقة الكلمات الثلاثة في العمود الأول ولا حظ أن اثنين من الكلمات تبدأ بنفس الحرف ، والكلمتان « شهد » و « شفق » تبدأن بنفس الحرف (ش) والعدد الذي يقابل بدء كلتيه هو (٣) وترمز إلى الحرف (ش) فاكتب (ش) في كل من المسافات الثلاثة لتناظر الأعداد (٣) .

وتبدأ الكلمة الأخرى بحرف (د) ولذلك ينبغي أن يرمز « د » ، إلى ذلك الحرف ، فاكتب « د » في كل من المسافتين المقابلتين للعدد « د » .

والحرف الأوسط في كلمة من كلمات العمود الأول هو « ه » ، والعدد الأوسط في الكتابة السرية هو « ٨ » ، ويبين ذلك أن « ٨ » ترمز إلى الحرف « ه » ، فاكتب الحرف « ه » في جميع المسافات الوسطى في العمود الثالث .

والكلمة والوحيدة غير الكاملة الآن هي « شق » ، ولذلك فإن رقم
« ٦ » يجب أن يقابل الحرف « ق » ، فاكتب « ق » في المسافة الأخيرة
للكلمة الأولى . ويجب أن تكون الكلمات في العمود الأخير بهذا الترتيب
شق ودهش وشهد .

وإليك مثالا لمسألة أخرى حيث تختلف الكتابة السرية فيها ، فابدأ
بحلها لتوصل إلى الحرف الذي يرمز إليه كل عدد ، واكتب الكلمات في
في الأما كن الصحيحة في العمود الثالث .

الكلمات	الكتابة السرية	الترجمة
سعر	٨ ٠ ٩	— — —
فأر	٥ ٢ ٨	— — —
بأس	٤ ٢ ٩	— — —

هل لا حظت أن كلمتين من هذه الكلمات تنتهيان بحرف « ر » ؟ وأن
العدد الذي يتكرر مرتين ليقابل حرفا أخيرا هو « ٩ » . ولذا فإن « ٩ »
يجب أن ترمز إلى « ر » ، فاكتب « ر » في العمود الأخير في المسافتين
المتناظرتين للعدد « ٩ » .

لا حظ الآن أن الكلمتين فأر وبأس بهما نفس الحرف الأوسط
« أ » ، وأن الرقم الذي يتكرر مرتين في وسط الكلمة هو « ٢ » ، فاكتب
« أ » في المسافتين المتقابلتين للعدد « ٢ » .

وبانتهاك من كلمة « فأر » تجد أن الكلمة الأخرى التي تنتهي بالحرف
« ر » هي « سعر » ، فاكتبها ، وحينئذ ينبغي أن تكون الكلمة الثانية في
الترجمة هي « بأس » ، لأن الرقم « ٨ » يقابل حرف « س » في كلمة « سعر » ،
ولذا فإن الكلمات الثلاث في العمود الأخير هي « سعر » و « بأس »
و « فأر » .

والمطلوب منك في هذه المسألة الآتية أن توجد الحروف المقابلة

الأعداد فاكتبها في العمود الثالث . ويساعدك في الحل إذا لاحظت أن هناك ثلاثة حروف د ل ، في الكلمات الثلاثة . أوجد العدد الذي يتكرر ثلاث مرات واكتب حروف د ل ، في المسافة المقابلة في العمود الثالث :

لسع	٨	٥	١	—	—	—
جلس	٢	٥	٣	—	—	—
ولد	٥	٣	٩	—	—	—

وينبغي أن تكون قد كتبت الكلمات بهذا الترتيب : (ولد) و د جلس ، و لسع .

حاول حل المسألة الآتية ولاحظ وجود حرف واحد د ي ، في إحدى هذه الكلمات الثلاثة ، فاوجد العدد الذي لم يتكرر وبذلك يصبح حل المسألة سهلاً .

الكلمات	الكتابة السرية	الترجمة
بكي	٤ ٢ ٨	— — —
بكر	٤ ٢ ٩	— — —
ركب	٧ ٢ ٤	— — —

وينبغي أن تكون قد كتبت الكلمات في العمود الثالث بهذا الترتيب : د بكر ، و د بكي ، و د ركب .

ترجم الكلمات في المسألتين الآتيتين مستخدماً الكتابة السرية ، واكتب الكلمات في أماكنها الصحيحة في العمود الثالث .

الكلمات	الكتابة السرية	الترجمة
مات	٢ ٤ ٦	— — —
فات	٨ ٣ ٢	— — —
ملف	٨ ٤ ٦	— — —

الكلمات	الكتابة السرية	الترجمة
جری	٢ ٣ ٩	— — —
وجع	٢ ٤ ٩	— — —
جوى	٣ ٢ ٩	— — —

سلاسل الحروف

اقرأ الحروف الآتية :

ا ا ا ا ا ا ا —

يجب أن يكون الحرف المكمل لهذه السلسلة هو ا .
اقرأ الصف التالى من الحروف واكتب الحرف المكمل لهذه السلسلة
فى المسافة المخصصة له .

ت ا ث ا ج ا ح ا —

ينبغى أن تكون قد كتبت الحرف خ . اقرأ الآن سلسلة الحروف
الآتية وضع فى كل مسافة متروكة الحرف الذى يكمل السلسلة .

ث ث ث ث ث —

ا ا ب ب ت ت ث ث —

ا ب م ت ث م ج ح م خ د م —

ينبغى أن تكون قد كتبت الحروف ت ، ج ، ذ

حل المسألة الآتية واكتب الحرف الصحيح فى المسافة المتروكة .

ا ا ب ب ب ت ت ت ث ث —

ا م ب ن ا م ب ن ا م ب —

ا ب ش ت ث ش ج ح ش خ د ش —

ع غ ع ف ع ق ع ك ع ل ع م —

ا ب ت ث ا ب ت ج ا ب ت ح ا ب ت —

اختلاف الحروف

لاحظ مجموعات الحروف الآتية :

ا ب ت ا ت ا ث ا ت ح د خ ت ا ا

يوجد حرفان ا في ثلاثة من هذه المجموعات فضع علامة على المجموعة التي ليس بها حرفان من ا .

في المسألة الآتية ثلاث مجموعات متشابهة فضع علامة أمام كل من هذه المجموعات الثلاثة .

م ك ع ش ا ب ت ث ش ص ض ط ج ح خ د

ترتب الحروف في ثلاثة مجموعات ترتيباً أبجدياً . بينما لا يكون ترتيب الحروف في المجموعة الأولى أبجدياً ولذا نضع علامة لنبين مخالفتها .
في الصف التالي ثلاث مجموعات متشابهة نضع علامة على المجموعة المخالفة لها .

ز ا ب ت ز ج ح خ س ض ط ظ ز ق ك ل

تبدأ ثلاثة مجموعات من السابقة بالحرف (ز) ويجب أن تكون قد علمت على المجموعة التي تبدأ بالحرف (س) لأنها مخالفة لغيرها .

ضع علامة أمام المجموعة المخالفة في المسألة الآتية :

ا ت ث ج ذ س ش ص س ص ض ط ظ غ ف ق

يوجد حرف واحد محذوف في ثلاثة مجموعات من السابقة وينبغي أن تكون قد علمت على المجموعة الثانية وهي المخالفة :

في كل صف من المسائل الآتية ثلاث مجموعات متشابهة نضع علامة أمام المجموعة التي تختلف عنها :

ا ا ف ك	ا ا ا ع	ا ا ا ش	ا ا ا ب
ط ض ص ر ض	ش ع ك م	د خ ج ح	ث ت ب ا
ب ت ث ب	ح خ د ح	س ش ص س	ع غ ف ف
ع غ ف ل	ز س ش ض	ح خ در	ا ب ت ج

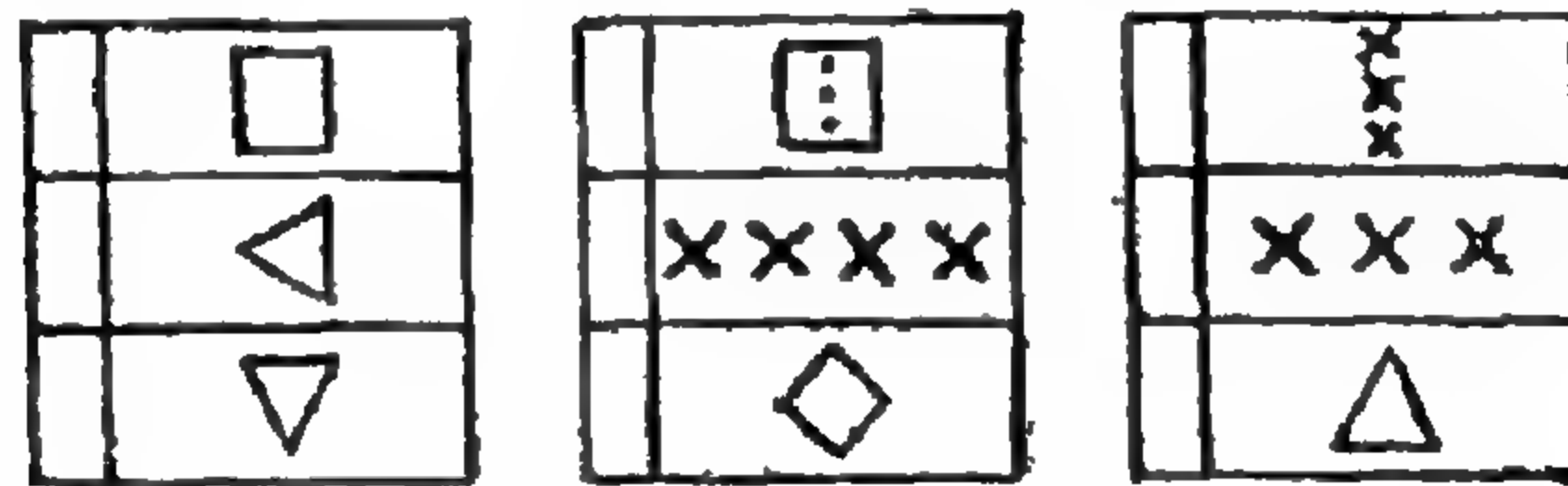
٧ - الذاكرة

التعرف على الأشكال

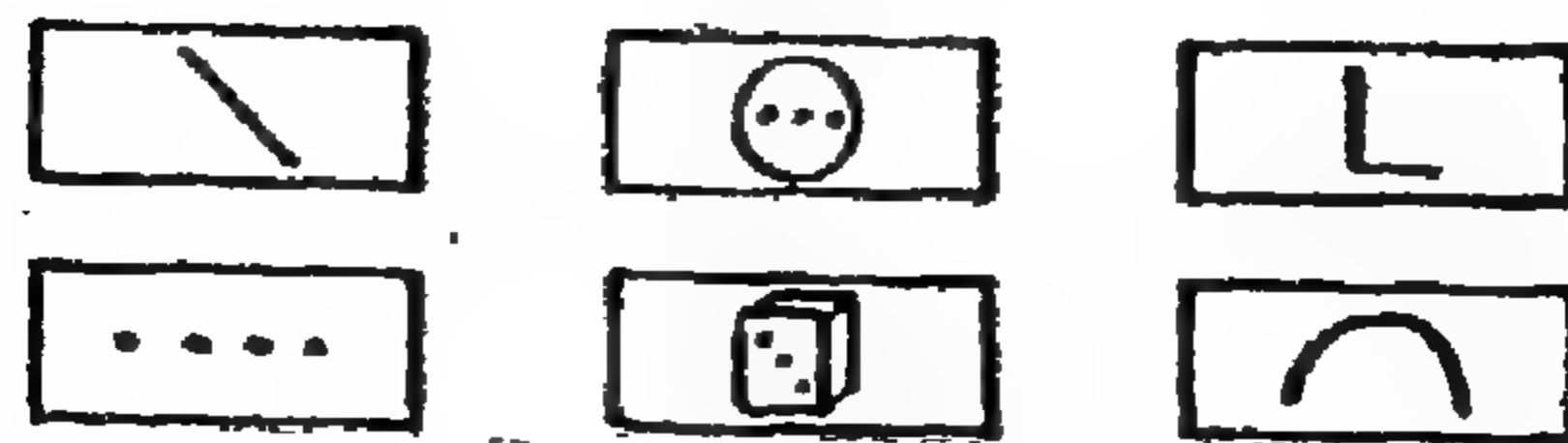
افحص الأشكال التالية كي تستطيع أن تتعرف عليها عندما تراها مرة ثانية ..



في القائمة التالية ضع علامة (✓) بعد كل شكل سبق تحديده .



وبطريقة مماثلة افحص القائمة التالية لكي يمكنك وضع علامات أمام هذه الأشكال عندما تراها مرة ثانية في الصفحة التالية.



ويحتوى الاختبار الأصيل على عشرين شكلاً يوضع أمامها علامات في قائمة مكونة من ستين شكلاً مبيّنة على ورقة منفصلة .

الحروف الأولى والحروف الأخيرة

يقابل كل شيء في القائمة التالية عدد معين . فالعدد المقابل للصندوق هو ٦٦ . والعدد الذى يقابل كرسي هو ٢١ وهكذا . وعليك أن تتذكر العدد المقابل لكل من هذه الأشياء .

وعلى الصفحة التالية توجد أسماء هذه الأشياء مدونة بنظام مخالف . وسيطلب منك أن تكتب العدد المقابل لكل شيء . وإذا كانت الكتابة تساعدك على التذكر ، فيمكنك أن تكتب أزواج الكلمات والأعداد المقابلة لها في المسافة الخالية التالية .

استذكرها في صمت حتى يطلب منك أن تتوقف . ابدأ في استذكرها الآن دون انتظار لآى إشاره .

أعداد الأشياء	أعداد الأشياء	أعداد الأشياء
_____	_____	صندوق ٦٦
_____	_____	كرسي ٢١
_____	_____	مروحة ٩٢
_____	_____	مصباح ٧٧
_____	_____	

في الصف الأول مما يأتي كتبت الأعداد الصحيحة ، فأكتب العدد المقابل لكل شيء من الأشياء الأخرى . استمر في ذلك .

الشيء	العدد
الكرسي	٢١
المصباح	_____
الصندوق	_____
المروحة	_____

ويشتمل الاختبار الأصلي على خمسة عشر زوجاً من الكلمات وأعدادها .

الأسماء الأولى

في كل صف مما يأتي يوجد اسم مكتوب وعليك أن تتعلم هذه الأسماء جيداً حتى تستطيع أن تكتب الاسم الأخير إذا أعطيت الاسم الأول . ويوجد على الصفحة التالية الأسماء الأخيرة مكتوبة بنظام مخالف وسوف يطلب منك كتابة الأسماء الأولى .

إذا ساعدتك الكتابة على التذكر فتستطيع أن تنقل الكلمات الأولى والأخيرة على المسافات التالية . استذكر في صمت حتى يطلب منك أن تكف عن ذلك وأبدأ الاستدكار الآن . ولا تنتظر أي إشارة .

الاسم الأول	الاسم الأخير	الاسم الأول	الاسم الأخير
ماري	برون	_____	_____
جون	دافيز	_____	_____
روث	برستون	_____	_____
فرد	سميث	_____	_____

في الصف الأول كتب الإسم الأول فاكتب الأسماء الأولى الصحيحة
في المسافات الخالية .

الاسم الأخير

الاسم الأول

برستون

روث

براون

—

سميث

—

دافيز

—

ويتضمن الاختبار تذكر عشرين إسما كان من الواجب أن ترتبط
بالأسماء الأخيرة .

الفصل الثالث

نمو الطفل الذكي

تؤثر اختبارات الذكاء ، في الدول التي تقبى نظاما للتوجيه التعليمي بعد المرحلة الأولى على حياة الأطفال ومستقبلهم المهني ، ونوع الدراسة التي يوجهون إليها بعد سن الحادية عشرة تبعا لنتائج هذه الاختبارات . وعلى ذلك يحق لنا أن نتساءل عن دقة تنبؤ هذه الاختبارات ، وهذه مشكلة هامة جداً تختلف تمام الاختلاف عن مشكلة أخرى غالباً ما نخلط بينهما، وهي التي تتعلق بتوضيح مدى ارتباط اختبار ذكاء معين بالتحصيل . ولنضرب مثلاً لتوضيح الفرق بين هاتين المشكلتين . وهو أننا لو طبقنا اختباراً للذكاء على ألف من ضباط الجيش الذين يرسلون فيما بعد إلى مركز للتدريب، فسيرفض بعضهم نتيجة اخفاقه في المواد الدراسية التي يتلقاها هناك بينما يقبل البعض الآخر . ويمكننا قياس مدى الارتباط الموجود بين الذكاء كما تقيسه اختباراتنا وبين النجاح في مركز التدريب ، ولذا يمكننا أن نبين مدى استطاعتنا استخدام نتائج اختبار الذكاء في التنبؤ بالنجاح في هذا التدريب . وإذا أخذنا مثلاً مخالفاً للسابق وفرضنا أنه كان علينا أن نطبق اختبارات الذكاء على أبناء ضباط الجيش ممن تتراوح أعمارهم حول سن السادسة ، الذين أعدهم أبائهم الفخوورن للعمل في الجيش مستقبلاً ولنفرض كذلك حدوث ما ليس محتملاً، فصمم جميع هؤلاء الأطفال على الالتحاق بالجيش ، وذهبوا إلى مركز التدريب بعد أخذ اختبار ذكاء آخر قبيل البدء في تدريبهم هناك ، ألا يمكن استخدام اختبار الذكاء الذي أعطى لهم في سن السادسة للتنبؤ بالنجاح في التدريب كما يمكن كذلك التنبؤ بنتيجة اختبار للذكاء أعطى هؤلاء الأفراد قبل ذهابهم مباشرة إلى مركز التدريب . فإذا بقيت نسب ذكاء الأطفال ثابتة من وقت اختبارهم الأول عند سن السادسة إلى وقت

اختبارهم الثاني عند سن العشرين ، يقال عندئذ إن الاختبار يمكن استخدامه بنفس الجودة التي يمكن استخدامها الاختبار الثاني بها للتنبؤ بالنجاح في التدريب لأن الاختبارين سيبييانان حتما نفس الإجابة .

ولكن إذا كان هناك تغيرات في نسبة الذكاء من سنة إلى أخرى فإن اختبار الذكاء عندئذ الذي أعطى في سن السادسة لن يتنبأ على الإطلاق تنبؤا حسنا بنتائج اختبار الذكاء الذي طبق في العشرين ، وكذلك لن يتنبأ بالمرّة بالنتائج في مركز التدريب ، وإذا بقيت نسبة الذكاء ثابتة فإن استخدام اختبار الذكاء حينئذ لتحديد وضع طفل أو شخص كبير في تلك اللحظة بالنسبة لغيره من نفس العمر سوف يحقق إلى حد بعيد نفس الشيء كالتنبؤ بما سوف يكون عليه وضعه في المستقبل . وعلى أي حال فإذا لم تبقى نسبة الذكاء ثابتة فإن اختبارات الذكاء ستبقى مفيدة كقياس لتحديد مركز الطفل أو الراشد بالنسبة لأقرانه في وقت تطبيق الاختبار ، ولكن قد يتعذر استخدامها بنجاح كبير لتحديد وضعه في المستقبل . ولذا يجب علينا أن نستقصى درجة ثبوت نسبة الذكاء .

وقد يبدو مثل هذا الاستقصاء بالنسبة لكثير من الناس غير ضروري وشيئاً كمالياً لأنهم قد اقتصروا بناء على براهمين متكررة بأن نسب الذكاء تظل ثابتة وأننا لسنا في حاجة ماسة إلى التمييز بين هدفين لاختبارات الذكاء هما قياس الذكاء أولاً والتنبؤ عنه ثانياً ول سوء الحظ فإن الأدلة تشير إلى اتجاه مخالف لذلك إذ وجد عدد كبير من الدراسات وأشهرها الدراسة المأثورة التي أجراها « ديربورن » Dearborn و « روثني » Rothney وقاما فيها بتتبع مجموعة كبيرة من الأطفال لفترات تراوحت بين عشر سنوات أو أكثر تم فيها اختبار الأطفال ثم أعيد اختبارهم سنوياً حتى يتسنى ملاحظة التغيرات في نسبة الذكاء وتتبعها . والنتائج التالية مستمدة من استقصاء حوالي ثلاثين بحثاً ، والنتيجة العامة هي : إن مقدار الارتباط بين الاختبار ونفسه دالة

مباشرة للفترة بين الاختبارين ، فإذا كنا بصدد معالجة اختبار ذي درجة ثبات عالية وجيد التكوين ، مثل اختبار استانفورد - بينيه ، الذي يعتبر بحق أكثر الاختبارات شيوعاً ، فإننا نتوقع أن يكون معامل الارتباط بين الاختبار ونفسه بعد أيام قليلة أو أسبوع حوالى ٠.٩٥ . إذا انقضى بين تطبيق الاختبار وإعادة تطبيقه سنة ، فإن الارتباط سيناقص إلى ٠.٩١ . وإذا امتدت هذه الفترة إلى سنتين فإن الارتباط سيكون ٠.٨٧ . ولكل سنة إضافية ينقص الارتباط بمقدار ٠.٠٤ ، فيكون بعد ثلاث سنوات ٠.٨٣ . وبعد أربع سنوات ٠.٧٩ . ثم يكون ٠.٥٥ . بعد عشر سنوات ، ومن المعروف أن الارتباط الذى مقداره ٠.٥٥ . تكون قدرته على التنبؤ ضعيفة للغاية إذ يتعدى مستوى التنبؤ القائم على الصدفة ، أى ما بينى على طسة قطعة من النقود ، بحوالى ١ . فى المائة فقط ، ومن ثم يكون مثل هذا المقدار من الارتباط غير مرض . ويمكن أن يلاحظ أن هذه الأرقام تبقى ثابتة خلال مدى محدود نسبياً فحسب . فقبل سن السادسة لا يكون التنبؤ دقيقاً إلى حد كبير أكثر مما يمكن أن تبينه هذه الأرقام . فاجراء الاختبار قبل سن الثانية لا تكون له دقة تنبؤية بالمرّة لما يكون عليه الذكاء فى مرحلة الرشد . وفى سن الثالثة والرابعة يصبح التنبؤ موجبا ولا كنهه طفيف غير أن المعاملات تكون صغيرة بالدرجة تجعلها غير مجدية فى جميع الأغراض العملية . وعلى العموم ، فإن إجراء اختبار الذكاء قبل سن السادسة أو الخامسة يعد عملاً ينبغى ألا نشجعه لما يحتمل أن يسببه من آمال ومخاوف خاطئة وعجزه عن تقديم تدعيم صادق لذلك أننا نجد دقة ومن ناحية أخرى ، يبدو من المعقول أن نستخلص مما لدينا من أدلة تنبؤية معقولة بعد سن الخامسة عشرة لنتائج اختبارات الذكاء حتى فى فترة ثلاثين سنة أو أكثر . ولقد قدر أننا نتوقع ارتباط يصعد إلى ٠.٨٠ بين درجات اختبار الذكاء إذا طبق على مجموعه من المراهقين وبين درجاتهم إذا طبق عليهم بعد ذلك بثلاثين عاماً ملم يتعرض الجهاز العصبي المركزى للإصابة مادية .

هل من الممكن تبرير هذه النتائج والوصول إلى فرض وصفي ؟ لقد بين « أندرسون ، Anderson » أن الآراء التالية تمدنا بإطار معقول للنتائج الملاحظة . فإذا اعتبرنا قدرة الطفل في سن معينة كنوع من رأس المال يقدر بعدة جنهات كلها نما ذكاء الطفل خلال طفواته فإن ذلك يماثل إضافة بعض الرصيد إلى رأس المال الأصلي ويكتمل رأس المال هذا حينما يصل الطفل إلى غاية المراهقة وسن الرشد . وإذا فرضنا كذلك أنه يمكننا قياس قدرة الطفل بدقة تامة أو مقدار رأس المال - وذلك على أساس تمثيلنا - حينئذ يتطلب الفرض الخاص ببقاء نسبة الذكاء ثابتة أن يكون مبلغ النقود المضاف إلى رأس المال كل سنة (الزيادة في قدرة الطفل) نسبة ثابتة من مجموع المبلغ السابق لرأس المال . وهكذا فالطفل ذي العشرين وحدة سوف يضيف وحدتين سنوياً بينما يضيف الطفل ذو الستين وحدة ست وحدات والطفل ذو المائة والعشرين سوف يضيف اثنتي عشر وحدة إلى رصيده الحالي .

وثمة فرض آخر وهو أن الزيادات السنوية لا ترتبط مع رأس المال الموجود ، وبعبارة أخرى فالطفل الذي يكون رأس ماله صغيراً قد يحصل على زيادة أكثر في سنة معينة ، وقد يحصل طفل رأس ماله كبير على زيادة أقل . ومن الواضح أن ذلك هو ما يحدث وما تعزى إليه النتائج الملاحظة . فعندما يكون الطفل صغيراً جداً فإن رأس المال - كما كان - يكون كذلك ضئيلاً جداً ، وقد تكون الزيادة في الحجم المطلق كبيرة كرأس المال ، ولكن إذا لم يكن الاثنان مرتبطين الواحد منهما بالآخر فمن الواضح عندئذ أنه لا يمكن بمعرفة مقدار رأس المال عند سن الثانية التنبؤ بما سيكون عليه مقداره عند سن الثالثة عند ما تضاف إليه زيادة مجهولة القيمة ، وينمو الطفل فإن الحجم المطلق لرأس المال يزداد ويصبح الحجم النسبي للزيادة أقل أهمية . وبمجرد بلوغ مرحلة المراهقة يكتمل رأس المال ولا تضاف إليه أي زيادات ، وبالتالي يصبح التنبؤ بذكاء الراشد أكثر صحة ، فكما تقدم الطفل في السن فإن رأس

يماله من القدرة سوف يحجب أهمية الزيادة الصغيرة نسبياً التي تقع خلال السنوات القليلة الأخيرة .

ويرتب على هذه الاعتبارات أن تكون إختبارات الذكاء الموجودة والتي يقوم جميعها على افتراض ثبوت نسبة الذكاء ، مقاييس فائقة الحد في جودتها لقياس القدرة العقلية وقت إستخدامها . ولكنها تكون هزيلة في تنبؤاتها بالنجاح في المستقبل إذا طبقت على الأطفال . والنتيجة الواضحة التي يمكن إستخلاصها من هذه الحقيقة بالتأكيد ، أنه إذا أردنا أن نعرف قدرة الطفل الحالية وفي نفس الوقت أن نتنبأ عن قدرته في المستقبل ، فعندئذ لا يمكننا الإعتماد على اختبار واحد بل يجب أن نطبق إختبارين أحدهما لإيجاد حجم رأس المال والثاني لمحاولة قياس حجم الزيادات المحتملة .

وهذه مشكلة جد عسيرة ، فلتقدير ذكاء الطفل الحالي فإن كل ما نحتاجه هو قياسه ومقارنته بغيره من الأطفال من نفس السن . ويتطلب التنبؤ لعشر سنوات مقبلة على الأقل متابعة كل مجموعة الأطفال الذين ينبغي قياس ذكائهم عند بدء فترة العشر سنوات وعند نهايتها . ويعتبر هذا الاقتراح صعباً من الناحية التطبيقية كما يكلف كثيراً من الناحية المادية . ومع ذلك ، فلقد أجرى وكانت نتائجه بيّنة للغاية . وقد بينت هذه النتائج أن عناصر إختبار الذكاء الأول التي تعتبر مقاييس جيدة لمنزلة الطفل بين أقرانه في ذلك الوقت ، لا تعد مقاييس جيدة للتنبؤ بمكانته فيما بعد والعكس ؛ فالعناصر التي تعتبر مقاييس هزيلة لمنزله الحالية قد تكون مقاييس جيدة لمنزله في المستقبل . ولذا فقد ثبت أنه يمكننا وضع إختبارات للتنبؤ بذكاء الطفل بعد عشر سنوات مثلاً ، ولكن هذه الإختبارات سوف تختلف إلى حد كبير عن الإختبارات التي نستخدم الآن والتي تعتبر أكثر صلاحية في تحديد قدرة الطفل العقلية (وهو في سن العشرة) . في اللحظة الحالية . وهكذا تعتبر ثبوت نسبة

الذكاء أمرا مجهولا ، وتكون مضللة إلى حد بعيد إذا التزمنا بها حرفيا .
والتنبؤ في هذا المجال أكثر صعوبة عما بدا عليه بالنسبة للمتحمسين الأوائل ،
ونحتاج إلى مزيد من البحث المفصل قبل أن نستطيع القول بأي درجة
من التأكد بما سوف تكون عليه نسبة ذكاء هشام الصغير عندما ينمو ،
أو ما إذا كانت هـند ستكون في الواقع ضعيفة العقل عندما تصل عالم
المرأة .

وقد يكون من السهل أن نبالغ في قوة هذه الاعتراضات ، فمن الواضح
أن اختبارات الذكاء الحالية تعد مرضية تماما للتنبؤ في حالة الراشدين وكذلك
الأطفال الكبار . ، وهي ليست صالحة إلى حد كبير بالنسبة للأطفال الصغار
فيما بين سن السادسة والعاشرة . وتكون عديمة الفائدة تماما لمن هم دون
سن السادسة . وعلى الرغم من هذا القصور فربما كان من الممتع أن ترى —
على الأقل في دراسة واحدة — نجاح التنبؤ بمستقبل جماعة كبيرة من الأطفال
الذكاء جدا . وفي تقدير النجاح الذي أحرزته الدراسة التتبعية لمدة خمس
وعشرين سنة التي قام بها تerman وزملاؤه بجامعة « استانفورد »
ينبغي أن يكون من الواضح دائما في ذهننا أن الاختبارات التي استعملوها
كانت من بين تلك الاختبارات الأولى التي تعد دون الاختبارات الحديثة
في كثير من النواحي . وكانت عرضة كذلك لجميع الصعوبات والتعقيدات التي
سبق تناولها . ومع ذلك فبالرغم من جميع هذه الصعوبات فقد يدهش القارىء
عندما يرى مدى ما وصلت إليه هذه الأدوات الخاطئة منذ ربع قرن مضى في
نجاحها في التنبؤ الدقيق بمستقبل هذه الجماعة الكبيرة من الأطفال
الموهوبين .

ولقد كانت المشكلة الجوهرية التي وصفها « تerman »
بنفسه ، تتصل بالسؤال عن السمات الجسمية والعقلية والشخصية التي تعد
من خصائص الطفل المتفوق عقليا ، وعن نوع الشخص الراشد الذي سيكونه

هذا الطفل المثالي الموهوب؟ ووجد باتباعه أساليب مختلفة أن ١٥٠٠ طفل من بين تلاميذ مدارس بلغ تعدادها حوالى ربع مليون جعلتهم نسب ذكائهم فى أعلى واحد فى المائة من هؤلاء التلاميذ جميعاً . وكانت نسب ذكائهم عمايا هي ١٤٠ أو أعلى من ذلك ، كما كان أذكى طفل فتاه زادت نسبة ذكائها عن ٢٠٠ . وحصل على بيانات مناسبة عن هؤلاء الأطفال ، فملاً أبائهم إستمارة خاصة بالبيانات تشتمل على اثنى عشر صفحة تناولت تاريخ النشأة وظروف الميلاد والتغذية الأولى وسن المشى والنطق والمرض والأعراض العصبية وطرق اكتساب عادات الطفولة الأولى وما إلى ذلك . وملأت مدرسة الطفل استمارة مشابهة لتلك الاستمارة خاصة بالبيانات المدرسية . وأجرى فحص طبي لمدة ساعة فتناول النظر والسمع والتغذية والهيمته والأسنان والقلب والرئتين والحالة العصبية وما إلى ذلك . ولقد أجريت كذلك سبع وثلاثين مقياساً ، أنثروبولوجياً وبمجموعة من إختبارات التحصيل المدرسية تستغرق ثلاث ساعات للإجابة عنها ولقدأ كمل هذه الصورة إختبارات الخلق وإختبارات الميول وسجلات جمع الكتب التى قرأت فى فترة شهرين ، كما ملئت البيانات الخاصة بالظروف المنزلية بواسطة الإخصائيين الإجتماعيين

وعلى الرغم من تساوى الفرص المتاحة لكل من الجنسين عند الإختبار ، إلا أن متوسط ذكاء الأولاد فاق متوسط ذكاء البنات وقد استبعد وترمان ، تماماً إحتمال التحيز عند انتقاء الأفراد للإختبار ، ومن ثم بقي إحتمال واحد أكثر إحتمالاً هو وجود تفوق فى المتوسط الحقيقى للأولاد فى الوظائف العقلية المخبرة ، وأن من المحتمل جداً إمكانية زيادة تباين الأولاد فى ذكائهم عنه فى حالة البنات ، ويؤدى ذلك إلى وجود كثير من الأولاد الأذكاء جداً والأولاد الأغبياء جداً . بخلاف ما يكون عليه الوضع فى حالة البنات إذ يقل التباين بينها وتميل كلها نحو المتوسط ، ولقد دعمت الأبحاث التى قام بها طومسون Thomson فى اسكتلندا هذا الفرض وأظهر الأولاد دائماً تبايناً أكبر منه فى حالة البنات . والحقيقة المعروفة جيداً وهى أن عدد العباقرة

وضعاف العقول من الذكور أكبر من عددهم في حالة الإناث من المفروض أنها تدعم هذا النقاش بالرغم من وجود أسباب تاريخية واجتماعية واضحة قد تكون مساوية لذلك في تفسير هذه الحقائق .

ولقد عارضت نتائج القياسات البدنية والفحوص الطبية وجهة النظر السائدة فيما يتعلق بالأطفال الأذكاء جداً . وعرفت وجهة النظر هذه أحياناً بفرض « التعويض » - وبعبارة أخرى فالطفل الذكي المتفوق في الناحية العقلية من المفروض أن يكون معوقاً في نواحي أخرى ، فصور على أنه صغير الجسم مريض ، غائر الصدر منحني الكتفين ثقيل الظل وعصبي وفي حالة توتر ويكون جازاً أكثر من اللازم ، ومن ناحية أخرى ، فالمفروض في الطفل الأقل ذكاءً أن يعرض غيباءه بصفات خلقية وصحة وجسم قوى البنيان مما يجعله متفوقاً في تلك النواحي عن الطفل الموهوب . وتناقض الحقائق التي لخصها ترمان هذا الفرض تماماً إذ كان الأطفال الموهوبون كجماعة أعلى في الغالب عن المستويات الخاصة بالأطفال المولودين بأمريكا من حيث الطول والوزن وسعة الرئة وعرض الكتفين وقوة العضلات مما أظهر تفوقهم على الطفل المتوسط في تلك الصفات . ومن ناحية الصحة تفوق الأطفال الموهوبون . بينما كان حدوث العادات والزمات العصبية واللجاجة مماثلاً للحالة السائدة بين عموم الأطفال من نفس السن . وتناسب هذه الحقائق إطاراً أكبر من ذلك ، إذ تبين أننا بدلاً من قانون « التعويض » ، فإننا نتناول قانون « الارتباط » ، فالأطفال المتفوقون في ذكائهم يميلون إلى التفوق كذلك بالنسبة لجميع الصفات الأخرى المستحبة تقريباً التي بحثها « ترمان » ،

ولقد كان التحصيل الدراسي لفئة الموهوبين حسناً ، فهم يفوقون أقرانهم في ذلك ، وعلى العموم فالتحصيل التعليمي للطفل الموهوب أعلى بمقدار ٤٤ في المائة من معياره ، أو بعبارة أخرى مخالفة ، كان متوسط معلومات لطفل الموهوب في مستوى طفل متوسط يزيد عمره عنه بمقدار ٤٤ في

المائة، وبالنسبة لميول الطفل الموهوب فإنها إذا قورنت بميول الطفل المتوسط تفوقها في الناحية العقلية وتبزهـا إلى حد ما في الناحية الاجتماعية ونماثلها تقريباً في الناحية الخاصة بالنشاط .

ولقد طبقت على الأطفال اختبارات متعددة خاصة بقياس الخلق والشخصية كما تم تقديرهم بواسطة معلمهم وذلك بالنسبة لمجموعة من السمات العقلية والاجتماعية والأخلاقية . وبينت هذه التقديرات عمليات تفوق الأطفال الموهوبين عن المعدل . ولقد كان ذلك حقيقياً بالنسبة للسمات الإرادية مثل قوة العزيمة والمثابرة والرغبة في التفوق والثقة بالنفس والفطنة وبعد النظر ، ويقل مدى ذلك التفوق فيما يتعلق بالسمات الانفعالية مثل روح المرح والابتهاج والتفائل وثبوت المزاج والسمات الخلقية مثل تحمل المسئولية والصدق والمشاركة الوجدانية والرقه والكرم والغيرة . وغالباً ما بينت تقديرات السمات الاجتماعية تفوق الطفل الموهوب في مجالات القيادة الشعبية والتحرر من الغرور وكذلك الولع بالجماعات الكبيرة .

وتدعم الاختبارات الموضوعية دقة هذه التقديرات إذ وجد أن ٦٧ في المائة من الأطفال الموهوبين يتفوقون على الطفل المتوسط من حيث السمات الانفعالية كما قدرها المعلم ، وكانت هذه النسبة نفسها مساوية بالضبط أو تفوق درجات الفئات الضابطة في اختبار للثبات الانفعالي . وبينت إختبارات موضوعية أخرى تفوق الطفل الموهوب في نواح أخرى متعددة . وبينت مقارنته هؤلاء الأولاد والنبات الموهوبين بغيرهم من الأطفال غير المنتقين أنهم أقل ميلاً إلى التفاخر أو المبالغة في معلوماتهم ، بل كانوا جديرين بالثقة فيهم عند الاغراء بالغش ، وكانت تفضيلاتهم في القراءة وتفضيلاتهم الخلقية وإتجاهاتهم الاجتماعية أكثر نفعاً ، وفي مجموعة اختبارات الخلق كان الطفل الموهوب في سن التاسعة نمائلاً للطفل المتوسط في سن الثانية عشر .

وكانت أهم نتائج الدراسة التتبعية التي أجريت بعد ٦ سنوات أنه لم يحدث تغير يذكر في هذه الصفات بالنسبة للمجموعة المتفوقة إلا في نواح قليلة الأهمية . وبصورة عامة ظلت الجماعة متفوقة عقليا وكان انخفاض نسبة ذكاء الأولاد طفيفا ، بينما كان إنخفاض هذه النسبة لدى البنات أكثر من ذلك بقليل ، وهذا هو أثر التراجع تجاه المتوسط الذي يمكن توقعه على أساس إحصائي بحت . ولقد ظل العمل المدرسي في مستوى عال يبرز غيره ، وكانت الجماعة الموهوبة متفوقة في المعدل بالنسبة للمستوى العام للأطفال المناظرين لهم في السن وذلك بالنسبة للسمات البدنية والعقلية والشخصية التي هي قيد البحث .

ولقد أجريت بحوث تتبعية أخرى عديدة كان آخرها ما أجرى بعد إنقضاء ربع قرن على الدراسة الأولى ، فكان متوسط عمر هذه الجماعة هو ٣٥ سنة فيمكن تقويمها بالنسبة لتحصيل الراشدين ، وكانت النتائج مشابهة من عدة نواح لتلك النتائج التي حصل عليها عندما كان الأفراد صغارا . ويمكننا أن نبدأ بنمط البيانات الأكثر موضوعية وهي القياسات البدنية ، فنجد أن متوسط طول الرجال الموهوبين كان ٥ أقدام و ١١ بوصة إذا قورن بمتوسط طول رجال الجيش الأمريكيين المختارين وهو ٥ أقدام و ٨ بوصات ، والمستوى العام لطلاب الجامعة وهو ٥ أقدام و ٨ بوصات . وكانت النساء الموهوبات كذلك أطول من المستوى العام لنساء الولايات المتحدة الأمريكية وكانت الأرقام هي ٥ أقدام و ٥ بوصات إذا قورنت مع ٥ أقدام و ٤ بوصات .

وعلى الرغم من عدم خضوع الصحة العامة للقياس المباشر إلا أنها كانت تبدو حسنة في الفئة الموهوبة ، ويصل « ترمان » من ذلك إلى أنه من المحتمل أن تكون تلك الفئة الموهوبة مساوية على الأقل أو متفوقة بالنسبة لعامة الناس وذلك فيما يتعلق بناحية الصحة العامة والطول والوزن والخلو من العيوب الخطيرة .

وربما كان من الممتع أن نجد الأرقام الخاصة بالصحة البدنية هي نفس الأرقام الخاصة بالصحة العقلية ، وإذا استوردنا لمناقشة فرض « التعويض » ، فغالباً ما يقال إن الأذكاء جداً أكثر استعداداً للاضطرابات العصبية والاضطرابات العقلية الأخرى . فلا يزال المثل المعروف بالتحالف الوثيق بين العبقرية والجنون يتوالى ذكره كما لو كان يقرر حقيقة على الرغم من من افتقاره إلى دليل يؤيده . ولقد تم تقدير الرجال والنساء في الجماعة الموهوبة بالنسبة للتكيف النفسى العام وذلك على أساس تاريخ حالاتهم . وثمة ثلاث أنماط هي : (١) التكيف الحسن ، (٢) سوء التكيف الجزئى ، (٣) سوء التكيف الخطير . وقسم أفراد النمط الثالث إلى (١٣) وهم غير المصابين بالذهان و (٣٠) وهم المصابون بالذهان ، وكان ميزان التقسيم تحت العنوانين الأخيرين هو تاريخ الانهيار العقلى الخطير الذى يكفى لحجز الشخص بالمصحة ، أو مستشفى الأمراض العقلية .

وكانت الفروق بين الجنسين ضئيلة بما أدى بالتالى ، « بترمان » إلى ضمهما معاً إذ وجد أن ٨١ فى المائة قد أظهروا تكيفاً حسناً ، و ١٥ فى المائة سوء تكيف جزئى و ٣ فى المائة سوء تكيف خطير دون الإصابة بالذهان وواحد فى المائة (وبدقة أكثر ٨٨ ، فى المائة) سوء تكيف خطير مع الإصابة بالذهان . وكانت هذه هي التقديرات فى سنة ١٩٤٠ ، ثم ارتفعت نسبة الحالات فى سنة ١٩٤٥ فى نمط (٣) إلى ٤ فى المائة و ١,٢٩ فى المائة على التوالى .

ومن العسير أن نحصل على الأرقام المقارنة ، فى حالتى التكيف الحسن وسوء التكيف الجزئى ، ولا يمكن الحصول عليها إلا فى حالة حدوث الإصابة بالجنون فقط وقد بينت مقارنة الأفراد الموهوبين فى عامى ١٩٤٠ و ١٩٤٥ بواسطة جداول التوقع المئوية بالنسبة إلى مجموع سكان المجتمع فى هذه السن ، أن احتمال حدوث الإصابة بالجنون للأفراد الموهوبين من الجنسين أقل بدرجة طفيفة عما نتوقعة بالنسبة لمجموع السكان . ويبين « بترمان » أنه

إذا نظرنا لجميع درجات سوء التكيف العقلي متضمننا ذلك النمط (٣) لا توجد نسبة كبيرة تدعو إلى الدهشة من الأفراد الموهوبين الذين تحسنوا إلى حد ملموس أو تم شفاؤهم . ويمكن أن يعزى ذلك إلى أن الذكاء المرتفع لعب دوراً كعامل في مثل هذا التحسن . ولا تستند هذه العبارة إلى أى أرقام مقارنة ، ويمكن أن يرجع القارئ إلى الفصل الخاص بتأثير العلاج النفسى كدليل يبين أن مثل هذا الشفاء الحاجل يكون قاعدة أكثر منه شذوذاً عن القاعدة ، ولذلك يمكننا أن نقرر أن عبارة « ترمان » الخاصة بسرعة شفاء ذوى الذكاء المرتفع بأنها غير مدعمة بالوقائع . ولم يجد « ترمان » أى ارتباط بين تقدير التكيف العقلي وبين نسبة الذكاء فى مرحلة الطفولة ، بل وجد علاقة عكسية إلى حد بسيط بين حدوث سوء التكيف ومقدار التربية .

ويمكننا أن نعود الآن إلى نتائج اختبارات الذكاء التى أجريت على هؤلاء الأشخاص عند بلوغهم حوالى سن الثلاثين فى المتوسط . وتعد مقارنة نسبة الذكاء بالغة الصعوبة نظراً لاعتبارات إحصائية واضحة ؛ فنسبة الذكاء كما نعرفها هى نسبة بين العمر العقلي والعمر الزمنى وتعتبر مقبولة فقط فى حالة الأطفال الذين يتزايد عمرهم العقلي بنسبة أو درجة واحدة مع عمرهم الزمنى ، فيكون من الواضح تعذر تطبيقها كلها تقدم السن وبقى العمر العقلي ساكناً أى بعد السادسة عشر ، أو يبدأ يتناقص بعد سن الأربعين تقريباً . وبينما يمكن الحصول على اختبارات جيدة التقنين صالحة للتطبيق على الأطفال الصغار ، ونعنى بها الاختبارات التى تسمح لنا بقياس قدراتهم إلى أقصى حد مهما كانوا أذكىاء ، فإن مثل هذه الاختبارات الخاصة بالكبار تعد نادرة . وما يوجد من هذه الاختبارات غير جيد فى تقنيته على عينة عشوائية من الناس . وعلى أى حال ، فيمكن التغلب على كل هذه الصعوبات بواسطة الطرق الإحصائية التى سوف لا أناقشها بالتفصيل هنا . ويكفى أن نذكر أن نسبة الذكاء لأفراد المجموعة الموهوبة فى مرحلة الرشد كما قدرها « تيرمان » كانت حوالى ١٣٤ . ويبين ذلك انخفاضاً واضحاً مقداره ١٧ درجة فى نسبة الذكاء عن متوسط الجماعة فى مرحلة الطفولة .

ويدخل « ترمان » في اعتباره ثلاث تفسيرات لهذا الانخفاض أولاً :
هو أخطاء القياس ، وثانيها إخفاق اختباري الذكاء المستعملين في الطفولة
والرشد على التوالي لقياس نفس الوظائف بالضبط وثالث تلك الاعتبارات
هو تغيرات النضج والتأثيرات البيئية والتعليمية . ويقدر « ترمان » أن
العاملين الأول والثاني كانا مسئولين عن نصف الانخفاض الظاهر تقريباً
تاركاً بذلك تسع نقاط أو عشرة يمكن إرجاعها إلى تغيرات النضج والبيئة ،
ومن المحتمل أن يتراوح الانخفاض الحقيقي البحت بعد ذلك الذي يرجع إلى
أخطاء القياس والإخفاق في قياس نفس الوظائف إلى ما بين خمسة أو عشرة
نقاط . وبالطبع فإن تلك النتائج خاصة بالمتوسط ، وبين الأطفال كأفراد
تغيرات على المقياس ارتفاعاً وانخفاضاً أكثر مما يمكن أن يوجد
في المتوسط . ومهما كان الأمر فيمكن أن يقال إن الاختبار الأصلي
لم يكن غير صالح تماماً للتنبؤ عن منزلة الأطفال العقلية النهائية في مرحلة
الرشد . كان متوسط تقديرات هؤلاء الرجال والنساء في الكليات عالياً ،
ولكنه لم يكن مرتفعاً دائماً كما كان ينتظر من مجموعة في مثل هذا الذكاء
البارز ، فكانت درجات الذكاء في مرحلة الطفولة للذين تخرجوا من الجامعة
أكبر من متيلاتها من لم يتخرجوا من الجامعة ، ووجدت فروق أكثر بتقليل
في نسب الذكاء بين الممتازين في تقديراتهم بالجامعة وبين الذين كانت تقديراتهم
متوسطة أو ضعيفة .

ولا يمكن أن يقال كذلك أن الاختبار قد فشل تماماً في التنبؤ عن التحصيل
الدراسي ، فقد تبين أن حوالي ٩٠ ٪ من الذكور الموهوبين ، و ٨٦ ٪
من البنات الموهوبات التحقوا بالدراسات العالية ، وتخرج في هذه الدراسات
٧٠ ٪ من الرجال و ٦٧ ٪ من البنات ، وتعتبر هذه النسبة ثمانية أضعاف
النسبة في المجتمع الأصلي لمقاطعة كاليفورنيا ، وقد لوحظ أن من الأمور
الجديرة بالاهتمام الوضع المهني للجامعة الموهوبة ودخلها إذا قورنت بالعينات
المتوسطة . فمن بين الموهوبين كان ٤٥ في المائة من أصحاب المهن الفنية إذا

قورنت بالمتوسط في كاليفورنيا وهو ٦ في المائة ، وكان منهم ٢٦ في المائة من المهن والأعمال التجارية الراقية إذا قورنت تلك النسبة بنسبة ٨ في المائة من المجموع الكلى للسكان في كاليفورنيا . ومن الناحية الأخرى كان من بينهم ٦ من المائة في الأعمال الفنية والكتابية البسيطة والحرف التجارية إذا قورنت هذه النسبة بالنسبة ٣٢ في المائة للمتوسط في كاليفورنيا . ووجد في المجموعة الموهوبة نسبة تقل عن ١٠ في المائة تشتغل بالأعمال التي تتطلب مهارة فنية بسيطة وكذلك الحرف الأخرى التي تتطلب تدريباً أو قدرة ضئيلة . علماً بأن النسبة هي ١٨ في المائة بكاليفورنيا في المتوسط . وبذلك كان عدد الموهوبين يفوق العدد الذي يمكن أن نتوقعه عن طريق الصدفة في الوظائف الفنية ثمانية مرات وكذلك كان الأشخاص الموهوبون عند مقارنتهم بغيرهم من خريجي الجامعة يفضلونهم إذ كان ٧١ في المائة من الموهوبين و ٥٥ في المائة تقريباً من خريجي الجامعة بوجه عام في أعلى درجتين من قمة سلم الوظائف الفنية . و الخلاصة أن الرجال الموهوبين من خريجي الجامعة ومن غير الخريجين يحتلون وظائف هامة ويقومون بدور القادة إلى مدى أبعد بكثير عن غيرهم من خريجي الجامعة ، . وبالنسبة لعدم التوظيف فقد وجد أن أقل من واحد في المائة من الرجال الموهوبين كانوا غير موظفين في سنة ١٩٤٠ إذا قورنت هذه النسبة بنسبة ١١ في المائة للذكور في كاليفورنيا من يمكن توظيفهم .

وقورن الرجال في مختلف الطوائف المهنية على أساس نسبة الذكاء في كل من مرحلتى الطفولة والرشد ، وكانت الفروق في نسبة الذكاء في مرحلة الطفولة ضئيلة للغاية إذ كان متوسط الدرجات ١٥٣٫٢ لمن هم في وظائف فنية و ١٥٢٫٦ لمن هم في وظائف شبه فنية وفي الأعمال التجارية العليا و ١٥٠٫٣ للأعمال الكتابية والحرف التي تتطلب مهارة وموظفي العمل التجاري القطاعي : وكان المتوسط هو ١٤٦٫٨ للجماعات الأخرى التي تنخفض في مستواها . وكان اختبار الذكاء للكبار وثيق الاتصال

بالتصنيفات المهنية، إذ تناقص متوسط الدرجات كلما هبطنا في سلم التصنيف المهني من أرقى المهن إلى أدناها، وتتفق هذه النتيجة بالطبع مع وجهة النظر القائلة بأن اختبارات الذكاء تكون أقل في دقة تنبؤها عن أساليب القياس الحالية المستعملة لقياس القدرات العقلية الطائفية.

ولقد وجد أن ما صدق على عينة الرجال كان صحيحا كذلك بالنسبة للنساء، فوجدت علاقة ضئيلة أو إنعدمت العلاقة بين المهنة ونسبة ذكاء الطفولة، ولكن وجدت علاقة كبيرة بين درجات اختبار ذكاء الكبار وبين منزلتهم المهنية، فكان النساء في الوظائف العليا ووظائف التدريس بالجامعة متفوقات إلى درجة واضحة وتلى ذلك في الترتيب، الأعمال الأخرى مثل العمل الإجتماعي والعمل بالمكتبات والتريض والكتابة وما إلى ذلك، وكان التدريس بالمدارس في المرتبة الثالثة بينما كانت أعمال المكاتب والعمل المنزلي هي أقلها جميعا.

وكان دخل الموهوبين من الرجال والنساء أعلى من دخل خريجي الجامعة عامة المساويين لهم في السن، والذين يزيد دخلهم إلى حد كبير عن دخل عينة عشوائية من الجنسين من أهالي ولاية كاليفورنيا وكان متوسط الدخل السنوي المكتسب في ١٩٤٠ للرجال الموهوبين من تراوحت أعمارهم بين ٣٠ و٣٩ سنة حوالي ١٠٠٠ دولار بالضغط ويزيد ذلك بمقدار ١٠٠ دولار عن متوسط الدخل السنوي لخريجي الجامعة. وفي عام ١٩٤٥ حدث تحسن كبير، فوجد أن الدخل البالغ قيمته ٢٥٠٠ دولار كان بين الموهوبين بنسبة بلغت ثمانية أمثال النسبة التي كان يمكن أن تتوقعها عن طريق الصدفة. وكان دخل حوالي نصف عدد الموهوبين هو ٢٠٠٠ دولار علما بأن نسبة من يحصلون على هذا الدخل من عائلات الولايات المتحدة الأمريكية هي ٧ في المائة.

ومن الواضح أنه لا يوجد أدنى شك في أن الموهوبين من الرجال والنساء قد التحقوا بأعمال أحسن من غيرهم من خريجي الجامعة واكتسبوا

أموالا أكثر منهم أو من المعدل في ولاية كاليفورنيا . وبالطبع فإن ذلك قد يرجع في جزء منه إلى حقيقة أن أبناء المجموعة المتفوقة قد جاءوا أنفسهم من مهن عليا . ومع ذلك فيجدر ملاحظة وجود المهن الفنية في حالة الرجال الموهوبين بنسبة تفوق ما كانت عليه بين آبائهم ، ويكون من العسير تفسير ذلك من زاوية البيئة .

ومن ناحية الزواج والسن الذي يتم فيه لم تبد المجموعة الموهوبة متميزة إلى حد كبير عن عامة السكان ، غير أن حدوث الزواج كان أكثر وضوحا وكانت سن الزواج منخفضة في حالة خريجي الجامعة من الموهوبين عنها في حالة خريجي الجامعة بوجه عام . وفي عام ١٩٤٥ أصبحت نسبة الطلاق أو الانفصال هي ١٤ في المائة بين الرجال و ١٦ في المائة بين النساء . ويبدو ذلك إلى حد كبير أقل مما يمكن توقعه بين عامة السكان . ولكن لم تيسر الاستفادة من الأرقام الدقيقة وكان من الواضح أن كثيرا من اختيارات الزواج حدثت — كما يبين ذلك حقيقة ميل الموهوبين من الرجال والنساء إلى الزواج ممن يكون ذكائهم أو ذكاؤهم في المتوسط مساويا لمتوسط ذكاء خريجي الجامعة . ولم تكن زوجاتهم أو أزواجهن فوق المتوسط فحسب ، بل كان الأطفال كذلك فوق المتوسط ، إذ كان المتوسط هو ١٢٨ حتى ذلك التاريخ . وكانت النسبة بين هؤلاء الأطفال ممن كانت نسبة ذكائهم ١٥٠ أو أعلى ٢٨ ضعفا بالنسبة للسكان بوجه عام . أما من حيث السعادة الزوجية والتكيف الجنسي ، فإن الموهوبين تفوقوا عن الجماعات التي تقل عنهم في الذكاء بمقدار يسير بالرغم من أن تلك الجماعات لم تكن ممثلة بأي حال من الأحوال عامة السكان .

لقد ناقشنا حتى الآن التحصيل الدراسي كما لو كان مسألة تتعلق كاية بالذكاء . وفي الغالب فإن ذلك غير صحيح بالتأكيـد . وبصرف النظر عن أمور مثل الحظ والفرصة وتقاليد الأسرة ، فإن الثبات الإنفعالي يلعب دون شك دورا هاما في نجاح الأذكاء جداً وفشلهم . وليس ذلك أقل مما يكون

عليه الحال مع المتوسطين في ذكائهم وكذلك الأغبياء . ولقد تجلّت هذه الحقيقة فبدت واضحة عن طريق مجموعة من المقارنات قام بها « تيرمان » . ولما كان من العسير تقدير تحصيل النساء لأنه يكون في الغالب نتاج ظروف عرضية ، اقتصر « تيرمان » على مجموعة الذكور فجعل ثلاثة خبراء يعملون مستقلين عن بعضهم البعض ، يفحصون سجلات ٧٣٠ رجلاً من الموهوبين في سن الخامسة والعشرين أو ما يزيد عن ذلك ويقدرّون كل واحد منهم بالنسبة لنجاحه في الحياة . وكان ميزان النجاح في الحياة هو المدى الذي بلغه الشخص في استغلاله لقدرته العقلية الفائقة . وقسم الرجال على أساس هذه التقديرات إلى ثلاثة مجموعات تكونت على وجه التقريب من أعلى عشرين في المائة ومن الستين في المائة الوسطى ومن أقل عشرين في المائة . وتكونت المجموعتان الطرفيتان المشار إليهما بالحرفين ا ، ح من ١٥٠ رجلاً في كل منهما . وتمت مزاوجة هاتين المجموعتين بدقة من حيث متوسط العمر ومداه . ثم قورنت المجموعتان على أساس ٢٠٠ عنصر للمعلومات المجموعة بين سنتي ١٩٢٢ و ١٩٤٠ فخلال المدرسة الابتدائية كان أفراد المجموعة ا وأفراد المجموعة ح متساوين في النجاح وكان متوسط درجات المجموعتين هو نفسه تقريباً ، كما كان متوسط درجات اختبارات التحصيل للمجموعة ا أعلى بمقدار يسير جداً . وفي المدرسة الثانوية بدأت المجموعتان في التباعد عن بعضهما ولكن لم يكن فشل المجموعة ح حتى مرحلة الدراسة الجامعية قد اتخذ نسباً مزعجة ، ولا يمكن إرجاع هذا الفشل إلى الفساد العقلي لأن الفروق العقلية بين المجموعتين ا و ح كانت لا تزال صغيرة نسبياً .

ولعل الصحة النفسية نفسها كانت تفسيراً مناسباً للفروق الملحوظة ، وبما هو جدير بالذكر أنه حتى في مرحلة الطفولة كان عدد الذين بدت عليهم أعراض عصبية بسيطة أو ملحوظة في المجموعة ح ثلاثة أمثال العدد في المجموعة ا . وكانت التقديرات الخاصة بالفطنة وبعد النظر والثقة بالنفس وقوة العزيمة والمثابرة والرغبة في التفوق أعلى كذلك في المجموعة ا

عنها في المجموعة ح حتى في سن مبكرة جداً . وتؤكد التقديرات الخاصة بتكليف أفراد المجموعة ا وأفراد المجموعة ح في مرحلة الرشد المبكرة هذا الاتجاه . وعند مقارنة أفراد المجموعتين د ح ، و د ا ، كان عدد حالات سوء التكيف البسيط في المجموعة د ح ، ضعف عددها في المجموعة د ا ، كما كان عدد حالات سوء التكيف الخطير في المجموعة د ح ، تسع أمثال عدد تلك الحالات في المجموعة د ا . وتعد هذه البيانات شيقة وهامة ، فقبل تقسيم الرجال الموهوبين على أساس التحصيل في الكبر بثمانية عشر سنة استطاع المعلمون والآباء إدراك فروق الشخصية التي سوف تتصف بها المجموعتان فيما بعد . ومن الواضح أننا إذا أردنا أن تنبأ بالنجاح مستقبلاً ، فعلى أن نركز اهتمامنا على الصفات الأخرى غير الصفات العقلية الخالصة .

وبالنسبة للتكيف الإجتماعي كانت المجموعة د ح ، دون المجموعة د ا ، بكثير في تلك الناحية . وكثيراً ما قام أفراد المجموعة د ا ، بدور القادة في المدرسة الثانوية والجامعة وذلك أكثر من أفراد المجموعة د ح ، وكان معدل سرعة الزواج في المجموعة د ح ، أقل منه في المجموعة د ا ، كما كانت نسبة حدوث الطلاق في المجموعة د ح ، ضعف نسبته في المجموعة د ا . وكان الأزواج وكذلك الزوجات في المجموعة د ا ، يعبرون عن سعادتهم الزوجية أكثر مما كان يحدث في حالة المجموعة د ح .

ولقد تجلت دونية تكيف أفراد المجموعة د ح ، في كثرة البطالة وفي كثرة تغير العمل دون تحسين في الوضع . وكانت نسبة من ذكروا في المجموعة د ح ، أنهم قد سيقوا إلى أعمالهم الحالية هي ثلاثة أمثال النسبة المقابلة في المجموعة د ا . وذكر عدد مساو من المجموعة د ح ، — لا يتفق مع النسبة السابقة — أنهم كانوا يفضلون عملاً آخر عن العمل الذي يقومون به . وثمة دليل هام على عدم قيام أفراد المجموعة (ح)

«بالأعمال التي تناسبهم» مما يعكس إلى حد ما - من وجهة نظر تيرمان - دونية القدرة على الجنك الاجتماعي لأفراد هذه الجماعة .

وتجمع التقديرات التي قام بها الأشخاص أنفسهم وزوجاتهم وآباؤهم والمشتغلون ، في الميدان على أن المجموعة (١) كانت أكثر تفوقاً فيما يتعلق بسمات المثابرة والثقة بالنفس والتكامل نحو الأهداف ، ولم يكن لدى أفرادها الشعور بالنقص وتميزوا عن أفراد المجموعة (ح) في المظهر والجاذبية والنشاط والانتباه واليقظة وحب الاستطلاع والإبداع والمودة . غير أن أعظم تناقض بين المجموعتين وجد في الحافز نحو تحقيق تكيف اجتماعي مكتمل . وهكذا فإن الأدلة تشير إلى شدة ارتباط النجاح بالثبات الإنفعالي .

ومن وجهة النظر الخاصة بفرض « العبقري المجنون » تمت مقارنة الأشخاص الذين تصل نسبة ذكائهم إلى ١٧٠ أو تتعدها . أي المجموعة «العبقريّة حقاً» بالمجموعة العامة . ولقد كانت التقديرات الخاصة بالأعراض العصبية والتكيف العقلي في جميع الأعمار متماثلة في الغالب في حالتى المجموعة العليا والمجموعة العامة كما لم تبين التقديرات الخاصة بالتكيف الاجتماعي أى تمايز لسكلا الجنسين وإذا أدخلنا في اعتبارنا كل شيء . يتضح أن الأفراد المتفوقين في ذكائهم كانوا في المتوسط مماثلين تقريباً في نجاحهم من حيث التكيف الاجتماعي لمن يقلون عنهم في نسبة الذكاء .

وربما تعذر التعميم من هذه النتائج إلى العبقريّة الخالصة كما عرفتها الأجيال اللاحقة — ولكن إلى الحد الذي يمكن أن ينهض عليه الدليل — فإن النتائج لا تدعم بالتأكيد الرأى السائد الذي يربط « العبقريّة » بالجنون .

وعلى العموم فإن مراجعة عمل ترمان التاريخي تدل على أنه الإختبارات الختام نسبياً التي أمكن إستخدامها أيام الحرب العالمية الأولى كانت ناجحة كذلك إلى حد واضح في التنبؤ بالنجاح التعليمي والمهني . ومن المناقشة التي أجريناها في مستهل هذا الفصل يمكننا أن نستخلص أنه الإختبارات التي وضعت خصيصاً للتنبؤ بالتحصيل الدراسي مستقبلاً لا لقياس الوضع الراهن قد تنجح كذلك في تنبؤات من هذا القبيل ، وبعد هذا الدليل هاماً ، ويهاجم كثير من الناس إختبارات الذكاء بأنها ألعاب لا تتصل بالأمور التي نعتبرها ذات أهمية في الحياة . وقد يكون من العسير إقامة الدليل على مثل هذا الاعتراض على أسس نظرية ، ولكن ربما كانت أحسن حجة لدينا هي الإستشهاد بنتائج مثل تلك التي تم تلخيصها هنا . وقد نسلم بأن تلك الإختبارات لم تصل إلى درجة الكمال أو تبعد عنها بمقدار كبير وأننا محتاجون إلى بذل جهد كبير لتحويلها إلى أداة للتنبؤ الدقيق ، ومع ذلك ، ففي مرحلة النمو الراهنة لا نعرف أي طريقة للتنبؤ تتحسن باستمرار ، أو أي شيء في الواقع أحسن من إختبار الذكاء الجيد الذي يقوم بتطبيقه الإخصائي النفسي ويفسر في ضوء البيانات النفسية والإحصائية . ومن الواضح أن الطفل الذكي كما يشخصه إختبار الذكاء ينمو ليكون الراشد الذكي ما لم يعوقه عدم الاتزان الانفعالي أو سوء التكيف ، والطفل الذكي هو الذي يصبح ذلك الرجل الناجح في وظيفته أو في عمله المهني .

الفصل الرابع

هل ينحط ذكائنا؟

لقد تعالت صيحات المسؤولين من علماء النفس في العشرين سنة الأخيرة ،
وتعالت صرخات الانزعاج واليأس ، منبهين أن معدل ذكاء سكان معظم
الدول الأوروبية ، وخاصة إنجلترا أخذ في التدهور . ولقد قام هذا الادعاء على
أساس سلسلة من الاستدلالات غاية في البساطة ، أولها ، من المؤكد أن
الذكاء صفة موروثية إلى حد بعيد ، وثانيها من المعروف أن أولئك
الذين يتميزون بذكاء وقاد يميلون إلى إنجاب عدد قليل من الأطفال عن
غيرهم ممن يقلون عنهم في الذكاء . وإذا استمر هذا الاتجاه خلال فترة من
الزمن فقد يتبع ذلك أن يقل تكاثر الجينات في سلالة السكان بوجه عام
وهي محددات الوراثة المؤدية إلى ارتفاع الذكاء . وبذلك الانحطاط
التدريجي في الذكاء أمرا لا مفر منه ، وأحيانا تقدم الأدلة التي توضح
أن ذلك الانحطاط قد بدأ من قبل . وهكذا فمن المؤكد أن عدد ضعاف
العقول قد تزايد في السنوات الأخيرة ، ولا يمكن رفض هذه الحجج
باستخفاف لاستنادها إلى كثير من البحوث التجريبية فإذا كانت صحيحة فمن
الواضح أنها تثير مشكلة إذا ما قورنت بمشكلات مثل نقص العملة الصعبة
وخطر التضخم ، فإن هذه المشكلات يعتبر متاعب تافهة عديمة القيمة .

ولكن قبل أن نصل إلى استنتاجات يائسة ، دعنا نفحص الحقائق أوثق
نفحص بإيجاز ما تتضمنه هذه الحقائق وربما كان ذلك أكثر أهمية ، وتتعلق
النقطة الأولى في هذا الجدل بالناحية الوراثة في الذكاء ، ولطالما احتدم الجدل

بين علماء النفس حول هذا الموضوع وبدا بوضوح أن كثيرا من الخبيج التي، عرضوها غير مقنعة . ومن الأمثلة المعتادة التي يستشهد بها في هذا الصدد ، جندى أمريكى أنجب طفلا بطريق السفاح من فتاة ضعيفة العقل ، وأنجب طفلا آخر من زوجة شرعية ، وكان لكل من هذين الطفلين سلالة ، وبينما كان الأطفال ومن تناسل منهم من ناحية الأم السوية-أسوياء من الأمريكين الذين يخشون ربهم ومن رجال الأعمال الناجحين ومن الموظفين ، كانت سلالة الطفل الذي ولد من تلك البغى أغنياء ومجرمين واخترف النساء منها البغاء . وكان كثير من أفراد هذه السلالة ضعاف العقل . ولقد عرضت شجرة هذه الأسرة كدليل على طبيعة الذكاء الموروثة . ولقد جاء ذلك مجانيا لحقيقة استحالة التمهق عبر الأجيال الماضية والتأكد من أن زوجة الجندى غير الشرعية كانت ضعيفة العقل عندما لم يتوافر الفحص الصحيح ، وبصرف النظر تماما عن الأخطاء التي يمكن أن تقع فيها عند تتبع شجرة أسرة من هذا النمط ، فمن الواضح أن الذين يعتقدون في تحديد البيئة للذكاء سوف يجدون في هذه القصة دليلا كبيرا يثبت ما يعتقدونه ، تماما كغيرهم ممن يعتقدون بأن الوراثة تحدد الذكاء إلى درجة كبيرة . ولقد أصبح من المعروف بالتدريج أن حقيقة تشابه الآباء والأبناء من ناحية الذكاء، صارت غير ذات موضوع فيما يتعلق بالسؤال الخاص عما إذا كان الذكاء موروثا أو غير موروث ، إذ من الممكن أن يتساوى في تفسيرها العلماء ذوو النزعة الوراثة مع غيرهم من ذوي النزعة البيئية ، ولذا يجب علينا أن نبحث عن دليل أكثر اقناعا .

وسوف لا نفحص بالتفصيل جميع الطرق المختلفة التي اقترحت من أجل هذا الفرض ، لأن كثيرا منها تكون خاطئة في الغالب مثل طريقة «شجرة الأسرة» ، وسوف نتناول الطرق التي تعد مقنعة حتى بالنسبة لأكثر الناس ارتياجا . وتعرف الطريقة الأولى التي نذكرها بطريقة التوائم . وهنا تبسر لنا الطبيعة تجربة تفوق في تصميمها براعة الإنسان ، فشمعة نوعان من التوائم، يتكون أحدهما نتيجة انقسام بويضة مخصبة وينمو القسيان إلى شخصين .

منفصلين ومستقلين عن بعضهما ، وهما ما يعرفان بالتوأمين المتماثلين لأن الوراثة متماثلة تماماً في كل منهما . وفي حالة النوع الثاني من التوائم يحدث أن يوجد بطريق الصدفة بويضتان في الرحم ويتم إخصابهما بحيوانين منويين منفصلين وينتج عن ذلك شخصان منفصلان ومستقلان عن بعضهما يشبه أحدهما الآخر ، غير أن درجة الشبه بينهما لا تتعدى ما يكون عليه الإخوة من نفس الأبوين في مرات مختلفة من تشابه . وبعبارة أخرى تتشابه الناحية الوراثة إلى ٥٠ في المائة تقريباً . وهذه التوائم الأخوية قد تكون من نفس الجنس أو من جنس مخالف ، بينما تكون التوائم المتماثلة بالطبع من نفس الجنس دائماً .

ومن الممكن - على الرغم من تعذر ذلك في الغالب أن نبين ما إذا كان التوأمان متماثلين أو أخويين ، فبين بالتأكد فحص فصائل الدم وبصمات الأصابع ونواحي التشابه الجسمية الأخرى ما إذا كان التوأمان متماثلين - على الرغم من وجود الفرصة دائماً - ومع أنها بعيدة ، فالتوأمان الأخويان قد يشبه كل منهما الآخر عن طريق الصدفة تماماً في جميع الجزئيات التي هي قيد البحث ومن ثم يشخصان بأنهما متماثلان .

ويستند الجدل الخاص بالتوائم إلى حقيقة أن التوأمين سواء أكانا متماثلين أو أخويين فإنهما غالباً ما يخضعان لنفس المعاملة في الأسرة . فهما يتلقيان نفس الدرجة من الإثارة العقلية ويحرصان على الذهاب إلى نفس المدارس ويكون في حوزتهما نفس الكتب للقراءة ولهما نفس الأصدقاء ويتحدثان إلى نفس الأشخاص وما إلى ذلك . ولذا يمكن عرض الجدل في صيغة معادلة بسيطة ، فالفرق بين التوائم المتماثلة يجب أن تعزى إلى التأثيرات البيئية أما الفرق بين التوائم الأخوية فإنها ترجع إلى كل من البيئة والوراثة وإذا لم تلعب الوراثة بالمرّة دوراً في تحديد الذكاء : فيكون من الواضح عندئذ أن التأثيرات البيئية وحدها هي التي تميز التوأمين المتماثلين عن بعضهما وبعبارة أخرى ينبغي أن تكون الفروق بين التوائم المتماثلة كبيرة كما

في حالة التوائم الأخوية . غير أنه كلما أصبحت الوراثة أكثر أهمية في تحديد ذكاء الأطفال كان من الواجب أن تكون الفروق بين التوائم الأخوية أكبر مما هي عليه بين التوائم المتماثلة عند المقارنة . ويمكننا أن نقيم التشابه بين مجموعات من التوائم بواسطة ما يعرف بمعامل الارتباط الذي يختلف قيمته من صفر حيث ينعدم التشابه بالمرة إلى واحد (الوحدة) حيث يكون التماثل تاماً . وعندما نقيس ذكاء التوائم المتماثلة والأخوية (مراعين أن نستخدم فقط التوائم الأخوية من نفس الجنس حتى يتثنى مقارنتها بالتوائم المتماثلة) نجد أن الارتباط بين التوائم المتماثلة حوالي ٩٥ ر . بينما يكون مقداره بين التوائم الأخوية ٦٥ ر . ، ويكون الارتباط بين توأمين متماثلين كبيراً كالارتباط بين طفل معين يجرى إختباره اليوم ونفس ذلك الطفل عندما يعاد إختباره في الأسبوع التالي ، وبعبارة أخرى فالتوائم المتماثلة التي لها نفس النشأة تكون متشابهة إلى أقصى حد ممكن ، ولا تصل التوائم الأخوية إلى هذا الحد من التشابه . ويتبع ذلك حتماً أن نعزى إلى الوراثة في الواقع تأثيراً قوياً جداً في تحديد الذكاء . ومن الممكن أن نحسب على وجه التقريب مقدار ما يسهم به كل من الوراثة والبيئة على الترتيب في هذه الحالة ، وثمة بعض الاتفاق على أن النسبة المئوية لما تسهم به الوراثة هي حوالي ٨٠ درجة تاركين ٢٠ في المائة تقريباً لتحديد البيئة وسوف نناقش فيما بعد مدى صحة هذه العبارة ، أما الآن فسوف نتجه إلى طريقة أخرى للبرهان .

وتعرف هذه الطريقة بطريقة الأيتام . فلقد تناولنا في حالة التوائم عينة تماثل فيها الوراثة ، أما في حالة الأيتام فإننا تناول أطفالاً تماثل بيئاتهم على قدر الإمكان . وسيتذكر أي شخص سبق له زيارة أحد ملاجئ الأيتام ، بشيء من النفور ذلك التماثل التام في ظروف المعيشة والطعام والتعليم والمعاملة العامة التي ربما كانت أمراً لا مفر منه يبتلى به جميع هؤلاء الأطفال . وإذا أخذنا ملجأً للأيتام قضى فيه جميع الأطفال

- من الناحية العملية - كل حياتهم التي بدأت من سن مبكر ، نستطيع عندئذ أن نقنأ على أساس فرض البيئيين أن جميع الأطفال يجب أن يكونوا متساويين عملياً في الذكاء نظراً لأن البيئة كانت متساوية تماماً بالنسبة لكل منهم ، وذلك إلى الحد الذي يمكن أن يصل إليه إبداع الإنسان . وبالطبع فإن هذا التماثل في البيئة ينطبق عملياً على الجانب العقلي إذا أن جميع الأطفال قد توافر لديهم نفس الكتب ونفس النشرات الدورية ونفس التعليم ونفس زملاء . وإذا كانت الفروق البيئية لذلك مسؤولة عن أحداث فروق عقلية بين الأطفال ، فهنا في بيئة مماثلة ينبغي عندئذ أن نجد أطفالاً يختلفون عن بعضهم البعض إلى حد طفيف إذا حدث أن وجد ذلك الاختلاف . ومن ناحية أخرى فإذا كان الذكاء يرجع إلى الأسباب الوراثية إلى حد كبير ، فعندئذ قد نتوقع درجة كبيرة من التباين في التحصيل العقلي للأطفال ، فقد يبقى بعضهم أرياً وذكياً وناجحاً بينما يبقى البعض الآخر بليداً غيبياً وفي مؤخرة الفصل وتكون الأغلبية في وضع متوسط . وعندما نقارن الانتشار الفعلي للذكاء في أحد الملاجئ بانتشار الذكاء الذي نصادفه خارج جدران الملجأ نجد أن الفرق ضئيل للغاية أو غير موجود بالمرة . وبعبارة أخرى فالأطفال في ملجأ الأيتام يختلفون في الغالب عن بعضهم البعض كما يختلف غيرهم من الأطفال خارجه . ومن العسير جداً أن نوفق بين هذه النتيجة وبين فرض البيئيين وهي تعزز بقوة الحجج المستمدة من طريقة التوائم .

وتتوقف الطريقة الثالثة للبرهان على ظاهرة من المعروف أنها تصحب الوراثة دائماً ، ولكنها لا تصحب التأثيرات البيئية مطلقاً ، وتعرف بظاهرة التراجع . وكان « جالتون » Galton أول من لاحظ تلك الظاهرة ، إذ وجد أن أبناء وبنات الآباء الطوال يميلون لأن يكونوا طوالاً ولكن ليسوا في طول والديهم . بينما يميل أبناء وبنات الآباء القصيرين جداً لأن يكونوا دون المتوسط في الطول ولكنهم لا يكونون في درجة والديهم

تماماً ، وبعبارة أخرى فلقد كانت هناك نزعة لأن يكون للآباء الشاذين في الطول والقصر أطفال يتراجعون نحو المتوسط لعامة الناس . وبتعبير آخر فإن طولهم كان في وضع يتوسط طول آبائهم ومعدل الطول لجميع الرجال الإنجليز أو النساء الإنجليزيات كما يمكن أن تكون عليه الحال . ولقد وجدت ظاهرة التراجع في أى حالة تلعب فيها الوراثة دوراً هاماً ووجدت بميزة على الأخص في حالة الذكاء .

وقد نلاحظ ظاهرة التراجع مثلاً . عند مقارنة متوسط ذكاء الآباء من طبقة اجتماعية أو طائفة مهنية معينة بمتوسط ذكاء أطفالها . فمتوسط ذكاء أفراد الطوائف المهنية العليا والإدارية يكون حوالى ١٥٠ . ويفوق متوسط نسبة ذكاء أطفالها ١٢٠ بقليل . وكانت نسب الذكاء لموظفي الطوائف المهنية والصناعية الأدنى من ذلك حوالى ١٣٠ وكانت نسب ذكاء أبنائهم في حدود ١١٥ في المتوسط ، وكان متوسط نسبة الذكاء عند الطوائف الفنية والكتابية العليا هي ١١٨ تقريباً ؛ بينما متوسط تلك النسبة عند أطفالهم هو ١٠٤ . وعلى الجانب الآخر من ذلك وجد أن متوسط نسب الذكاء عند الكبار الموجودين بالاصلاحيات كان حوالى ٥٥ بينما ارتفعت نسبة الذكاء بين أطفالهم فكانت في المتوسط ٧٠ تقريباً . وكانت نسبة الذكاء عند عمال الطواريء ٨٠ تقريباً بينما كان متوسط تلك النسبة عند أطفالهم هي ٩٠ على وجه التقريب ، ووجد أن متوسط نسبة ذكاء العمال غير المهرة هي ٨٦ بينما كانت النسبة عند أطفالهم في المتوسط أعلى من ذلك بست درجات ، كما كان متوسط نسبة الذكاء للشغلين بالأعمال التي تتطلب بعض المهارة ٩٧ وكان ذلك المتوسط عند أطفالهم ٩٨ . ولقد أخذنا ظاهرة التراجع نحو المتوسط في الطبقات الاجتماعية المختلفة لأنه يكسب الظاهرة وضوحاً أكثر ، ويمكن بملاحظة نفس الشيء بالضبط إذا أخذنا أشخاصاً متباينين إلى حد كبير في ذكائهم من نفس الطبقة الاجتماعية .

ولا شك أن تفسير ظاهرة التراجع هذه على أساس البيئة جد عسير ،
فما يصر عليه البيثيون جوهريا هو أن قدرات الطفل العقلية إنما يحددها
الإثارة العقلية والتعليم وآلاف التأثيرات البيئية التي تواجهه إبان أعوامه
الأولى . وإذا كان ذلك صحيحاً حقيقياً ، فقد نتوقع أن يكون أطفال
الطبقات المهنية والادارية العليا الذين تلقوا أحسن نوع ممكن من التدريب
وبلغ محيطهم الثقافي في جودته أعظم درجة ممكنة في مجتمعاتنا ، على الأقل
مساويين لوالديهم ، ومن الجائز يفوقونهم لأنه لم يتوافر لمعظمهم هذه الميزات
ولكننا نجد في الواقع هبوطا مخيفاً في ذكاء الأبناء إذا ما قورن بذكاء والديهم
وكما يلاحظ فإن هذا الهبوط يؤدي في كثير من الحالات إلى عدم السعادة
والحسرة التي تقسم بهما آمال الآباء من يتوقعون أن تؤدي الميزات البيئية
التي يوفرونها لأبنائهم إلى زيادة مناظرة في القدرة والذكاء . ومن ناحية
أخرى فإننا نتوقع في حالة عمال الطوارىء والآباء داخل الاصلاحيات الذين
يهيشون لأبنائهم محيطة بيئيا هزيلة غير مشير — كما يمكن أن نتصور ذلك —
أن تكون سلاسلهم دونهم في الذكاء . غير ان الامر لا يكون كذلك ..
فالغريب أن هؤلاء الأطفال يكونون أذكى من والديهم بدرجة واضحة .

وبالطبع فحتى هذه للنقطة فإن الامر يبدو متناقضا إلى حد ما . فنحن
نميل إلى التفكير بأن الوراثة عامل يؤدي إلى التشابه بين الآباء والأبناء ،
ومع ذلك فاذا لم يكن ذلك خطأ . فانه يعبر عن وجهة نظر ذات جانب واحد .
فالآباء والأبناء يقتسمون وراثة عامة إلى حد ما ، وبعد ذلك فان وراثة
الطفل إنما يحددها إلى درجة كبيرة تلك العوامل التي يتلقاها عن طريق والديه .
ولا يوجد لديها ما يدل عليها ظاهريا . وبعبارة أخرى فما يرثه الطفل عن
والديه قد يجعله — وغالبا ما يحدث ذلك — غير مشابه لهما .

ويرتكز على هذه الحقيقة أساس برهان آخر هام ينصب على المعارضة
الشائعة لاستخدام اختبارات الذكاء بوجه عام . فيقال إن هذه الاختبارات

تعتمد على العوامل البيئية والتعليم والاثارة العقلية وما إلى ذلك . ومن الطبيعي أن تكون هذه الاختبارات محايية لطبقات اجتماعية معينة دون غيرها وعلى هذا الفرض البيئي ينبغي أن نتوقع ارتباطا عاليا بين نتائج اختبارات الذكاء والطبقة الاجتماعية . ولكن واقع الأمر غير ذلك تماما ، فمعاملات الارتباط في إنجلترا وأمريكا بين مستوى الذكاء والطبقة الاجتماعية حوالى ٣٠ . وهذا يعنى على وجه التقريب أن الطبقة الاجتماعية لا تحدد درجة اختبار الذكاء إلا بمقدار ١٠ فى المائة فقط . ومثل هذا الارتباط المنخفض ، بين المستوى الاقتصادى الاجتماعى وهو بدون أدنى شك أقوى تأثير بيئى فى مجتمعنا اليوم وبين نتائج اختبار الذكاء يبين مغالطة واضحة جدا فى فرض البيئيين لأنه لم يدخل فى حسابه حوالى ٩٠ فى المائة من التباين الكلى فى الذكاء وغالبا ما يوضع هذا الجدول فى صيغة قصصية أقل تزمنا وأعظم تأثيرا بالاشارة إلى أطفال بارزين فى ذكائهم ولدوا لآباء ضعاف العقل أو إلى أطفال ضعاف العقل ولدوا لآباء أذكاء جدا . ويتكرر وقوع تلك التناقضات فلا يمكن التجاوز عنها ويكون من العسير جدا أن نرى كيف يمكن تفسيرها على أساس التأثيرات البيئية وبالطبع فلا توجد أى صعوبة إذا جعلنا التحديد الوراثى مسئولا عنها . وثمة طريقة أخرى لعرض نفس الجدل وهى بالاشارة إلى الحقيقة التى تتجلى فى فروق الذكاء بين أفراد نفس الطبقة الاجتماعية إذ أنها تكون أعظم بكثير عن الفروق بين متوسطات الطبقات الاجتماعية المختلفة ، وللمرة الثانية يكون من المستحيل إرجاع هذه الحقيقة إلى الناحية البيئية .

وفضلا عن ذلك فهناك برهان لتفسير التأثير النسبى للوراثة والبيئة يتعلق بذكاء الأطفال المتبنين ، فثمة حالة تؤثر فيها الوراثة ممثلة فى الأم الحقيقية فى ذكاء الطفل وذلك فى اتجاه واحد (مثل هذه الأمهات تقريبا يكن دائما غيبات وغالبا ما يكن ضعيفات العقل) بينما تؤثر البيئة ممثلة فى الأم المتبينة

في الاتجاه المضاد (في العادة يختار الآباء المتبنون من يزيد ذكائهم عن المتوسط ويستطيعون توفير محيط ينمي حسن للطفل) . ويمكننا أن نربط بين ذكاء الطفل بعد قضائه بضع سنوات في بيت التبني بذكاء كل من أمه الطبيعية وذكاء الأم المتبنية له ثم تبين أي الاثنين يماثل ذكاءه إلى حد كبير . والسوء الحظ فإنه يتعذر ضبط هذا النوع من التجارب ، فنجد أولاً الصعوبة التي تتمثل في أن والد الطفل يكون غير معروف في العادة ولذا فإنه لا يمكن تقدير ذكائه . وغالباً ما يكون الأب عضواً في طائفة مهنية أو تجارية عليا ، وبذلك يمنح الطفل احتمالات ذكاء فطري مرتفع . وقد يوازن هذا العامل ذكاء الأم المنخفض أو يفوقه فيعطى عن طريق الصدفة ارتباطاً عالياً بين ذكاء الطفل وذكاء أبويه بالتبني . وحتى إذا عرف الأب فغالباً ما يرفض أن يتعاون جدياً لاختبار ذكائه ولذلك تقوم المشكلة ثانياً بالرغم من عدم حدثها ، أو من الممكن القيام أحياناً بتعديل معقول حتى بدون ضرورة استخدام اختبار رسمي .

وتواجهنا عقبة تنبثق من العادة الموجودة لدى كثير من المؤسسات ، التي تتمثل في التفرقة بين الأطفال عند وضعهم في بيوت التبني . وبعبارة أخرى فالأطفال الذين يعرف عنهم حسن الوراثة نسبياً ، أو الذين يبدون للمؤسسة على درجة من الذكاء والفطنة يعهد بهم إلى آباء للتبني يتميزون بالذكاء المرتفع ، بينما يسلم الأطفال الذين يبدون أغبياء أو يعرف عنهم ضعف الوراثة إلى آباء للتبني غير مرغوب فيهم بالدرجة التي يرغب بها آباء النمط السابق . وينتج عن هذه الطريقة كذلك ارتباط غير طبيعي بين ذكاء الطفل وذكاء أبويه بالتبني . وعندما تأخذ هذه الحقائق مأخذ الاعتبار فإن نتائج مثل هذه الأبحاث — بينما لا يمكن أن نجزم بأنها قاطعة — تبين مع ذلك في معظم الحالات وجود ارتباط كبير بين ذكاء الطفل وذكاء أمه الطبيعية مما يوضح تأثير الوراثة . وتجد كذلك معظم الدراسات ارتباطات بين ذكاء الطفل وذكاء أبويه بالتبني تكون كبيرة في بعض الأحيان ، ويتعذر تفسير

هذه الارتباطات لأنها قد ترجع إلى أثر البيئة كما أشرنا سابقاً ، ولكنها قد ترجع أيضاً إلى أسباب أخرى يكون التجكّم فيها صعباً أو مستحيلاً وقد تظهر أثراً كبيراً عن الارتباط بين ذكاء الطفل وذكاء أبويه بالتبني .

وتشتق الحجة الأخيرة التي نود مناقشتها من التجارب التي أجريت على الحيوانات ، ومن المؤكد أن أولئك الذين يتمسكون بوجهة النظر الخاصة بأن ذكاء الإنسان لا يستدل عليه بأي حال من الأحوال بالتجارب الخاصة بذكاء الحيوان ، سوف يشكون في قيمة مثل هذه التجارب . وبينما قد يتمسك بعض البيولوجيين بوجهة النظر الإنسانية Anthropocentric هذه فمن الممكن الإصرار على أن النتائج المستمدة من التجارب على الحيوانات يجب أن تخضع للفحص الدقيق قبل اتخاذها كدليل على الوراثة عند الإنسان . ويتوافر هذا الشرط الإضافي لدينا يمكننا أن نستشهد بالدراسات التي قام بها « تريون » Tryon حيث حاول تربية سلالات من الفيران الذكية والفيران الغبية في معمله . ولقد كانت طريقته بسيطة للغاية فاستخدم اختبار الجري في المتاهة ، وكان على الفأر أن يتعلم فيه أن يلتقي مفارق الطرق في متاهة معقدة عليه أن يجرى فيها من البداية إلى النهاية للحصول على جزاء حسن ، ويختلف الفيران بعضهم عن البعض الآخر إلى حد كبير في سرعتهم في التعلم وفي قدرتهم على التخلص من المفارق غير الصحيحة ، ويشبه هذا الاختبار في كثير من النواحي اختباراً يغلب استعماله مع الأطفال في العيادة النفسية يعرف باختبار متاهة « بورتوس » Porteus حيث يكون على الطفل أن يتتبع مساره بالقلم خلال المتاهة . ولقد انتق « تريون » من بين مجموعة الفيران ما كان أكثرها ذكاءً وكذلك ما كان أقلها في الذكاء وذلك على أساس أدائها في المتاهة ، ثم زواج بعد ذلك بين أفراد هاتين المجموعتين كل على حدة ، وبذا هيأ الظروف لبدء سلالة ذكية وسلالة أخرى غبية . واستمر في هذه العملية فكان يأخذ دائماً أفراد المجموعة الذكية التي تقوم بأحسن أداء ثم يزواج بينها ، ويأخذ أفراد المجموعة الغبية التي تقوم بأسوأ أداء ويزواج بينها

كذلك ، حتى كان من العسير أن نجد بعد سبعة أجيال أى تدخل فى أداء المجموعتين ، فمن الناحية العملية كأن أداء الحيوانات الذكية جميعاً أحسن من أداء الحيوانات الغبية . وبعبارة أخرى فهذا دليل مباشر على أن الذكاء (إذا أمكننا أن نحدد الخاصية التى يرجع إليها النجاح فى اختيار الجرى بالمتاهة على أنها هى الذكاء) يمكن أن ينتقل من سلالة إلى أخرى ، وهو لذلك صفة موروثية .

ماذا تثبته جميع هذه التجارب ؟ يتلخص الإثبات أحياناً فى قولنا بأن الذكاء يتحدد بالوراثة فى الإنسان إلى مدى ٨٠ فى المائة . وللأسف فإن هذه العبارة عديمة المعنى تماماً ، ولكى تعنى شيئاً ما فإن ذلك يتطلب منا إعادة صوغها . أولاً ، فالذكاء ليس هو ما يهمنى بل إن ما يهمنى هو تباينه . ومن الواضح أن مثل هذا الذكاء أو إمكانية التصرف الذكى موزوث تماماً . ويرجع الفرق بين الإنسان وكتلة من المعدن أو الحجر إلى التأثيرات الوراثية ، ولكن ليس ما يهمنى هو ذلك المستوى المطلق الذى يميز جميع بنى الإنسان بل إن ما يهمنى إنما تلك الفروق الموجودة بين فرد وآخر غيره والتى نريد أن نستفسر عنها . وإذا ينبغي علينا أن نستبدل كلمة « الذكاء » ، « بتباين الذكاء » فى تعريفنا لى يكون ذا معنى واضح .

وثانياً ، لا نستطيع التحدث بدرجة معقولة عن بنى الإنسان ككل لأن الأهمية النسبية للوراثة والبيئة تعتمد كثيراً على الظروف الخاصة للجماة المعينة التى قد نتحدث عنها . فإذا ذكرنا أن سممة معينة موروثية فإن ذلك لا يعنى أنها ليست خاضعة للتعديل البيئى . فالجينات المختلفة (حاملة التحديد الوراثى) تختلف إلى حد كبير فى استجاباتها إلى الظروف البيئية . فهناك مثلاً ، جين ضخامة فى ذبابة الفاكهة تجعلها أكبر بحوالى ٧٥ فى المائة عن الأفراد العادية ، ولكن فى حالة الاستفادة فقط من كميات الطعام الوفيرة . وعندما تربى اليرقات مع تجويعها فإن الذباب الضخم لا يمكن تمييزه من حيث الحجم عن زميلاته العادية . ولدى بعض الذباب جين « للبطن الشاذ » ، غير أن هذه

الحقيقة تنضح إذا تربت في منبت رطب . ولذا يمكن تبين أن الوراثة في أي بيئة (كمية الطعام الوفيرة والمنبت الرطب) تحدد تماماً الحجم الضخم أو البطن الشاذ لهذا الذباب ، ويمكننا أن نقول بأن أثر الوراثة في إحداث التباين في هذا النرع من الذباب يكون حوالى ١٠٠ في المائة ، وفي بيئة مخالفة (نقص كمية الطعام وجفاف المنبت) تتوصل إلى نتيجة مختلفة تماماً .

ولنطبق هذه المناقشة على ميدان الذكاء يبدو من المحتمل جداً أنه حيث تتكافأ الفرصة تماماً للتعليم في إحدى الدول فإن أثر الوراثة على الفروق العقلية سوف يبدو أكثر وضوحاً عنه في دولة أخرى كانت فيها الفرص التعليمية متفاوتة إلى حد كبير ، ولذا فإن الرقم ٨٠ في المائة قد يكون تقديراً منطقياً لانجلترا أو أمريكا بينما قد يكون تقديراً مضللاً إلى حد بعيد بالنسبة للصين أو اليابان ويمكن إدراك هذا الجدل بوضوح أكثر في حالة أحد المتغيرات الفسيولوجية مثل الطول حيث ينعدم الخلاف حول طريقة القياس ، ولا شك أن الفروق في الطول تحددها الوراثة إلى درجة كبيرة ، وحيث يتوافر كمية كافية من الطعام لكل طفل دون أن يشد عن ذلك أحد . فإن الطول يتحدد بالظروف الوراثة إلى مدى يبلغ ١٠٠ في المائة غالباً . وفي دولة أخرى حيث يتوافر الطعام بالنسبة للبعض وتقل كميته عند الآخرين إلى درجة تقريهم من الهلاك جوعاً فإن أثر الوراثة على الطول النهائي قد ينخفض إلى ٨٠ في المائة أو حتى إلى ٦٠ في المائة . ونحن نتناول دائماً التفاعل بين الوراثة والبيئة فعندما نغير أثر أحدهما فإن أثر الآخر سوف يتغير ، ولا يوجد تعريف نهائى له معنى يلخص الأثر النسبي وتفاعل هذين الاثنين . فكل ما نستطيع القيام به هو أن نعطي تقديراً مقرباً جداً ومن نوع معد لمجموعة معينة من الناس وتحت ظروف أخرى فإن الأرقام قد تكون مخالفة تماماً ، وبالتالي قد ينبغي أن نقيّد تقدير الثمانين في المائة وذلك بذكر انطباقه — إذا وجد ذلك — على الظروف التعليمية الحاضرة فقط في إنجلترا والولايات المتحدة

الأمريكية ، ومن المحتمل جداً أن يعطى فكرة خاطئة عن أغلبية الدول الأخرى .

وهكذا فإننا قد نصل إلى نتيجة أكثر دقة بقولنا إن الفروق بين الأطفال في هذه الدولة في الوقت الحاضر من حيث قدراتهم على الأداء الجيد في الاختبارات المقننة إنما تحددها الوراثة إلى مدى أبعد مما يحدده التأثيرات البيئية ، وأن تحسن تكافؤ الفرص التعليمية وكذلك تقليل الفروق بين الطبقات الاجتماعية من المحتمل أن يزيد أهمية التأثيرات الوراثية وينقص من أهمية تلك التأثيرات البيئية . وعلى العكس من ذلك فمن المحتمل أن تلعب التأثيرات البيئية دوراً كبيراً إلى الحد الذي يمكن أن تهتم به الدول الأخرى ، وأنه كلما ازداد التفاوت التعليمي والاجتماعي في فئة معينة كان من المحتمل أن يزداد الأثر البيئي على نتائج اختبارات الذكاء . وربما كان هناك قلة من علماء النفس لا يوافقون على ما تقدم .

وعلياً أن نلتفت إلى مجموعة أخرى من الحقائق المتعلقة بمشكلاتنا العامة ، وهي ما تعرف بالفرق المزعوم في الخصوبة بين الذكي والغبي ، وسوف نستشهد بدراسة واحدة فقط قام بها ريموند كاتل R. B. Cattell على ٣٧٣٤ طفلاً ممن عاش بعضهم في المدن وعاش البعض الآخر منهم في مناطق ريفية . بتطبيق اختبار ذكاء على هؤلاء الأطفال الذين كانوا في سن العاشرة استطاع « كاتل » أن يقسمهم إلى مجموعات وفقاً لنسبة الذكاء وتأكد من المجموع الكلي للأطفال في أسرة كل من الأطفال المفحوصين وبيدت النتائج أنه في أسر الأطفال الذين كانت نسبة ذكائهم كما بينها الاختبار أعلى من ١٣٠ : كان متوسط عدد الأطفال هو ٢٣٥ في المدينة ، و ١٨٠ طفلاً في الريف ، وكانت هذه الأعداد هي على الترتيب ٢٩٢ و ٣١١ لمن كانت نسب ذكائهم بين ١٢٠ و ١٣٠ . وبتحركنا إلى أسفل السلم نجد أن الأطفال التاليين في نسب ذكائهم ١١٠ - ١٢٠ كانت متوسطات الأعداد الخاصة بهم هي ٢٧٦ و ٢٦٢ على التوالي ، وكان الأطفال الذين تتراوح نسب ذكائهم بين ١٠٠

١١٠ ينتمون إلى أسر ، متوسط عدد الأطفال فيها هو ٣ ، ٣٧ و ٣٠ على الترتيب ، بينما جاء أولئك الأطفال الذين تقع نسب ذكائهم بين ٩٠ - ١٠٠ من أسر بلغ متوسط عدد أطفالها ٣٦ و ٣٧ ، ٣٧ و ٣٠ على التوالي . وبهذه طناً نحو الأطفال الذين تتراوح نسب ذكائهم بين ٨٠ و ٩٠ تكون الأعداد هي ١٣ و ٤ و ٢١ و ٤ ، وبين أطفال المجموعة التي عند القاع تماماً حيث تكون نسبة الذكاء بين ٧٠ و ٨٠ يصبح متوسط عدد الأطفال في الأسرة ٩٣ و ٣ (في المدينة) و ٧٢ و ٤ (في الريف) . وبتلخيص هذه الأرقام يمكننا القول بأن معدل سرعة التكاثف في الأسرة الغنية جداً يكون في الغالب ضعف معدلها في الأسر المرتفعة الذكاء . ويجب ملاحظة أنه لم يذكر في هذا الحساب أولئك الرجال والنساء الذين لم يكن عندهم أطفال بالمرّة الذين كان ذكاؤهم مرتفعاً في الغالب ، ويتبادر إلى الذهن مباشرة المدرسات والنساء في المهن الفنية كأمثلة ذلك .

ولا يمكن القول بأن الارتباط بين عدد الأطفال ونقص الذكاء إنما تحدده الطبقة الاجتماعية تماماً ، فالحقيقة أن ما يعرف بطوائف الطبقة العاملة تميل إلى انجاب عدد أكبر من الأطفال عن طوائف الطبقة المتوسطة ، فلقد شوهد أنه في طائفة اجتماعية متجانسة « عمال المناجم الذين يعملون في استخراج الفحم » فإن الأكثر ذكاء منهم يميل إلى إنجاب عدد من الأطفال يقل عن عدد أطفال منخفضي الذكاء منهم . ولذا يمكننا تقبل هذه النزعة لحقيقة لا تقبل الجدل ، فالارتباط بين الذكاء ونقص الخصوبة لا يكون كبيراً جداً ، ٢ و ٠ ، وقد تبين من كثير من الدراسات الجيدة التي تتميز بالضبط العلمي والإجراء الدقيق عدم إمكان وجود شك معقول في حدوث ذلك الارتباط .

وإذا أعطينا هاتين الحقيقتين ، وأولاهما أن الذكاء موروث وثانيهما أنه كلما أنجب الأفراد إلاكثر ذكاء عدداً قليلاً من الأطفال يصبح من الممكن استخلاص أن معدل الذكاء في الدولة يتناقص ، وإذا كان الأمر كذلك فهل يكون من الممكن القيام بأي نوع من التقدير لهذا النقص ؟ لقد وجد

«طومسون» بتجربة معروفة جيداً قام بها في جزيرة رايتا بانجلترا حاول أن يحصل منها على دليل مباشر لذلك الانحطاط . فباختبار ١٠٨٤ طفلاً في سن العاشرة « عملياً الاطفال هذه السن من سكان الجزيرة » تأكد طومسون من عدد الاطفال في أسر الاولاد والبنات المعموضة ، وبالجداول التالية عدد الاسر وعدد الاطفال وكذلك متوسط نسبة الذكاء للاطفال من أسر مختلفة الحجم .

أ	ب	ج
عدد الأسر	عدد الأطفال في الأسر	نسبة الذكاء
١١٥	١	١٠٦٫٢
٢١٢	٢	١٠٥٫٤
١٨٥	٣	١٠٢٫٣
١٥٢	٤	١٠١٫٥
١٢٧	٥	٩٩٫٦
١٠٣	٦	٩٦٫٥
٨٨	٧	٩٣٫٨
١٠٢	٨ +	٩٥٫٨

ويلاحظ في هذا الجدول كذلك أنه كلما زاد عدد الأطفال انخفضت نسبة الذكاء .

ولكي ندرك الآن حجة «طومسون» الباردة ، نفترض أن الطفل المفحوص يمثل متوسط إخوته وأخواته فيمكننا أن نشق تقديرين من هذه البيانات أحدهما هو المتوسط البسيط لنسبة ذكاء جميع الأطفال المفحوصين . ولما كان هؤلاء الأطفال جميعاً في سن العاشرة ، فإننا نستطيع التأكد تقريباً من أن كل طفل ينتمي إلى أسرة مختلفة ، وبالتالي فإن ذلك الرقم سوف يزودنا بفكرة عما يكون عليه ذكاء الأطفال في تلك الجزيرة إذا كان بكل أسرة طفل واحد أي إذا لم تكن هناك نزعة لأن يرتبط حجم الأسرة الكبير بنقص الذكاء ، وهذا الرقم هو ٩٥٫٨

ولانستطيع أن نشق كذلك من هذا الجدول رقما آخر يبين لنا ما يكون عليه ذكاء الأطفال في تلك الجزيرة ، ويبنى ذلك الرقم على الحقائق الفعلية وهي أن الأسر الكبيرة العدد غالبا ماتكون في أسفل مدى نسبة الذكاء . وتصل نسبة الذكاء إلى ٩٨ و ٩٨ وقد يؤخذ هذا الفرق الذي مقداره ٢٠٦ و ٢ نقطة كتقدير كمي لنقص نسبة الذكاء في هذا الجيل يمكن أن يعزى إلى تمايز الخصوبة في الآباء الأذكاء والأغبياء .

وثمة تقديرات أخرى عديدة مبنية على مجموعات مختلفة من الأرقام يزيد بعضها عما توصى به نتائج «طومسون» بينما ينخفض البعض الآخر عنها قليلا . وربما أمكن اعتبار تقدير «طومسون» ممثلا لما اعتبره علماء النفس المشتغلون في هذا الميدان بأنه معقول . وإذا أمكننا أن نفترض صحة هذا التقدير وأن نفترض كذلك استمرار هذا الانحطاط حتى نهاية هذا القرن ، فسوف نجد أن الأطفال الجديرين بالحصول على المنح الدراسية نتيجة التفوق في المستوى العقلي قد يهبط إلى النصف . بينما تضاعف عدد ضعاف العقول تقريبا . ويكون مستوى نسبة الذكاء العام لدى عامة السكان قد انخفض بحوالي خمسة نقط في المعدل ، وهذه النتائج خطيرة للغاية لأنها قد تعنى فناء المدنية الغربية وذلك إذا سلمنا بصحتها . فإلى أي مدى نستطيع أن نثق في صحة هذه الأرقام المبينة ؟

لعل قصور هذه الحجة يرجع إلى حقيقة أننا لا نعرف إلا النذر اليسير عن كيفية توارث الذكاء ، وغالبا ما يلقى علماء النفس نظرة بسيطة نوعا ما على «الميكانيزمات» الوراثية التي لا تتفق جيدا مع المعلومات الحديثة ، ولا يمكننا أن نقرر بالتأكيدهم إمكانية التنبؤ المنطقي دون معلومات أكثر تحديدا من ناحيتنا فيما يتعلق بطريقة انتقال القدرة العقلية ، ولقد وضح «بنروز» Penrose أنه ليس من الضروري أن تضاد البيانات المؤكدة إمكانية اتزان ثابت بالنسبة للمستويات العقلية لعامة السكان . والحجج الاستدلالية في العلوم ؛ وعلى

الأخص عندما لا تقوم على المعلومات المضبوطة عن « الميكانيزمات » المتضمنة خطيرة دائماً وغالباً ما تكون خاطئة . ولا يثبت ذلك عدم حدوث الإنحطاط ، ولكن ينبغي أن يجعلنا حذرين في تقبله كحقيقة مقررّة ،

والنقطة الثانية التي غالباً ما نغفلها هي أن التحديد الوراثي إنما يتناول الفروق الفردية أى يتناول تباين المجموعة السكانية ، وإرتفاع الذكاء أو انحطاطه لعامة السكان إنما يتعلق بمستوى مطلق إلى حد ما . وهاتان القضيتان غير متماثلتين على الرغم من وضوح اختلافهما في الحجّة ، فلقد ظهر مثلاً وجود ارتباط سالب في حالة أطفال المدارس بين طول القامة وحجم الأسرة ، فقصار القامة يتناسلون بسرعة أكبر عن طوال القامة . وقد يؤدى ذلك بنا إلى الاعتقاد أنه نظراً إلى حقيقة تأثير القامة بقوة بالعوامل الوراثية ، فإن سكان تورنتو Toronto حيث أخذت هذه القياسات سوف تتناقص أطوالهم بالتدرّج . ولقد بينت في الواقع قياسات أطفال المدارس هناك، صحة العكس وزيادة متوسط طول القامة للأجيال المتعاقبة في « تورنتو » .

ويمكن تكرار هذه الحقيقة في ميدان الذكاء . فلقد قرر كل من « طومسون » و « كاتل » ، الكثير من الدراسات المسحية التي أعيد إجراؤها في خمسة عشر عاماً ، أعطيت فيها نفس الاختبارات أو اختبارات مماثلة لجماعات من الأطفال من نفس الأماكن التي سبق أن أجريت فيها مثل هذه الدراسات ، وأخفقت هذه الدراسات وكذلك دراسة أو دراستين أخريين في الولايات المتحدة في إظهار أى نقص في الذكاء . وإذا بينت هذه الدراسات شيئاً فإنما يكون زيادة طفيفة في الذكاء . فهل يمكن أخذ هذه الحقيقة كدليل على إمكان صرف النظر الآن عن الفرض الخاص بانحطاط الذكاء ؟ . وللأسف لا يمكن في الواقع أن ننظر إلى البيانات على أنها قاطعة أو حتى على أنها متعلقة بالموضوع في المقام الأول ، من المعروف جيداً أن ألفه

الطفل بالاختيارات من الممكن أن ترفع درجته عدة نقاط ، ولا شك في أن الألفة بالإختبارات قد تزايدت إلى حد كبير خلال السنوات الخمسة عشر الماضية لدى سكان البلاد المفحوصين . وبالتالي يمكننا أن نتوقع زيادة في الدرجة ترجع إلى ألفة الاختبار وذلك بمقدار يفوق الانخفاض الضئيل الذي نتوقعه على أساس الفرض الذي هو قيد البحث .

وثمة أدلة مباشرة تبين أن هذا الفرض غير معقول ، فلقد وجد « طومسون » ارتفاعاً أكبر في درجات الاختبار في الأحياء التي طبقت فيها اختبارات الذكاء على نطاق واسع ، عما وجدته في الأحياء التي لم تستخدم فيها الاختبارات بدرجة محدودة . وربما لعب التدريب على هذه الاختبارات دوراً كذلك ، فلقد بين « فرنون » ، Vernon أن كثيراً من الاختبارات المستعملة في المدارس تستهدف إلى حد كبير للتدريب عليها ، ولا شك في أن كثيراً من السلطات التعليمية قد لجأت في السنوات الأخيرة إلى التدريب على اختبارات الذكاء ونتوقع أن يرفع ذلك متوسط درجات الأطفال المفحوصين الآن إذا ما قورن بالمتوسط في السنوات الماضية .

غير أن ألفة الاختبارات والتدريب عليها يعدان جانباً واحداً فقط من جوانب المشكلة . وثمة جانب آخر لم تشملته جميع هذه الأبحاث وهو ما يتعلق بحقيقة أن كلا من أبحاث « طومسون » و « كاتل » ، تتناول الأطفال غير مدخلة في حسابها غير المتزوجين من الراشدين ومن ليس لديهم أطفال ، ومن الممكن أن تغير هذه الجماعات الكبيرة نسبياً الآثار التي يمكن التنبؤ بها إلى حد كبير وهكذا تفسر النتائج الفعلية . وتحتوي هذه البحوث التجريبية بوجه عام عدداً كبيراً جداً من العوامل المجهولة فلا تجعل من الممكن تقرير أي نتائج راسخة عليها . كما أنها لا تدعم الفرض الأصلي غير أنها لا تعارضه .

والسؤال الآن هو : ما هي النتيجة العامة التي يمكن استخلاصها من

الوقائع ؟ يبدو جلياً أننا نواجه مشكلة قد تكون بالغة الخطورة في الواقع . فكما قالت الخادمة عندما وجدت سمكة في اللبن بأن ثمة دليلاً طارئاً ، وبينها لا يعد قاطعاً - إلا أنه لا يمكن التجاوز عنه - ولذا يبدو من المعقول أن نطلب من الحكومة أن توازر بحثاً تجريبياً على نطاق واسع ولأمد طويل ليحسم هذا السؤال نهائياً . ويتبغى أن يتجنب مثل هذا البحث نواحي القصور التي سبقت الإشارة إليها . فيمكن التغلب على الصعوبات الناشئة عن التدريب وألفة الاختبارات مثلاً . وذلك بالتدريب المقصود للأطفال إلى نقطة لا يطرأ على درجاتهم في اختبار الذكاء أى تحسن بعدها . ونعتقد أن أى مجهود حقيقي محدد لوضع مشروع بحث صحيح وفق هذه الخطوط لا يصادف في طريقه أى عقبات لا يمكن تخطيها . وفي ضوء خطورة المشكلات فإن تكاليف مثل هذا البحث تبدو تافهة إذا قورنت بالأهمية البالغة لنتائجها . وغالباً ما تلام العلوم الاجتماعية لعدم إعطائها إجابات قاطعة عن مشكلات كذلك التي نوقشت في هذا الفصل . وليس النقص عادة في براعة علماء العلوم الاجتماعية الذين يستطيعون إقامة التجارب المطلوبة بسهولة تامة ، ولكن النقص إنما يكمن في مجتمع يرفض حق الإعانة المالية الصغيرة جداً قبل تنفيذ مثل هذه التجارب . وفي عصر تنفق فيه مئات الملايين للتقدم في ميدان العلوم الطبيعية يجب ألا تتبنى العلوم الاجتماعية إتجاه الاستجداء حيث تكون المبالغ المطلوبة ضئيلة إذا ما قورنت بالأهمية الاجتماعية للمشكلة .

البابُ الثاني

علم النفس المعرفي

الفصل الخامس

من كل حسب قدرته

لا شك أن هذه العبارة الإشتراكية تعبر بجلاء عن طموح عميق الجذور عند كثير من الناس ، إلى حد ما كغيرها رغم ما فيها من غموض يؤثر على معناها ، فالفرض الذي تستند إليه هو أن الأفراد المختلفين تتباين قدراتهم ، وأنه في مجتمع مثالي ينبغي أن يطلب من كل شخص أن يقوم بنوع العمل الذي يصلح له بوجه خاص . ويبدو هذا الفرض ناتئاً كيد صادقاً في ضوء البحث السيكولوجي الحديث . واستناداً إلى هذه الحقيقة قامت ممارسة الانتقاء والتوجيه المهني التي تلعب دوراً كبيراً في علم النفس الصناعي الحديث .

وقد تصاح بعض الأمثلة القليلة لتوضيح الفروق الكبيرة في القدرة التي تحدث في جميع المهن الصناعية تقريباً فبين عمال النظافة مثلاً وجد أن إنتاج العمال الممتازين يكون دائماً ضعف إنتاج العمال الضعاف ، وبينما قد يصل عدد الأساسات التي ينظفها العامل الممتاز إلى ٥٠٠ تقريباً ، فإن معدل ما يتمه الآخرون هو ٢٥٠ على وجه التقريب ، ونحصل على نسبة مماثلة من العمال الممتازين في صناعة النسيج ، ففي إحدى الدراسات حصر المجموع الكلي لأطوال القماش التي تم إنتاجها وحسب من ذلك ومن مختلف الثوابت الأخرى متوسط معدل سرعة الإنتاج مقدراً بالمعدل في الدقيقة ، وتراوح التباين بين العمال فيما بين معدل سرعة ٦٢ معول إلى ١٣٠ معول في الدقيقة وكان أجر النسيج الأول في الساعة أقل من نصف أجر النسيج الثاني ، ومن وجهة نظر العامل نفسه كان ربح النول الثاني أكثر من ضعف ما ربحه النول الأول ، وكذلك كان أكثر من ضعف المبلغ اللازم لمواجهة المصروفات الثابتة في نفس الوقت .

وفي كلا المثالين السابقين كانت النسبة بين الأحسن والأسوأ هي ٢ : ١ تقريباً . وقد ثبت وجود هذا الرقم في كثير من الأبحاث ، فأجور الإنتاج بالقطعة في الساعة لصناع جوارب الرجال أو السيدات المنتجة بالساعة بواسطة عمال آلات التطريز مقسمة بالارطال ، وكذلك أرباح سائقي التاكسي العاملين تحت ظروف متشابهة بينت جميعاً هذه النسبة الموجودة بين الأعظم والأقل كفاءة . وتبين الأرقام الأخرى فروقاً فردية عظيمة حتى إلى درجة أنه بين صاقل الملاءق تزداد نسبة العمل عند العامل الكفء عن خمسة أمثال ما تكون عليه عند العامل الأقل كفاءة . وعلى العموم يظهر ثمة اتفاق كبير بين علماء علم النفس الصناعيين ، على أن العمال الذين ينظر إليهم في العادة على أنهم عاديون يتفوق أعظمهم كفاءة في قدرته ومهارته على أضعفهم بثلاث أو أربع مرات في المتوسط .

وينبغي أن نفهم أن هذه النتيجة تشير دائماً إلى نوع واحد من النشاط . فالشخص الذي يلمع في أحد أنواع النشاط قد يكون مخففاً تماماً في نشاط آخر ومتوسطاً في نشاط ثالث . فارتباطات النجاح في أنواع النشاط المختلفة ضئيلة نسبياً وتبين أن المهن الصناعية المختلفة تتطلب أنماطاً مختلفة نوعاً ما للقدرة . وقد يكون من المهم جداً بالنسبة لشخص معين أن يعرف نوع النشاط الذي يعتبر نفسه صالحاً للقيام به . وهذه وجهة نظر التوجيه المهني ، فإذا وجد الفرد فأي نصيحة ينبغي أن تسدى إليه فيما يتعلق باختياره المهني ؟ وتعد المعلومات الخاصة بقدرة العامل مساوية في أهميتها لرجل الصناعة الذي سوف يزداد إنتاجه كثيراً بتوظيف أفراد تتفق قدراتهم مع العمل الذي يقومون به . ووجهة نظر الانتقاء المهني هي أنه إذا توافر العمل فمن هو أنسب المتقدمين إليه ؟

وفي معالجة هذه المسألة ليس من الضروري افتراض أن القدرات الأساسية التي نتناولها إنما هي قدرات فطرية ، ومن المحتمل أننا نستطيع

أن نبرهن على صحة الفرض القائل أن أعظم نصيب من الفروق الفردية ، وذلك إلى الحد الذى تهتم به القدرات الصناعية المطلوبة ، يرجع فى مجتمعنا إلى الناحية الوراثية أكثر منه إلى الناحية البيئية . وعلى أى حال فمثل هذا التوضيح ليس مطلوباً فى الواقع لإقامة وتهيئة الرغبة فى التوجيه المهنى والانتقاء المهنى . فحقيقة وجود فروق بين الأفراد تعد برهاناً كافياً على الحاجة إلى أساليب الانتقاء هذه دون النظر إلى كيفية حدوث هذه الفروق .

وينبغى كذلك ملاحظة أننا نتناول أصلاً حتى الآن قدرات من رتبة منخفضة نوعاً ما . وهناك من الأسباب المقنعة ما يجعلنا نفترض أنه كلما كان النشاط أكثر تعقيداً عظمت الفروق فى القدرة بين الأحسن والأسوأ . وعلى سبيل المثال فلعبه التنس والشيش تعد أنواعاً من النشاط أكثر تعقيداً من صقل الملاعق . ولا يوجد أدنى شك فى أن الفروق بين لاعب التنس المجيد ولاعبه الضعيف أو لاعب الشيش تكون عظيمة جداً عن الفروق بين صاقل الملاعق الحسن وصاقلها الضعيف أو بين فتي عمال النظافة . ويمكننا أن نتصور كذلك عظم الفروق بين عالم الفيزياء الضعيف والمبرز فى هذا الميدان . وطالما أن أساليب الانتقاء فى مجتمعنا قاصرة إلى حد كبير على الأنماط الأولية البسيطة من الأعمال ، فسنعصر حديثنا هنا على الأعمال الصناعية ، أما الانتقاء للجامعات ، فسنعده له فصلاً آخر مستقلاً .

وإذا سلمنا أن من المرغوب انتقاء الناس لنمط معين من العمل يتمشى مع قدراتهم ومن الممكن مع أمزجتهم وميولهم الشخصية بوجه عام ، فقد نسأل عن كيفية حدوث مثل هذا الانتقاء فى معظم الحالات ، وتبدو الإجابة بأن مثل هذا الانتقاء يقوم دائماً على المقابلة الشخصية تقريباً . ولقد تم كثير من العمل المتعلق بمقابلة التوظيف فى نواحيها المختلفة ، وقد تبين مراجعة موجزة لهذا الدليل الأسباب التى من أجلها فضل غالبية علماء

النفس عامة بعض أنواع أساليب الاختبار الموضوعى عن عمليات
المقابلة العادية .

ولقد ذكر بينيه Binet واضع اختبارات الذكاء الحديثة أحد
الأبحاث القديمة الخاصة بالمقابلة ، إذ قام ثلاثة من المعلمين بمقابلة نفس
الأطفال وقدروا ذكاء كل منهم . وبنيت هذه التقديرات على نتائج مقابلة
أجراها كل معلم منهم كما تراهى له . ولقد ذكر بينيه نتيجتين لهذه التجربة
أجرى تحقيقهما منذ ذلك الوقت مرات عديدة : وأولى هاتين النتيجتين
هى : أن كل من اضطلع بالمقابلة كان واثقاً من صحة حكمه ، واثانية
أنه غالباً ما اختلف تماماً مع حكم غيره ممن قاموا بالمقابلة . وكان لسكلا
لهاتين النتيجتين أهمية بالغة فالأولى تفسر لماذا بقيت المقابلة الطريقة
المفضلة الراسخة لدى معظم الناس ممن كان عليهم انتقاء الموظفين للأغراض
الصناعية وغيرها بالرغم من البيانات الواقعية الخاصة بعدم صلاحية
المقابلة . فيصبح القائم بالمقابلة مقتنعاً بأن الصورة التى يكونها عن شخصية
الفرد وقدرته إن هى إلا صورة حقيقية ، ومع عدم وجود أى تحد لرأيه
وعلى الأخص فى عدم وجود طريقة للتابعة ترغمه على أن يتنبه إلى
اخفاقه المتكرر فإنه قد يصبح أكثر اقتناعاً لعلمه بكل شىء وقدرته التى
تمائل القدرة الالهية . ومع ذلك ، فقد يصادفنا بين الحين والآخر ،
الفرد الذى يقتنع بعدم صحة المقابلة ، ولكنه رغمًا عن ذلك ، يتمسك
بشدة وإصرار ، أنه من القلائل الذين يشذون عن القاعدة ، وأن أحكامه
لا يعترىها التبدل أو الاختلاف (وليس من الضرورى أن يقول بأن
الدراسات التجريبية لمثل هؤلاء الأفراد أخفقت فى الكشف عن أى قدرة
أعظم للتنبؤ بالنجاح والإخفاق بينهم عما وجد بين غيرهم من الناس) .

وتعد النقطة الثانية هامة لأنها تزودنا بطريقة لبحث المقابلة لا تعتمد
على دراسات تتبعية طويلة الأمد فيما يتعلق بصدق تنبؤ المقابلة . فإذا قام

المضطلعون بالمقابلة يتنبؤات دقيقة فعندئذ يصبح من الممكن على مر السنين .
أن نساير اختياراتهم خلال المهن المنتقاه ونوجد نسبة ما نجح فيها وكذلك
نسبة ما أخفق . ويعد ذلك عملاً شاقاً يتطلب وقتاً طويلاً ويكتنفه كثير من
الصعوبات . والاستدلال التالى أكثر بساطة لاختباره ، فإذا سلمنا بقدره
القائمين بالمقابلة . على التنبؤ بنجاح الفرد فى المستقبل بدقة ينبغى حينئذ أن
يتفقوا فى ذلك فيما بينهم . وإذا لم يتفقوا يكون من الواضح عندئذ أنه
لا يمكن أن يكون جميعهم على صواب . وإذا كان الاختلاف تاماً كما يكون
ذلك فى الغالب فعندئذ يجب أن يكونوا جميعاً مخطئين مع وجود واحد أو
اثنين غير متوقعين يشدان عن ذلك . ولقد استخدمت على نطاق واسع
طريقة تقدير صدق المقابلة وذلك بدراسة ثباتها وكانت النتائج دائماً متماثلة
على وجه التقريب كما سنرى فيما بعد .

والصدق والثبات اصطلاحان فنيان يتعلقان بأى نوع من القياس النفسى
فإذا كان القياس ثابتاً فإننا نحصل بذلك على نتائج متسقة عند إعادة عملية
القياس ، ويكون القائمون بالمقابلة غير ثابتين وذلك لعدم وجود انساق بين
تقدير أحدهم وتقدير غيره . ويكون القياس ، صادقاً ، إذا كان يقيس بدقة
الشيء الذى افترض أنه يقيسه . ومن الواضح أن المقياس لا يمكن أن يكون
صادقاً إذا لم يكن ثابتاً ، غير أنه من الممكن أن يكون ثابتاً دون أن يكون
صادقاً وذلك بثباته ودقته فى قياس شيء منفصم عن الميزان الذى تنبأ به .
فالطول يمكن أن يقاس بدرجة كبيرة من الثبات ولكن لا يكون صادقاً
كعامل تنبأ به عن النجاح فى معظم المهن الصناعية .

ولقد أجريت تجربة « بينية » السابق ذكرها فى المعمل ولم تكن متعلقة
بالصناعة . ويظهر أن أول دراسة صناعية قام بها « سكوت » ، Scott إذ جعل
سنة من المديرين المدربين يضطلعون بمقابلة ٣٦ من المتقدمين للوظائف .
وذلك على أساس قدرتهم فى البيع ، وكان على المتقدمين أن يرتبوا فى نظام .

تبعاً لتفوقهم وذلك فيما يتعلق بصلاحياتهم للوظيفة ، وبيّنت النتائج اختلافاً كبيراً في الرتب التي أعطيت لكل من المتقدمين . وكما قال « سكوت » ، فإن المديرين قد اختلفوا بالنسبة لثمانية وعشرين من المتقدمين فيما إذا كان الفرد يجب أن يوضع في النصف العلوي للمجموعة أو النصف الأسفل لها . ولقد أشارت دراسة الثبات إلى أن التنبؤات المبنية على المقابلة ينبغي أن تبين صدقاً ضئيلاً ، ففي دراسة أخرى جعل « سكوت » ١٣ مشرفاً يرتبون قدرة البيع عند ١٢ رجلاً ويقارنون هذه التقديرات بنتائج تنبؤ المقابلة ، فكان معدل الارتباط بين الأداء كما تم تقديره وتنبؤ المقابلة أحسن بقليل عما يحدث عن طريق الصدفة . وفي دراسة أخرى أجراها « سكوت » ، اشترك فيها عشرون مديراً للبيع وثلاثة من القائمين بالأبحاث فقام كل منهم بمقابلة نفس المتقدمين البالغ عددهم أربعة وعشرون شخصاً وكان هناك اختلاف كبير بين القائمين بالمقابلة .

ومن أشهر الدراسات التي تكرر الاستشهاد بها دراسة هولنجورث Hollingworth التي قام فيها اثنا عشر من مديري البيع المدربين في انتقاء الأشخاص بمقابلة O-V من المتقدمين للعمل مستقلين عن بعضهم البعض وكل وفق طريقته الخاصة ، ثم رتب هؤلاء المتقدمون تبعاً لصلاحياتهم للوظيفة فبيّنت رتبهم تبايناً كبيراً تبعاً لمن اضطلع بمقابلتهم ، فكان ترتيب أحدهما مثلاً بواسطة أحد المديرين هو السادس ، بينما كان ترتيبه بواسطة آخر هو السادس والخمسين ، وكان ترتيب أحد المتقدمين هو الأول بينما وضعه فاحص آخر في ذيل القائمة .

وقد يكون من نافلة القول استمرارنا في ذكر المئات العديدة من الدراسات التي أجريت فجاءت ترجيحاً لصدى هذه التجارب ، ويكاد يكون الاتفاق عملياً بإجماع الآراء على عدم ثبات المقابلة وقلة صدقها ، إذ توجد بعض الأبحاث التي تؤيد المقابلة كطريقة للقياس ، ولكن إذا نظرنا إليها بجامعان يتبين لنا في العادة وجود أخطاء جسيمة في أسلوب البحث والمنهج

المتبع . ففي إحدى الدراسات مثلاً استخدم كلارك Clark باحثين لمقابلة الطلاب بقصد التنبؤ عن أدائهم المدرسي، وقد وجد أن هذه التنبؤات كانت دقيقة إلى حد كبير ، ولكن يلاحظ أن المقابلة قد أجريت في وقت متأخر من الفصل الدراسي وكان الطلاب يسألون عن استذكارهم . وهكذا لم يكن دور الفاحص يزيد عن كونه صدى لتقدير الطالب لنفسه ، طالما أن الطلاب يعلمون جيداً مستواهم التحصيلي في هذه الفترة المتأخرة من الموسم الدراسي .

ولقد أدى الدليل القوي على أن المقابلة وحدها طريقة غير صالحة لتقدير قدرة الشخص على القيام بعمل معين إلى مراجعة معينة للزاعم الكامنة وراءها وغالباً ما يقال الآن أنه ينبغي ألا تستخدم المقابلة كبديل لاختبارات القدرة ولكن يجب أن تكون متممة لها ، إذ ينبغي أن تكون وسيلة لتنسيق البيانات بعناية وتجميعها في تقويم للتنبؤ بالقدرة الكلية والكفاءة وإمكانية النجاح في العمل ، ولذلك قد يمكن النظر إليها على أنها بديلة لطريقة يمكن أن توصي بنفسها إلى عالم النفس ذي الخبرة بالإحصاء ، أعني تكوين معادلة رياضية مبنية على دقة التنبؤ الملاحظة لكل اختبار على حدة .

وليس الفرض الذي يستند إليه هذا الاستخدام للمقابلة فرضاً غير معقول، ولكن يوجد الآن دليل كبير يوحى هنا أيضاً بإخفاق المقابلة في تحقيق الغرض المقصود منها . ونظراً لمراجعة بعض هذه الأدلة في فصل آخر فسوف نقتصر هنا على الاستشهاد بأحد الأبحاث الذي قام بمقارنة مباشرة بين الطريقة الإحصائية وطريقة المقابلة ، وفي هذا البحث أعطيت نفس مجموعة الاختيارات إلى مجموعات كبيرة من الأشخاص كان نصفهم من المختارين على أساس معدل إحصائي موزون لدرجات اختبارهم ، بينما تم اختيار النصف

الثاني بواسطة القائلين بالمقابلة ممن توافر لديهم جميع درجات الاختبار ويستطيعون تكملة ذلك باستقصاءاتهم الخاصة ومن يستطيعون تعيين وزن كبير أو قليل لبيانات الاختبار كما يرغبون . وعلى العكس مما يتوقع فإن التقديرات التي أدخلت في حسابها جميع البيانات التي حصل عليها من المقابلة وكذلك درجات الاختبار لم تتجاوز في دقة تنبؤها درجات الاختبار وحدها . وكان تنبؤ درجة الاختبار أحسن بأكثر من ٣٠ في المائة من التنبؤ المبني على المقابلة والاختبار . وعلى أساس عدد كبير من الأبحاث المماثلة التي أجرى جميعها على ٤٠,٠٠٠ رجل تقريباً استخلصنا النتيجة العامة التالية : إن إضافة تقويم نتائج المقابلة للخبرة ، والميول ، والصفات الشخصية ، إلى درجات الاختبارات ، لا يؤدي إلا إلى تحسن ضئيل في التنبؤ عن النجاح ، بل إن أثر هذه الإضافة قد يكون سالباً وحينئذ نستطيع أن نستنتج هنا كذلك أن المقابلة غالباً ما تكون فشلاً تاماً وأن الوقت المخصص لها لتزيد دقة التنبؤ يعتبر وقتاً ضائعاً . وإلى جانب أن المقابلة لا تزيد الدقة في التنبؤ قد تنقصها في الواقع .

ويبدو الاستعمال الثالث للمقابلة أكثر تحقيقاً لرجائنا على الرغم من أنه محدود نسبياً في وظيفته . وأذكر في إلقاء محاضرة خاصة بالمقابلة على جماعة من رجال الصناعة أن اقتراب أحدهم مني بعد ذلك وقال إنه بينما كان مستمتعاً بسماع ما يدور حول عدم جدوى المقابلة ، كان لديه الدليل السكافي على أنه من الممكن أن تكون في الحقيقة ناجحة جداً ، فسألته عن دليله هذا فأعلن باعتزاز عظيم بالنفس أنه قد انتق منذ عشر سنوات سكرتيرته بالرغم من صغر الدرجات التي أخذتها في اختبارات الانتقاء وأضاف باعتزاز أنها الآن زوجته . ولا يوجد أي شك أنه في الأعمال التي تتطلب الاتصال الشخصي كعنصر هام يصبح من الأمور المحبذة أن يتقابل الأفراد الواحد منهم بالآخر ، سواء في صورة مقابلة أو في صورة اجتماعية أخرى ، إذ لا تفيد درجات

الاختبار في هذه الحالة كبديل للتنبؤ عن مدى نجاح فردين معينين في تفاعلهما معاً في علاقات شخصية بحتة .

وقد دافع عن هذه النظرة بقوة مجموعة من علماء النفس المشهورين عن اختبار الضباط الذين كان لابد أن يحتفظ بهم الجيش الأمريكى بعد الحرب ، ولقد سلكوا على أساس افتراض أنه إذا كان لابد أن تشمل العملية على مقابلة شخصية فينبغى أن تسهم هذه المقابلة إسهاماً متميزاً ، وقصدوا بالتميز أنه ينبغى أن تهتم المقابلة الشخصية بشيء لا يستطيع قياسه قياساً أفضل بأساليب أخرى ، وقد ووفق بناء على ذلك ، على أن الذكاء والتعليم وسمات الشخصية المختلفة والخبرة لا تتناول في المقابلة الشخصية ولا تهتم المقابلة بإيجاد تكامل بين العوامل المختلفة لأن مثل هذا التكامل سيتم على نحو أفضل بأساليب إحصائية . وكل ما بقى بعد أن أبعدت المقابلة الشخصية عن هذه الوظائف التى يمكن أن تقاس على نحو أفضل بطرق أخرى كان التفاعل الاجتماعى أى القدرة على التعامل مع الناس . وكان الافتراض أنه لو عينا هدفاً فريداً خاصاً بالمقابلة فإنه يمكن التوصل إلى قياس أفضل للتفاعل الاجتماعى طالما أنه لن يضيع وقت أو طاقة فى أسئلة غير ذات موضوع أو فى التقويم . ويبدو أن النتائج قد حققت هذا الغرض لأنه أمكن تحقيق نتائج ذات ثبات مرتفع وصدق كبير يدعو للدهشة .

وبينما تعتبر هذه النتائج هامة ومشوقة فى التقدير العام للمقابلة كأداة للاختيار إلا أنها ليست حقيقة ذات أهمية وصلة بأكثر الأهداف الصناعية لأن العلاقات الشخصية لا تلعب جزءاً هاماً فى معظمها . ويمكن تحسين اختيار ملاحظ العمال وغيره من المشرفين بإجراء الاختبارات التى تقوم بتدريبهم على التفاعل الاجتماعى ولكن بالنسبة لمعظم الأعمال تكون القدرة على العمل أكثر أهمية من التفاعل الاجتماعى ، وفيما يتصل بالقدرة على

العمل ثمة شك كبير في مدى صلاحية المقابلة كطريقة فعالة في هذا الشأن ، ولا يمكن الدفاع عن هذا الشك دفاعا معقولا .

وإذا تركنا المقابلة الشخصية فإنه يبقى لدينا الاختبارات السيكولوجية كوسائل للتنبؤ بالقدرة المهنية ولقد تم وضع عدد هائل من هذه الاختبارات واستخدامها ، ولدينا كثير من الدراسات التي تظهر مدى قيمتها والمعايير التي تستخدم لتقويم النجاح في العمل تختلف اختلافا كبيرا بطبيعة الحال . فقد تهتم بكم الإنتاج أو كیفه ، وبمقدار العمل التالف وعدد الحوادث وعدد فترات الراحة وطول الخدمة أو الثبات في العمل أى عدم تغييره ، ومعدل التقدم والمكاسب والعوامل المختلفة الأخرى . وأحيانا يستند المعيار على مقياس التقدير ، ولكن هذا القياس عادة لا يبلغ من الدقة الموضوعية مثل المعايير التي ذكرناها من قبل .

إن العملية التي تلى في وضع وإثبات صدق سلسلة من الاختبارات لاختيار عمال في عمل معين يمكن اتباعها على أفضل نحو بأخذ عدد من الأمثلة ومناقشتها بالتفصيل ، بدلا من مناقشة مجردة للخطوات المختلفة التي يشتمل عليها العمل . ولقد أخذت أمثلي إلى حد كبير من الكتابات النفسية القديمة لتوفر دراسات تتبعية مستمرة وطويلة تبين أن النتائج ليست طابرة ولكن يمكن إنتاجها السنة بعد الأخرى بنجاح ثابت . ولم أختَر دراسات ناجحة على وجه الخصوص بل حاولت أن أختار بعض الدراسات التي سوف تكون بمثابة لجميع إجراءات الاختيار حين يقوم بها باحث كفء . ولئن يجد القارى صعوبة في التعميم من الأمثلة التي يغلب عليها التفصيل والتي سقناها لمن وأعمال أخرى لديه معرفة كبيرة بها .

ويتناول المثال الأول اختيار عمال كهربائيين للمحطات الفرعية ، فالأقتصاد في توزيع التيار الكهربائي يحتاج إلى تحويل القوت العالى الذى ينخفض في محطات كهربية فرعية قبل أن يوصل التيار إلى المستهلك . ويستقبل التيار ذو القوت العالى في محطة فرعية عن طريق عدد من الخطوط صادرة

من محطات مولدة ، بعد تخفيضه بحول التيار إلى المستهلكين خلال عدد كبير من الدوائر الكهربائية . وتشتمل هذه الخطوط والدوائر على قدر كبير من المعدات لتحويل القوت وتنظيمه كما تشتمل أيضاً على عدد كبير من العدادات المسجلة ، والأجهزة المجددة ، ووسائل أخرى وافية ومعدات كهربائية معقدة وما إلى ذلك وتعتبر من الواجبات الرئيسية للعامل الكهربائي بالمحطات الفرعية استعمال مفاتيح كهربية عديدة وقراءة العدادات والمحافظة على المحطة ومعدات وصيانتها .

إن المسؤولية الأساسية للعامل أن يتجنب أخطاء استعمال المفاتيح الكهربى للتحويل وهى لا تحتاج إلى خيال كبير لئلا نرى أن نتائج مثل هذا العمل تسبب كارثة ، فانطفاء الأنوار غير المتوقع وانقطاع التيار عن معدات فى مستشفى ولا سيما خلال إجراء عملية قد يكون قاتلاً وتعتمد كثير من الاجراءات الصناعية على عمليات غير متقطعة والانتاج الكلى أو الآلات المستخدمة فى لحظة انقطاع التيار الكهربى قد تتلف تماماً وبالإضافة إلى هذه الخسائر والمضايقات والتلف الممكن للمعدات الغالية جداً فى المحطة الفرعية ذاتها، قد تؤدى الأخطاء إلى الإضرار بالعامل ، وبطبيعة الحال يدرب العمال بالمحطات الفرعية على عملهم ولكن على الرغم من ذلك وجد أن عدد الأخطاء التى يعملونها كبيرة جداً بحيث لا نرضى عنها . ونتيجة لذلك دعى فيتاليس Viteles وهو واحد من بين أفضل علماء النفس الصناعى فى الولايات المتحدة عام ١٩٢٧ ليقوم بتحليل دقيق لعمل عمال المحطات الفرعية وليقتترح اختبارات لانتقاء الأشخاص الأكفاء منهم .

والخطوة الأولى التى قام بها فيتاليس هى أن يقوم بتحليل دقيق للنشاطات المتضمنة فى استخدام المفاتيح الكهربائية للتحويل فى المحطة الفرعية ولقد أوجت دراسة تفصيلية تم تنفيذها خلال فترة عدة شهور بالقدرات الأساسية التالية على أنها ضرورية للعمل المرضى ، فى المقام الأول يضع فيتاليس القدرة على التعلم وعلى الاسترجاع فى ترتيب سليم ، مجموعة معقدة من الاجراءات التحويلية التى

ينبغي أن يألفها العامل . وبلى ذلك الدقة في اتباع التوجيهات واستخدام معرفة إجراءات المحطة الفرعية في التحويل والإيقاف . ثم بلى ذلك « القدرة على فهم التعليمات المعطاة بسهولة إما شفويا أو تحريريا ، ويأتي بعد ذلك « المشاركة في الاستمرار في العمل في مشكلة حتى يتم حلها ، أوحى يدرك العامل سببا كافيا للاعتقاد بأن المشكلة لا يمكن حلها بالطرق الميسرة له . ولم تكن النقطة الخامسة أقل أهمية وهي الحكم والتحليل في حل مشكلة جديدة مثل تحديد مكان المشكلة وعلاجها . وبلى ذلك « القدرة على توجيه انتباه متآزر إلى عدد من العمليات أو الأشياء المختلفة في نفس الوقت ، وتوزيع الانتباه على تفاصيل الرسوم التوضيحية ، وعلى مفاتيح التحويل الصحيح ومقياس شدة التيار ، . وأخيرا تجب « القدرة على أن يتذكر العامل موضع المعدات في المحطات الفرعية وصورة للترتيبات السلكية ... الخ)

وفي حالة الظروف المفاجئة ينتهي فينباليس « إلى أن الصفات البارزة التي يحتاج إليها الاستمرار عملية دقيقة وغير خطيرة كانت مزاجية في طبيعتها . فالقدرة على مقاومة الخوف كانت مرتفعة في القائمة ، وذلك لأنه في إجراءات المحطات الفرعية ظهر أثر الخوف عامة في فقدان المباشر للدقة وفي الزيادة في الوقت المطلوب لتلافي المشكلة ، وفي فقدان عام لليقين والثبات الذي يمتد خلال فترة طويلة من الزمن تتبع بداية المثير المحدث للخوف .

وعلى أساس هذا التحليل وضع « فينباليس ، مجموعتين من الاختبارات ليفحص بقدر الإمكان القدرات العقلية والسمات المزاجية الضرورية للعمل في المحطة الفرعية عملا سليما غير خطر في ظل جميع الظروف . وكانت المجموعة الأولى من الاختبارات إلى حد كبير من النوع الذي يتطلب ورقة وقلما ، تتناول الذكاء والاستعداد الميكانيكي الخاص وماشابه ذلك . وتكونت المجموعة الثانية من أربع اختبارات للأداء صممت جزئيا لتشبه عمليات التحويل المطلوبة في مهمة العامل في المحطة الفرعية وتعطى تقديرات لقياس قدرة الفرد على أن يتبع التوجيهات ويتعلم التعليمات وعن مشاركة ضد الملل والتعب الجسماني .

أما وقد قررنا أى الاختبارات يمكن استخدامها فإن « فيتاليس » يتقدم ليظهر أنها ثابتة أى بتكرار تطبيقها على نفس الأشخاص سيحقق كل فرد تقريباً نفس التقدير فى الفرص التالية كما فعل فى المرة الأولى وهو عندئذ يتقدم ليفحص صدق الاختبارات . وكخطوة أولى أخذ ٨٤ عاملاً اشتغل كل واحد منهم بذلك العمل لمدة عام واحد وقسمهم إلى ثلاث مجموعات ، الأولى منها ممتازة والثانية متوسطة والثالثة ضعيفة على التوالى وكانت المجموعات الثلاث من الناحية العملية متماثلة فيما يتعلق بالسن وطول مدة الخدمة ، ووجد أن التقديرات تتفق مع عدد الأخطاء التى ارتكبها هؤلاء العمال ؛ ٢٣ فى المائة من المجموعة الممتازة ، ٥٢ فى المائة من المجموعة المتوسطة ، ٧٧ فى المائة من المجموعة الضعيفة خلال فترة معينة ، وفى ٣٠ سبتمبر عام ١٩٢٨ كان العمال الضعاف مسئولين عن ثمانية أمثال الأخطاء التى اقترفها العمال الممتازون مقدرة بالنسبة للعامل الواحد ، وثلاثة أمثال الأخطاء مقدرة بالنسبة للعامل الواحد من المتوسطين . فالتقديرات يمكن إذن أن تعتبر صادقة إلى حد معقول . ثم أعطيت بطارية اختبارات الانتقاء بعد ذلك للمجموعات الثلاث كلها ووجدت فروق ملحوظة بينها ، وحصلت أضعف مجموعة على تقدير متوسط مقداره ٥٤ ، وحصلت المجموعة المتوسطة على تقدير ٦٩ وحصلت أفضل مجموعة على تقدير ٨١ وظهر أن ٧٥ هو التقدير الحرج للاختيار عند استخدام هذه البطارية . وإذا استخدم هذا التقدير فى تأجير العمال الذين أجريت عليهم الدراسة فإن ٨ فى المائة من العمال الضعاف سيؤجرون بينما ٧١ فى المائة من العمال الممتازين سيتم اختيارهم للعمل .

أما وقد حصلنا على دليل يبين أن تقديرات الاختبار متصلة اتصالاً ذا دلالة بالأداء فى العمل فإن انتقاء عمال المحطات الفرعية كان قائماً على أداء الاختيار وقد استخدمت الاختبارات فى أول أبريل عام ١٩٢٨ وكانت النتيجة الخالصة نقصاً ملحوظاً فى أخطاء الأداء . وخلال عام ١٩٢٦ . ١٩٢٧ ، ١٩٢٨ كان عدد الأخطاء ٣٦ ، ٣٥ ، ٣٥ على التوالى . ولقد انخفض

عدد الأخطاء في عام ١٩٢٩ مباشرة بعد استخدام عملية الاختيار إلى ٢٠ ،
فرصل في عام ١٩٣٠ إلى ١٨ وفي عام ١٩٣١ إلى ١٢ وفي عام ١٩٣٢ وصل
إلى ٤ . أى أن استخدام عملية الانتقاء قد خفض الأخطاء إلى ١٠ في المائة
في فترة أقل من خمس سنوات . ولو أننا نظرنا إلى التكاليف الهائلة للبيئة
المحلية التي يعود عليها الخطأ ، فإن مقدار المال الذي تطلبته الدراسة واستخدام
عملية الانتقاء كان مسوغا إلى حد كبير .

وكانت الاختبارات التي استخدمها « فيتاليس » ، إلى حد كبير اختبارات
مقننة ومتوافرة تجاريا . وأحيانا يصمم العلماء في علم النفس الصناعي اختبارات
تشتمل في رأيهم على كثير من خصائص العمل الذي يتم الانتقاء من أجله ،
ومثال لهذا اختبار معقد لقياس القدرة على قيادة السيارات ، وفي هذا الاختبار
يوضع المفحوص في مواجهة قائم له مقبضان متحركان ومستقلان عن بعضهما
وله بدالان للقدمين ويعطى مشيرات بصرية وسمعية متنوعة في نظام عشوائي ،
وعلى المفحوص أن يستجيب لكل من هذه المشيرات بطريقة خاصة وذلك
بجذب أحد المقبضين أو كليهما أو بالضغط على أحد البدالين ، أو كليهما .
وتصدر إشارات مشتتة للذهن أحيانا لبحث مدى تعاطلها لاستجابات
المفحوص . وحين يعطى هذا الاختبار إلى السائقين المعروف أنهم لم يرتكبوا
أى حادثة وجد أنهم يتفوقون على غيرهم من كثرت حوادثهم . ونتيجة لذلك
استخدم الاختبار كوسيلة روتينية لتأجير السائقين في «ملووكي» Milwaukee
وظهر من دراسة تتبعية أن عدد الرجال المفصولين بسبب الحوادث نقص
من ١٤,١ في المائة عام ١٩٢٤ إلى ٦,٠ في المائة عام ١٩٢٥ ووجد إلى جانب
هذا النقص الملحوظ في الحوادث أن هناك نقصا ملحوظا في ترك العمل ،
فبقى ٧٥ في المائة من العمال في الخدمة في مقابل ٦٢ في المائة قبل استخدام هذا
الاختبار .

وينبغي ألا نتخيل أن العمل وفقا لهذه الخطوط قد تم في الولايات
المتحدة وحدها ، فالمثالان التاليان سيؤخذان من دراسات تم القيام بها في القارة

الأوربية فسائقو ترام برلين قد تم انتقاؤهم بواسطة سلسلة من الاختبارات بعضها يشبه الاختبار الذي وصفناه آنفاً، فبمقارنة مجموعة من العمال المستجدين الذين استؤجروا دون فحص سيكولوجي بمجموعة أخرى تم اختبارها قبل الانتقاء وجد أن أولئك الذين لم يفحصوا اقترفوا ٥٠ في المائة من الحوادث أكثر من الذين نجحوا في الاختبار السيكولوجي . وبمقارنة عدد الحوادث بعد استخدام عملية الاختبار بعدد الحوادث قبل ذلك وجد أن عدد الحوادث الخطرة قد تناقص من ١,٦ إلى ١,١ وأن الحوادث البسيطة نقصت من ٤٢ في كل مليون كيلومتر إلى ٢٩ . ووجد أيضاً تناقص مقداره ٥٠ في المائة في طول فترة التدريب المطلوبة ونقص ملحوظ في استخدام التيار وفي تكاليف التصليح . ولقد قدر أن استخدام العمليات السيكولوجية قد أدى إلى توفير مقداره ١٢ مليون مارك في عام واحد .

ولقد أمكن التوصل إلى نتائج مشابهة في باريس ، فبلى استخدام الاختبارات السيكولوجية أن انخفضت نسبة سائقى السيارات العامة الذين تركوا العمل نتيجة لعجزهم من ٢٠ إلى ٣ وأدى ذلك إلى اقتصاد سنوى مقداره ١٥٠ ألف فرنك (في وقت كانت قيمة الفرنك فيه عالية في السوق العالمية) فالسائقون الذين استؤجروا بعد استخدام عملية الانتقاء كانوا مسئولين عن ١٦,٥ في المائة من الحوادث أقل من أولئك الذين استؤجروا من قبل ، ويمثل هذا اقتصاداً سنوياً قدره ١٣٠ ألف فرنك .

وليس من الممكن دائماً أن تتنبأ بالضبط بالصفات المطلوبة في عمل معين . فقد تكون وهمية ، مثلاً أن زمن الرجوع السريع سيكون مفيداً لسائقى التاكسى . وقد وجد بالضرورة أن السائقين الذين ارتكبوا أكبر قدر من الحوادث لديهم أبطأ زمن للرجوع في الاختبار المخصص لذلك ولكن على أية حال وجد أن الرجال الذين لديهم أسرع زمن رجوع يميلون إلى ارتكاب عدد كبير من الحوادث ، وقد يكون التفسير أن هؤلاء المتسرعين يحتمل أن يخاطروا بسبب ثقتهم الزائدة في أنفسهم ، ومن ثم يستعجلون الحوادث ، ومهما يكن

التفسير فالدراسة التجريبية مطلوبة دائماً لتظهر ما إذا كان الفرض السيكولوجي الأصلي الذى تقوم عليه اختبارات الانتقاء صحيحاً أم خاطئاً . ولو أنه أتيح لهذه الاختبارات إثبات الصديق المناسب فإننا لن نجد صعوبة فى وضع بطاريات انتقاء لأى نوع من العمل تقريباً ، ولو أخذنا كمثال انتقاء سائق التاكسى فإن « سنو » Snow قد وجد أنه حين يختبر السائقون ويقدرّون على أنهم مقبولين وغير مقبولين فإن متوسط عدد الحوادث بالنسبة للرجل فى المجموعة غير المقبولة كان حادثة واحدة للرجل ، بينما كان فى المجموعة المقبولة ٢٠ . للرجل ، وبلغ عدد الأشخاص الذين ارتكبوا حوادث فى المجموعة غير المقبولة ضعف أولئك الذين ارتكبوا حوادث فى المجموعة الأخرى تقريباً . ومن ارتكبوا أكثر من حادثتين فى المجموعة غير المقبولة بلغوا ثلاثة أمثال من ارتكبوا مثل هذه الحوادث فى المجموعة الأخرى .

وقد استمدت جميع أمثلتنا حتى الآن من المجالات الصناعية وكذلك مجالات النقل . وثمة أمثلة أخرى مستقاة من المهن المكتبية ، فقد وضع « أورورك » O'Rourke مثلاً اختباراً ليقبلاً بالكفاية فى المهارة العامة للكتابة على الآلة الكاتبة والاختزال . ومن بين أولئك الذين حصلوا على أعلى تقديرات ٩٩ فى المائة قدروا فوق المتوسط فى الكفاية ، ومن الذين حصلوا على أقل تقديرات فى الاختبار حصل ٤ فى المائة على مثل هذا التقدير ، ولقد وضع علماء النفس ذاتهم سلسلة من الاختبارات لانتقاء موزعى البريد ، وأظهروا أنه بينما نجد فى الزمن السابق على الانتقاء أن ٥ فى المائة من الموظفين تفوقوا على معيار معين نجد أنه بعد استخدام الاختبارات حقق ٩٣ فى المائة مهم هذا التفوق . وبينما نجد أن ٢٥ فى المائة قد قدروا على أنهم ضعاف قبل استخدام الاختبار ، لم يقدر هكذا أى فرد بعد استخدام عملية الانتقاء .

وهذه كلها تقارير قديمة نسبياً مأخوذة من الممارسة الأمريكية ومن العمل فى القارة الأوروبية . وقد يكون القارىء مهتماً بنتائج العمل المشابهة

الذى تم القيام به في بريطانيا خلال الحرب حين استخدمت عمليات انتقاء الأشخاص على نطاق واسع جداً . وربما يشوقنا كثيراً الأرقام التى تظهر المقارنات بين عدد الأخطاء فى المجموعات المنتقاة بواسطة الطرق السيكولوجية والمجموعات المنتقاة بالطرق الأخرى التى تم تدريبها فى الوقت نفسه مع المجموعات السابقة . وكما يبين « فرنون » Vernon ، و « بارى » Parry فى كتابهما عن انتقاء الأفراد فى القوات البريطانية والذى أخذت منه هذه الأرقام (أن معدلات الإخفاق التالية أظهرت تحسناً هائلاً يعزى إلى انتقاء الأشخاص) . وعلى هذا فمن بين السائقين الذين تم انتقاؤهم بواسطة الطرق القديمة أخفق ٢٠ فى المائة بينما أخفق ١٤ فى المائة فحسب من بين أولئك الذين تم اختيارهم بالطريقة الجديدة ، وكانت الأرقام بين الكتيبة كما يلى : ١١ فى المائة و ٤ فى المائة على التوالى وكانت لعمال اللاسلكى ٧ فى المائة و ٥ فى المائة . وبالنسبة للعمال المختصين وهى أكبر مجموعة درست كان معدل الإخفاق ٦٠ فى المائة فى ظل طريقة الانتقاء القديمة وكانت ٧ فى المائة فى ظل الطريقة الجديدة .

وقد ظهر اهتمام خاص فى اختيار أصحاب الحرف والميكانيكيين حيث كان من الممكن مقارنة معدلات الإخفاق فى مقررات التدريب لحوالى ١٠ آلاف من الفنيين بالجيش اختيروا بأربع عمليات مختلفة خلال أربعة شهور من عام ١٩٤٢ . فهؤلاء الذين رشحهم الضباط الفنيون كان معدل إخفاقهم ١٩,٢ أما أولئك الذين رشحوا نتيجة لطلبهم فكان معدل الإخفاق بينهم ١٩,٦ ، و بين أنصاف المؤهلين الذين دعيتهم وزارة العمل كان معدل الإخفاق ١٩,٤ بينما كان معدل الإخفاق بين أولئك الذين اختيروا عن طريق العمليات السيكولوجية هو ١١,١ .

ويمكن اقتباس أرقام مشابهة من الخدمات الأخرى . فمعدل الإخفاق بين الميكانيكيين فى البحرية والفنيين انخفض من ١٤,٧ فى المائة إلى ٨ فى المائة . وربما كان ما هو أكثر أهمية أن استخدام الطرق السيكولوجية

لم ينقص معدل الإخفاق فحسب بل استخلص أيضا نسبا أكبر من المدربين من مجندى البحرية دون أخذ عدد من الفروع الفنية الأخرى التي كانت محتاجة إليهم في نفس الوقت .

وليس من المجدى أن نضاعف أمثلة يظهر كل منها تحسينات ما بين ٥٠ و عدة مئات في المائة، ولسنا في حاجة إلى أن نتصفح آلاف التقارير المنشورة التي تتناول عملية الانتقاء دون أن نخلص إلى الاعتقاد الحاسم أنه حيثما استخدمت العمليات السيكولوجية للانتقاء بواسطة علماء النفس إلا كفاه فإننا نستطيع أن نتوقع في ثقة تحسينات هائلة في الأداء ونقصا كبيرا في معدل الأداء .

ولست نتيجة تطبيق علم النفس في الصناعة مدهشة في الحقيقة وذلك لأن الفروق الفردية في القدرة على أداء عمل معين شائعة جداً ، وعدد القدرات التي يحتاج إليها عمل خاص محدودة جداً بحيث أنه حتى مع استخدام طريقة بسيطة غير تحليلية لا مفر من النجاح تقريبا .

ويختلف الموقف تماما حين ننقل من الانتقاء المهني إلى التوجيه المهني ، فليس علينا أن ننتقي هنا أفضل المرشحين من المتقدمين للقيام بعمل خاص ؛ إذ علينا أن نتنبأ بالنسبة لشخص معين أفضل الأعمال التي تناسبه من بين آلاف كثيرة من الأعمال المختلفة . وهذا عمل جد عسير لأسباب واضحة ، فبدلاً من قدرتنا على أن نختبر وجود صفات يحتاجها عمل واحد ينبغي أن نقوم الوجود وعدم الوجود النسبي للقدرات المتضمنة في عدد كبير من الأعمال ، وعلى هذا يتضاعف مقدار ما نحتاج إليه من اختبار آلاف المرات ، فبدلاً من أن تتناول عملاً خاصاً يسهل بالنسبة إليه أن نكتسب معلومات فإننا نتناول عدداً هائلاً من الأعمال المختلفة المقنعة تحت نفس الاسم . فالجراح والطبيب العام والطبيب العقلي والمؤرخ الطبي ومحرر المجلة العلمية « الدكتور مثلاً ، ورئيس ومدير المنطقة الطبية ، كل هؤلاء ينضمون تحت لواء الاسم العام وهو « الطبيب » . وعلى الرغم من ذلك فهمهم ومن ثم

القدرات التي تحتاج إليها من المفروض أن تكون مختلفة ومتنوعة كما يبدو لنا . إن لفظ سكرتير قد يشير إلى إنسان يقوم بتنفيذ عمل مؤهل وثقة بدرجة عالية ، ويتطلب قدراً كبيراً من الذكاء والمبادأة ، وهو أيضاً قد يشير إلى فتاة تقضى وقتها كله في الثرثرة وإعداد الشاي .

وحتى لو كانت كل الأعمال الممكنة استطاع تصنيفها بدقة مع مقتضياتها الخاصة فإنه على الرغم من ذلك فإن معرفتنا عن القدرات والسمات المازاجية التي تتصل بالنجاح في أي من هذه المهن لا تزال ناقصة إلى حد كبير ، بحيث أنه بدون بحث مستفيض وعلى نطاق واسع يستحيل إلى حد كبير القيام بتنبؤات ، ولدينا معلومات عن حوالي ٢٠ أو ٣٠ عملاً من بين آلاف من الأعمال التي علينا أن نختار من بينها ، وليس هناك أمل معقول في الإضافة إلى هذا العدد بأي قدر ملحوظ في المستقبل القريب .

وربما كان أحد الأسباب الرئيسية لهذه الدراسة غير النامية نسبياً للتوجيه المهني كما يقارن بالانتقاء الصناعي أنه بينما يكون الانتقاء المهني مفيداً لذاته على نحو كبير - ففي جميع الأمثلة التي أوردناها كان العائد المالى المباشر في عام واحد للشركة التي أجرت البحث أكثر من تكاليف البحث كله - إلا أن المكسب المادى المباشر لأي إنسان في التوجيه المهني يكون ضئيلاً . إذ أنه يأتي بتكاليفه على أساس السعادة والإنتاج الفردى ومن ثم فمن المفروض أن له عائداً في المنفعة الاجتماعية الكبرى للأشخاص الذين يوجهون بنجاح ولكن مثل هذه الاعتبارات في المادى البعيد يندر أن تلعب دوراً في تفكيرنا الاجتماعى والسياسى ، كما تم تنفيذ مثل هذا العمل في ذلك المجال بأن قامت به منظمات خاصة تماماً مثل المعهد القومى لعلم النفس الصناعى الذى لا تعينه الحكومة .

وعلى الرغم من الصعوبات التي تكتنف التوجيه المهني إلا أن هناك دليلاً طبيعياً على أنه حتى في مرحلة نموه المبكرة جداً وفي حالة عدم وجود كثير من المعرفة المطلوبة كانت له إمكانيات أبعد بكثير مما يستطيع أن يتخيله

المرء . وسنقتبس هنا مثالا واحداً فحسب ، وهو تجربة « برمنجهام » في التوجيه المهني التي تم فيها تتبع ١٦٣٩ طفلاً خلال عامين و ٦٠٣ خلال أربعة أعوام . وجه نصف هؤلاء . وهي الجماعة التجريبية على أساس الأساليب النفسية ونصح النصف الآخر وهو الجماعة الضابطة في مؤسسات التوظيف العادية . وقد استخدمت معايير مختلفة للحكم على فاعلية النصيحة مثل تقديرات أصحاب العمل وطول الوقت الذي أمضوه في العمل ونستطيع أن نقسم كلا من الجماعة التجريبية — وهي التي وجهت سيكولوجياً — والجماعة الضابطة إلى قسمين — أولئك الذين التحقوا بالأعمال وفقاً للنصيحة ، وأولئك الذين اختاروا أعمالاً على غير ما نصحوا به . ولو أخذنا الجماعة التي وجهت سيكولوجياً أولاً فإننا نجد أنه في نهاية عامين كان ٩٠ في المائة من أولئك الذين نفذوا ما نصحوا به كانوا راضين عن أعمالهم بينما وجد أن ٢٦ في المائة فحسب من الذين لم يسمعوا ما نصحوا به كانوا راضين . وفي نهاية سنوات كانت النسب على التوالي ٩٣ و ٣٣ في المائة ، وبذلك بلغت نسبة من اتبع النصيحة السيكولوجية وكان راضياً ثلاثة أمثال من لم يتبعها .

والموقف مختلف تماماً في الجماعة الضابطة حيث نجد أن من بين من اتبعوا النصيحة ٦٤ في المائة كانوا راضين بأعمالهم بعد عامين وبعد أربعة أعوام ، بينما أولئك الذين لم يتبعوها وجد أن ٧٦ في المائة و ٧٨ في المائة منهم كانوا راضين . وعلى ذلك فهما يكن من شيء ، فإن الأطفال الذين اتبعوا نصيحة مكتب التوظيف كانوا أقل رضى عن أولئك الذين لم يتبعوها .

وكانت النتائج المتصلة بالبقاء في الأعمال مشابهة ، ففي الجماعة التجريبية بقي هؤلاء الذين سمعوا النصيحة في عملهم الأول لفترة تزيد عن عامين في ٦٠ في المائة من الحالات وما يزيد عن أربعة أعوام في ٤٦ في المائة من الحالات وكانت النسب في حالة الذين لم يسمعوا النصيحة ١١ و ١١ على التوالي . وفي الجماعة الضابطة كانت الأرقام بالنسبة لهؤلاء الذين اختاروا الأعمال بما يتفق والنصيحة ٢٧ و ٢٧ في المائة في عامين وأربعة أعوام على التوالي ، وبالنسبة

للذين التحقوا بأعمال على غير ما نصحوا به كانت النسبة ٣٣ في المائة و ٢٦ في المائة على التوالي . وعلى ذلك فلا يوجد فرق من الناحية العملية في الاحتفاظ بالأعمال في الجماعة الضابطة بين من سمعوا النصيحة من البنين والبنات ومن لم يستمعوا إليها ، وهناك فرق كبير جداً في الجماعة الموجهة سيكولوجياً . وقد أجريت هذه التجربة ونفذت تحت رعاية المعهد القومي لعلم النفس الصناعي منذ خمسة وعشرين عاماً مضت . وقد أهمل المجتمع نتائجها إلى حد كبير حتى الحرب العالمية الثانية حين تعاون التوجيه والانتقاء المهني في العمل الانتقائي للقوات المسلحة .

ويمكن أن نذكر عبارة موجزة عن سمة فريدة لهذا العمل ، ففي الانتقاء المهني يكون الشخص الذي ينظم عملية الانتقاء في العادة غير مهال بمصير أولئك الذين تم استبعادهم . وفي التوجيه المهني يهتم خبير التوجيه بوضع عميله الجاуз في نوع العمل الذي يناسب ميوله وقدراته على أفضل نحو . ففي القوات المسلحة على أية حال نكون في موقف مختلف إلى حد ما عن الموقفين السابقين، إذ نتناول ما يمكن أن يسميه عالم الطبيعة نظاماً مغلقاً Closed system . وينبغي أن نجد عملاً لجميع الرجال والنساء الذين استدعوا إلى الخدمة ولا نستطيع أن نلقى بأقلهم قدرة على تلال المهملين من العاطلين ، وفي نفس الوقت لا نستطيع أن ننفذ عملية الانتقاء التي تقوم على مطالب عمل معين منفصل عن الأعمال الأخرى كلها . فإذا تم هذا فإننا نحرم كثيراً من الأعمال الهامة الأخرى من المؤهلين تأهيلاً طيباً لها . وحدث ذلك كثيراً جداً في الأيام الأولى للحرب حين استخدمت بعض الوحدات أو الأسلحة عمليات الانتقاء ، ومن ثم قبلت المجندين المعدين إعداداً حسناً ، بينما تركت ما بقي للوحدات الأخرى .

ومن ثم فقد أصبح من الجوهري أن يكون لدينا نظام دقيق في اتزانه ، يوفق فيه بين قدرات كل المجندين وبين مطالب الأقسام المختلفة من الجيش توفيقاً يتوفر فيه التوازن بين جميع القوات المتنافسة . والتحقيق الناجح لمثل

هذا التوازن على أساس الحسابات الإحصائية المعقدة ربما يكون النجاح القذالذي. أحرزه علم النفس الصناعي البريطاني خلال سنوات الحرب، ويبدو أنه في الإمكان أن نمضي في الاتجاه الذي ننظر فيه إلى المجتمع أكثر وأكثر على أنه نظام مغلق، نحاول فيه تحقيق أفضل توافق ممكن بين القدرات المتفاوتة للأفراد المختلفين والحاجات الصناعية للمجتمع. إن العمل العشوائي لتبادل العمال يصبح أكثر استنارة ويعتمد عليه، وسوف نحصل على جماعة أكثر إنتاجاً وأكثر رضا عن مهنتهم المنتقاة.

ونحن لا ندافع عن هذا الاتجاه الخاص ولا نتنبأ باتباعه. وثمة كثير من الصعوبات الواضحة والاعتراضات ذات الطبيعة السياسية والاجتماعية التي لا يعتبر العالم مؤهلاً لمناقشتها على نحو طيب بوجه خاص. ولو أننا اعتمدنا على الحقائق وحدها فإنه لا يبقى لدينا شك على أساس ما لدينا من دليل في إمكان تحقيق تحسن عظيم في الإنتاج باستخدام عمليات الانتقاء المناسبة. وهذه العمليات محايمة اجتماعياً وسياسياً وقد يستخدمها مستبد ليزيد فاعلية عبيده. وقد تستخدم في ديمقراطية وحرية لتحقيق إنتاج أكبر وسعادة أعظم. وليس من شك في أن قدراً طيباً من إعادة التفكير في كثير من المشكلات الصناعية مطلوب إذا أردنا أن نستخدم طرق الانتقاء السيكلوجية في هذا البلد على نطاق واسع. ويبدو من الصعب أن نصدق أن المجتمع سوف يرفض القوة النافعة التي وضعها العلم الحديث في أيدينا خشية إساءة استعمالها.

الفصل السادس

استخدام الاختبارات في انتقاء الطلاب

لم تكن مشكلة انتقاء الطلاب مشكلة جد خطيرة في بريطانيا حتى وقت قريب جداً . فلقد كان هناك بطبيعة الحال دائماً قدر من الانتقاء المقصود ولكن كان على أساس ما نريد لا بقصد الاستبعاد الضروري ، وقد وجد شعور ضئيل بعدم الرضى من جانب المهتمين بهذه العملية . وكان واضحاً أن العامل الهام الذى حدد الانتقاء هو دخل الأسرة ، ولما يتصف به هذا العامل من موضوعية نسبية وسهولة في القياس . وقد تعقد النظام الذى بنى عليه في الحدود الاجتماعية الأخلاقية هذه الفلسفة الخاصة .

ولقد وجد دائماً في الولايات المتحدة ضغط أعم من جانب النشء لكى تتاح لهم فرض للتعليم العالى ، وبطبيعة الحال كان عدد طلاب الجامعة لفترة طويلة يقرب من عشرة أمثال طلاب الجامعة في بريطانيا إذا أدخلنا في اعتبارنا نسب السكان ، وقد يكون هذا هو السبب ، ولو جزئياً ، في المشكلة قد قوبلت في الولايات المتحدة مبكرة عنها في إنجلترا ، ولا شك أن الأمريكين قابلوها بطريقة واقعة حقيقية ، . وعلى أية حال فلقد ظهرت في السنوات الأخيرة نفس المشكلات في بريطانيا أيضاً ، ومعظم الجامعات الآن لديها ما بين ، طالبين ومائة طالب يتقدمون لكل مكان يخلو في إحداها ومن المستحيل تقريباً أن نعطي أى أعداد مضبوطة عن عدد الطلاب لأنهم في هذا الجيل يقدمون أوراقهم لجامعات متعددة في نفس الوقت) . ويوجد على وجه الخصوص رغبة هائلة في الالتحاق بكليات الطب يزيد كثيراً عن العدد الذى يقبل فيها ولا يظهر هذا الموقف أى

دليل على التحسن وسوف يستمر الحال على ذلك لسنوات عديدة قادمة .
يكون علينا فيها أن نقوم بعملية مقصودة للانتقاء من بين هؤلاء الذين يرغبون
في الالتحاق بمعاهد التعليم العالي .

وليس غرض هذا الفصل أن نجادل في مدى الرغبة في القيام
بعمليات انتقاء للطلاب أو الرغبة عنها ، ويمكن أن نجادل في أنه ينبغي
أن يسمح لكل فرد بغض النظر عن قدرته وصفاته المزاجية ، أو أي
اعتبار آخر إذا رغب في أن يستمر في تعليمه حتى المرحلة التي يشعر
فيها أنه قد توصل إلى أعلى نقطة لتحقيق ذاته . وهناك آخرون يحاولون
وربما كانوا أكثر افحاماً واقناعاً بأن قيود الذكاء تجعل من المستحيل على
الغالبية العظمى أن تستفيد من دراسات الجامعة ، وأنه لو وضعنا في
نفس الفصل أشخاصاً ذوي قدرة عالية مع آخرين أقل من المتوسط في
الذكاء فإننا نجعل من أي تدريس عال ومتقدم مسرحية هزلية . ولا يحتاج
هذا السؤال إلى جدال وذلك ببساطة لأننا لن نصل في حياتنا إلى النقطة التي
يستطيع أكثر من عدد قليل من الراغبين في التعليم العالي تحقيق ما
يصبون إليه . وتقييد الظروف الاقتصادية للدولة حرية العمل بشدة
ولكنها في هذه الحالة على الأقل تدلنا في وضوح على الحدود التي علينا
أن نتناول فيها مشكلتنا .

وقد نتساءل للوهلة الأولى عن ماهية عمليات الانتقاء التي تحدد في
اللحظة الراهنة حظ آلاف كثيرة من أذكي وأقدر شباننا وفتياتنا . ولم يتم
إلى الآن مسح سليم ولسكننا جانب الخطأ لو قلنا أنه في غالبية الحالات تكون
المقابلات الشخصية القائمة جزئياً على التحصيل السابق وعلى توصيات
النظار وما شابه ذلك هي أساس القبول والرفض وفي خلال بحث عاجل
إلى حشد ما قد وجدت دليلاً يستند إلى معايير أخرى . مثل نوع خط
الطالب الذي استخدمه بعض المسئولين على أنه دليل كاف للرفض ،
ولا اعتقد على أية حال أنه في معظم الحالات تستخدم مثل هذه الطرق

غير المرضية إرضاء كافيا وغير الصحيحة . ومن الصواب أن نقول على أية حال أنه في اللحظة الراهنة لا تستخدم أى جامعة بريطانية الاختبارات السيكولوجية لتساعد في انتقاء الطلاب . وهذه الحقيقة مدهشة إلى حد ما في ضوء الممارسة الأمريكية التي تعتمد إلى حد كبير على استخدام هذه الاختبارات وسوف يكون عملنا الرئيسى أن نبحث في هذا الفصل درجة صدق العمليات الراهنة كما تقارن بالاختبارات السيكولوجية .

وقبل أن نفعل هذا على أية حال ، دعنا ننظر إلى نتائج العمليات الحالية في بريطانيا لدقائق قليلة . وسأبنى مناقشتى على بعض الأدلة التي استقيتها من جامعات مختلفة قدرت أن متوسط نسبة ذكاء الطلاب تقع بين ١٢٥ و ١٣٠ مع وجود فروق كبيرة بين الطلبة في الكليات المختلفة ، فالطلاب في كليات الطب مثلا في المتوسط أقل فيما يتصل بالذكاء من طلاب كليات الآداب والعلوم ، والطلاب الذين يدرسون الرياضيات والفلسفة يميلون إلى أن يكونوا أكثر تفوقا من الذين يدرسون التاريخ واللغة الانجليزية وهكذا ، وعلى ضوء توزيع نسب الذكاء المعروفة في السكان وعدد الطلاب الذين يدرسون بالجامعات يمكن أن نستدل على أن أكثر قليلا من نصف هؤلاء الذين تمكنهم قدراتهم من الاستفادة من التعليم الجامعى قد وصلوا فعلا إلى الجامعة ، ويمكن أن تعكس هذه النتيجة بحيث يظهر أن عددا كبيرا من الطلاب الذين يتعلمون بالجامعة ذوى ذكاء أدنى من الرجال والنساء غير الملتحقين بالجامعة ، فإذا سمح بالالتحاق بالجامعة لأكثر الناس ذكاء فإن الحد الأدنى للقبول سيكون بمقربة من نسبة الذكاء ١٢٥ ومقارنة هذا الرقم بمتوسط الذكاء الحالى ١٢٧ يبين اخفاق الجامعات في اجتذاب وانتقاء عدد كبير من الطلاب ذوى الذكاء المرتفع .

والأرقام الأمريكية بطبيعة الحال مختلفة تماما بمتوسط نسبة ذكاء الطلاب

في الجامعات الأمريكية تقرب من ١١٠ وهذا يعني - إلى جانب أشياء أخرى - أن حوالي ربع الطلاب ذكؤهم أقل من المتوسط وهناك في الحقيقة كليات في الولايات المتحدة متوسط ذكاء الطلاب فيها أقل من متوسط ذكاء سكان البلاد كلها ، واسننا في حاجة لأن نقول بأن هذه الأرقام لا صلة لها بالمعايير التي يصل إليها الطلاب في الجامعات الأمريكية المعروفة مثل هارفارد وييل وبرنستون وغيرها ، فالمستوى الفعلي لطلابها هناك معادل للمتوسط الانجليزي . وإلى حد ما يعكس الذكاء الأمريكي المنخفض كثرة عدد الطلاب فمن المستحيل أن تزيد عدد الطلاب عشرات المرات دون أن تنقص متوسط نسبة الذكاء نقصا ملحوظا ، وهي تعكس جزئيا الاتجاه الأمريكي نحو اعتبار الجامعة لا على أنها معهد للدراسة ولكن على أنها استمرار للدراسة الثانوية ذات الوظائف الاجتماعية المنفصلة تماما عن وظائف التعليم العالي . ونذكر هذه الأرقام لأنها تبين أن العمليات التي قد تصلح تماما في الولايات المتحدة قد لا تصلح بالضرورة في بريطانيا وأننا لا نستطيع أن نقارن بسهولة حيث تكون الظروف مختلفة تماما .

ولو أننا وعينا هذا التحذير فإننا قد نبدأ أولا بالنظر إلى نتائج النجاح في الأمريكية وقد بذلت محاولات مبكرة في هذا القرن استخدمت فيها الاختبارات السيكولوجية كمقياس لذكاء الطلاب ، ولسوء الحظ فإن هذه المقاييس قامت على فروض غير سليمة ولم تظهر أي درجة من الارتباط بين النجاح في الجامعة والنجاح في الاختبار ، ولكن يلاحظ على هذه الاختبارات المبكرة أنها ذات طبيعة فسيولوجية ، اذ بنيت على المفهوم الفسيولوجي للذكاء الذي يربط بينه من ناحية وبين سرعة النشاط الانعكاسي وبعض المظاهر العصبية الأخرى ، من ناحية أخرى ، ومن المعروف الآن أن هذه الأمور لا علاقة لها إطلاقا بالذكاء . والامر الذي يسر للجامعات مقاييس للذكاء ذات طبيعة غير فسيولوجية هو وضع اختبارات الذكاء للجيش الأمريكي ، وقد طبقت هذه الاختبارات

الجديدة بأسراف كبير على مئات الآلاف من الطلاب ، ووضع علماء النفس في الجامعات المختلفة تقارير عنها ، وهناك الآن عدة آلاف من الأبحاث تصنف نتائج هذه الأعمال .

وعلى وجه العموم أجمعت التقارير إجماعاً ملحوظاً على نفس النتائج ، فالطلاب ككل تفوقوا كثيراً على غيرهم في اختبارات الذكاء ، والطلاب الذين يتفوقون في دراساتهم ، عادة ما يتفوقون في اختبارات الذكاء على الطلاب الذين يخفقون أو الذين ينجحون بدرجة مقبول . ويمكن التنبؤ بنجاح طالب في الامتحان النهائي بدقة كبيرة على أساس أدائه في اختبار ذكاء يطبق عليه وقت التحاقه بالكلية . وتتفاوت دقة التنبؤات تفاوتاً كبيراً من معهد إلى آخر . وفي بعض الحالات تزيد قليلاً عن الصدفة ، وفي حالات أخرى تقرب من درجة الكمال . وثمة أسباب عديدة لهذه الاختلافات التي يغلب أن تفيدنا من الناحية التعليمية .

ويلاحظ أولاً أن الكليات تختلف في درجة تجانس طلابها ، ففي بعض الحالات يمكن أن نلاحظ تبايناً كبيراً في الذكاء بين الطلاب ، وفي حالات أخرى يميل جميع الطلاب إلى أن يتجمعوا تجماعاً قريباً حول متوسط مشترك . فالتنبؤ بوضوح يكون أسهل وأكثر دقة حين يوجد تباين كبير ، ويعتبر أكثر صعوبة حين يكون الطلاب متشابهين إلى حد بعيد في السمة المقاسة .

وثمة نقطة ثانية تنصل بالاولى تهتم بالدرجة التي تعول بها الجامعة على نتائج اختبارات الذكاء . وبينما تطبق بعض الجامعات الاختبارات إلا أنها لا تلتقي بالآلة إلى النتائج في عملية الانتقاء ، ولكنها تستخدم التقديرات لأغراض أخرى مثل إسداء النصيحة للطلاب فيما يتصل بنوع المقررات التي ينبغي أن يدرسوها وهكذا . وتعتمد جامعات أخرى اعتماداً كبيراً على نتائج اختبارات الذكاء . ومعظم الجامعات تختار سبيلاً وسطاً بين هذين

الطرفين . وسوف يكون التنبؤ عادة أكثر دقة في الحالات التي لا ينتبه فيها إلى نتائج اختبارات الذكاء . ولأنه في تلك الحالة سيقبل الغبي والذكي لدراسة المقررات وتكون جماعة الطلاب غير متجانسة . وإذا اعتمد اعتماداً كبيراً على نتائج اختبار الذكاء ينتفى عدم التجانس وتنخفض الدقة التنبؤية في الجماعات المقبولة . ومن الممكن أن نراعى الاعتبارات الاحصائية التي تلزم لهاتين الحقيقتين . ومن ثم نقارن الكليات المختلفة على أساس أكثر توحيدا .

والنقطة الثالثة تتصل بنوع الإمتحان الذي يحدد درجة الطالب النهائية ، فالامتحانات الموضوعية التي أصبحت شائعة في الاستعمال في الولايات المتحدة عادة تظهر ارتباطات عالية مع التنبؤات التي تحدث على أساس اختبارات الذكاء أكثر من تلك التي نحصل عليها من الامتحانات غير الموضوعية التي لا تزال شائعة في استخدامها تقريباً في هذه البلاد ، وقد يرجع هذا جزئياً إلى حقيقة أن النوع الموضوعي من الامتحان يشبه في نواح كثيرة اختبار الذكاء . ومن ثم فالاختباران قد يتضمنان استعداداً خاصاً مشتركاً أطلق عليه بطريقة مستهجنة إلى حد ما لفظ « Bittiness » وفي كل حالة على الطالب أن يقوم بعدد هائل من الإجابات الخاصة تماماً في فترة قصيرة من الزمن دون أن يربط عناصر معرفته في تكوين كلي من أى نوع .

وينبغي أن يقارن عيب هذا النوع الموضوعي من الامتحانات بعيب امتحان المقال وهو السبب الرابع لتفسير الفروق الملحوظة في الدقة في التنبؤ . وسوف يكون من الواضح أن الدقة في التنبؤ لا يمكن على وجه العموم أن تكون متفوقة على ثبات ما يتنبأ به ، وبعبارة أخرى إذا كان الامتحان ذاته غير ثابت جداً ، فإنه حتى أداة القياس الدقيقة لا تستطيع أن تزودنا بتنبؤات دقيقة للغاية ، ومن المعروف الآن عن إمتحانات المقال أنها غير

ثابتة إلى حد كبير ، فتعتمد النتائج على شخصية الممتحن وتحيزه إلى حد أنه إذا أعطيت نفس المجموعة من الأوراق لى تقوم بواسطة ممتحنين مختلفين فإن النتائج التى يحصل عليها ستكون مختلفة تماما .

وقد أجريت عدة أبحاث تجريبية لدراسة ثبات إمتحانات المقال وكانت النتيجة العامة هى أنه بينما كان الاتفاق بين الممتحنين أفضل من ذلك الذى يتوقع بالصدفه إلا أنه لا يبعد كثيرا عن حد الصدقة الأمر الذى يترتب عليه أنه لا يمكن الاعتماد على هذا النوع من الامتحانات لتقدير قدرة الطالب الحقيقية . وفى دراسة من هذه الدراسات مثلا صحح نفس المقال ممتحنون مختلفون فقدر بدرجة راسب وبدرجة متوسط ، وعلى أنه عمل من الطراز الأول يستحق الامتياز ! وفى دراسة أخرى ضاق الممتحن الأساسى برداءة نوع المقالات التى أمامه فمكتب مايعتبره مثالا لما ينبغى أن يكون عليه عمل الطلاب ، واختلط هذا المقال بأوراق الطلاب الأخرى وصححها بعض زملائه الممتحنين وأعطوها درجة راسبة .

ولنسلم بأن معظم هذه الأعمال قد أجريت على تلاميذ المدارس لا على طلاب الجامعة ، ولكن قليلا من الممتحنين ذوى الخبرة سوف يدعون أن مثل هذه الامتحانات ذات ثبات يبلغ من الإرتفاع ما تبلغه الإمتحانات الموضوعية ، وأن الثبات الكلى للامتحان يختلف اختلافا كبيرا من كلية إلى أخرى ، ويتوقف هذا على قدرة الممتحن على الموضوعية وعدله وعدد الأوراق التى عليه أن يحكم عليها وعلى عوامل أخرى مختلفة .

وعلى العموم يبدو أن الدليل يبين على أنه فى إمتحان من نوع المقال حسن إجراؤه اتضح ثبات الدرجة النهائية بمعامل يبلغ ٨٠ و . وأنه فى امتحان ساء إجراؤه وصل المعامل إلى ٦٠ و . وإلى أقل من هذه القيمة . وتضع هذه القيم وفقا لذلك حدا لدقة التنبؤ الممكنة ، فحتى فى وسيلة قياس متقنة لا نستطيع أن تنبأ بالنجاح فى إمتحان على نحو أكثر دقة مما يمكن

التنبؤ به بواسطة مجموعة من الدرجات أعطاها امتحن (١) بمجموعة درجات نفس الأوراق التي سوف يعطيها لها الممتحن (ب) ومن المفيد ألا يغرب عن ذهننا هذا النقص الحقيقي لامتحان المقال حين تقارنه بأنواع النقص المشهورة للامتحان الموضوعي ؛ ولحسن الحظ مرة أخرى لسنا هنا بصدد إصدار أحكام فاصلة على أنواع الامتحانات المختلفة .

وثمة متغير خامس هام هو الوقت الذي يسمح به لعالم النفس أن يجرى فيه أبحاثه . فإذا كان الزمن المحدد للاختبار النفسى هو ساعة واحدة ، فمن غير المعقول أن نتوقع دقة تنبؤية تبلغ من الجودة مثل ما يمكن لعالم النفس أن يحققه إذا أتاحت له أربع أو خمس ساعات ليقوم بدراساته . وكثيراً ما يكون عنصر الوقت هاما وخاصة حين يكون المطلوب أكثر من مجرد تقدير تقريبي للذكاء كأن يكون المطلوب تنبؤاً بميزا أى التنبؤ بأن الطالب (١) سيتفوق في الآداب ولكنه سيكون ضعيفاً في العلوم بينما الطالب (ب) قد ينجح في كلية الطب ولن ينجح في الآداب أو العلوم فمثل هذا التنبؤ يمكن عمله على أساس عمليات طويلة تستغرق وقتاً .

والمتغير الأخير الذى يؤثر في دقة التنبؤ وفي بعض النواحي يكون أكثرها أهمية هو الكفاءة الفنية للباحث . فلقد سمعت أحياناً أن عمليات الاختبار أدانها الناس الذين خبروها فعلاً ثم وجد بعد البحث الدقيق أن الاختبار أجراه أنسان لم يعرف العمليات السليمة وأنه يحمل الاحتياطات التي ينبغى أن تراعى وأنه عاجز عن استخدام الأساليب الإحصائية المعقدة والتفصيلية التي يتطلبها القيام بالعمل على نحو طيب . ومن الخطأ أن نفترض أن أى إنسان لديه درجة في علم النفس يستطيع أن يؤسس وأن ينفذ عملية للانتقاء . فالخبرة والمؤهلات الخاصة مطلوبة ، وليس للهاوى على أية حال أى عمل يقوم به في هذا المجال . وقبل أن تدين أى نوع من عمليات الانتقاء

من المهم أن نرى ما يستطيع أن يعمل الخبير بها ولا يمكن أن نسوغ هذا بأن نقيم الرفض على العمل غير الكفء الذي يقوم على الهواية .

وإذا تناولنا فقط الدراسات التي تم فيها البحث بكفاءة والتي كانت فيها المعالجة الإحصائية سليمة وكانت الظروف الأخرى معقولة ، فإننا نجد أن البيانات من دراسة تميل إلى أن تشابه إلى حد كبير نتائج دراسة أخرى ، وأنواعها على وجه العموم لا تدع لدينا شكاً من أي نوع في أن الاختبارات تستطيع أن تنبأ بثبات وأن تكون صادقة صدقاً معقولاً فيما يتصل بالأداء المقبل لطلاب الجامعة . وهذا صحيح في الولايات المتحدة : هل يمكن أن يقال إنه ينطبق على بريطانيا أيضاً ؛ وبالمقارنة قد تمت أبحاث قليلة هنا لحسن الحظ ولكن ما تم عمله من قبل لا يكفي ليبدل على أن نفس الاعتبارات من الناحية الجوهرية تنطبق في إنجلترا كما تنطبق في الولايات المتحدة وهنا أيضاً تنبؤنا باختبارات الذكاء بدقة معقولة بمكانة الطلاب النهائية في امتحاناتهم بالنسبة للآخرين . ودقة التنبؤ كما نتوقعه أقل قليلاً هنا بسبب التجانس الكبير في جماعة الطلاب ، ولكن الفرق ليس ملحوظاً جداً . وقد يغفل لأسباب عمالية .

كيف تقارن الأرقام الفعلية للتنبؤ التي تعتمد على الاختبارات في بريطانيا العظمى مع عمليات المقابلة الشخصية الحالية ؟ وقارنت إحدى الدراسات الطويلة الأجل الممتازة التي أجريت في لندن بين الدقة التنبؤية للعمليات المألوفة أي المقابلة الشخصية وتلخيص الموضوع والمقال من ناحية وبين الدقة التنبؤية لبطارية اختبارات الانتقاء . ولقد كان متوافراً لدى القائمين بالمقابلة الشخصية مؤهلات الطالب ونتائج امتحان القبول وكان الموضوع الأساسي للمقابلة الشخصية أن نقوم ملائمة الطالب لمتابعة دراسة معينة مع اهتمام خاص بعوامل الذكاء العام والتعليم السابق والتدريب والخبرة والميول والدوافع الشخصية والخلق . وبلغ القائمون بالمقابلة الشخصية من الخبرة والكفاءة مبلغ من يختار إعادة لهذا النوع من العمل ، وليس هناك سبب لاقتراض أنهم أدنى ممن يقومون بالمقابلة الشخصية في معاهد أخرى .

ونتيجة مقارنة نتائج المقابلة الشخصية بأختبار الذكاء مشوقة ومشابهة لما تؤدي إلى توقعه الممارسة الأمريكية . ولقد أخفقت المقابلة الشخصية أخفاقاً تاماً في التنبؤ بالنجاح بينما كان التنبؤ القائم على اختبار الذكاء سلبياً إلى حد معقول وثمة نقطتان تصدران عن هذا . ففي المقام الأول تميل المقابلة الشخصية إلى أن ترتبط ارتباطاً سلبياً باختبارات الذكاء ، وبعبارة أخرى ، يميل القائمون بالمقابلة الشخصية إلى اختيار الطلاب الأغبياء . وفي المقام الثاني تتيح البيانات الخاصة بمؤهلات الطالب ونتائج امتحانات القبول التي تيسر للقائمين بالمقابلة الشخصية تنبؤاً طيباً نسبياً عن درجة الطالب بالنسبة لدرجات أقرانه ، وعلى ذلك فإذا كانت المقابلة الشخصية تقدم لنا شيئاً فإنها تنقص من دقة التنبؤ عما كان يمكن أن تكون عليه لو قام التنبؤ على هذه البيانات وعلى المؤهلات وحدها . فبيانات هذه الدراسة الانجليزية تتفق تماماً مع التجارب الأمريكية ، والمقابلات الشخصية عديدة الفائدة من الناحية العملية لتحقيق غرض التنبؤ بنجاح طلاب الجامعة أو فشلهم بينما تزودنا اختبارات الذكاء بتنبؤات دقيقة وثابتة بدرجة معقولة .

وأحياناً يثير معارضو عمليات الاختبار مشكلة حول أن الذكاء ليس هو العامل الوحيد الهام لطلاب الجامعة وأن الخلق والشخصية يلعبان دوراً حاسماً ويحتمل أن يكون ذلك حقاً ويستنتج أصحاب هذا الرأي أن المقابلة الشخصية لهذا السبب تعتبر متفوقة على الانتقاء بواسطة الاختبارات وهذا الاستنباط بطبيعة الحال لا يتأني من المقدمات لأنه يستند إلى ثلاثة افتراضات لا تدعم الحقائق أي واحد منها . والافتراض الأول هو أن القائمين بالمقابلة الشخصية قادرين على أن يقوموا بدرجة دقيقة خلق الفرد وشخصيته . ولقد لحصت الأدلة التي تتصل بهذه النقطة في فصل آخر ولا داعي لإعادة ذلك هنا ، ولن يكون لدى أي فرد فحص الدراسات النفسية المنشورة أدنى شك في أن المقابلة الشخصية كوسيلة تكشف عن صفات الشخصية، غير ثابتة إلى حد بعيد وينقصها الصدق تقريباً ، فعندما يقوم عدد

من الأشخاص بمقابلة نفس الطالب مقابلة شخصية فإنهم كثيراً ما يذهبون إلى نتائج متعارضة تماماً ويندر أن تتفق نتائجهم مع الحقائق الموضوعية وهذه الحقيقة لا يرحب بها ويصعب أن يقبلها معظم الذين يفخرون باستبصارهم بالطبيعة الإنسانية وبقدرتهم على الاضطلاع بالمقابلة الشخصية وعلى الرغم من هذا فإذا أردنا أن نقيم نتائجنا على حقائق بدلاً من أن نقام على انفعالات يصعب علينا أن نرفض لأول وهلة الدليل الجامع المستمد من عدد لا حصر له من الدراسات التي أحسن اجراؤها . ويترتب على ذلك أنه حتى إذا كان الخلق والشخصية هامين فإنه على الرغم من ذلك ان تكون المقابلة الشخصية طريقة سليمة لتقويمها .

ونقطة ثانية هي أنه ان يوجد شخص معقول يرفض أداة يمكن أن تساعد في اتجاه لأنها أداة ليست ذات منفعة كبيرة في اتجاهات أخرى فنحن نستخدم المطرقة على الرغم من حقيقة أننا لا نستطيع استخدامها كمنشار أو في قياس شدة تيار كهربى ، لماذا ترفض اختبارات الذكاء مع أنها تقيس صفات أخرى مختلفة قد تكون هامة أيضاً . فبعد كل شيء قليل من الناس من ينكر أن الذكاء صفة جوهرية للطالب المتفوق، وليس من الضروري أن ندعى أنها ليست الصنعة الوحيدة الهامة لكي ندافع دفاعاً حسناً عن قضية اختبارات الذكاء . والدليل قاطع تماماً على أن الشخص الذى يحصل على تقديرات أقل من مستوى معين في اختبار الذكاء ليس لديه تقريباً أى فرصة على الإطلاق للنجاح في دراساته الجامعية ، ومن القسوة عليه أن نسمح له بأن يحاول ويخفق ، كما أنه من القسوة أيضاً بالنسبة للشخص الأقدر منه أن يؤخذ مكانه في الجامعة ، ومن ثم يحسرم من استخدام قدرته . وبطبيعة الحال لا ندعى أن الذكاء المرتفع يضمن نجاح الطالب ، فمن السهل كثيراً أن نقنأ بالاختفاق أكثر من تذبؤنا بالنجاح ، لأن تقديرنا منخفضاً في اختبار الذكاء يبين عدم وجود قدرة جوهرية تماماً للطالب إذا أردنا له أن ينجح في امتحاناته ، ويبين التقدير المرتفع أن لديه قدرة كافية

على النجاح إذا اختار أن يجتهد في دراساته ، وقد يكون هناك أسباب كثيرة يصعب أن تنبأ بها تجعل من المستحيل بالنسبة له أن يحقق ما يتوقع منه . فقد يكون عليه أن ينفق قدراً كبيراً من الوقت ليكسب عيشه ، ومن ثم يصبح عاجزاً عن أن يدرس دراسة كافية ، وقد يكون مصاباً بانهايار عصبي ، وقد يعوق قلقه واضطرابات الانفعالية عمله ، وقد يهرب مع زوجة أستاذه ويرفت بهوان من الجامعة . وقد حدثت كل هذه الأشياء وحالت دون أن يحصل الطلاب الأذكياء على درجاتهم العلمية . وبالتالي لا يدعى أحد أن التنبؤات التي تقوم على أساس اختبارات الذكاء لا يأتينا الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، وكل ما تنادى به هو أنها تقيس بدقة معقولة عنصراً من العناصر الهامة التي تمكن من النجاح .

والنقطة الثالثة التي ينبغي تأكيدها هي أنه يتوافر لدينا الآن طرق لقياس سمات معينة للشخصية والخلق تعد هامة في النجاح والتي ترتبط بمعرفة قدرة الطالب الفعلية تجعل التنبؤ أكثر دقة بدرجة ملحوظة فسمات مثل المثابرة والاهتمام ومستوى الطموح وعدم الاتزان الانفعالي يمكن أن تقاس الآن بدقة طيبة أساساً بواسطة اختبارات فردية ولكن أيضاً بتطبيق اختبارات جمعية ، وقد بينت كثير من الأبحاث أن مثل هذه الاختبارات الجمعية أظهرت أنها تنبأ بالنجاح على مستويات معقولة من حيث دقتها .

وقد ظهر مثلاً أن الطالب الناجح يكون مثابراً وثابتاً من الناحية الانفعالية ومستويات طموحه ليست بعيدة جداً عن الواقع ، أما الطالب غير الناجح الذي يماثل في ذكائه الطالب الناجح فإنه تنقصه المثابرة والاتزان الانفعالي وتكون مستويات طموحه منخفضة أو عالية بدرجة غير معقولة . وهذه الاختبارات ما زالت في طفولتها ويتوقع أن تتحسن تحسناً ملحوظاً في المستقبل القريب ، وعلى الرغم من هذا فحتى في حالتنا الراهنة فإنها

تقنياً بمستوى أعلى مما تستطيع أن تتنبأ به المقابلات الشخصية . ويمكن اعتبارها مكملة لاختبار الذكاء الخالص .

ولو نظرنا إلى الحقائق بطريقة غير عاطفية لوجدنا دليلاً يبدوا يظهر أن عمليات المقابلة الشخصية ليست ذات دقة تنبؤية محقولة في نواحي الدراسة بينما لاختبارات الذكاء كفاءة تنبؤية واضحة ، وأن التطورات الحديثة تبين أن اختبارات الشخصية والخلق في مكان يسمح لها بأن تقوم بتنبؤات ناجحة نسبياً .

لماذا إذن لا تستخدم هذه الاختبارات في الجامعات البريطانية ؟ إن الجدل الأساسي على قدر ما استطعت أن أكتشف يحدث كما يلي : أولاً يقال إن اختبارات الذكاء وكذلك أي نوع آخر من الاختبارات معرضة للخطأ وأن قدرتها على التنبؤ ليست مائة في المائة ، ونتيجة لذلك إذا اعتمدت عليها القرارات فإنه من المحتمل أن تخطئ هذه الاختبارات كثيراً . وهذه المحاولة صحيحة لا تقبل المناقشة ولا يبدو بالنسبة لي على أية حال أن المرء يستطيع أن يستخلص منها أي نتيجة تتصل باستخدام الاختبار . ولا بد أن نسلم أن عمليات الاختبار معرضة للخطأ ولكن المعيار السليم الذي تقارن بالنسبة إليه هذه الاختبارات هو بالتأكيـد معيار تم على أساس عمليات انتقاء أخرى معرضة للخطأ بدلاً من أن تكون كاملة . وعلى أية حال أن مشكلة الانتقاء التي أمثلها علينا الظروف بما يبعد عن ضبطنا سوف تحدث بها أخطاء وأنا سوف نتقبل تلاميذ سيظهر أنهم فاشلون ، وأنا سنعرض عن آخرين قد يكونوا قادرين ، على أن يسهموا أسهاماً مفيداً . فالنظام المستخدم في اللحظة الراهنة قد تبين بوضوح تام أنه خاطئ . وأنه يعتمد على طرق لا تعطينا دقة في التنبؤ مختلفة اختلافاً ذا مغزى عن الدقة التي نستطيع أن نحصل عليها من مجرد التقدير العشوائي الذي يتمثل في رمي قطعة النقود لكي نقرر على أساسها قبول تلميذ معين أو رفضه . وبينما اختبارات

أذ كما بعيدة عن التعرض للخطأ يمكن أن نقوم به—ذا على نحو أفضل بكثير .

ولقد حسبت أنه بينما نجد في ظل الظروف الحاضرة معدل الإخفاق في الجامعة هو ١٥ في المائة ، فإن استخدام الإختبارات يمكن أن ينقص معدل الإخفاق إلى نسبة مثل ٢ في المائة أو ٣ في المائة إذا بقيت نفس المعايير الامتحانات وإذا افترضنا أن نسبة الإنتقاء أى نسبة المتقدمين إلى الأما كن الحالية بمثابة تقريبا للنسبة الحالية . وبالمثل يمكن أن نحسب أن عدد الأشخاص الذين يحصلون على درجات التفوق يمكن أن يضاعفوا بسهولة إذا افترضنا ثانية أن المعايير ستبقى كما هي . ونحن لانعنى بهذا أن العمليات الجديدة ستجعل عملية الإنتقاء غير معرضة للخطأ أو إننا لم نخطئ ، فالدعوة الوحيدة التي تقوم قياما راسخا على نتائج قوامها الحقائق لدراسات ضبطت ضبطا عليا ، هو أن عدد الأخطاء سوف يقل بدرجة كبيرة عن الأخطاء في الوقت الحاضر .

وثمة نقطة أخرى تنصل بهذه وهي أن العمليات المعرضة للخطأ يمكن أن تتحسن بالاستخدام المستمر فحسب ، ويتبع التنبؤات الخاطئة لتبين سبب ارتكاب الخطأ ، وبتجربة طرق جديدة لتحسين الكفاية التنبؤية . وثمة فرص قليلة لعلماء النفس البريطانيين كي يكتسبوا خبرة في هذا الميدان وليحسنوا طرقهم في حالة عدم وجود تعضيد من الجامعة ويمكن أن نقبس دراسة أو دراستين أمكن إجراؤهما عن طريق مؤسسة نافيلد Nuffield يمكن أن نقبس منهما باعتبارهما إستثناء لهذه القاعدة العامة ، ولكن على وجه العموم يكون صحيحا أن هؤلاء الذين يرفضون بتطبيق إختبارات للانتقاء في جامعاتنا لأنها معرضة للخطأ إنما يزيدون بهذا صعوبة الأخطاء نفسها .

والنقطة الثانية التي كثيرا ما تثار قد تناولناها من قبل بشيء من الاطناب. إنها تتصل بالصفات الشهيرة للشخصية ، والخلق التي يفترض أن يتصف بها الطالب المثالي بالاضافة إلى القدرة العقلية أو مستقلة عنها أحيانا . ومن الصعب أن نعارض هذا الجدل لأنه يقوم على رأى فرضى عن الطبيعة الإنسانية وعن قدرات القائمين بالمقابلة الشخصية ولم يحدث ذلك بحثا تجريبيا ولم يتعرض للنقد مطلقاً . وكما بينت من قبل ، يبدو أن الدليل جامع إلى حد كبير على أنه مهما تكن هذه الصفات الخلقية والمزاجية المزعومة ، لا تعتبر المقابلة الشخصية طريقة فعالة لتقديرها بأى درجة من الدقة .

والمشكلة الثالثة تدور حول الطبيعة الذرية والاحصائية لعملية الانتقاء التي تعتمد اعتمادا كليا على الاختبارات فمن المعروف أن كثيرا من الطلاب يكرهون أن يحدد مستقبلهم على أساس تقديرات تم التوصل إليها آليا في ضوء عمليات إحصائية تم الوصول إليها عن طريق آلات حاسبة ، وهذه الطريقة غير شخصية وينقصها العلاقة الشخصية التي توجد في المقابلة . وتوحي التجارب بأن الطلاب الذين قبلوا يجدون قدرا كبيرا من العبارات التي يدافعون بها عن العملية التي أدت إلى مثل هذه النتائج المقبولة ، فاذا قبلوا عن طريق مقابلة شخصية فإنهم يعتبرون من يقوم بها على أنه بالغ الكفاءة بالغ الحكمة قد نبغ في اكتشاف الذهب الخفى في أرواحهم والإمكانات غير المحددة الكامنة فيهم . وإذا كان الانتقاء بواسطة اختبارات موضوعية فإنهم يعلون من براعة الباحث الذي استطاع أن يقيس بمثل هذه الدقة قدراتهم العقلية غير المشكوك فيها . أما إذا رفضوا فإنهم على أية حال يميلون إلى أن يشعروا بأن القائم بالمقابلة للشخصية إنسان كبير السن أبله خبيث حالت تحيزاته دون أن يتيح لهم فرصة عادلة لأن يستمع إليهم ، وأن ما به من نقص في الاستبصار بالطبيعة الإنسانية لا يوازيه إلا عدم نفاذ فهمه . أما فيما يتصل بالاختبار في طبيعة الحال ليس هناك شك أنه لا علاقة له بأى صفات عقلية حقيقية وأنه كان مجرد لعبة لا يمكن أن يأخذها أى شخص عاقل مأخذ

الجد . ويبدو إذن أن الاهتمام بمشاعر التلميذ لا ينبغي أن يكون اعتباراً مسيطراً ، ولا سيما حين يخبر الطلاب بالحقائق ، كما أنه ينبغي بغير شك أن يخبروا ، قبل أن يتعرضوا لأي عملية انتقاء .

وعلى أية حال . يقترح قليل من الناس أن الانتقاء ينبغي أن يقوم كلية على نتائج اختبار واحد ، أو حتى على أساس بطارية من الاختبارات وينبغي أن تكون جزءاً هاماً فحسب من عملية الانتقاء الكلية التي يجب أن تراعى كل البيانات الخاصة بالطلب التي يمكن الحصول عليها من سجله ، ومن تقرير ناظر المدرسة ومن الفحص الطبي ومن مقابلة شخصية يمكن أن تتكامل فيها جميع عناصر البيانات . وجزء هام من العملية الكلية ، بطبيعة الحال هو المتابعة التفصيلية ، أي أنه سوف يكون من الضروري أن نجد الدقة التنبؤية الفعلية لكل هذه العناصر المختلفة من البيانات ، بحيث يمكن في السنوات القادمة أن نضع وزناً أكبر لأفضل وسائل للتنبؤ ووزناً أقل لنوع البيانات الأقل ثباتاً .

وسوف يكون من الواضح أن هذا العمل لا يمكن القيام به على أساس ضيق ، وفي جزء من الوقت بواسطة أناس ليسوا خبراء حقيقة في المجال . ووضع الاختبار ولا سيما حين يكون علينا أن نضع اختبارات جديدة كل عام يعد عملاً صعباً ويستغرق وقتاً طويلاً . ونجد في الولايات المتحدة منظمات تكونت لتقوم بهذا العمل لمجموعة من الجامعات . وقد يكون مثل هذا جوهرياً في هذه البلاد لأن جامعات قليلة تستطيع أن تنفق على البحث الضروري وأن تنمي عملاً لحسابها الخاص ، وقد تكون الصعوبات الإدارية ملحوظة ، ولكن للمحافظة على مصالح الطلاب المقبلين لا ينبغي أن نتقاعس عند بذل أي جهد لكي نوفر لهم أفضل خدمة انتقاء ممكنة .

وحتى الآن قد تناولت استخدام اختبارات الذكاء لغرض الانتقاء

وسوف يكون من الخطأ أن تتخيل أن هذا هو الاستعمال الوحيد ،
أو حتى الاستعمال الرئيسى لهذه الطرق فى الجامعات الأمريكية .
وقد وجد أن كل جامعة فى المتوسط قد استخدمت نتائج الاختبارات فى
خمس أغراض مختلفة . وفيما يلى بعض الطرق الممكنة التى استخدمت
فيها نتائج الاختبارات . فى المقام الأول يمكن التعرف بسهولة على
التلاميذ الذين يعملون أقل مما ينوقع منهم ، أى الذين لم يصل عملهم إلى
المستوى الذى أظهرته قدراتهم العقلية ، وقد اتضح أن خدمة الإرشاد
التي أتاحت هؤلاء التلاميذ تؤدي إلى تحسن ملحوظ فى عملهم . ثانياً ،
كثيراً ما يواجه مدرسو الجامعة والاداريون طلبات من طلاب يرغبون
فى التخصص طالبين النصيحة . ومثل هذه النصيحة يمكن أن تعطى على
نحو أكثر دقة حين يتم معرفة الحقائق الموضوعية التى تتصل بذكاء
الطالب ، وميوله وشخصيته من برنامج للاختبارات ثم القيام به على نحو
سليم . وفى الوقت الحالى تكاد تكون مثل هذه النصيحة تقريباً ذاتية
غير موضوعية ، وكثيراً ما تكون صلتها بالواقع قليلة . وهناك فائدة ثالثة
للاختبارات تتصل بالقرارات التى تتخذ إزاء العمل بعد التخرج التى لا بد منها
فى حالات كثيرة ، والنصيحة التى تتصل باختيار مهنة عند انتهاء التعليم
والتدريب الجامعى فامتياز الطالب فى العمل الذى قام به خلال دراساته
بطبيعة الحال يحدد التوصيات والمقترحات إلى حد كبير . وواضح تماماً
أن هذه من الممكن أن تتم على نحو أكثر مناسبة بمراجعة قدرات الطالب
الفعلية . إن نفس النجاح فى السكينة قد يحظى به طالب أقل ذكاء لأنه
أكثر قدرة على بذل الجهود المثارة كما يمكن تحقيقه بواسطة الجهود غير
المتصلة لطالب بالغ الذكاء ، ومعرفة كل من درجة النجاح وقدرة التلميذ يوفر
للعلم صورة أكثر اكتمالاً مما تتيحه معرفة أحدهما .

ولقد وجد فى بعض الجامعات الأمريكية أن من الأوفق أن تستخدم

اختبارات الذكاء لا على أنها مسوغات قبول بل لكي يطلب إلى هؤلاء الطلاب الذين حصلوا على تقديرات منخفضة في الاختبارات أن تناقش نتائجهم معهم في تفصيل كبير ، مبدئين درجة احتمال النجاح والاختفاق التي ترتبط بتقدير من هذا النوع . وهذه الطريقة استطاع كثير من الطلاب المتقدمين الذين لو قبلوا لعجزوا عن بذل الجهد العقلي المطلوب منهم والذين لو قبلوا لكانوا قرروا بعد عام أو عامين على أنهم مخفقين لا أمل فيهم ، أن ينتهوا إلى قرار معقول وأن يسحبوا طلبات الالتحاق بالجامعة . وفي مساعدتهم على أن يتجنبوا كفاحاً لا فائدة فيه قامت الاختبارات بوظيفة بالغة الأهمية . على أنحاء كثيرة ، ومثل هذا المبدأ الاختياري للانتقاء قد يكون أكثر مناسبة في ظروف معينة من مبدأ أكثر آلية تطبقه الجامعة إجبارياً . وبالضرورة تبين الحقائق التي عرضناها في هذا الفصل أن اختبارات الذكاء وسائل للتنبؤ بالحصول باللغة الفائدة ، ولكن كيف ينبغي أن تستخدم في نظام جامعة معينة ؟ يتوقف هذا على عوامل قد يصعب مناقشتها هنا لأنها خاصة جداً بحيث لا تسمح بأي تعميم سهل . والجامعات الأمريكية بالتأكيد لا تظهر إلا اتساقاً قليلاً في استخدام نتائج اختبارات الذكاء . وهذا أفضل لأن من الجوهرى في المراحل المبكرة لإثراء وتطوير أسلوب ينبغي أن يتجنب الاتساق وأن تجرى أنماط كثيرة مختلفة من التجارب على قدر الإمكان بحيث تحل طرق جديدة أفضل محل طرق أخرى أقل منها .

ولنتختم هذا الفصل ، يبدو لي أن قضية استخدام عمليات انتقاء بواسطة علماء نفس مؤهلين أمر لا يقبل المناقشة ولا يمكن أن يدحض عليها ، حقيقة قد ترتكب بعض الأخطاء ، ولكن عما لا شك فيه أن هذه الأخطاء أقل بكثير جداً من حيث كميتها وخطورتها مما يرتكب الآن ، وعما لا شك فيه أن الاختبارات النفسية لا تفيد فقط في انتقاء الطلاب ، بل تفيد كذلك في مساعدة الجامعة لتيسير السبل أمام الطلاب لحل مشكلاتهم . ولم توجد حتى

الآن اعتراضات تدعيمها الحقائق على استخدام الاختبارات ، ولكن وجدت سلسلة من الأدلة لا تنتهى تقريبا تبين الأغراض الكثيرة التى يمكن أن تستخدم فيها الاختبارات . ولقد قيل إن معظم الاختراعات العلمية تستغرق خمسين عاما من الوقت الذى تكتشف فيه إلى الوقت الذى تنتقل فيه إلى الاستخدام العملى . والآن لقد انقضى خمسون عاما تقريبا منذ الوقت الذى ظهرت فيه اختبارات الذكاء ، التى اتضح فيها أنها طرق نافعة وصحيحة للقياس يهتمون فرما نأخذ هذا على أنه فال طيب للمستقبل .

الفصل السابع

اختبار الأفراد وتقويمهم

عامة انطباع خاطئ بأن طرق الانتقاء المبينة على الاختبارات النفسية تعتبر جديدة نسبياً . والواقع أن هذا الانطباع غير صحيح ، ولا شك أنه يمكن أن نتبع في كثير من بلاد العالم تاريخ استعمال طرق الانتقاء سواء كانت صحيحة أو خاطئة . وربما كان من أقدم تلك الطرق ما يوجد في الانجيل . حيث ذكر أن «جالوت» قد استخدم في حربه ضد مدين طريقة في الانتقاء ذات مرحلتين . وكانت الطريقة الأولى نوعاً من الانتقاء النفسى يعتمد إلى حد كبير على التقارير الخاطئة بمظاهر القلق والاكتئاب .

وربما كان اختبار «جالوت» - إذا أمكننا أن نسمى طريقته بهذا الاسم - مختلفاً في تركيبه الكلى ومفهومه عن تلك الاختبارات المستخدمة في انتقاء الطلاب والعمال ، التي سبقت مناقشتها في الفصول المتقدمة . غير أنه يشبه في نواح كثيرة الاختبارات والأهاليب التي تدافع عنها بعض المدارس الحديثة التي تعتقد أن الطرق التي تعتمد على الاختبارات السابق شرحها ذات نظرة «ذرية» إلى الطبيعة الإنسانية ، وأنه يجب أن تتبدل بما يعرف بالنظرة «الكافية» وتستحق هذه النظرة استقصاء دقيقاً .

والغرض الرئيسى في عملية الانتقاء أن عملاً معيناً يتطلب قدرات ا، ب، ج، د وسمات خلقية س، ص، ع ونمطاً مزاجياً ، وبالتالي نضع الاختبارات لقياس هذه القدرات والسمات المختلفة ، ثم ننتقى أولئك الأفراد الذين يحصلون على أعلى الدرجات في تلك الاختبارات ولقد اجتهد النزاعيين علماء النفس في القوات المسلحة الألمانية ، الذين ارتكزت مقاهيمهم الخاصة بطبيعة الإنسان على وجهة نظر مخالفة تماماً - حول ذلك الاقتراض . ونظراً لاعتقادهم أن التحليل إلى القدرات والسمات وما إلى ذلك يمزق شخصية

الفرد ككل ، حاولوا أن يلاحظوا سلوك الفرد في موقف معقد للتوصل إلى نوع من التقدير النكلى ، لاتفاعلاته واستجاباته ، وللقيام بتنبؤاتهم وجعل انتقائهم يستند إلى انطباع عام لا إلى أى نتائج عددية أو كمية تبينها الاختبارات .

وفي بعض الأحيان كانت تلك المواقف التى استخدمها علماء النفس بالقوات المسلحة الألمانية غريبة وغالباً ما كانت بارعة . فمثلاً كان يطلب من الفرد أن يجذب زنبركا معدنياً صلباً بأقصى جهد ممكن . وكلما كانت شدة جذبته قوية سرى تيار كهربى قوى فى جسده ، وبذلك كان الفرد يجهد نفسه بهذه الطريقة كانت هناك آلة تصوير مخبأة تلتقط صورة لتعبيرات وجهه ، فلا يحكم على أدائه على أساس مقدار الجهد الذى بذله فعلاً فى الجذب نفسه ، ولكن على أساس سلوكه كله متضمناً ذلك تعبيرات وجهه وليس الفرض الذى يقوم عليه هذا النوع من الاختبارات فرضاً غير معقول فى حد ذاته . إلا أن هناك نقطة جوهرية أخفق علماء النفس بالقوات المسلحة الألمانية أن يأخذوها فى اعتبارهم ، فالفرض لا يبرهن على صحته لأنه يبدو معقولاً فى ظاهره مخسب ، ولكن يبرهن على صحة الفرض عن طريق دراسة تتبعية لتبين أن الأفراد الذين اختيروا بطريقة الانتقاء يتفوقون فى الواقع على غيرهم ممن مارسوا نفس العمل دون عملية اختبار . ولم يقم إلا لمان بذلك أبداً ولا اليابانيون الذين اتبعوا إلى حد ما طرقاً مشابهة ، ونحن نعرف أن كثيراً من هذه الأحكام تعتبر غير ثابتة ، أى أنه إذا لاحظ فردان نفس الموقف فإنهما سوف يختلفان إلى درجة كبيرة فى حكمهما ، ومن البديهيات المعروفة جيداً فى الإحصاء أن البيانات غير الثابتة لا يمكن أن تكون صادقة .

وإذا أمكن أن يكون الأمر كذلك فإن هيئة الانتقاء ، فى الجيش الإنجليزى اتبعت المبادئ التى استندت إليها الطرق الألمانية وعدلتها للاستعمال فى هذه البلاد وسوف تناقش النتائج التى توصلت إليها هذه الهيئة

الخاصة بالانتقاء في هذا الفصل فيما بعد . ولقد ذكرت هنا أساساً لأن هذه الهيئة بدورها لها طرقها ومبادئها التي أخذت عنها واستعملت بواسطة هيئة الانتقاء في الولايات المتحدة التي أقامها مكتب الخدمات الاستراتيجية . وهذا المكتب الذي يألّفه كثير من القراء عن طريق عدد من الأقسام التي تصور مآثره خلال الحرب ، قد واجه عملية الإمداد بعدد كبير من الناس لمختلف الأغراض التي تتطلب درجة عالية من الروح المعنوية والاستعداد العقلي والذكاء والأمانة والشجاعة وقرر المكتب أن يعهد بمهمة الانتقاء إلى جماعة من علماء النفس فأقاموا عدداً من معسكرات الانتقاء التي سنقوم بوصف أحدها بالتفصيل هنا . ولقد أخذ علماء النفس هؤلاء النظرة الكلية « لسيمونيه ، Rimoneit فكانت مصدر إلهام لطرق الانتقاء الألمانية وهيئات الانتقاء الحربية الإنجليزية . ويمكن أن تتبع الطرق الحقيقية المستخدمة بوصف لتتابع الحوادث التي يمر خلالها الشخص منذ اتصاله الأول بهيئة الانتقاء حتى إعلان مصيره النهائي .

بدى بإجراء عملية مقابلة لكل مجند في واشنطن ، وأحيط الفرد علماً بأنه سيخضع لعملية انتقاء معينة ، وأنه سيكون متذكراً تحت اسم مستعار . ليس اسمه الحقيقي ، وعليه أن يضع تاريخ حياة جديد لنفسه ، ولا ينبغي إطلاقاً أن يكشف عن هويته وشخصيته ، ثم يطلب منه أن يستبدل كل ملابسه العسكرية بملابس أخرى ، تمنحى فيها الفروق في الرتب والفروق الاجتماعية والتعليمية . ثم يؤخذ بعد ذلك مع غيره من المجندين إلى معسكر للاختبار والتقويم حيث يصله في وقت مبكر في المساء ، ويرحب به ويقدم إليه الطعام في غرفة المائدة حيث يختلط بحرية مع غيره من الأشخاص . وكذلك أعضاء هيئة الانتقاء (الذين كان من بينهم في كل شذمة عدد كبير يقارب عدد الأشخاص المتقدمين للاختبار) .

وبعد تناول العشاء يوزع عليهم عدد من الاختبارات الورقية الخاصة بالذكاء والشخصية وكذلك استفتاء مفصل للتاريخ الشخصي ، وفي النهاية

يعطى المجند اختبارا للملاحظة والاستدلال يشبه أحد الألعاب المعروفة جيداً ، ويؤخذ إلى غرفة حيث يخبر بأن أحد الأشخاص كان يشغلها وقد ترك وراءه فيها عددا من أشياءه الخصوصية ، ويطلب منه أن يصف المظهر البدني لهذا الشخص وخلقه وشخصيته عن طريق تلك الأشياء المتروكة بالغرفة . ويترك المفحوص بعد ذلك لينام كي يستعد لمحاولاته في اليوم الأول.

وفي الصباح يعرض أحد المراقف التي تنعدم فيها القيادة على مجموعات تتكون كل منها من أربعة أو سبعة أفراد . ثم يؤخذ هؤلاء الأفراد إلى جدول مياه صغير ضيق غير عميق يفصل بين شاطئيه ثمانية أقدام ، وتوجد على أحد شاطئيه صخرة ثقيلة بينما يوجد على شاطئه الآخر كتلة من الخشب وتحف الأشجار بجانيه . ويوجد في الجانب الآخر له حيث تقف الجماعة عدة ألواح خشبية لا يكفى طولها لأن تصل بين شاطئى الجدول ، وكذلك ثلاثة أطوال من الحبال وبرميل انتزع كل من سقفه وقاعدته . أخبرت الجماعة أن أمامها تيارا جارفا بحيث يكون من المستحيل وضع أى شيء على قاع ذلك الجدول ، والمفروض أن أفرادها رجعوا من مهمة بالميدان وواجهتهم عملية نقل مهداف (وهو آلة حربية لضبط المرمى على هدف) حساس تم تمويهه بعناية على شكل كتلة خشبية ، إلى الجانب الآخر ، واحضار صندوق للذخيرة تم تمويهه كذلك على شكل صخرة في الجانب الآخر . وأخبروا أنهم يستطيعون الاستفادة بالمواد القديمة الملقاة حولهم . ولم يعين من بينهم أى قائد . إذ كان الغرض من الاختبار تبين ما إذا كان أى قائد طبيعي سوف ينبثق من هذه الجماعة .

اختلف سلوك أفراد الجماعة اختلافا كبيرا ، فقام بعضهم باقتراحات غير صحيحة أو غير مناسبة ، وتحدث آخرون طويلا ولكن لم ينصت إليهم بقية أفراد الجماعة ، بينما أبدى الآخرون مقدرة على تنفيذ أفكارهم . وقام علماء

النفس بملاحظة أفراد الجماعة وقوموا سلوكهم على أساس الطاقة والمبادأة والذكاء الفعال والعلاقات الاجتماعية والقيادة والقدرة البدنية . وعند ظهور أحد الرجال كقائد للجماعة من الممكن إخباره افتراض أن أحد القناصة قد قتله وأصبحت الجماعة بغير قيادة ، وعليها أن تستمر بدونه وأن يظهر من بين أفرادها قائد آخر . وجهزت أعمال أخرى بمائة لتكون صورة مطابقة للواقف الفعلية تتطلب جميعها نشاطا بدنيا . ويعد فيما بعد في مناسبة أخرى في البرنامج موقف جماعي تنعدم فيه القيادة ، ويعتمد إلى حد كبير على العوامل العقلية ، كالمنافسة مثلا في موضوع سبق اختياره مقدما ، حيث يكون على الجماعة أن تتخذ فيه قرارا معيناً وحيث تجمع الأدلة خلال هذه المناقشة عن انبثاق صفات قيادية وسمات أخرى هامة .

وبعد ذلك بقليل ، يواجه كل فرد على حدة بنوع مختلف تماماً من الاختبارات كانت تختبر في الظاهر قدرة الفرد على توجيه مساعدين له في بناء إطار من مواد خشبية بسيطة . فتعرض عليه المواد ويشرح له العمل ، ثم ينادي عضو الهيئة رجلين يعملان في الميدان وكان هذان الرجلان في الواقع عضوين صغيرين في الهيئة صدرت إليهما التعليمات بعدم عصيان الأوامر وتنفيذ التعليمات التي توجه إليهم بصراحة ، ولمكن كان عليهما في حدود هذه السلطة أن يواجها الشخص بسكثير من العوائق والمضايقات ، ما أمكنهما ذلك . وعرف هذان العضوان باسمي « كي » Kippy و « بستر » Buster . وتصرف « كي » دائماً بطريقة سلبية خاملة ، فلم يفعل أي شيء بالمرّة ما لم يطلب منه وبدلاً من ذلك فكثيراً ما كان يقف معترضاً الطريق إما كسوا لا يضع يديه في جيبيه أو مهتماً بمشروع تافه خاص به . ومن ناحية أخرى ، كان « بستر » عدوانياً وجريئاً في عرضه مقترحات غير عملية ، وعلى استعداد للتعبير عن عدم رضاه وسريعاً في نقده لمواطن الضعف عند الشخص التي يرتاب في أمرها . وثمة طرق عديدة يستطيع الواحد أن يحيط

بهاضابطا في موقف مثل هذا ، ولقد استغل كل من «كبي» و«بستر» هذه الطرق إلى أقصى حد ممكن ولم يحدث أبدا في تاريخ المشروع أن نجح أى شخص في بناء النموذج بمساعدتهما له في الوقت المسموح به .

ويمكن حينئذ ملاحظة سلوك الشخص بالتفصيل ، سواء نفذ صبره وضرب مساعديه أو أصبح متقلب المزاج وترك العمل ، أو حاول القيام بالعمل بنفسه وتخلص من مساعديه المشكوك في أمرهما أو حاول أن يمزح معهما ويدخل عليهما السرور باستمرار .

وتبع ذلك مقابلات شخصية واختبارات كثيرة منها ما هو خاص بالتذكر والفهم الميكانيكي وغير ذلك ، حتى إذا أقبل المساء أجريت المفحوص مقابلة شخصية يتعرض فيها إلى نوع من الإجهاد والخطر . ولقد صممت هذه المقابلة أساساً لاختبار قدرة الشخص على تحمل الاجهاد الانفعالي والعقلي الحاد . ويخلق هذا الاجهاد بواسطة استجوابه تحت ظروف غير مواتية بقصد اكتشاف الأخطاء في قصة كان على الشخص أن يعدها في بضع دقائق . وكان عليه أن يذهب إلى غرفة صغيرة حيث يجد مذكرة تفيده أن أحد الحراس قد وجدته بالليل في أحد مكاتب الحكومة بواشنطن يفحص بعض الأوراق في ملف كتب عليه كلمة « سرى » ، علماً بأنه لم يكن موظفاً بالهيئة التي تشغل البناء ، ولم تكن معه أى أوراق تثبت شخصيته ، وأنه سيتم استجوابه لبضع دقائق عن سبب وجوده هناك ، وعليه أن يعد رواية حول هذا الموضوع مبيناً سبباً وجيهاً بريئاً لنصرفاته هذه . وكان عليه أن يتوخى الحذر فلا يكشف عن شخصيته الحقيقية ، ولكن يظل محتفظاً بشخصيته المستعارة التي عرف بها خلال فترة الاختبار والتقويم .

ونظراً للسماح باثنتي عشر دقيقة يعد خلالها الشخص روايته . كان يؤخذ إلى غرفة في الدور السفلي حيث يجد نفسه في مواجهة ضوء مسلط عليه يعميه لمدة وجيزة ، بينما يكون باقى الغرفة مظلماً ، ويجلس خلف مصدر ذلك الضوء مجموعة من המתحنيين يرون بصعوبة . وكان على المفحوص أن يجلس

في مكان حيث تصوب إلى وجهه مباشرة أشعة الضوء القوي ثم يعرض بعد ذلك إلى امتحان مزعج ، استقصائي ومنفر إلى حد كبير ويخبر في النهاية أن أدائه كان ضعيفاً وأنه قد أخفق في الاختبار بصرف النظر عن أدائه الحقيقي وبالطبع فإن ذلك يعتبر أمراً خطيراً بالنسبة للشخص ، لأن الاختبار كما سبق اعداده يلعب دوراً هاماً في قبوله .

وكان على المفحوص بعد انتهاء تلك المقابلة أن يقدم تقريراً إلى أحد أعضاء الهيئة في مكان ما في المبنى حيث يقابل مقابلة حسنة فيشعر بالارتياح لوجوده مع شخص آخر يستمع إليه بمودة وإخلاص ، غير أن الغرض الأساسي من تلك المقابلة هو أن يكشف المفحوص عن شخصيته الحقيقية لعضو الهيئة الذي يتخذه بمودته وحسن مقابله .

ويجري في اليوم الثاني اختبار خاص لسمة القيادة حيث يأخذ كل واحد من المفحوصين دور القائد ، ويتضمن عمل ذلك اليوم أيضاً ، أن يجمع المفحوص بعض البيانات ويسأل بعض الأسئلة عليه وتجري اختبارات أخرى مثل اختبار العوائق وغير ذلك من الاختبارات . وفي صباح اليوم التالي يخطب مدير المشروع في هؤلاء الأشخاص بعد انتهائهم من تناول طعام الفطور ثم يعادون بعد ذلك إلى واشنطن . وكان يتخلل الاختبارات المتباعدة التي سبق ذكرها مقابلات طويلة وسرية سمح للأشخاص خلالها بالكشف عن شخصيتهم ولقد حقق ذلك الغرض الخاص بتزويد القائم بالمقابلة بصورة عامة عن شخصية المفحوص .

واشترك عدد كبير من الملاحظين في الاختبارات المختلفة والمقابلات ومواقف الإجهاد وألوان النشاط الأخرى ، وبذلت المحاولات لتنسيق النتائج التي توصلوا إليها في وصف للشخصية من نوع ما . وهكذا تم للمرة الثانية تجنب الطريقة « الذرية » ، ولم تبذل أي محاولة لجعل كل قائم بالمقابلة يقرم المفحوص على أساس عدد من السمات الشخصية . وبذلت المحاولات

للحصول على اتفاق بين جميع القائمين بالاختبار والتقويم وذلك على أساس وصف عام للشخصية . ترتكز عليه فيما بعد التوصية الخاصة بشخص معين .

ومن الصعب أن نجد دليلاً يبين جدوى هذه الطريقة : فلقد بذلت محاولات للحصول على تقديرات من هيئة الأركان فيما وراء البحار عن فاعلية المجندين وكذلك من قادتهم الذين يعملون معهم ومن زملائهم العائدين الذين كانوا معهم ومن القائمين بالمقابلات الذين يعيدون تحديد المناطق التي يعملون بها . ولم تكن هذه الطريقة مرضية فكانت غير ثابتة وتفتقر إلى موازن صادقة ، وكذلك لتدخل عنصر الحظ إلى حد كبير في نجاح عضو الهيئة السرى أو إخفاقه فمن الواضح أن شخصاً ممتازاً من الممكن أن ينهار في ظل ذلك التعذيب القاسى ويعتبر راسباً ، بينما قد يهرب شخص ضعيف من جميع المخاطر المحدقة به في الممل المكلف بأدائه فيعتبر ناجحاً . وعلى أية حال فبالرغم من هذه الصعوبات وغيرها فقد بينت المتابعة في جميع الحالات أن التنبؤ كان أحسن مما تسمح به الصدقة ، وكان حسناً في بعض الحالات إلى حد كبير .

وبينما نجد الحاجة ماسة إلى طرق للاختبار والتقديم أكثر صلاحية من الطرق السابقة فثمة شك ضئيل بالنسبة للبيانات المنشورة ، وهو أن هذه الطرق كانت ناجحة نسبياً في انتقاء الرجال لمكتب الخدمات الاستراتيجية .

ويجب أن نفرق بين أمرين ؛ أولاً أن نجد طريقة ناجحة نسبياً للانتقاء وثانياً ، أن نضع طريقة تتفق مع الأسس النظرية التي يقول بها العلم ومن الجائز أن يرجع نجاح طرق الانتقاء لمكتب الخدمات الاستراتيجية إلى الطرق والنظريات التي استعملوها . ومع ذلك ينبغي ملاحظة أنه بالإضافة إلى الأساليب الحديثة التي اتبعوها ، فإنهم استعملوا أيضاً الطرق التي ثبت صدقها وجدواها في المواقف الأخرى وكذلك في برامج ذات نزعة « ذرية » ومن أمثلة ذلك اختبارات الذكاء واختبارات المفردات التي استعملها مكتب الخدمات الاستراتيجية ، وكذلك كثير من الاختبارات الورقية . ولذا فيمكن ادراك أن درجة النجاح التي أحرزتها هيئة الانتقاء قد لا ترجع إلى الطرق

الحديثة ولكن ترجع إلى الطرق القديمة، وكذلك فقد لا تعزى إلى الطريقة السككية ولكن تعزى إلى بقايا الطريقة الذرية. ولا تيسر التقارير الخاصة بهذا المشروع لأي شخص أن يجيب عن هذا السؤال، وربما كان من السهل القيام بتنبؤات على أساس كل اختبار بطريقة رياضية، ثم تجميع هذه التنبؤات في أسلوب أحصائي بحث للتوصل إلى تنبؤ يتمشى تماماً مع النظرة الذرية دون التدخل في برنامج التقويم والاختبار. وربما كان من الممكن عندئذ مقارنة فاعلية مختلف الاختبارات وكذلك فاعلية طريقتين مختلفتين لتجميع الدرجات، والطريقة الاحصائية الذرية والطريقة السككية البديهية. ولو كان ذلك قد تم لكانت الإجابة ذات قيمة تعليمية كبيرة. ويبين عدم القيام بذلك ملهم من البرهان العلمي واهمالهم البالغ للتأني في اثبات النظريات، الذي يعتبر ميزاً للنظرة البديهية السككية، وخلال التقرير بأكمه حل الاقتناع بالاعتماد على الفهم والمبادئ العليا التي تستند إلى التخمين محل البرهان وإقامة الدليل.

ولحسن الحظ فليس من الضروري إتخاذ قرار بالنسبة لهذه النقطة الهامة على أساس مثل هذه البيانات غير الصحيحة، ولقد أمدنا ما قام به د. كيللي، Kelley وفيسك Fiske حديثاً بالبيانات الضرورية التي نحتاج إليها للإجابة عن السؤال المتعلق بالفائدة النسبية للطريقة الذرية والطريقة السككية وبعد وضع هذا النوع الخاضع من طرق الانتقاء أمراً شيقاً. ولما كانت شئون الأفراد المسرحين بالقوات المسلحة الأمريكية تتوقع تركة مثقلة من الاضطرابات العصائية والعقلية بين الجنود الذين خاضوا غمار الحرب ثم فصلوا من الخدمة بعد ذلك، فقد أقامت عددا كبيرا من المستشفيات والعيادات لعلاجهم. وتنتج عن ذلك مشكلة هي عدم توافر هيئة العلاج وذلك لانقص عدد علماء النفس الإكلينيكين، واستطاعت إدارة شئون القوات المسلحة أن تجتذب عددا كبيرا من علماء النفس إلى المجال الإكلينيكي عن طريق المنح الكبيرة

والوعد السخية بتأمينهم في وظائفهم . ولقد أدى ذلك إلى أن واجهت الجامعات مشكلة الانتقاء ، فتنافس عدد كبير من علماء النفس الأكفاء على شغل عدد محدود من الأماكن الشاغرة ، ولم تستطع أى جامعة أن تحل هذه المشكلة بمفردها ، وتعاون نتيجة لذلك عدد منها لإيجاد طريقة جيدة للانتقاء في هذا المجال .

وتصرف علماء النفس المسئولون عن هذا المشروع بحكمة ، فلم يتخذوا أى قرار سابق بالنسبة لصلاحية طريقة الأسلوب الذرى أو السكلى ، فبدلاً من ذلك عقدوا العزم على تجنب بيانات كافية لتقدير القيمة النسبية لكل الأسلوبين وأثر هذا القرار فى الوضع السكلى لتجربتهم . وأدى هذا إلى تكرار كثير من ملامح طريقة مكتب الخدمات الاستراتيجية على نحو ما على الرغم من قلة الاهتمام بألوان النشاط البدنية وعظم الاهتمام بالأنشطة العقلية . وبقيت ملامح بيت الريف ، فى طرق كاتب الخدمات الاستراتيجية وهيئة الانتقاء الحربى الانجليزية إذا تبع جمع مجموعة المفحوصين فى مبنى منعزل مع عدد كبير من القائمين بالتقويم وذلك لفترة مداها عدة أيام أو أسبوع واحد . وبقي أيضاً الاهتمام بأساليب الملاحظة والمقابلة الشخصية والأنواع المعتادة من الاختبارات الموضوعية الورقية . وليس من الضرورى أن نعيد مرة ثانية الوصف المفصل لحركات الأشخاص طوال عملية الاختبار والتقويم . وسوف نذكر مجرد وصف لبعض الاختبارات التى اختلفت فى بعض النواحي عن الاختبارات التى سبق ذكرها . وكانوا من بين تلك الاختبارات اختبار الموقف الخاص بالحركة التعبيرية الذى كان على الفرد أن يقرأ فيه شعراً ، محاولاً أن يتلبس الشعور الذى يحاول أن يبينه الشاعر . ثم يطلب منه أن ينتقل بعد ذلك إلى غرفة أخرى ويعبر عن إحساسه بالشعر دون أن يستخدم صوته . ويتطلب اختبار آخر أن يقرأ طالبان تعليمات أسندت أدواراً معينة إليهما ، كأن يكون أحدهما مثلاً مديراً للدارس بينما يكون الآخر مدرساً بمدرسة ثانوية حيث يروج عن سلوكه الجنىس إشاعات معينة

مستمرة ، ويستدعى المدير المدرس إلى مكتبه ويتحدث إليه عن ذلك ، وكان على الطالبين أن يقوموا عندئذ بتمثيل ذلك الحوار أمام ستة أعضاء من الهيئة .

وثمة اختبار آخر ، هو اختبار موقف الكتل Block Situation Test الذى يماثل لعبة يقوم بها أربعة أشخاص وتضمن ذلك الاختبار ١٦ كتلة من الأسهم ذات أشكال وألوان متنوعة ، كل منها ثقيل للغاية . وتطلب هذه اللعبة أن توضع جميع هذه الكتل فى أربع مجموعات ، حتى تكون كل من هذه الكتل فى أى مجموعة مشابهة لغيرها من الكتل فى تلك المجموعة وكانت الدرجة فى هذه اللعبة هى العدد الكلى للحركات التى يحتاج إليها الشخص لبلوغ هذه الغاية . وكان عليه أن يحرك كتلة واحدة كل مرة حيث يسمح بثلاثين ثانية لكل حركة من الحركات . ويمثل هذا الاختبار اختبار الجماعة العفوية [التى لا قائد لها] Leaderless Group Test ولكنه يهتم كثيراً بالجانب العقلى فى العمل .

ربما لم يختلف هذا البرنامج للتقويم فى تكوينه وفى الطرق المستعملة فيه اختلافات كبيرة عن مكتب الخدمات الاستراتيجية ، إلا أن ثمة اختلافات واضحة بينهما فى معالجة البيانات الخاطئة . ففى برنامج مكتب الخدمات الاستراتيجية شاي البيانات المستمدة من أحد الاختبارات بيانات من اختبار آخر ، وكذلك اختلطت التقديرات التى قام بها أحد الأشخاص بتقديرات قام بها غيره وأدى ذلك إلى استحالة تقدير قيمة أى اختبار بوجه خاص ، ولكن جعل من الممكن اشتقاق مجرد تفسير كلى نهائى ، يمكن تقبله أو رفضه ككل . غير أنه فى دراسة كيلى ، و د فيسك ، تمت التنبؤات على أساس كل من الطريقتين منفصلتين بعضهما عن بعض قبل تجميع النتائج بأى شكل حتى أنه كان من الممكن خلال التجربة بأكلام رؤية مقدار ما أضافته كل طريقة إلى ما كان معروفاً من قبل للتنبؤ بالكفاية . وبذلك أمكن المقارنة بين المسلكين الذرى والكلى .

ومن الممتع حقاً أن نتأمل وجهات نظر هيئة الاختبار والتقويم فيما يتعلق بالنتائج المحتملة للتجربة فقد كانوا مسلمين بآدى ذى بدء بأن التنبؤات المفيدة جداً تتم على أساس طرق المقابلة التي كانت أعظم الأدوات لديهم من حيث شمولها ومرونتها . ووضعوا في المرتبة الثانية، الاختبارات الاسقاطية وغير هامن الاختبارات غير الكمية التي تهدف إلى الحصول على انطباع عن الشخصية واعتبروا الاختبارات الموضوعية والتقارير الدراسية السابقة عن الشخص أقل الأساليب من حيث الأهمية . وبعبارة أخرى كان أعضاء الهيئة أنفسهم يتفقون مع هيئة مكتب الخدمات الاستراتيجية للتقويم في أهدافهم وآمالهم، وثمة شك ضئيل في أنهم كانوا من بين أكفأ علماء النفس في البلاد لتنفيذ هذه الطريقة تنفيذاً صحيحاً يحقق أقصى ما يرجى منها . ومع ذلك يثبت متابعة الانجازات الحقيقية للأشخاص ومقارنتها بالتنبؤات التي تمت على أساس مختلف مقاييس التقدير المستعملة ، صورة مناقضة تماماً لما سلم به وتوقعه أعضاء هيئة الاختبار والتقويم . وكان من أهم جميع هذه الأساليب وأنجحها في التنبؤ الاختبارات الموضوعية والتقارير الدراسية الخاصة بأولئك الأشخاص ، وكانت الاختبارات الاسقاطية والمقابلات الشخصية أقلها من حيث دقتها التنبؤية . وثبت الفشل النهائي للطريقة الكلية، فكما كثير عدد الانطباعات والتقارير المختلفة التي جمعت مع بعضها لاعطاء صورة واضحة للشخص كان التنبؤ المبني على تلك الصورة أقل دقة . وبين الاختبار الورقي الواحد الذي أمكن إرساله بالبريد - مكلفاً بضع سنتات - تنبؤاً أحسن مما يبنته الطرق الباهظة التكاليف والمعقدة التي فضلتها هيئة مكتب الخدمات الاستراتيجية .

وهل كانت هذه النتيجة غير متوقعة تماماً ؟ لقد كان هناك من الأدلة في تقرير مكتب الخدمات الاستراتيجية ما يمكن أن يحذر المتحمسين المدافعين عن الطرق الكلية . فلقد استمرت طريقة مكتب الخدمات الاستراتيجية ثلاثة أيام ، إلا أنه كان من المستحيل في أحد مرارهم تنفيذ

طريقة تستغرق هذه المدة ، ونتيجة لذلك استعيرت عن الثلاثة أيام بجملة
تستغرق يوماً واحداً . وعلى أساس الفلسفة الكلية فإن ذلك الاختزال
في مواد قيمة يؤدي إلى عيوب في دقة التنبؤات التي تمت . ولكن لوحظ
في الحقيقة عكس ذلك تماماً . فكان هناك زيادة كبيرة في الدقة التنبؤية
ذات دلالة إحصائية للطريقة التي استغرقت يوماً واحداً . إذا ما قورنت
بتلك الطريقة التي استغرقت ثلاثة أيام . وتعذر إيجاد أى تفسير يقوم
على أساس اختلاف توزيع الأشخاص على المركزين ، كما تعذر
الجدل باختلاف نوع القائمين بالاختبار والتقويم في المركزين . وسلبت
نتيجة لذلك هيئة الخدمات الاستراتيجية . أنه كلما كانت البيانات كثيرة لديهم ،
كان التنبؤ النهائي أقل دقة . ولم تستخلص النتيجة الواضحة وهي أن هذه
الحقيقة تهدم النظرة الكلية ، بل جادلت بدلاً من ذلك بأن من الجائز أن
يعالج العمل في المستقبل هذا الموقف الذي ..

غير أن الوقائع الصحيحة للموقف تبدوا واضحة تماماً . فليس العقل
البشري آلة على درجة كبيرة من الكفاية لتنسيق عدد هائل من الحقائق
المختلفة . ولا يستطيع في هذا الصدد أن ينافس الآلات الحاسبة أو المعادلات
الإحصائية ، فمن اليسير أن ينزلق هذا العقل في طريق جانبي مبتعداً عن
الطريق الصحيح ، وأن يتأثر بسهولة كبيرة بالأمور التي قد تكون في حد
ذاتها شائعة وليكن غير صالحة للتنبؤ ، كما أن عقل الفرد لا يستطيع أن يحدد
نوع العلاقة القائمة بين ما يجمعه من ملاحظات متشابهة من العلاقات الخطية
وغير الخطية تتوحد جميعها للحصول على أقصى دقة تنبؤية حتى يستطيع أن
يضيف على نتائجه قيمة تنبؤية سليمة ، وقد تنجح الطريقة في تزويد المقوم
بصورة عن الشخص الذي يقومه بطريقة ترضى المقوم نفسه . ولكن للأسف
لا تبدو تلك الصورة حقيقية كما لا يبدو أنها تسمح للقيام بأى تنبؤ دقيق .
ولذا فإننا نجد في مجال أوسع من ذلك نفس النمط من النتائج التي سبق أن
صادفناها في مناقشتنا لطرق المقابلة بوجه عام . وثمة علاقة عكسية بين

مشاعر اليقين وبين النبل والنجاة في التنبؤ. فكلما زادت درجة احساس الشخص بثبوتته في أنه على صواب يميل التنبؤ إلى أن يصبح أكثر دقة. ويقنع كثير من الناس بذلك، فلا يتجاوزون ذلك الشعور الذاتي بالمعرفة. وإذا أظهرت البيانات المخصصة شيئاً. فإنما تظهر أنه لا يمكن الاستغناء مطلقاً عن مقياس موضوعي للصدق إذا كان علينا أن نتجنب الخطأ وعدم الدقة والاختلاف في محاولتنا لصوغ تقدير دقيق للرجال.

وإذا قورنت الطريقة الانجليزية في انتقاء الضباط بطريقة هيئة الخدمات الاستراتيجية التي كانت منافية للعقل إلى حد ما. نجد أنها كانت أكثر رصانة ومحافظة. ومع ذلك فنكنا بيننا سابقاً استمدت فاسقتها من نفس المصدر الذي استمدت منه الجماعة الأمريكية الفلاسفة التي تقوم عليها. ولم تكن تنظرها أقل. «كالية»، «فعارضت» الذرية، و«التحليل»، ونجد كذلك أن هذه الطريقة قد ارتكزت على افتراضات راسخة أكثر مما ارتكزت على الأدلة والبراهين. واتجهت أيضاً نحو إهمال إقامة الأدلة لصالح التعليل والانطباع العام. وربما كان لمرضى رواية موجزة عن أصل مكتب هيئة الانتقاء الحربي وتطوره فيما بعد، أهمية تعليمية، ويرجع ذلك في جزء منه للأثر الاجتماعي الكبير الذي كان لتلك الهيئات، وفي جزء آخر لوجود اتجاه كبير بين رجال الأعمال والصناعة نحو تطبيق غير واقعي للأساليب والطرق المشكوك في أمر صلاحيتها إذا ما طبقت خارج نطاق الجيش.

وكما هي الحال دائماً، كانت الطريقة الوحيدة التي استطاع بها علم النفس أن يحصل على موضع لقدم في تنظيم قائم مثل الجيش، خلال كارثة الانهيار الواضح لأساليب الانتقاء التقليدية. ففي السنوات الأولى للحرب، وجد الجيش ضباطه من بين الحاصلين على الشهادات الدراسية، فأور بعض الامتحانات العليا، الذين التحقوا في الوقت نفسه بمعاهد تدريب هيئة الضباط. وتم الانتقاء بواسطة هيئات للمقابلة الشخصية الملحقة بقيادات (م-١١ علم نفس)

الفينة والآخرى أن نحاول مراجعة مفاهيمنا العلمية الأصيلة وتقويمها بناء على حاجيات المجتمع العربي الملحة وخاصة في مرحلة النهضة العلمية الراهنة وقد أختير كتاب الأستاذ أيزنك لترجمته إلى اللغة العربية وكان عنوان هذا الكتاب في أصله الانجليزي .

Uses And Abuses of Psychology

وقد إختارنا لهذا الكتاب عنواناً عربياً هو : مشكلات علم النفس وذلك لأن الكتاب يعرض في أصله مجموعة من المشكلات النظرية التطبيقية في علم النفس ويحاول أن يناقشها بأسلوب بسيط لا يخرجها عن إطاره العلمي كما أنه يجعلها ميسرة للقارئ العادي . ولو أن المؤلف لم يكن قد مارس العمل في مجالات علم النفس المختلفة ما أستطاع أن ينجح هذا النجاح في معالجته لموضوعات هذا الكتاب وقد كان إختيارنا لهذا الكتاب على أساس ما سنناه من تشعب تطبيقات علم النفس في جمهوريتنا الأمر الذي ترتب عليه أن طرقة بعض المحدثين الذين يدعون لأنفسهم الدراية بالعلم مع عدم تمكنهم من أصوله وأساسه ومناهجه ولا شك أن القارئ العادي سيجد الكثير من المشكلات التي تثار حوله ويتقدم البعض في محاولة لكتابة بعض الوصفات أو الروايات ، لإيهام الآخرين أنها رسائل ناجحة لحل هذه المشكلة والتخلص منها .

وكان هذا كافياً في حد ذاته لإختيار هذا الكتاب حيث أنه يعالج الرد على المعترضة ومن ليس لديهم القدرة على التصور العلمي للسلوك الإنساني . أما موضوع هذا الكتاب فهو بعض المشكلات الكبرى في الدراسات النفسية النظرية والتطبيقية مثل مشكلة قياس الذكاء وما يعترها من مفاهيم غامضة ومشكلات علم النفس المهني ومشكلات السلوك غير السوي أو المنحرف وما تتمضنها من نظريات بعضها وفق الهوى والبعض الآخر منها يبنى على أسس علمية أصيلة ومشكلات علم النفس الاجتماعي ما يحيطها من

ولقد قامت هيئات الانتقاء الحربى عام ١٩٤٢ بمعالجة نواحى الضعف وفقاً للاسس التى سبق ذكرها فى هذا الفصل ، وكان معظم الاعتماد على مجموعة متنوعة من مواقف الحياة الواقعية وعلى الاختبارات الورقية والمقابلات . وتكونت الهيئة التى تدقق النظر فى الأدلة من رجال عسكريين (متضمنة الرئيس وضابطاً مختصاً بكتيبة برتبة كولونيل ، وعدداً من الضباط ذوى خبرات كتيبية يعرفون بضباط الانتقاء العسكرى) ومن طبيب عقلى وعدد من علماء النفس

وهكذا قامت هيئات الانتقاء الحربى فى وقت عصيب حينما انهارت الطرق التقليدية ، وطلب من هذه الهيئات القيام بشيئين ، فكان المطلوب منها تزويد الجيش بعدد كاف من الضباط الممتازين وطلب منها أيضاً رفع الروح المعنوية فيما يتعلق بالتقدم بطلبات القيام بمهمات ، ويمكننا تصور ضخامة العمل الذى قامت به إذا عرفنا أنها تناولت ١٠٠.٠٠٠ طلب للقيام بمهمات خلال ثلاث سنوات فكيف عملت هذه الطرق الجديدة ؟

وثمة دليل طيب يبين أن الطريقة الجديدة كانت تفوق الطريقة القديمة إلى حد كبير . فلقد عملت هيئات الانتقاء الحربى لفترة وجيزة جنباً إلى جنب مع الهيئات التى اتبعت الطرق القديمة ، وكان من الممكن متابعة الرجال الذين أوصت أن يقوموا بمهمات معينة ، ووجد من بين أولئك الذين رشحتهم هيئات الانتقاء الحربى أن ٣٥ فى المائة منهم كانوا فوق المتوسط ، وكانت النسبة المئوية للأشخاص الذين تم تقديرهم على أنهم متوسطون متساوية فى الحالتين ، ولكن كانت نسبة الذين جاء ترتيبهم دون المتوسط فى حالة هيئات الانتقاء الحربى هى ٢٥ فى المائة فقط ، بينما كانت هذه النسبة ٣٧ فى المائة فى حالة الهيئات التى اتبعت الطرق القديمة ، وثمة فروض معينة من الممكن أن تفسر على أساسها هذه الفروق ، كأن يكون لدى هيئات الانتقاء الحربى أشخاص أكثر صلاحية للانتقاء من بينهم . أو تكون الهيئة قد

قبلت عددا قليلا من الأشخاص المتقدمين إليها ، وهكذا ترسل فقط من تنق في نجاحهم ، ولكن الحقائق لا تدعم مثل هذه الفروض ، ويبدو ثمة شك قليل في أن هيئات الانتقاء الحربى كانت أحسن إلى حد كبير من تلك الهيئات التى اتبعت الطرق القديمة

ولقد أظهرت هيئات الانتقاء الحربى نجاحا فائقا في مهمتها الأولى وهى تزويد الجيش بضباط على درجة كبيرة من الكفاية ، ويمكن أن يقال نفس الشيء بالنسبة لهدفها الثانى ، واعتبر معظم الذين مروا بعملية الانتقاء أنها عملية عادلة وصالحة ، وأدت تقاريرهم إلى زيادة كبيرة في عدد طلبات القيام بمهمات ، وبذلك يمكننا أن نقول بوجه عام بأن الطرق السيكولوجية للانتقاء عندما اتبعت لمعالجة موقف طارئ على جانب كبير من الأهمية والخطورة الاجتماعية لم تخفق في تحقيق أهدافها الرئيسية . غير أن هناك بعض الشك حول سؤال مخالف وهو ما إذا كانت الطريقة التى اتبعت أفضل الطرق التى كان من الممكن استعمالها ، وما إذا كانت المسلمات النظرية والافتراضات الخاصة بالمسلك الكلى ، إلى شخصية الانسان لم تعق النتائج في أن تكون أحسن مما كانت عليه وثمة دليل كبير على عدم اتساق الهيئات بمعنى أن الهيئات المختلفة استخدمت معايير مختلفة وأن الشخص قد تقبله إحدى الهيئات بينما ترفضه هيئة أخرى وفي إحدى التجارب تم تقويم مجموعتين من الأشخاص بواسطة هيئتين وكان الاتفاق في الحكم على ٦٠ في المائة من الحالات ويجب أن ننظر إلى ذلك على أنه تناقض بالغ الخطورة وفي تجربة أخرى وجد أن مجموعة من الأفراد قسمت إلى نصفين بطريقة عشوائية وأرسل نصف العينة إلى كل الهيئتين فنجح ٢٣ في المائة لدى أحدهما بينما نجح ٤٨ في المائة عند الهيئة الأخرى وتعكس هذه النتيجة النماذج المختلفة للأحكام الموجودة في الهيئتين ولا يمكن التغاضى عن عدم الاتساق في طرق الانتقاء التى تقرر مصير عدد كبير من الأفراد وهى

مصاحبة للاصرار على طرق الاختبار والتقويم « السككية والبدئية » . وليس من المحتمل أن تكون الطرق التي تعتمد على حكم الإنسان إلى حد كبير ثابتة ودقيقة في نتائجها مثل الاختبارات والطرق الإحصائية لرصد البيانات . وربما كان الجدل المقابل لذلك ، أنه بينما تكون الاختبارات الموضوعية أكثر ثباتاً في قياس ما تقيسه ، فمن الممكن أن تكون أقل ارتباطاً بالموضوعات النهائية التي يحدث بسببها الانتقاء ، فإذا أخذنا مثلاً بسيطاً ، فقد يمكننا قياس الطول بدقة وثبات بالغين ، ولكن مثل هذا القياس لا يكون متصلاً بالغرض من انتقاء الضباط . وهناك ردان على هذا الاعتراض . ففي المقام الأول من الممكن توضيح أن الاختبارات الموضوعية ذات صلة بأهداف طريقة الانتقاء وقد تعطي في الواقع تنبؤات أحسن وأكثر دقة من التنبؤات في حالة الطريقة السككية . ولقد سبق أن ذكرنا مثلاً لذلك بمشكلة انتقاء علماء النفس الاكلينكيين ، وكذلك يمكننا أن نأخذ مثلاً آخر من هيئة الانتقاء الحربي ، فقد تبين بوضوح أن التنبؤ عن النجاح عن طريق استعمال اختبارات الذكاء يكون أكثر دقة عن التنبؤ به عن طريق استعمال الطريقة السككية التي تقوم بها «الوزني» هيئة انتقاء الضباط ، ولا يمكننا أن نستخدم أي أمثلة أخرى من الأعمال التي قامت بها هذه الهيئات ، لأنها كهيئة مكتب الخدمات الاستراتيجية - قد جمعت كل أحكامها ونتائج الاختبارات مراعاة لتحييزات النظرية ، وبذلك جعلت من المستحيل القيام بتقويم إحصائي للاختبارات المستقلة ، أو مقارنة بين الطريقة الذرية والطريقة السككية . بيد أن الأدلة التي سبق جمعها ومناقشتها تكفي لبيان أن هناك من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد بصلة كثير من الاختبارات الموضوعية بانتقاء الضباط .

وربما بدا للقارئ أننا نغالي بعض الشيء في تصور مشكلة الصراع بين الطريقة الذرية والطريقة السككية ، ولكن الحقيقة أننا نقارن بين طريقتين

تعتمد الأولى فيها على الدقة العملية والصدق التجريبي والتحقيق الإحصائي ، بينما تعتمد الأخرى على الحدس والتخمين والتقويم الذاتي والبرهان الجدلي . وبالإضافة إلى ذلك كله فثمة أمر على جانب كبير من الأهمية لم يناقش بعد ، ويتعلق بمشكلة الانتقاء في إنجلترا على وجه الخصوص ، فعند ما أنشئت هيئة الانتقاء أو «الوزبي» كما تسمى بالاختصار، كانت تتكون الهيئة الواحدة من عدد متساو من العسكريين والإخصائيين النفسيين . ومنذ البداية كان هناك اعتراض في الجيش على وجود أشخاص غير عسكريين يقومون بعملية الانتقاء . ومنذ عام ١٩٤٦ تشكلت الهيئات من أعضاء عسكريين فقط رغمًا عن اعتراض جميع علماء النفس الذين طلب رأيهم في ذلك ومن إليهم من المختصين في الطلب العقلي الذين تستشيرهم وزارة الدفاع ، ولا شك أن هذا التكوين الجديد يعتبر خطوة إلى الوراء ترجع أسبابها الرئيسية إلى اخفاق أولئك المسؤولين عن عمل هيئة الانتقاء الأصلية في إعداد دليل مناسب عن الصدق لمواجهة نواحي النقد . ولا شك أنه في حالة انعدام أدلة الصدق الموضوعية فإننا نخاطر بوضع عجيب حيث نضع آراء العلماء في جانب وآراء العامة غير المختصين في جانب آخر . وإذا كان هؤلاء العامة من الرجال العاديين يشكلون جانباً من نظام قوى حسن التنظيم مثل الجيش ، فمن المحتمل أن تسود آراؤهم . ويعد ذلك سبباً قوياً لعدم الإقتناع بالانطباعات الذاتية والافتراضات السكلية التي تخفق عند تحديدها في تقديم أدلة قاطعة في صالح الأساليب والطرق والسياسة المتبعة .

ورغمًا عن أن العمل في وزارة الدفاع في هيئات الانتقاء كان عملاً لا يتميز بالأصالة العلمية الحقة ، إلا أنه لقي استجابة كبيرة خارج المجال العسكري . فلقد قرر « ديوان الموظفين » المسئول عن فحص المواصفات اللازمة لمن يعمل في الحكومة المركزية بما في ذلك العمل في وزارة الخارجية أن يقبض نظام الاختبار النفسي المعروف « بيت الريف » وأنشأ إدارة خاصة

بذلك سميت (G. I. S. S. B.) هيئة الإنتقاء للوظائف المدنية . ولقد شكل ذلك جزءاً من مشروع الإنتقاء للأفراد من الجنسين للوظائف الإدارية العليا في داخل المملكة المتحدة ومن شعبة خاصة للخدمة بوزارة الخارجية . أى الموظفين في هذه الوزارة الذين يحتلون مناصب كبيرة هامة مثل الدبلوماسيين والقناصل والمستشارين . وقد تضمن هذا المشروع الجديد ثلاث مراحل تعمل المرحلة الأولى منها على التخلص من ٤٠ في المائة من الأشخاص في تصفية عامة للناجية العقلية تشمل اختبارات في الحساب والمعلومات العامة والذكاء العام . وينتقل بعد ذلك الأشخاص الناجحون إلى مركز هيئة الإنتقاء المدنية وهي المرحلة الثانية ، ثم يقدمون إلى مقابلة شخصية تقوم بها هيئة الإنتقاء .

ولقد عملت هذه الهيئة (G. I. S. S. B.) معظم حياتها في بيت على مسيرة نصف ساعة بالقطار من لندن . وكانت تجرى اختبارات لثلاث مجموعات تضم كل منها سبعة أشخاص في الوقت نفسه . ويقوم باختيار كل مجموعة ثلاثة من الفاحصين . اثنان منهم من رجال الإدارة بالحكومة وأحد الإخصائيين النفسيين . ويعتبر برنامج الاختبار والتقويم دقيقاً للغاية . يستخدم ثمانية أنواع من الوقائع . التاريخ الشخصي . وتقارير المدرسين . وتقارير الخدمة العسكرية . وتقارير الرؤساء المدنيين السابقين وتقارير المقابلة والاستفتاءات ونتائج اختبارات التأهيل ، واختبارات الذكاء . واختبارات الشخصية والتدريبات العملية لمواقف الحياة اليومية المعتادة .

وكانت هذه التدريبات إلى حد كبير من النمط السابق وصفه ولكنها تميل بوجه خاص إلى العناية بمشكلات الخدمة المدنية أو واجبات الخدمة الخارجية . وكان الأشخاص يواجهون بعدد من المواقف العيانية التي تماثل المواقف الفنية المعقدة في أعمال الحكومة . وتقع في مجتمع محلي وهمي يعاني كثيراً من المشكلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تواجه المسؤولين

البريطانيين اليوم . وهذا الوضع الذى يلزم به الأشخاص عن طريق مذكرة
مضخمة بأسلوب الخدمة المدنية ، يكسب الاختبار شيئاً من الاهتمام
والواقعية :

وتمت متابعة هؤلاء الأشخاص لعدة سنوات الآن ، ومن الممكن
قياس نجاحهم . ويمكن أن تتوقع على أساس قبلى بحت ، ارتباطاً ضعيفاً بين
التنبؤ عن نجاح هؤلاء الأفراد فى أعمالهم وبين تحصيلهم النهائي فى المناصب
التي عينوا فيها ، حيث تميز أغلب هؤلاء بقسط كبير من الذكاء ، وأن اختبارات
الذكاء والقدرات لم تميز بينهم تمييزاً كافياً ، بيد أن الحقائق التي جمعت لا تؤيد
هذه النتيجة المتشائمة . فلقد كان التنبؤ ناجحاً إلى الحد الذى اعتقد بعض علماء
النفس أنه ممكن ، وبوجه خاص اذا تذكرنا أن ميزان النجاح فى الخدمة
المدنية ووزارة الخارجية هو فى حد ذاته غير معصوم من الخطأ . ولذا فى
هذا الميدان أيضاً برهنت أساليب التقويم الحديثة على قيمتها وبينت بوضوح
أنها تفوق الطرق القديمة إلى حد كبير .

وتستحق بعض النتائج المماثلة التي تتصل بأساليب «هيئة الانتقام المدنية» ،
شيئاً من المناقشة وذلك لأهميتها العامة . فلقد وجد على سبيل المثال ، أن
الأشخاص المتقدمين للعمل يميلون إلى متاصرة الطرق التي تميز بدرجة
عالية من الصدق الظاهري ، أي التي تبدو بديها أنها معقولة ومرتبطة بالعمل
الذي يختارون من أجله . ويميلون إلى إظهار درجة معينة من العدوان
والإنكار نحو الطرق التي لا يرون لها تفسيراً عقلياً واضحاً والتي تبدو بالنسبة
إليهم غير متصلة بأعمالهم فى المستقبل . وينطبق نفس الأمر على كبار الرسميين
أعضاء البرلمان وغيرهم من الأفراد المسؤولين الذين يزورون وحدات الانتقام
ويناصرون هيئة الانتقام التي تتفق معهم فى الآراء . وللأسف فإن هذا
الصدق الظاهري للاختبارات يبين علاقة عكسية تماماً مع الصدق الحقيقى
للاختبارات كما يتضح فى قدرتها على التنبؤ بالنجاح النهائي فالاختبارات التي

تبين صدقا ظاهريا ، لا تميل إلى أن تكون غير ثابتة فحسب ، بل إنها أيضاً باهظة التكاليف وتتطلب وقتاً طويلاً . والواقع أنها تعد مسئولة عن جزء كبير من الوقت الذي يضيع في « هيئة انتقاء الضباط » ، وفي هيئة انتقاء المدنيين ، .

ولاشك أن عالم النفس يجد نفسه في موقف صعب ، فمن ناحية يمكنه أن يستخدم طرقاً على درجة عالية من الصدق الظاهري يستريح إليها الأشخاص المتقدمون للعمل ، وكذلك الذين يقيمون مشروع الاختبار ، والمستولون في النهاية أمام البرلمان . غير أن مثل هذا الانطباع المفضل الذي يتكون عند كل هؤلاء يقابله من الجانب الآخر اعتقاد العالم النفسى من ناحية علمية بحتمية في عدم جدوى مثل هذه الأساليب . ومن ناحية أخرى يستطيع عالم النفس أن يستخدم الاختبارات والأساليب التي تتميز بالصدق وتنبؤها بنجاح الأشخاص بدرجة كبيرة من الدقة . وإذا قام بذلك فسوف يتعرض لعداوة المتقدمين للعمل ولاستياء أولئك الذين استدعوه للقيام بذلك العمل وفكرة الصدق الاحصائي والتجريبي لم تنفذ إلى الأشخاص المتقدمين للانتحاق بعمل أو إلى الراى العام إذ يبدو أنها مفهوم صعب جداً .

وعادة ما يحاول عالم النفس أن يحل هذه المشكلة التي لا منفذ فيها عن طريق حل وسط أى باستخدام أساليب صادقة في الحقيقة دون أن تبدو كذلك وأيضاً أساليب ذات صدق ظاهري ولكن قيمتها الحقيقية مثار للشك . ومن الجائز ألا يكون ذلك سيئاً للغاية عندما يشعر بذلك الفاحص ويعرف تماماً أن النتائج ينبغي أن توحد للحصول على أقصى دقة للتنبؤ ومع هذا فعندما يحدث ذلك بالضرورة فإن عالم النفس يستبعد عن نظام الانتقاء وذلك بواسطة الأشخاص العاديين الذين يشعرون أنه قد أنتم واجبه وأنهم يستطيعون القيام بمهمة الانتقاء دون أن تفقد دقتها ، ومن ثم يزداد استخدام الاختبارات الشائعة عن الاختبارات الأكثر صدقا وقد يهبط الصدق إلى

حصفر أو يصبح سالبا والانتقاء عملية على درجة كبيرة من المهارة تتطلب
إلماما فائقا بقدرات يمتد مداها من الاستبصار والمعرفة الفنية من جانب إلى
إجادة الناحية العلمية والرياضية ولاشك أن التغيرات الطفيفة التي تحدث
في عملية الانتقاء حينما يجريها غير مختصين في علم النفس والتي تبدو عديمة
الأهمية بالنسبة للرجل العادي قد ينعكس تأثيرها السيء في هبوط الدقة
التنبؤية .

وتزداد شدة هذا الخطر على وجه الخصوص عندما تؤخذ الوسائل التي
ثبت صدقها في القوات المسلحة والخدمة المدنية على علانها وتستخدم لانتقاء
من يشغلون مناصب عليا في الصناعة أو المؤسسات التجارية وذلك لأنها
وضعت لأغراض مختلفة ولاشك أنه من الميسور إدخال بعض التعديلات
على هذه الوسائل لتكييفها للأغراض الجديدة ولكن من المقطوع به
وبما لا شك فيه أنه دون الاسهام الحقيقي من عالم النفس المختص الخبير في
هذه الناحية تصبح هذه التعديلات غير دقيقة ومهوشة لا تؤدي الغرض منها .
كما تحقق بطبيعة الحال تحسين الطرق الحالية

والخلاصة أنه اذا تركنا مجال القدرة وحاولنا يقويم نماذج الاتجاهات
الأكثر تعقيدا التي تدخل في تكوين الضابط الممتاز أو الموظف المدني
البارز فإن مشكلتنا تصبح بالغة التعقيد . ويؤدي هذا التعقيد إلى طريقتين
متبادلتين لمحاولة الوصول إلى حل وهنا نفرق بين أولئك الذين يرغبون في
الاستمرار وفق الأساليب المألوفة للتقدم العلمي وذلك عن طريق التحليل
« الذري » والبرهان التجريبي وبين أولئك الذين يشعرون أن بديهة
« الكلية » والاستبصار غير المقيد بالحاجة إلى البرهان يمكن بهما وحدهما
التوصل إلى حل وفي متناولنا بيانات تجريبية تبين أن هاتين الطريقتين في
وضع يمكنهما من التحسن إلى حد كبير عن الطرق القديمة وتقدم الاختبارات
الموضوعية ذات النزعة « الذرية » تنبؤات أكثر ثباتا وصدقا من التقديرات

البديهة التي يقوم بها عالم النفس ذو النظرة « الكليّة » على الرغم من أن الطرق التي يتبعها تميل إلى أن تكون مرتفعة في صدقها الظاهري . ولا شك أن تطبيق هذه الطرق خارج مجالات انتقاء الضباط والخدمة المدنية يمثل لنا مشكلة بالنسبة للمستقبل ولكن من الممكن التنبؤ بنجاح هذه الطرق على شرط أن نأخذ في الاعتبار أن اتباع المنهج العلمي الأصيل الدقيق هو المشغول عن أمان هذه الوسائل ووقايتها من أن تصبح مجرد تعبير عن التعصب القبلي والاحياز الذاتي

الفصل الثامن

العمل والإنتاجية والدافعية

إن موضوع علم النفس الصناعي هو الذي جلب عليه المتاعب ، وربما أن هذا العلم يعنى عناية خاصة بتحسين ظروف العمل ، وزيادة الإنتاجية ويعنى بمشكلات الدافعية والبواعث فقد عانى من جراء ذلك بعض العمار المرتبط بطفولته وسقطات مراقبته . ولقد نجح فى ظل الشعاع الجليل للإدارة العلمية ، فى معاداة العمال إلى الحد الذى أصبح فيه « خبير الكفاية » من أبغض الأشخاص إليهم فى الوقت الراهن . وهذه الكراهية مفهومة من الوجهة التاريخية ، فهل هى إنفعال صحيح فى عالم اليوم ، أو هل سن الممكن أن نكون قد أخفقنا فى الاستفادة من الإضافات الفريدة التى أسهم بها العلم إلى مختلف الميادين التى سبق ذكرها ؟

لقد ابتدع تايلور Taylor وهو أمريكى ذو طباع وتقاليد إنجليزية قحة ماسمى « بالإدارة العلمية » وأعجب بالكفاية فى جميع صورها وتماذى فى ذلك الاعجاب أكثر من غيره من معاصريه فابتكر رمية « البسبول » Baseball وراحة اليد إلى أسفل أو إلى جانب الجسم ، التى تعد الآن معياراً يقتاس عليه . كما أعد مضرباً للتنس فى شكل الملعقة إذ اعتقد أن المضرب بهذا الشكل أكثر كفاية عن المضرب المعتاد . غير أنه على غير عادة أمثاله من الخياليين استمر فى كسب البطولات الأمريكية بمضربه ، وعند ما بحث هذا الرسول عن الكفاية فى الصناعة أفزع ما وجدته هناك من ضياع وعدم كفاية . ووضع خطة تتضمن ثلاث نقاط الإصلاح ، لا تزال تعد من حيث الجوهر لا من حيث التفضيل أنها نوع من اللوائح التى يراعيها عالم النفس فى المجال الصناعى وكانت النقطة الأولى هى توظيف الممتازين من الرجال

فقط ، ولم يقصد من ذلك الرجال الممتازين من الناحية الخلقية ، فعلى الرغم من أنه كان ينتمى إلى جمعيات الإصلاح الدينى ، إلا أنه لم يحاول الخلط بين الأخلاق والكفاية . وكان يهدف إلى اختيار الرجال الذين يتوافر لديهم عن طريق الوراثة والتدريب الاستعدادات التى تناسب العمل . أما عن السؤال الخاص بالانتقاء فسوف نكتفى بما سبق أن ذكرناه فى شيء من التفصيل فى الفصل الخامس من هذا الكتاب ، ولقد تناولت النقطة الثانية ، لتابلور ، مسألة التعليم فهو يتطلب تعليم الرجال الذين يقع عليهم الاختيار وسوف ترى ما يعنيه بذلك . وعالجت نقطة الثالثة موضوع الدافعية . إذ تطلب إثارة الرجال بعد أن يتم اختيارهم وتدريبهم بواسطة باعث الأجور المرتفعة . وستأتى المناقشة التفصيلية الخاصة بهذه النقطة فيما بعد : وعلينا أن نلاحظ فى هذه المرحلة أن د تابلور ، قد شخص بدقة المشكلات الثلاث الرئيسية فى علم النفس الصناعى وهى الخاصة بالانتقاء والتدريب والدافعية وبينما نجد أن حله لتلك المشكلات يفسح المجال للجدل والتعديل إلا أن صوغه لهذه المشكلات ما زال مقبولا .

ولما كان د تابلور ، يتوخى المنهج التجريبي فى تفكيره ، فلقد حاول أن يثبت وجهة نظره بمقارنة النتائج التى حصل عليها باتباع أفكاره بتلك النتائج التى حصل عليها باتباع الطرق الروتينية . وحصل على تصريح من شركة بيتلهم للصلب ، Bethlehem Steel Comp لبحث عملية تحميل الحديد الزهر وتفريغها وفى تلك المؤسسة التى اختارها لاجراء تجربته كان هناك ٧٥ عاملا يقومون بذلك العمل ينقلون بمعدل ١٢ ١/٣ طن تقريبا من الحديد الزهر فى اليوم وكان هذا المعدل يعتبر عند الجميع سرعة معقولة للعمل ، وعندما سئل الملاحظون والمسئولون بدأ شكهم فيما إذا كان من الممكن زيادة ذلك المعدل زيادة جوهرية وكان متوسط أجر العامل فى الصناعة الواحدة حوالى دولار وخمسة عشر سنتا .

ولقد بدأ « تايلور » مهمته متبعا قاعدته الأولى - وهي استخدام الرجال الممتازين فقط واستخدامهم في اجراء هذه التجربة رجلا هولنديا من أهالي ولاية بنسلفانيا يعرف باسم شميدت Schmidt ، وتحكم في مثل هذا الاختيار إلى حد كبير القوة البدنية لهذا الرجل وشهوته إلى المال والجاه (عن طريق إثارته بواسطة باعث الأجور المرتفعة ورغبته في القيام بما يطلب منه بالضبط) أعطاهم تعليمات صحيحة) ثم حاول « تايلور » جميع الطرق المتباينة الممكنة في تحميل الحديد الزهر وتفريغه ، فجعل « شميدت » يستخدم أنواعا من « الجاروف » كبيرة وصغيرة ومتوسطة الحجم ، كما جعله يحمل كميات مختلفة من المخزن إلى عربة النقل مباشرة ، أو ينقل بالتناوب ، الحديد على عدة مراحل . وتوصل في النهاية إلى ما كان يبحث عنه . وبمرور الأيام أصبح « شميدت » ينقل $4\frac{1}{2}$ طناً بدلا من $1\frac{1}{2}$ طن وهو المتوسط المعتاد وهكذا رفع « تايلور » إنتاجية الشخص الذي أجرى عليه التجربة إلى أربعة أمثال ونصف ما كانت عليه قبل التجربة . وعند ما أبلغ هذه النتيجة إلى رجال الشركة ، اقتنعوا بالامكانيات الجديدة المدهشة التي فتح الطريق إليها ذلك الشاب المتحمس .

وعندما طبقوا أساليبه في الانتقال والتدريب والإثارة على جميع موظفيهم ألقائين بهذا النوع من العمل وجدوا أن العدد الكلى الذي يحتاجون إليه قد انخفض من خمسمائة عامل إلى مائة وأربعين فقط . وازدادت الأجور بمقدار ٦٠ في المائة ، من دولار وخمسة عشر سنتا إلى دولار وخمس وثمانين سنت في الساعة . وتوفر لدى الشركة مبلغ ٧٥٠٠٠ دولار سنويا واقتنعت عندئذ بجذوى الإدارة العلمية . ولقد اعترض ذلك عقبة واحدة ، إذ وجد شخص واحد من بين كل ثمانية أشخاص يستطيع القيام بالعمل حسب السرعة المطلوبة . وكان على الآخرين أن ينضموا إلى زمرة العاطلين أو يبحثوا عن عمل في مكان آخر . وما يدعو للمدهشة أن العمال قاوموا « التايلورية » بشدة

وبذلوا ما في وسعهم بواسطة الفعل الصناعي لتجنب تطبيق تلك الطرق في مصانعهم . ولم يفهم « تايلور » أبداً لماذا أصبح مكروهاً أو لماذا أصبح اسمه كلمة جانبية للعبودية غير الانسانية ، وكرائد من رواد الهندسة الانسانية ، كانت نظريته إلى الانسان في عمله على أنه يمكن تناولة تماماً بنفس الطريقة التي تتناول بها قطعة من جهاز هندسي . ولم يرتكب علم النفس الحديث هذا الخطأ الذي وقع فيه تايلور ، إلا أن الآثام التي يقتربها الآباء تلحق بأبنائهم . فإزال علم النفس الصناعي بالنسبة لكثير من أعضاء النقابات المهنية يبدو مشاركاً للرواد الأوائل في اتجاهاتهم غير السيكولوجية .

ويمكننا القول بأن ما أسهم به « تايلور » حقيقة هو اكتشاف ما عرف بطرق دراسة الزمن Time-Study . فاذا أخذنا أى عمل معين ، وراقبنا أشخاصاً مختلفين يقومون بالحركات المطلوبة فإننا نجد تبايناً كبيراً فيها فبعضهم يمضون في عملهم بسرعة وبرتابة منظمين أدواتهم بدقة حتى تكون في متناول أيديهم عندما تدعوا الحاجة إليها ، ويعمل البعض الآخر ببطء وبدون نظام ، ولا تكون أدواتهم معدة في أماكنها الصحيحة . وبوجه عام يدل مظهرهم على عدم الكفاءة . ويقع غالبية الناس في مكان وسط بين هذين الطرفين . ولقد اقترح « تايلور » دراسة مفصلة لكل عملية خاصة لايجاد أحسن الطرق للقيام بأداء العمل وتنظيم المادة وتوقيت الاجراءات المختلفة المتضمنة للوصول إلى « أحسن » طريقة اقترح تايلور الأسلوب التالي

أولاً - قسم العمل الذي يقوم به العامل إلى حركات بنسيطة أولية .

ثانياً - حدد جميع الحركات غير المفيدة واستبعدوها وابحث كيف يقوم كل واحد من العمال العديدين بكل حركة من هذه الحركات الأولية وبمساعدة ساعة إيقاف اختر أسرع الطرق وأحسنها لأداء كل حركة

ثالثاً - صف ودون وصنف كل حركة أولية مع توقيتها الصحيح . وأوجد النسبة المئوية للزمن الذي يجب إضافته إلى زمن العمل عند عامل

ممتاز ليغطي التأخر الذي يتعذر تجنبه والحوادث والتعطيل ، إلخ ، وأوجد النسبة المئوية للزمن الذي يجب أن يسمح به للراحة ، وكذلك الفترات التي يجب أن تؤخذ فيها الراحة للتغلب على الإعياء البدني . ويسمى « تايلور » هذه الخطوات بالعمل « التحليلي » ، ويتبعها العمل البناء الذي يشمل توحيد الحركات الأولية في مجموعات وربطها ببعضها بإطار العمل السكلي .

ولقد قام المشتغلون في هذا الميدان بعد ذلك بتحسين الخطة الأصلية التي اتبعها تايلور . ومن بينهم جيلبرث Gilbreth بوجه خاص وهو عالم نفس آخر شاذ إلى حد ما صورت حياته في فيلم « Cheaper by the Dozen » ، ولقد أسهم في ذلك الميدان بتحديدته وتسميته أكثر مجموعات الحركات حدوثا في الصناعة وهي سبعة عشر أسماها تربليج Therbligs وهذا الاسم مكون من حروف اسمه مكتوبة في وضع معكوس - وهذه الحركات - يبعث ، يجد ، يختار ، يمسك ، ينقل محملا ، موضع ، يجمع ، يستعمل ، يفرق يفتش ، قبل الوضع ، يفك ، ينقل فارغا ، راحة ، تأخير لا يمكن تجنبه ، تأخير يمكن تجنبه ، وخطة - ولكل حركة من هذه الحركات رمز يدل عليها ورسم يصور العملية ويشرح الترتيب الذي تحدث به وكذلك التوقيت الخاص بهذه الحركات واستعمل « جيلبرث » وزوجته التي ساعدته في عمله مبتكرات حديثة مثل التصوير الفوتوغرافي السريع في محاولتهما للحصول على سجل كامل خاص بتفصيلات جميع حركات العمل وقاما بتحسين جوهرى لطريقة « تايلور » ، التقريرية للفحص .

ولكن هل تؤدي طرق التحليل هذه إلى نتيجة ؟ ثمة شك ضئيل . في مثل هذه النتيجة ، وتكفي بضعة أمثلة للرهنة عليها . بينت إحدى الدراسات أن مجموعة من الفتيات كانت تقوم بتطبيق الملابس حسب نموذج معين وكان عدد الحركات يتراوح بين ٢٠ و ٣٠ في تطبيق قطعة الملابس الواحدة . وأدت دراسة الوقت والحركة إلى اختزال عدد هذه الحركات إلى عشرة

وازداد متوسط الإنتاج من ١٥٠ دسته إلى ٤٠٠ في اليوم الواحد . وبينت دراسات أخرى زيادة في الإنتاج كانت ٨٨ في المائة في صناعة الشيكولاته ، و ٣٠٠ في المائة في وضع قطع من الورق في علب ورنيش الأحذية و ٣٠٠ ، في المائة في صقل المعادن ، و ٢٠٠ في المائة أيضاً في استعمال عجلة الصنفرة لبرد الملاعق .

وقد يؤدي أحد الأمثلة المفصلة إلى استبصار وفهم للطريقة التي اتبعتها عالم النفس في تناوله أحد الأعمال المعينة . ولقد اخترنا للمناقشة البحث الكلاسيكي في البناء الذي قام به جيلبرث فهذه الحرفة تعد من أقدم الحرف وأكثرها محافظة ، ولم يطرأ عليها خلال مئات السنين أي تحسينات في الأدوات والمواد المستعملة أو في طرق وضع الطوب . ولقد قام جيلبرث ، الذي كان يزاول هذه الحرفة في شبابه بأعداد تحليل مفصل للحركات المتضمنة فيها وكذلك الأدوات المستعملة . فبين بالتحديد الموضع الذي يجب أن تشغله كل من قدمي البناء وذلك بالنسبة للحائط ووعاء المونة وكومة الطوب ، لكي يصبح من غير الضروري أن يخطو خطوة واحدة أو اثنتين نحو كومة الطوب ثم بعيداً عنها في كل مرة يزيد أن يأخذ فيها قطعة من الطوب . وبحسب كذلك أفضل ارتفاع لوعاء المونة . وكومة الطوب وأتبع ذلك بتصميم منصة خاصة عليها منصدة يمكن أن يوضع عليها جميع المواد لكي يبقى الطوب والمونة والرجل والحائط في أوضاعها الصحيحة . ويقوم أحد العمال المختصين بتعديل ارتفاع المنصة (الصقالة) باستمرار لتناسب جميع البنائين ، وذلك حسب التغير الذي يطرأ على الحائط في الارتفاع . ويمثل هذا الجهاز البسيط وفرع على البناء الجهد الذي يبذله في الانحناء إلى أسفل حتى مستوى قدميه عند أخذ كل طوبة أو مالج (مسطرين) من المونة ثم يعتدل مرة ثانية . وعند ما نعرف أن كل بناء خلال تتبعه يخفض جسمه (ليكن وزنه ١٦٠ رطلاً) إلى أسفل لمسافة قدمين ثم يرفعه مرة ثانية نفس المسافة وذلك أكثر من (م ١٢ - علم النفس)

ألف مرة في اليوم ، رافعاً في كل مرة طوبة وزن حوالى خمسة أرطال ، يمكننا أن نقدر حينئذ مدى توفير الطاقة بواسطة مثل هذا الاختراع البسيط .

وشملت التحسينات الأخرى الوضع الصحيح للطوب كي يكون أفضل جانب من جوانبها إلى أعلى وأن نوضع في إطارات خشبية خاصة ، لكي يمكن تناولها ووضعها مباشرة بدون تخطيط على غير هدى أو بدون قلبها ؛ والوضع الصحيح لمجموعة الطوب حيث يمكن الوصول إليها بأقل مشقة ، والطرق الخاصة لخلط المونة حتى يمكن وضع الطوبة على عمق مناسب عند الضغط عليها باليد إلى أسفل ، وبذلك توفر الجهد الضائع في الطرق على كل طوبة . وخلال هذه الدراسة المفصلة الدقيقة اختزل جابرث ، عدد الحركات المطلوبة لوضع كل طوبة من ١٨ حركة إلى ٥ . وفي توضيح عملي لهذه الطريقة ، قارن بين عدد الطوب الذى يتم وضعه في الساعة الواحدة في تنفيذ أن الأعمال (بناء حائط مصنع سمكة ١٢ بوصة بنوعين من الطوب على جانبي الحائط) التى يقوم بها عمال النقاة الذين درجهم ، وبين الطريقة القديمة . وبين « جابرث » أن نتيجة طريقته كانت بناء ٢٥٠ طوبة في الساعة الواحدة إذا قورنت بنتيجة الطريقة القديمة وهى ١٢٠ طوبة ويحتاج إلى قليل من التصور لرؤية فائدة هذه النتائج بالنسبة لمشكلات مجتمع مثل مجتمعنا يعانى نقصاً زمنياً في المساكن وكذلك نقصاً في القوة العاملة في أعمال البناء .

ونستطيع أن نعرض مثلاً آخر لتوضيح بعض النتائج المترتبة على البحث السيكولوجى والتي لم تدرس حتى الآن . فلقد بين «طومسون ، Thompson» فى عمله الخاص بتحسين كمية ونوع إنتاج المحاور المكراه أنه يمكن لخمس وثلاثين فتاة القيام بنفس العمل الذى كان يقوم به ١٢٠ منهن مع زيادة الدقة بالرغم من زيادة سرعة الطريقة بأكملها . وقد نظرت المؤسسة إلى هذه النتيجة نظرة حمد وثناء ، ولكن ما هى وجهة نظر الطرف الآخر فى العمل وهو هؤلاء الفتيات العاملات فى ذلك العمل ؟ ازداد متوسط أجرهن

بمقدار ٨٠ إلى ١٠٠ في المائة عما كن يتقاضينه في الماضي وخفضت ساعات عملهم من ٥٠ إلى ٨٠ ساعة في اليوم وأصبح نصف يوم السبت عطلة بالنسبة لهم . وكذلك أعطين أربع فترات للترويح عن أنفسهن في كل يوم مما جعل الشعور بالإجهاد من هذا العمل مستحيلاً بالنسبة لفتاة صحيحة الجسم . وقد نظرت انفتيات إلى كل هذه الإصلاحات على أنها حركة إصلاحية تغطي أي مساوئ ناشئة ، وهكذا استفاد العمال والإدارة والمجتمع من ذلك التغير .

وجميع هذه الأمثلة مستمدة من إداوات حركية بسيطة جداً في الصناعة . ولقد درس نوع مخالف تماماً من ألوان النشاط في تجربة أخرى ، هو ما يعرف بسرعة قراءة طلاب الجامعة . ونستطيع أن نتصور أن طلاب الجامعة يمكنهم القراءة بقسط معين من الممارسة والسرعة ، ولكن وجد في الواقع أن غالبيتهم يقرأون بسرعات بطيئة إلى حد وجود تداخل خطير مع قراءاتهم . فثمة حركات غير ضرورية للشفاة يصحبها ميل إلى أن يسمع الشخص نفسه عند ما يقرأ الكلمات المكتوبة ، وحركات متراجعة للعين عبر المواد التي سبقت قراءتها ، ذلك لأنها لم تفهم جيداً ، وكذلك ثبوت العين على الأجزاء المختلفة لكل سطر من الكلمات المكتوبة . ومثل هذه الأمور وغيرها مما يمكن إصلاحه بسهولة تجعل كثيراً من الطلاب يقرأون بسرعات تقل بعدة مئات في المائة أو حتى ألف في المائة دون أقصى مستوى لسرعتهم الممكنة . ولقد وجد أن طرق التحليل والتدريب السليمة تكون فعالة إلى حد كبير في تعليم هؤلاء الطلاب القراءة الصحيحة ، ويصاحب مثل ذلك التحسين كسباً كبيراً في وصفهم الأكاديمي .

ولا يحتاج التحليل إلى أن يقصر نفسه على الحركات البسيطة أو المعقدة التي يقوم بها الأفراد ، فمن المفيد جداً أن ندرس سلوك الجماعات التي تقوم بعمل مشترك فيما بينها . فإذا لم ينظم الفرد دائماً حركاته ليحقق أقصى فائدة . فمن البديهي أن جماعة الأفراد بأكملها سوف تكون أقل كفاية . وربما أمكن

رؤية صعوبة مثل هذا التنظيم يوضح في ملغب كزة التقدم ، حيث تبوء كثير من المحاولات المبدولة بالفشل وذلك لانهميار التفاعل الداخلي بين أفراد الفريق وسوف يوضح أحد الأسئلة نوع التحليل الذي أغنيه في هذا المقام . وهذا المثال مستمد من العمل الشيكولوجي الذي قام به قسم البحوث في جيش إحدى الدول التي سوف لا أفصح عن اسمها .

من المعروف جيداً أن التدريب العسكري بالجيش يسبق من الناحية التاريخية طرق دراسة الزمن والحركة التي قام بها « تايلور » و « جلبرت » وأن الغرض من ذلك التدريب يماثل الغرض من الطرق التي اتبعها . فبعد تحليل مبدئي للعمل المتضمن ، كحشو المدفع وإطلاقه مثلاً ، فإنه يتخذ قراراً خاصاً بعدد الأشخاص المطلوبين والعمل الصحيح الذي ينبغي على كل منهم القيام به . ويخرج مثل هذا القرار في التعليمات الخاصة بالتدريب ، ثم يقوم بعد ذلك كل فرد من الذين يتدربون على إطلاق المدفع بنفس مجموعة الحركات المطلوبة في حشو المدفع وإطلاقه (وهذه هي النظرية على الأقل) ، وخلال الحرب أجرى تحليل لكفاية هذا التدريب ، وذلك بدراسة مجموعة من الجنود أثناء قيامهم بالعمل دراسة تفصيلية . وطلب من عشرة جنود إطلاق مدفع معين حسب التعليمات ، وسجلت الحركات الكاملة لكل واحد منهم وذلك في كل ثانية منذ وقت صدور الأمر إليهم حتى نهاية التدريب

وكانت النتائج التي حصل عليها ممتعة . فكان بعضهم مشغولاً لمدة بضع ثوان فقط وأمضى بعد ذلك بقية الوقت واقفاً بدون عمل . ولم يعمل أي واحد منهم أكثر من نصف الوقت . كما أن أحدهم لم يقم بعمل أي شيء . إذ كان عمله هو أن يمسك بحصان الضابط . ولقد اختفى الحصان في خضم الأشياء التي تم نسيانها . في حين بقي التدريب يتطلب تواجد شخص يقوم بتنفيذ هذا العمل الفرضي ١ وبين إعادة تنظيم التدريب أنه من الممكن أن يقوم به خمسة جنود بدلاً من عشرة . ووجد أن أجدى الطرق الناجحة

الإطلاق المدفع . هي أن يوجد فريقان يتشكون كل فريق منهما من خمسة جنود ويتبادلان بسرعة فترتي الإطلاق والراحة . ووجد أنه في حالة استخدام عشرة رجال بهذه الطريقة يمكن الحصول على أقصى قوة لإطلاق المدفع تعادل تقريبا ضعف ما كانت عليه في حالة استخدام فريق واحد مكون من عشرة جنود .

وتتضمن هذه القصة الواقعية مغزى يمكن مضاعفته عدة مرات في التاريخ الحديث . فالطرق المجددة البالية للقيام بعملية معينة من المحتمل أن تبقى كما هي ما لم تبذل الجهود لاكتشاف ما يتم خلالها لإصلاحها وقد يبدو بقي الغالب أننا لا نحتاج إلى شيء إلا الاحساس العام لاكتشاف هذه العادات والطرق القديمة والعمل على تحسينها . ولكن الواقع هو أن التدريب الخاص للعالم النفس في الصناعة يمكنه من القيام بمثل هذا النوع من الأعمال بدقة بالغة وبسرعة فائقة وبإنجاح أعظم مما يصادفه الهواة المتحمسون الذين يبذلون جهودا غير مجدية . أو أوائك الذين يدعون الخبرة ممن لهم إلمام ضئيل بالطرق الحديثة للبحث العلمي . وفي الحقيقة أدت المزاعم المبالغ فيها لتلك الطائفة الأخيرة وكذلك إهمالهم المستمر للتغيرات النفسية الهامة إلى النظر بعين الشك والإرتياب إلى علم النفس في الصناعة .

وبالرغم من النجاح الذي أحرزته « التaylorية » Taylorism في زيادة الإنتاجية إلا أنها لاقت هجوما من عدة نواح واستندت بعض الاعتراضات التي وجهت إليها إلى أسس فنية بينما استند البعض الآخر إلى أسس اجتماعية . وإذا اعتبرنا الاعتراضات الفنية أولا ، نجد أنها أوضحت أن الحركات إنما تقوم في نماذج معينة ، وقد يكون من المستحيل انتقاء أحسن الحركات من بين عدة نماذج مختلفة ، ثم تركيبها مع بعضها في نموذج جديد . وكالعمل الفني الذي يعتبر أكثر من مجموعة عناصر مجتمعة معاً . فإن مجموعة الحركات في اتباعها لها من الوحدة مما لا يمكن تفتيتها إلى جزئيات صغيرة . ولقد عبر

مايرز Myers عن وجهة النظر هذه بقوله ، إن أحسن طريقة للقيام بعملية صناعية لا تشتق عن طريق تجميع مجموعة من الحركات الاوائية مختارة من تلك التي يقوم بها أفراد مختلفون ، فالأسلوب هام جداً ، والكائن الحي ، ذو تنظيم خاص والفرد لا يمكن تجزيته . وأن العلاقة والتكامل هما ما يميزان الكائن والفرد . لاس الآلة فحسب . ولكن عن مجموعة من الأجزاء المتمايزة .

ولقد وجه نقد مشابه ضد الرأي الخاص بالطريقة المثلى ، فالطريقة التي يمكن اعتبارها ، أحسن ، طريقة للقيام بعمل من الأعمال بالنسبة لشخص قد لا تكون هي أحسن طريقة في حالة شخص آخر ، إذ أن الفروق الفردية قد تؤدي إلى التشكك في تطبيق مثل هذا المفهوم . فقد يلعب (كوتشيت) ، Cochet التنس بطريقة مخالفة تماماً لطريقة ، تلدن ، Tilden ، وقد لا تكون لعبة ، برى ، Perrey مشابهة بالمرة للعبة ، بودج ، Budge . وهل يكون لذلك أى معنى إذا قلنا أنه يمكن تكوين « أحسن » طريقة مثالية للعب التنس إذا أخذنا متوسط لعب « تلدن » وعمل « بودج » بظاهر يده وأداء (برى) والزعامة التحليلة البارزة (لسكوتشيت) ؟

وسوف يلاحظ أن هذه الاعتراضات نظرية ، وقد توحى بأن تحسين الانتاجية وفق الطرق التي اقترحها (تايلور) (وجلبيرث) . كان مستحيلاً ولقد أصبح الدليل الآن قاطعاً . فاذا استبعدنا الدراسات القليلة التي سبق ذكرها ، فثمة مئات من الدراسات الأخرى تبين جميعها إمكان القيام بتحسينات جوهرية وذلك عن طريق دراسات الزمن والحركة . وقد نوافق على إمكان القيام بتحليل عميق . وأنه ينبغي أن تؤخذ أيضاً العوامل الأخرى مأخذ الاعتبار . وأنه من الصعب أن ننكر الوزن السكبي للبرهان وأن نعلن استحالة التحليل . وقد يسجل قليل من علماء النفس بعض معاني التحليل المبالغ فيها التي سبق أن وضعها الكتاب الأوائل . فبينما لا ينكر أى واحد منهم أن هذه الطرق كانت مجدية إلى حد كبير ..

ونأتى بعد ذلك إلى الاعتراضات التي ترتكز على أسس اجتماعية أو سياسية . فغالبا ما يعارض العمال معاملتهم كأشخاص نجري عليهم الدراسات فهم يشتمزون من جعلهم كالحیوانات المعملية التي نجري عليها التجارب . ويميلون إلى الشعور بأن نتيجة مثل هذه الدراسات قد تكون إسرار العمليات الصناعية التي قد تكون مضرّة بالصحة ، أو تتركهم منهوکی القوى وفي حالة من الأعياء تعوقهم عن الاستمتاع بالزيادة في أجورهم المترتبة على الزيادة في الإنتاج وأحيانا يخشون من أن الإنتاج المتزايد الذي يثابون عليه قد ينظر إلى مستواه الجديد فيما بعد على أنه المعدل ثم تتناقص الأجور بعد ذلك . وجميع هذه الاعتراضات معقولة ويمكن اعتبارها على أنها نتيجة للخبرة المريرة . ومع أنها لا تنطبق في الواقع على الدراسة العلمية للإنتاج ذاته ، إلا أنها تنطبق على اساءة استخدام نتائج مثل هذه الدراسة .

وبالطبع فإن هذه المشكلة تعتبر مشكلة عامة تنطبق بالتساوي على جميع فروع العلم . فقد ينتج عن المعرفة بالبكتريولوجيا تقدما طبيا أو حربا بكتريولوجية كما قد ينتج عن الإلمام بالتركيب الذري أن يصبح في حوزتنا طاقة من أجل الأغراض السلمية أو ينتج عن ذلك كارثة القنابل الذرية . وتتحدد الفائدة التي يجنيها المجتمع من المعلومات العلمية عن طريق القوى الاجتماعية والسياسية ، أما الاكتشافات العلمية فهي متعادلة في حد ذاتها . ففي يدى ديكتاتور قد تستغل طرق علم النفس الصناعي في زيادة إنتاجية عبيده ، لمساندة غاياته الشريرة . وإذا تحكم ممثلو الشعب الديمقراطيون بحزم في هذه الطرق فإنها قد تجعل العمل أكثر سهولة وإنتاجا وأعظم فائدة . وقد لا تعنى زيادة إنتاجية الدولة السعادة لكل مواطن فيها ، ولكن قد تزيح سحب التضخم المالي والإفلاس والدين الوطني التي تقف حجرة عثرة في سبيل التوافق السعيد للمواطن . ويمكن فهم عداوة العامل لجميع الطرق التي تهدف إلى زيادة الإنتاج في مجتمع استغلالي ، حيث يقف العامل بالمرصاد للسلطة

عن طريق نشاط النقابات فإن مثل هذه العداوة قد تكون قصيرة النظر وتفضى إلى الحاق الضرر به .

وربما ظهر بوضوح في مجموعة البحوث الخاصة بساعات العمل التي أجريت في أوائل هذا القرن ، أنه من الممكن أن يكون علم النفس الصناعي ذا فائدة وأهمية كبرى بالنسبة للعمل . فهذه البحوث التي كانت صاحبة الفضل الأكبر في إحداث التغيير طول يوم العمل من ١٠ ساعات أو أكثر طيلة ست أيام كاملة في الأسبوع ، إلى أن أصبحت ٨ ساعات يوميا . وباستبعاد نصف يوم السبت . بينت نتائج قاطعة وهي أن معدل الإنتاج في الساعة يختلف باختلاف طول يوم العمل فكما كان يوم العمل طويلا . كان مقدار المادة المنتجة في الساعة صغيرا . وكلما كان يوم العمل قصيرا ولكن إلى حد ما كان مقدار المادة المنتجة في الساعة كبيرا ، ويمكن تعميم هذه القاعدة على أسبوع العمل بأكمله . كما بين ذلك بوضوح بعض الأبحاث التي تمت خلال الحرب العالمية الأولى في مصانع الذخيرة في هذه البلاد .

نظرا للحاجة الملحة المفاجئة إلى الذخيرة في المراحل الأولى من الحرب ازدادت ساعات العمل في المصانع عن المعتاد ولما كان الإنتاج يبدو غير متمشيا مع ما كان متوقعا له أجرى بحث لدراسة ذلك الموضوع . ووجد أنه عندما نقصت ساعات العمل من ٥٨ و ٢ إلى ٥٠ و ٦ ساعة في الأسبوع . كانت الزيادة في الإنتاج في الساعة ٣٩ في المائة والزيادة في الإنتاج الكلي في الأسبوع ٢١ في المائة . وهكذا أدى انقاص عدد ساعات العمل إلى زيادة في الإنتاج . ووجد نفس الأمر في مصنع آخر كانت النساء تقمن فيه بعمل ثقيل نسبيا وهو قلب المواد المنصهرة . وعندما خفضت ساعات العمل من ٦٦ إلى ٤٨ و ٦ ساعة أسبوعيا كانت الزيادة في الإنتاج في الساعة بمقدار ٦٨ في المائة وبمقدار ١٥ في المائة في الإنتاج الكلي . ولم تحدث هذه الزيادات مباشرة عندما حدث التغيير فكما يعلق (مايرز Myers) على ذلك

وهو أن الإنسان بعد تكيفه وتعوده على ساعات معينة للعمل ، فإنه يتطلب وقتاً — عندما يشك في أمر هذا التكيف — قبل أن يستطيع القيام بأقصى استجابة لهذه الظروف المتغيرة .

وساعات العمل الطويلة أكثر من اللازم وهي مظهر ثابت لعصر النهضة الصناعية (الفيكثوري) تعتبر غير اقتصادية كما أنها تثقل كاهل العامل ومع ذلك ينبغي ألا يظن بأن العلاقة الموجودة بين الإنتاج وساعات العمل هي علاقة الخط المستقيم فلقد انضح مراراً كثيرة أن هناك نقطة انقلاب أي أنه إذا نقصت الساعات عن أدنى حد وهو ٣٥ إلى ٤٠ ساعة فإن الإنتاج في الساعة لا يتوقف عن الزيادة فحسب بل يبدأ في الهبوط ويبدو أن ذلك يرجع إلى عوامل مختلفة مثل اختلال سير العمل المعتاد وفترة التهيؤ والاستعداد اللازمة قبل أن يبدأ الشخص عمله على نطاق واسع . والاتجاه العقلي العام نحو الوقت القصير ومختلف الاعتبارات الأخرى . وتختلف نقطة الانقلاب أو التحول هذه في الصناعات المختلفة وكذلك في الأعمال المختلفة وتتوقف أيضاً على جنس العامل ، ويحتاج إلى بحث علمي صحيح لتحديد أقصى حد لفترة العمل في كل حالة وذلك من وجهة نظر العامل والمؤسسة معاً .

ولقد فتح (تايلور) ميدانا هاما ولكنه لم ير أبداً إلا جزءاً محدوداً منه إذ أعتمده نظراته الخاصة (بالهندسة الإنسانية) فلم يدخل في اعتباره بعض المتغيرات الهامة وكما يقول (دوبرويل Dubrenil) في كتابه الإنسان الآلي أو الإنسان (Robots or Men ؟) لقد توقفت عبقرية (تايلور) عند عتبة عالم جديد فلم يكن واعياً بوضوح لأهميته أي بالقوى الداخلية الموجودة في روح العامل وتعمل خلال القوى غير المحدودة للدوافع الداخلية التي يمكن توجيهها عن طريق فك عقلاها وتصل معرفة وجهة النظر هذه بنقطة تايلور الثالثة اتصالاً وثيقاً — وهي الواقعية عن طريق البواعث المالية — والتي فرضت بأسلوب درامي على رجال الصناعة وعلماء النفس خلال فشل التجربة

وأدى ذلك إلى سلسلة من الأبحاث الكلاسيكية التي استمدت اسمها من من مؤسسة (هو ثورن) Hawthorne لشركة ويسترن الكهربية حيث أجريت هذه التجارب وتعرف باسم تجربة هو ثورن

ولقد اهتم علماء النفس ردحا طويلا من الزمن بتحسين ظروف العمل . وكانت الدراسات الخاصة بساعات العمل التي سبق ذكرها مجرد جزء صغير من العمل الذي تم تحت هذا العنوان وتضمنت الظروف التي تبحث ، الإضاءة ودرجة الحرارة ، والرطوبة وبعض العوامل المادية الأخرى ، وبذلت المحاولات عن طريق التغييرات المنظمة لهذه المتغيرات لتحديد أنسب ظروف للعمل . وعادة ما بينت المقاييس الخاصة بالإنتاج أن تحسين الظروف صاحبه زيادة في الإنتاج ، ونادراً ما كانت هذه الزيادات كبيرة ، إلا أنها أوضحت مع ذلك بأن الظروف المادية لعبت دوراً هاماً في الإنتاجية .

واتبعت د تجربة هو ثورن ، هذا النموذج في البداية ، عندما وجد أن الزيادة في الإضاءة قد أدت إلى زيادة في الإنتاج . غير أنه ، عندما بدأ الباحثون في انقاص شدة الاستضاءة ، متوقعين نقصاً في الإنتاج ، أدهشهم أن يجدوا بوضوح أن التغير في الاستضاءة أدى إلى تغير في اتجاهات العمال ، حتى أن زيادة المجهود المبذول أدت إلى تعويض يفوق الخسارة الناجمة عن تدهور ظروف العمل . وبعبارة أخرى . حقيقة أن النقص المتوقع في الإنتاج لم يتبع تدهور ظروف العمل ، أو حتى أن الزيادة في الإنتاج التي تلت تحسين ظروف العمل ، قد تستند إلى أساس يخالف ذلك الأساس الذي سلمنا به دون إثارة أي سؤال . كما أن دراسة دافعية العمال قد تلقى ضوءاً يساعد في حل ذلك اللغز المحير .

ونظمت تبعاً لذلك تجربة ، عزل فيها ست فتيات يقمن بتجميع مجددات التيار الكهربى - في حجرة خاصة للاختبار وذلك لمدة عامين . ولقد تعرضت هذه الفتيات إلى عدة تغييرات متنوعة من حيث ظروف العمل ،

ووجد منذ بداية التجربة حتى نهايتها ، أن الفتيات قد أظهرن زيادة متسقة في الانتاج . حتى أنه في الفترات التي كان من المنتظر أن يهبط فيها الانتاج بسبب تدهور ظروف العمل ، كانت الزيادة واضحة . وخلال فترة البحث كان هناك زيادة في القناعة والرضا بين الفتيات ، واهتمام كبير بما يقمن به في موقف العمل وانخفاضاً في نسبة الغياب بمقدار ٨٠ في المائة . وأدى تكرار المقابلات مع الفتيات والملاحظة الدقيقة لمن أن يستخلص الملاحظون أن الزيادة في الإنتاج ترجع إلى التغيرات التي طرأت على الاتجاهات فلقد استشيرت الفتيات قبل اجراء أى تغيرات في موقف العمل ، واستطلعت آراؤهن بالنسبة لآثار هذه التغيرات ، وعملن في ظل ظروف خالية من الاشراف الصعب السريع . وظهر بالتالى أنه قد تكون لديهن اتجاه اجتماعى كان المحدد الأساسى لسلوكهن في موقف الصناعة ، ولم يتأثر مباشرة بالتغيرات التجريبية للظروف المادية التي قام بها الباحثون .

وثمة دليل قوى في تقارير هوثورن ، جمعت المقابلات لعدد كبير من العمال في مختلف الأقسام ، على أن كفاءة الأداء والرضا بالعمل يتصلان ببعضهما اتصالاً وثيقاً ، وأن الاتجاهات نحو المؤسسة تعد عاملاً بالغ الأهمية في الدافعية ، فالعامل الذى يشعر بأنه مجرد « ترس » فى آلة كبيرة ، يعتقد أن وظيفه ينظرون إليه على أنه مجرد جزء يمكن تغييره فى برنامجهم وللهندسة الانسانية ، والذى يتركز اهتمامه حول الأجر الذى يتقاضاه ، من المحتمل أن يحد من إنتاجه إلى الحد الأدنى الضرورى . والعامل الذى نجعله يشعر باهتمام المؤسسة به كإنسان ، ويعتقد أن اهتماماته موضع اعتبار رجال الإدارة ، ويجد ميلاً كبيراً إلى عمله ، من المحتمل أن يجاهد فى سبيل بلوغ أقصى حد ممكن للإنتاج لا أدنى حده . وقد يكون هناك درس هام لمن يديرون الصناعات المؤتممة ، وكذلك المسئولين عن الأعمال الحرة ، وهو أن الكفاءة الميكانيكية ليست كافية إذا أخفقت فى أن تدخل فى اعتبارها اتجاهات العمال . وإذا لم تعمل على أحداث تكامل نفسى بينهم وبين أغراض وآمال المؤسسة .

التي يعملون بها . ولقد تعرض إسحاق تايلور ، عندما تخلى عن اللمسة الإنسانية ، إلى هجوم عنيف : فمن طريق مزجه فقط بالاهتمام بالعمال وبمنظرة أكثر إنسانية إلى الخصائص والفروق الفردية يمكننا أن نجعله يوائم مجتمعا الديمقراطية .

وحسب هذا الرأي ، فإصرار «تايلور» على العوامل الاقتصادية في دفع عماله أصبحت غير ذات موضوع . إذ توجد عوامل أخرى تفيد أكثر أهمية من ذلك . وتبين مختلف الدراسات أن ذلك هو الواقع ، فتتفق جميعها على أنه بالرغم من التحالف غير المقدس بين الرأسمالية الأرثوذكسية والماركسية الأرثوذكسية في اعتبار الدافع الاقتصادي على أنه أقوى الدوافع ، إن لم يكن القوة الوحيدة في الصناعة ، فثمة دوافع نفسية أخرى يعتبرها العمال أنفسهم أكثر أهمية . ففي إحدى الدراسات الأمريكية رتب «الفرصة للترقية» على أنها أهم اعتبار في تقويم العمل ، يليها «عمل ثابت» و «فرصة لاستخدام أفكار العامل نفسه» و «فرصة لتعلم عمل» و «رئيس ممتاز» وهو عنصر يهدف إلى تحقيق الاتجاه النفسي الذي سبق تأكيده على الصفحات المتقدمة . وأعقب ذلك فرصة للخدمة العامة ، ثم جاء بعد ذلك العنصر الخاص «بالأجور المرتفعة» وتلاه «ظروف طيبة للعمل» و «ساعات مناسبة» و «عمل نظيف سهل» . وهذه الحقائق تتحدث عن نفسها .

وينبغي ألا نتصور أن هذه الحقائق تنطبق على الولايات المتحدة وحدها . فلقد شلت عينات من أنماط مختلفة في بريطانيا عن أهمية مختلف العوامل في حياتهم كعمال . وجاء في قمة تلك العوامل «الميل إلى العمل» وتلاه «الآمل في الترقية» ، ثم «الآمن» ، ثم جاء بعد ذلك في مستوى واحد «الأجور» و «ساعات العمل» وتأخر ترتيب «الجانب الاجتماعي للعمل» و «الاجازات» . ويؤكد هذا أن العوامل غير الاقتصادية تعتبر أكثر أهمية .

ولا أحب أن أعطي انطبأا في هذه الفصل عن أننا نعلم جميع الإجابات الخاصة بمشكلات الصناعة ، أر أن مثل هذه المعلومات التي تتوافر لدينا يمكن تطبيقها مباشرة و بدقة تامة وقتها وحيثما تقوم المشكلات : لأن ذلك يجانبه الصواب إلى حد كبير فنحن نعرف قليلا جداً عن القوى الدفينة التي تشكل سلوكنا ، والتي تشير إليها بالبواعث والدوافع ، التي يحاول السياسيون والرجال و العمليون ، معالجتها بشيء يسير من المهارة والتأثير . ومع ذلك ، فإن ما قمنا به يعد نقطة بداية ، ونتائج تطبيق مثل هذه المعلومات المحدودة التي اكتسبناها تعتبر فرضية . ويشير الدليل إلى إتجاه أكثر مساواة وديمقراطية في تنظيم الصناعة ، وعلاقة أكثر إنسانية بين المديرين والعمال وإلى مسلك أكثر سيكولوجية وأقل من الناحية الاقتصادية .

واقد لاحظ كثير من الكتاب في السنوات الحديثة وفاة ما سمي الرجل الاقتصادي ، ولم يتحقق الكثير منهم أن ثمة مسلكاً جديداً كلياً نحو المشكلات الاجتماعية والسياسية قد يكون موضع الأعداد ، وهو مسلك يقوم على أساس المعلومات الحقيقية الخاصة بطبيعة الإنسان أكثر من قيامه على المعتقدات النظرية والآراء التي سبق اعتناقها . وتبدو الأحزاب السياسية عامة على أنها قد استنفدت الدينامية الدافعة لها ، وأنها تبحث حولها عن آراء ومفاهيم جديدة . وهل لا توجد هذه الآراء والمفاهيم الجديدة في تقدير واقعي لإمكانيات وقدرات واتجاهات ودوافع الإنسان الذي يتكون منه المجتمع ؟ وحيثما يوجد اجماع كبير بين جميع الأحزاب فيما يتعلق بأهداف المجتمع ؛ فهل ينبغي ألا يسلم النزاع حول الوسائل إلى البحث العلمي . ؟ ومن حيث المبدأ على الأقل فحل المشكلات الاجتماعية من الممكن أن يوجد بنفس الطريقة كحل المشكلات الفيزيائية أو الكيميائية ؛ فنحن لا نحدد الوزن الذري للذهب ، أو حجم القمر أولون طيف إلا بدروجين ؛ عن طريق حساب عدد الرؤوس ، ولا يبدو هناك أي أساس لاقتراض جدوى مثل هذه الطريقة في التوصل إلى قرارات صحيحة خاصة بالانتاجية

الصناعية أو الدافعية أو المشكلات النفسية الأخرى . فدعوى الشيوعية المغربية في ظاهرها بالنسبة لكثير من الناس تستند إلى مسلكتها « العلمى » الواضح فيما يتعلق بالمشكلات الاجتماعية فاحلال العلم الخالص محل التبريرات الوهمية للقرارات النظرية التى تتصف بها الفلسفات الماركسية ، يتطلب قوى دافعة كبيرة كي يحقق هدفا نحن فى مسيس الحاجة إليه فى مجتمع ديمقراطى : ويجب أن يكون بالضرورة إعداد مثل هذا البرنامج مهمة تضطلع بها عقول كثيرة لأنها تتطلب دراسة نظرية وتجريبية مستفيضة ؛ ويعتبر تحديد الامكانيات اللانهاية لمثل هذا المسلك من أهم الإسهامات الرئيسية لعلم النفس فى الفكر المعاصر .

البَابُ الثَّالِثُ

السلوك غير السوي

الفصل التاسع

السواء والجنس والطبقة الاجتماعية

يتردد لفظ السواء بكثرة مزعجة في كتابات علماء النفس والأطباء العقليين والمحللين النفسيين، وعلماء الاجتماع وغيرهم من يهتمون بالسلوك الانساني . وسبب الانزعاج من استخدام هذا اللفظ بسيط جدا ، وهو أن السواء احدى الكلمات التي قد تعنى أشياء مختلفة عند مختلف الناس . فليس هناك تعريف واحد متفق عليه يمكن أن يخدم في وصف جانب من جوانب السلوك . ونجد بدلا من ذلك أن اللفظ استخدامين أساسيين واستخدامات فرعية كثيرة . وكثيرا ما يستخدمه نفس الكاتب بمعنى حيناً وبمعنى مختلف حيناً آخر .

ورغما عن قصور المفاهيم التي يدل عليها هذا المصطلح ، فإنه يجدر بنا أن نقف هنيهة لمناقشتها . ويتضح لأول وهلة أن ثمة استعمالين رئيسيين للمصطلح (سواء) فقد نطقه ونعنى بالسوى من ناحية ما يميز سلوك أغلبية الناس ويمكن أن نطلقه من ناحية ونقصد به التعريف الإحصائي . فالشخص ذو الطول السوى أو العادى هو الشخص الذى لا ينحرف كثيراً فى أى الاتجاهين عن المتوسط والشخص السوى أو العادى فى الوزن هو الذى لا يعتبر أثقل ولا أخف من غالبية الآخرين ممن يبلغون فى الطول مثلاً يبلغ وهذا الاستعمال للمصطلح واضح تماماً ومباشر ومفهوم وهو على أية حال يشير صعوبات معينة حين ننظر إلى سمات معينة كالذكاء والجمال والصحة .

دعنا ننظر إلى الذكاء ، إن الشخص السوى من الناحية الإحصائية هو الذى تقع نسبة ذكائه قريبة من المتوسط ووفقاً لهذا التعريف يعتبر كل من (م ١٣ — علم النفس)

ضعيف العقل الذى تبلغ نسبة ذكائه ٦٠ والعبقري الذى تبلغ نسبة ذكائه ١٨٠ شاذاً والشخص السوى احصائياً ليس جميلاً ولا قبيحاً فالفتاة الجميلة شاذة احصائياً كالفتاة القبيحة وربما كانت أكثر شذوذاً ويظهر هذا الغموض فى اللفظ بشدة فيما يتصل بالصحة فالشخص السوى هو الذى يتعرض لعدد متوسط من الأمراض والكسور ومن تنتهى حياته بمرض من الأمراض الشائعة والشخص الصحيح تماماً والذى يعيش حتى سن متأخرون أى مرض جسمى شخص بالغ الشذوذ على أساس وجهة النظر هذه .

ولست هذه هى الطريقة المعتادة فى النظر إلى الصحة والجمال والذكاء فنحن نميل إلى أن نستبدل بالمعيار الاحصائى المعيار المثالى فنسمى الشخص سوياً كلما اقترب مما هو مثالى . سواء أكان ذكاءً عالياً : أو ملاحاً جميلة . أو صحة لا يتخللها مرض . ولكن المعيار المثالى قد يكون نادراً جداً إحصائياً وقد لا يوجد فى الواقع على الإطلاق فى المجتمع الذى ننظر فيه .

ويشيع الخلط بين هذين الاستعماليين للفظ ولا سيما فيما يتصل بالصحة العقلية فحين يعلن المحلل النفسى عدم وجود شخص واحد سوى فإنه يقول ذلك بالمفهوم المثالى للسواء وكثيراً ما يحاول القارىء على أية حال أن يفهم مثل هذه الملاحظة فى ضوء المعيار الاحصائى ويعلن انها تناقض نفسها وغير مقبولة عقلاً ويظهر سوء الفهم هذا فى سياقات أخرى كثيرة ومن الضروري أن تذكر جذورها السمائية Semantic لكي تتجنب مواطن زللها الواضحة

وثمة معنى ثالث للفظ ، لعب دوراً هاماً فى تطوير علم النفس . ووفقاً لهذا التفسير ، نطلق على ما نعتبره طبيعياً لفظ سوى ، وهكذا نعتبر أن الذكر سوى لو كان مسيطراً ، وإن الأنثى سوية لو كانت خاضعة ، ونعتبر الانجذاب إلى الجنس الآخر سوياً ، وإلى الجنس المماثل شذوذاً . ونتمسك بهذه النظرات حتى لو أمكن تبين أن الجنسية المثلية كانت فى بعض المجتمعات أكثر

تشيرنا من الجنسية الغيرية من الناحية الإحصائية . كالمجتمع الإغريق القديم ،
أو أن في بعض الشعوب كالمصريين القدماء ، كانت الإناث أكثر عدواناً
والذكور أكثر خضوعاً . ونحن لا نتمسك بهذه الوجهات من النظر لأننا
لا نستطيع أن نقول بأي معنى مطلق أن السلوك المسيطر عند الذكور كان
مثالاً مرغوباً فيه . فشعورنا يقوم على أن التكوين البيولوجي الطبيعي قد
جعل الرجال والنساء يسلكون بطرق معينة ، وأنه على الرغم من المعايير
الإحصائية أو المثالية ، اعتبر السلوك وفق هذه الأهداف المشهورة سويّاً ،
والسلوك المخالف لها شاذّاً .

ولا يمكن ، من الناحية المنطقية ، رفض وجهة النظر التي تسلم بأن بعض
صور السلوك طبيعية وفطرية بيولوجيا . ولكن يكمن الخطأ الأساسي
في محاولة ربط ما هو طبيعي بما هو شائع في مجتمعنا . وهذا الميل إلى اعتبار
ما هو مألوف لنا ، طبيعياً أو فطرياً غريباً ظهر بوضوح كبير في دراسات
جمعية للحيوان . فنحن نعتبر مثلاً سلوك القطط التي تمسك الفئران وتقتلها
وتأكلها سلوكاً غريباً وطبيعياً . وقد لا ننظر إلى هذا على أنه سلوك مثالي .
فنحن لا نوافق في كثير من الحالات على أن قطة شبعاناً يقتل الطيور
والحيوانات الأخرى لغير هدف ظاهر . ولكننا ننظر إلى هذا السلوك على
أنه فطري . ومن ثم فهو طبيعي وسوي . ومع هذا فقد وجدت أدلة دامغة
تثبت خطأ هذا الرأي .

ولقد ربي كيو Kuo وهو عالم نفس أمريكي قططا صغيرة في ظروف
مختلفة متنوعة بعد فصلها عن أمهاتها . فأطعم بعضها على اللبن والحساء وهي
منعزلة تماماً ، وأطعم مجموعة أخرى على اللحم بينما ربي مجموعة ثالثة مع فئران
صغيرة وقد سمح للجوعتين الأولى والثانية أن يريا الفئران تجرى في الحجرة
حولهما خارج أقفاصهما ، بينما تربت المجموعة الأخيرة مع أمهاتها بالطريقة
العادية . وقد لاحظ في نهاية فترة التربية ، سلوك كل قط حين ترك وحده
مع عدد من الفئران . وكان سلوك القطط في المجموعات المتباينة مختلفاً تماماً ،

فوجد أن القطط التي نشأت بالطريقة العادية قتلت الفيران وأكلتها دون استثناء ، وأما تلك التي نشأت في عزلة وتغذت على اللبن والحساء فلم تظهر أى ميل على الإطلاق للقبض على الفيران وقتلها وأكلها ، وشغلت المجموعات الأخرى موقفا وسطا ، ولكن مع ميل قوى لأن تستجيب بطريقة شاذة غير طبيعية أى لا تنظر إلى الفيران على أنها طعام . ولقد أيد تكرار التجربة صحة نقطة كيو الأساسية ، أى أن هذا النشاط الخاص للقط ليس بالسلوك الغريزي الفطري . ومن ثم فهو غير طبيعي ، ولكنه عادة مكتسبة يسهل جدا التخلص منها بالتدريب المناسب .

وربما كان ما توصل إليه علماء الاثنوبولوجيا من دليل من دراساتهم للقبائل المختلفة مساويا في إخماده للدليل السابق . دعنا نأخذ فرضا عاما تقريبا (أقصد عاما في ثقافتنا الخاصة) وهو أن الرجال مسيطرون عدوانيون . بينما النساء خاضعات ومحبات للسلام . لقد ظهر أن هذا النمط بعيد عن العام فبين الأرايش Arapesh وهم أناس يسكنون الجبال في غينيا الجديدة New Guinea وجد أن كلا من الرجال والنساء يظهر عليهما سمات أنثوية (١) . ويبدو أن هذه الجماعة حرمت التنافس والعدوان ، والسلوك المسيطر واستبدلتها بنوع من الثقة المتبادلة والعطف . أما الفروق التي تقوم على العمر والجنس في مجتمعهم فلا تحتل إلا منزلة ضئيلة مما يجعل هذا المجتمع يقرب من مثاليات مجتمع لا طبقات فيه . وحتى ألعاب الأطفال غير تنافسية . ويقضى الكبار على أى عراك ينشأ بينهم مباشرة ودون تربت . وكثيرا ما يشير الملاحظون إلى أن مجتمع أرايش يمثل أسرة واحدة كبيرة سعيدة .

ونجد في الطرف المضاد قبيلة Mundugumor مند جيمر : إحدى قبائل غينيا الجديدة آكلة لحوم البشر . ويظهر كل من الرجال والنساء ما يسمى

(١) انظر كتاب «النمو والتربية في المجتمعات البدائية» تأليف ميد وترجمة د. نعيمه عيسى الناشر النهضة العربية (المترجم)

يسمات الذكور . فهم قساة - مسيطرون عدوانيون ومستعدون للحرب . عند أدنى إثارة . ويولد الطفل منذ البداية في عالم عدواني : ويقطع مبكراً ، ويضرب وكثيراً ما تقتله الأم ؛ التي لا تظهر عليها أى علامات لغريزة الأمومة الافتراضية والتي نعتبرها نحن طبيعية جداً وسوية كإحدى خصائص الأنوثة .

ونجد اتجاهها جنسياً معكوساً بين قبيلة تشامبولي Tchambuli فهنا نجد المرأة مسيطرة غير عطوفة ، وشريكاً يقوم بالإدارة وتصريف الأمور ، ونجد الرجل أقل مسؤولية وشريكاً غير مستقل انفعالياً . أن المرأة هي التي تختار شريكها الجنسي ، والرجل هو الذي يختار . وتسائر النساء بعضهم بعضاً . أما الرجال فيصعب مراسمتهم . متشككون لا يثق بعضهم في بعض . وبسبب اعتمادهم على النساء لتحقيق الأمن يتسم سلوك الرجال بالحياء . والحساسية ينشغلون في أنشطة فنية وأنثوية كالرقص والغزل والنسج . والطلاء بالألوان ويمكن أن نسوق كثيراً من الأمثلة الأخرى كنماذج للسلوك قد تبدو غير طبيعية وشاذة . ولكن على الرغم من ذلك تبدو متسمة بالثبات ، ولا تجعل حياتهم أقل مما تتمتع به في حياتنا من سعادة ورضا .

وتبين هذه الأمثلة حقيقة كيف أن مفهوم السواء نسبي جداً سواء كان بالمعنى الإحصائي أو بالمعنى الطبيعي . ويبدو أنه يمكن في النهاية إرجاع المعنى الطبيعي للفظ إلى المعنى الإحصائي ، ونحن ننظر إلى ما يحدث بكثرة في مجتمعنا بحيث يكون عاماً ، على أنه طبيعي . وقد نخطئ أحياناً ؛ بطبيعة الحال في تقديرنا للتكرار الذي تحدث به صور السلوك ، فقد وجد كينزي Kinsey مثلاً أن أكثر من ٣٠ في المائة من عينة الذكور قد انغمسوا في ممارسات جنسية مثلية ناشطة في وقت أو آخر ، وهو رقم أعلى بالتأكيد مما يخمنه أكثر الناس .

وتعتبر دراسات الحيوان والدراسات الأنثروبولوجية من وجهة النظر العلمية ، دليلا مقنعا تماما عن نسبية كثير من المعايير التي لدينا عن السواء . ورغما عن ذلك فقد يميل كثير من الناس ، إلى نبذها إجمالا بقولهم ان ما يصدق على الحيوانات والبدائيين عبدة الأوثان لا يتصل حقيقة بمجتمعنا المتحضر جدا ، ولذلك سأعطي مثالا آخر عن نسبية مفاهيمنا عن السواء بمقارنته جماعات منتقاة من مجتمعنا . ومن الأساسى والجوهري نظرا لتعدد الثقافات الحديثة ، أن ندخل فى تفاصيل أكثر مما هو مطلوب فى الدليل الأنثروبولوجى والمقارن وستتضح الآن أسباب ذلك .

وقد استقى المثال الذي اخترته من تقرير كنزى عن السلوك الجنسى للرجل Sexual Behavior In The Human Male ويتناول الممارسات الجنسية للطبقة المتوسطة والطبقة العاملة فى أمريكا . وثمة شك قليل فى أنه لو أجريت دراسات مماثلة فى هذا القطر [إنجلترا] فإنها ستكشف عن فروق مماثلة ، ولكن نظراً لعدم وجود دليل تجريبي على هذا الافتراض ، قد يكون من الحكمة أن نتذكر أن هذه الدراسة أجريت فى الولايات المتحدة ، وأن الأرقام التفصيلية حتى لو قبلت باعتبارها بمثابة للسلوك الجنسى هناك ، فإنه لا يمكن نقلها بالضرورة مباشرة إلى ظروف مجتمعنا [الانجليزى] .

وقد كان اهتمام كنزى فى أساسه اهتماما بالنشاط الجنسى الإنسانى وقصده
عرف النشاط الجنسى بطريقة عملية بسيطة، انتقدها المحللون النفسيون وغيرهم،
من يحاولون اقتفاء الآثار المتنوعة للزعة الجنسية فى جوانب سلوكنا الخفية،
وتدل هذه الاعتراضات على امكانيات لدراسات أبعد، ولكن لا يمكن
اعتبارها ذات قيمة بالنسبة لدراسات كنزى الضخمة العميقة الأثر، والتي
قام بها فى الحدود التى رسمها وأعلنها لنفسه. فلقد انصرف اهتمامه فى الأساس
إلى مناشط الفرد الجنسية التى تتعلق بالذروة الجنسية أو سورة الشهوة.
واقدر وجد أن هناك مست مصادره تؤدي إلى الذروة الجنسية. وهى الاستشارة،

الذاتية (الاستمتاع) ، والاحتلام حتى الذروة ، وتربية الجنس الآخر ، والجماع الجنسي المثلى ، والاحتكاك بحيوانات من الأنواع الأخرى . وما تزال هناك مصادر ممكنة أخرى للذروة الجنسية Orgasm ، ولكنها نادرة ولم تكن جزءاً هاماً من التنفيس أو التصريف لآى نسبة كبيرة من السكان ، ويشير كنزى إلى هذه الأنواع الست من الاشباع الجنسي على أنها منافذ وتهتم دراساته فى الأساس بمدى حدوثها فى العينات المختلفة من السكان .

ولقد نجحت كل مواد البحث وبياناته عن طريق المقابلات الشخصية المباشرة ، وتم منها ١٢ ألفا قبل نشر كتابه ، واستخدم فى إحصائياته الفعلية ٥٣٠٠ حالة .

وما كتبه كنزى عن طريقته فى الاتصال بأفراد العينة وفى المقابلة الشخصية يثير الاهتمام لإثارة كبير . فقد اشتملت المقابلات الشخصية على قائمة من المهن تبلغ من التنوع إلى حد أنها تمتد من المهرب إلى الطبيب النفسى ، ومن المومس إلى رجل الدين ومن المقامر إلى المحامى ، ومن رؤساء تحرير الصحف إلى الصبي الجميع فى المطبعة . وقد ظهر من البحث أن المقابلة الشخصية ذاتها كانت خبرة مثقلة إلى حد ما إذا حكمنا عليها من ما خص كنزى ، فقد اشتملت على أسئلة تترى سريعة كالحجم ، وتخللت المقابلة أسئلة للتثبيت من دقة الاستجابات ، ووضعت بحيث تجنب المسئول الإنكار . ويعتقد كنزى أن من يقوم بالمقابلة الشخصية ينبغي ألا ييسر لمن يقابله الأمر بحيث يسهل عليه أن ينكر القيام بأى نشاط جنسى . فمن السهل جداً أن يقول المسئول لا ، إذا سأله ببساطة عما إذا كان قد انغمس فى نشاط خاص . وبناء على ذلك تبدأ دائماً بأن نسأل متى قام بهذا النشاط أول مرة . وهذا ، كما بين كنزى ، يضع على عاتق الفرد الذى يود أن ينكر خبرته عبئاً أثقل ، ولما كانت صيغة السؤال تدل فى وضوح على أن من يقوم بالمقابلة الشخصية لن يدهش إذا كان المسئول مثل هذه الخبرة فيقل احتمال انكارها .

ولقد عمل كنزى فى إعداد المقابلة الشخصية بجهد وعناية ، إلى درجة أنه ابتكر نظاما خاصا لكتابة الأجابات بحيث يضمن السرية . ولا يعرفها إلا هو ومن يعمل معه . ولقد ذهب إلى حد أنه تعلم الكلمات الجنسية التى تستخدمها الجماعات المختلفة التى قام بدراستها ، معتقدا أنه من الضرورى أن يفهم مدى الأساليب الممكنة فى كل نوع ممكن من أنواع السلوك الجنسى . وهناك ألفاظ خاصة ينبغى أن يعرفها من يقوم بالمقابلة الشخصية بالنسبة لمعظم أنماط السلوك الجنسى ، ولمئات الأوضاع الممكنة للجماع ولعدد الأساليب المختلفة للاتصالات الجنسية المثلية إذا أراد أن يفهم مفهوصيه ، أن يجد منهم تعاوناً معقولا .

ولقد قسمت البيانات والمواد السكية التى حصل عليها فى هذه المقابلات الشخصية على أساس الجنس والسلالة والجماعة الثقافية ، والحالة الزوجية والسن والمستوى التعليمى ، ومسقط الرأس ، حضرياً أو ريفياً ، والمعتقد الدينى والمنطقة الجغرافية . ثم تعرض الإحصائيات بالتفصيل للجماعات المختلفة الأساسية . ولما كنا مهتمين فى الأساس بمقارنة الطبقة المتوسطة بالطبقة العاملة ، فإننا سوف نذكر التقسيمات الأخرى حيث يبدو ذلك مناسباً . ويعرف كنزى المستوى الاجتماعى جزئياً على أساس التعليم ، وجزئياً على أساس نوع العمل الذى يقوم به الشخص . ولكن لما كان هذان الأساسان للتصنيف يزودانا ببيانات متماثلة من الناحية الجوهرية ، فلا حاجة إلى أن ندخل فى التفاصيل الخاصة بأيهما استخدم فى كل مقارنة خاصة .

ويلاحظ كنزى النتيجة التى انتهى إليها فى الكلمات التالية : تدل البيانات المتوافرة لدينا الآن على أن أنماط السلوك الجنسى تختلف فى المستويات الاجتماعية المتباينة التى تعيش فى المدينة الواحدة كبيرة كانت أو صغيرة اختلافا تاماً ، وفى أجزاء متجاورة فى البيئة المحلية الواحدة . وتدل البيانات أن الاختلافات فى الأنماط الجنسية لهذه الفئات الاجتماعية قد تبلغ من العظم ما تبلغه الاختلافات التى وجدها علماء الأنثروبولوجيا فى الأنماط الجنسية المختلفة فى الجماعات المتباينة سلالياً فى أجزاء ثائية من العالم .

أما وقد اقتبسنا النتائج ، فدعنا الآن نعود إلى الدليل فيما يتصل بعدد مرات الجماع في الأسبوع ، يبدو أن هناك اختلافا كبيرا بين الطبقات المختلفة على الرغم مما يوجد من تناقص طبيعي من حد أعلى يبلغ ٥ مرات في الأسبوع في سن ١٦ - ٢٠ ، إلى حوالي مرتين في الأسبوع ما بين سن ٤٠ - ٤٥ . وثمة فروق ملحوظة على أية حال بين الطبقات الاجتماعية فيما يتصل بنسبة الأنماط المختلفة للإشباع الجنسي التي ميزها كنزى . وكانت مقارناته الأساسية بين الجماعة التي بلغت في تعليمها المستوى الجامعي ، والتي وصلت إلى نهاية المرحلة الثانوية ، والتي بلغت نهاية المرحلة الابتدائية ، وسنلخص نتائجه بتناول كل طريقة إشباع على حدة . دعنا نأخذ كمثال الجماعة التي لم تتزوج والتي تبلغ ما بين ١٦ - ٢٠ ، لأن هؤلاء قد يمثلون كثيرين غيرهم ممن توافرت بيانات عنهم .

وتمثل العادة السرية في هذه الجماعة ، ٢٩ في المائة من جميع طرق الإشباع لجماعة المدرسة الابتدائية ، ٣٧ في المائة لجماعة المدرسة الثانوية ، و ٦٦ في المائة لجماعة الجامعة ، ويتبع القذف الليلي ٥ في المائة من جميع طرق الإشباع لجماعة المدرسة الابتدائية ، ٦ في المائة لجماعة المدرسة الثانوية ، ١٦ في المائة لجماعة الجامعة ، وكانت أرقام التريت حتى الذروة في هذه الجماعات على التوالي ٢ في المائة ، ٣ في المائة ، ٥ في المائة . وفي كل هذه الطرق إذن كانت جماعة الجامعة باستمرار أكثر نشاطا . وجماعة المدرسة الثانوية متوسطة ، وجماعة المدرسة الابتدائية أقل نشاطا . وينعكس هذا في المجموع الكلي . وتوفر العادة السرية . والقذف الليلي ، والتريت ٨٧٪ من التنفيس والتصريف الجنسي لجماعة الجامعة ، ٢٦ في المائة لجماعة المدرسة الثانوية . وتوفر ٣٦ في المائة فقط من التنفيس الجنسي للجماعة التي لم تتجاوز في تعليمها المرحلة الابتدائية .

وتختلف الصورة تماما في الأنواع الثلاث الأخرى من المنافذ . واثنتان منها غير هامين نسبيا ، وتبلغ نسبة السردمي أي الاتصال الجنسي بالحيوانات

كمنفذ للاشباع الجنسي واحد في المائة في جماعة المدرسة الابتدائية ، وجماعة المدرسة الثانوية ، ولا وجود لهذا النوع في جماعة الجامعة على الاطلاق وأهم من ذلك بكثير العلاقات الجنسية قبل الزواج التي يقسمها كنزى إلى علاقات جنسية مع زميلات أى مع بنات من نفس المسكن الاجتماعية ، وعلاقات جنسية بالمومنسات . وجاءت أرقام العلاقات الجنسية بالزميلات والمومنسات على التوالي ٥١ في المائة و ٦ في المائة في جماعة المدرسة الابتدائية ٣٩ و ٣ في جماعة المدرسة الثانوية ٩ و ١ في المائة في جماعة الجامعة . وتشغل العلاقات الجنسية السابقة للزواج والعلاقات الجنسية المثلية والعلاقات الجنسية بالحيوانات ٦٩ ٪ من طرق الاشباع في جماعة المدرسة الابتدائية . بينما تشغل ٥٤ في جماعة المدرسة الثانوية تشغل سوى ١٢ في المائة في جماعة الجامعة .

والفرق الوحيد هو ما يوجد بين جماعة الجامعيين وغيرها إذ يحدث ٩٠ ٪ تقريباً من الاشباع الجنسي لطلاب الجامعة عن طريق العادة السرية والقذف الليلي والتربيت . بينما يحدث ١٠ في المائة عن طريق العلاقات الجنسية المباشرة . وتتوفر عن طريق الاتصال المباشر الاشباع الجنسي للجماعتين الأخرتين في ٦٦ ٪ من الحالات . وتبين هذه الأرقام الفرق الملحوظ جداً في أنماط السلوك بين هاتين المجموعتين وعلى أية حال فهذه البيانات على أهميتها ليست إلا جزءاً من الدليل فحسب : إذا ينبغي أن نهتم أيضاً بالتقويم الشعوري لهذه الطرق المتنوعة عند كل من الطبقة المتوسطة والطبقة العاملة على التوالي ودرجة اعتبارها طرقاً سوية .

ووجد كنزى في المستويات الاجتماعية الدنيا أن العادة السرية تعتبر شذوذاً وانحرافاً ، وبديلاً طفيفاً للاتصالات الاجتماعية الجنسية ويمارس معظم أبناء الطبقات الدنيا العادة السرية : ولكن ينذر أن يكون لديهم أكثر من خبرات قليلة قبل أن يتوقفوا فجأة ومباشرة بعد خيرتهم الأولى

بالجماع بالجنس الآخر وكثيرا ما تدعم هذه النظرة إلى العادة السرية على أنها انحراف بتبرير مؤداه أن العادة السرية تحدث أذى جسميا واتجاه الطبقة الدنيا نحو العادة السرية مماثل لذلك الذي نجده بين البدائيين - وهو لا يتضمن قيما خلقية بمقدار ما يتضمن احتقارا لعجز الفرد الاجتماعى الذى عليه أن يلجأ إلى الاستشارة الذاتية كمنفذ للشباع الجنسي ولا تعتبر العادة السرية بين طلاب الجامعة مرغوبا فيها أو موصى بها ، لكنها تقبل على أنها أقل لا أخلاقية من العلاقات الجنسية غير الزوجية

وعلى اختلاف اتجاهات المسئولين من طلاب الجامعة وغيرهم فيما يتصل بالعادة السرية ، فإن أعظم ما يوجد بينهم من فروق يتصل بالتربية والعلاقات الجنسية غير الزوجية . فيؤكد طلاب الجامعة في أخلاقهم الجنسية الاحتفاظ ببيكاره الأنثى ، ويؤكدون بدرجة أقل مثل هذا عند الذكر أيضا حتى وقت الزواج . ويعزز استخدام التربية قبل الزواج في هذا المستوى تؤكد كتب الزواج لأهمية الأساليب السابقة على الجماع pre - coital في العلاقات الزوجية الجنسية ويرى الجيل الحديث أن هذه الخبرة السابقة على الزواج قد تسهم بعض الشيء في تنمية علاقات مرضية . فالتربية إذن هو توفيق يقوم على تقبل شريعة code (تجنب العلاقات السابقة على الزواج والاحتفاظ ببيكاره أو عفاف الفرد) . فلهذا أهمية أساسية في أخلاق الطبقة الاجتماعية العليا .

ولا تشارك الجامعات التي لم تتعلم تعليما عاليا ، وخاصة أدنى المستويات التعليمية في هذا الأساس القوي ضد العلاقات الجنسية السابقة على الزواج . ولكن يغلب عليها بدلا من هذا تقبل مثل هذه العلاقات على أنها طبيعية . ومرغوب فيها . ويتجه تحريمها نحو أى بديل للجماع البسيط المباشر . ويتضمن التربية أساليب متنوعة غير مقبولة تماما من المستويات الأدنى . وينظر إليها على أنها غير أخلاقية وغير طبيعية وغير مرغوب فيها منحرفة وشاذة ، ولا يدخل السؤال الأخلاقى من ناحية أخرى كثيرا في اعتبارها .

ويسلم بالجماع قبل الزواج على وجه الخصوص إلى حد يتفاوت كبرا وصغرا . وكما يبين كنزى لقد كان الجماع قبل الزواج شائعا تقريبا بين الجماعات التي لم يتعد تعليمها المرحلة الأولى . بحيث أننا عجزنا في يثنتين محليتين مستواهما منخفض عن أن نجد ذكرا واحدا لم تكن له علاقات جنسية مع البنات حين بلغ السادسة عشر أو السابعة عشر من عمره .

ويحتذى النمط الذي حددته العلاقات الجنسية قبل الزواج في كثير من الحالات في الصلات الجنسية بعد الزواج . ففي المستويات الاجتماعية الدنيا تكون العلاقات الجنسية غير الزوجية بعد الزواج مقبولة بدرجة كبيرة على أنها طبيعية ومألوفة وتبدأ تقريبا من اليوم الذي يتم فيه عقد القران . وبالتدريج يمضي السنوات تتناقص العلاقات الجنسية بغير الزوجة أو الزوج وجرى الحوادث مختلف تماما بالنسبة للذين تعلموا تعليما جامعيًا وتؤدي ممارستهم لهذا السكبح أو القمع للعلاقات الجنسية المثلية لعدد من السنوات إلى محافظتهم على القمع الجنسي في العلاقات الزوجية . وتميل علاقاتهم غير الزوجية إلى التناقص نسبيا . (وقد تنشأ حقيقة صعوبات كثيرة بسبب هذا السكبح في تكوين علاقات جنسية مشبهة مع الزوجه . ويحدث هذا بكثرة . وقد يمضي الزوج في ممارسة عادة الاستمناء حتى أثناء علاقته الزوجية) ويمضي السنوات تسكر مزات الاتصال الجنسي بغير الزوجة بين من تعلموا في الجامعة حتى تصل قمة هذا التزايد وهم في الخمسين من أعمارهم أو بعد ذلك .

وهكذا نجد الاتجاه عكسيا مباشرة حين نقارن جماعات الطبقة العليا بجماعات الطبقة العاملة .. فجماعات الطبقة العليا تبدأ بالسكبح والتمسك بالمثل العليا للبكارة أو العذرية ، وبالزوجة الواحدة ، وتميل إلى الابتعاد عن هذه المثل العليا فيما بعد في حياتهم ليمارسوا العلاقات غير الزوجية . ويميل الذكور من الطبقة العاملة إلى أن يبدأوا باحتقار المثل العليا التي تقضى بواحدانية الزوجة والبكارة وينشئوا عددا كبيرا من الاتصالات الجنسية غير

الزوجية ولكنهم عندما يكبرون ، يميلون إلى الاقتراب شيئاً فشيئاً من المثل العليا التي لم يعتنقوها في شبابهم .

والأرقام مهما كانت مشوقة في حد ذاتها ، إلا أنها لا تلقى قدراً كبيراً من الضوء على المفاهيم المختلفة للسلوك الجنسي السوى الذي يتمسك به أعضاء الطبقة المتوسطة والطبقة العاملة ، وعلى أية حال ، فإن الآراء التي يعبر عنها من قبلوا مقابلة شخصية في بحث كنزى تعلمنا الكثير عن اتجاهاتهم الجنسية المختلفة . وسنأخذ مثالنا الأول ، الاتجاه نحو العري والفروق الكبيرة في التسامح فيما يتصل بعري الأنثى بين الأمم المختلفة معروفة ، ويشير كنزى إلى وجود فروق مماثلة بين الطبقات المختلفة في نفس المجتمع . وهكذا يعتبر جميع المتعلمين في الجامعة من الذكور تقريباً أن العري مصاحب جوهرى للجماع ، وهم يجدون صعوبة في فهم أسباب تفضيل ذلك وهم بملابسهم . ومن ناحية أخرى ، نجد أن أقلية ضئيلة فعلاً من ذوى التعليم المحدود هم الذين يفضلون العري أثناء الجماع . فيعتبر العري بالنسبة لمعظمهم غير لائق أكثر من الجماع . ويذكر كنزى حالة ذكر مستهتر (زيرنساء) اتصل جنسياً بمدة مئات من البنات أكد أنه لم يضيع ماسنح له من فرص للجماع إلا في حالة واحدة حين بدأت الفتاة في خلع ملابسها قبل الجماع . ولقد بلغت من عدم اللياقة حداً يحول دون الجماع بها ١ .

ولقد ذكرنا من قبل اتجاهات مختلفة فيما يتصل بتربية غير الزوجة ، وهذه الاتجاهات أثارها في الحياة الزوجية ، حيث نجد أن الذكر الذي تعلم بالجامعة قد اقتنع من قراءته لكتب الزواج ، أن الأنثى تحتاج إلى استشارة حسية وافرة إذا أريد أن تصل إلى سورة الشهوة مع الذكر خلال الجماع ، وعلى هذا نجده ينغمس في نشاط تربيتي مستفيض . ونجده بين المستويات الدنيا حداً أدنى من هذا اللعب الجنسي ، حيث يعتبر كثير من الأشخاص أن الإيلاج ، Intromission هو النشاط الجوهرى المسوغ في علاقة جنسية

سوية . ومن المشوق أن كنزى يستنتج من الأرقام المبدئية عن السلوك الجنسي للنساء ، أنه على الرغم من تمسك الذكور من الطبقة العليا بما توصى به كتب الزواج ، فإن نساء الطبقات الدنيا يحسنن بالسورة الجنسية المشبعة في الجماع مرات أكثر من غيرهن . إن التقييل كأسلوب شبق أكثر شيوعاً بين جماعات الطبقة الوسطى ، وينظر أفراد الطبقة الدنيا إليه بشيء من عدم الاستساعة ويشيع التقييل العميق بين من تعلموا في الجامعة رغم أن مضامينه الصحية عقبة تحول دون تقبله . وتتقبل الجماعة الاتصالات العملية في لعبها السابق على الرغم من أنها تعترض على استخدام أكواب شرب مشتركة . بينما نجد أن الرجال من الطبقة الدنيا يعتبرون مثل هذه الاتصالات الفمية قدرة ومصدراً للمرض ، على الرغم من أنهم قد يشربون من كوب مشترك معلق بجوار « مشربية » Water pail ، وقد يستخدمون آنية مشتركة للطعام والشراب .

وتظهر الطبقتان الاجتماعيتان مرة أخرى ، فرقا ملحوظا في اتجاهيهما نحو تنويع وضع الجماع . فالوضع الشائع وهو اعتلاء الأنثى الذكر في الطبقة العليا يعتبر شذوذاً بين المستويات الاجتماعية الأقل .

وليس هناك نقطة أكثر تشويقاً من النقطة التي يبرزها كنزى بوضوح كبير وهي أن الذكور الذين يتحركون من طبقة اجتماعية إلى طبقة أخرى ، أعلى أو أقل يميلون إلى اعتناق الممارسات الجنسية للطبقة التي يتحركون إليها ، بدلاً من ممارسات الطبقة التي يتركونها وراءهم ظهرياً . ويظهر هذا حقيقة مدى تعقيد نمط محددات مفاهيمنا للسواء ، ولا يمكن أن نستنبط على أي نحو بسيط أو مباشر كأن تقوم على العد والإحصاء أو تستند إلى مثل أعلى مجرد .

ولقد ناقشت مفهوم السواء مناقشة مستفيضة ، وحاولت أن أبين بوضوح بقدر الإمكان ، مبدأ النسبية الذي يسود في هذا الجو وأنه لا يوجد

مثل عليا مطلقة راسخة تحدد السلوك حتى في مجتمع واحد متقارب ولا يعنى هذا أنه لا توجد جماعات دينية وجماعات أخرى تعتق أراء راسخة جداً ، عما ينبغي أن تكون عليه المعايير الاجتماعية ، والحقيقة الفعلية هي أنه لا توجد مثل هذه المعايير العامة للسلوك . ومتى تحقق هذا فإن نتائج هامة تتبعه في ميدان العمل الاكلينيكي، وفي الخدمة الاجتماعية والممارسة القانونية . وما يحدث في هذه الميادين الثلاث من الناحية الجوهرية . هو أن الذكور والإناث من الطبقة العليا يضعون القاعدة . أو يحاولون مساعدة أبناء الطبقات الاجتماعية الدنيا وينصحونهم . وحينما يحاول أشخاص دربوا مهنياً أن يتنبأوا بسلوك أفراد من مستوى أقل ، قد تنشأ صراعات نتيجة لماهم من فلسفات جنسية مختلفة . وفي الممارسة الإكلينيكية ، مثلاً أي بالنسبة للأطباء وعلماء النفس ، والأطباء العقلين ، والمرضات ، والمحللين النفسيين ، ومستشاري الزواج وغيرهم ، يقوم العلاج والنصح والمساعدة في الناحية الجنسية في الأساس على مفاهيم عن الزواج والسلوك الجنسي تتفق مع المعايير التي نحصل عليها من المستويات الاجتماعية العليا التي يجيء منها المرشد . والتي قد لا تكون مناسبة على الإطلاق لمعايير المستوى الاجتماعي للشخص الذي توجه له النصيحة . ومن السهل أن نتخيل آثار النصيحة في عيادة لتوجيه الأزواج والزوجات ، تؤكد الحاجة إلى غزل وهزار قبل الجماع Pre-Coital وإلى تنوع في الأساليب ، وإلى استشارة قبل الاتصال الجنسي ، وإلى بعض التأخر بعد تحقيق هذا الاتصال وعندئذ تتم سورة الشهوة والقذف عند الذكر والأنثى في وقت واحد في النهاية . وعلى الرغم من أن مثل هذا النمط قد يكون سليماً في الجماعة التي ينتمى إليها المرشد ، إلا أنه بالتأكيد يعتبر شاذاً بالنسبة لمعظم أفراد المجتمع الذين توجه إليهم النصيحة . ويواجه المعلمون وغيرهم ممن يقوم بالخدمة الاجتماعية مشكلات مماثلة ويقتبس كينزي Kinsey حالة مدرسة تخرجت في الجامعة ، غير متزوجة ، أوصت بأن يرفت أحد تلاميذها من المدرسة عندما شاع أنه اتصل جنسياً

بأحدى البنات في الفصل وثبت هذا ، مما أدى إلى فضيحة علنية لكل من الفتى والفتاة . وكان من الممكن أن تقوم العملية بتصرف أفضل لو أنها أدركت أن أكثر من ١٠ التلاميذ في الفصل . لديهم خبرات جنسية مشابهة .

ونجد نقصا عاما في واقعية القوانين التي تضبط السلوك الجنسي . ويقدر كنزى أن القوانين الموجودة التي تتصل بالسلوك الجنسي لو أنها تنفذ بقوة وصرامة . فإن أكثر من ٩٥ ٪ من الذكور الأمريكيين سيودعون السجون . ذلك لأن نسبة صغيرة نسبيا من الذكور الذين أرسلوا إلى مؤسسات للعقاب بسبب مخالفات جنسية اقترفوها تخالف مادي سلوك معظم الذكور في المجتمع . وإذا طبق القانون إذن بكل مهابة . فإن ٥ في المائة من السكان سوف تعزل الباقين وهم ٩٥ ٪ .

ولحسن الحظ . أن رجال الشرطة وغيرهم يشاركون فيما يقع من احتكاك بين القانون والناس . وتتفق اتجاهات تربيتهم مع مايسود جماعات الطبقة العاملة من عرف ، أكثر من اتفاقها مع من دربوا في الجامعة . فهؤلاء هم الذين يصنعون القوانين وعلى هذا ينذر أن تنفذ القوانين التي وضعت ضد العلاقات الجنسية السابقة على الزواج . بالقوة لأنه يصعب على رجل البوليس أن يشعر أن جريمة ارتكبت حين يجد فتى يقوم بنشاط جنسي يعرف أنه شائع جدا عند الغالبية العظمى من المراهقين في بيئته المحلية .

وثمة مجموعة أخرى يجب أن تفكر تفكيرا عميقا في مضامين المفاهيم المختلفة لما هو سوى وما هو طبيعي . وهم أولئك الذين يكتبون كتبنا عن مستقبل الزواج وعن التوصيات التي تؤدي إلى تحسين وظائف هذا النظام الاجتماعي المقدس . وبعد أن درست أكثر من كتابين من هذه الكتب ، وقد كتب كثير منها رجال دولة بارزين أو فلاسفة مشهورون ، انتهيت إلى نتيجة أنها تقوم كلية تقريبا على الافتراض بأن جميع السكان ذوى نسبة ذكاء لا تقل عن ١٨٠ ، وقد حسن تعليمهم جميعا ، وأهمهم يتمسكون بمفاهيم أخلاقية

المختلفة دراسة مقارنة ، والطبقات الاجتماعية المختلفة في نفس الأمة ، بل والحيوانات المختلفة أساسية قبل تقديم أى مقترحات معقولة في هذا الميدان البالغ الصعوبة .

من المشكوك فيه أن يمضى بنا هذا الغرض المستنير المتأمل للحكمة التراكمية ، إلى أبعد من quigtrain المشهور الذى كتبه وليم جيمس عما رآه خلال حلم أثاره مخدر تعاطاه . رأى هذا الفيلسوف المشهور خلال تجاربه على الطرق المختلفة التى تؤثر فى الشعور ، وخلال هذه الحالات أو الأحلام أنه قد توصل إلى سر الحياة ، وسرعان ما كان يجد عند اليقظة أنه نسيها . مرة أخرى . ولقد عزم على أن يسطر الحلم مباشرة بعد استيقاظه ونجح فى هذا . وحين استيقظ أسرع ينظر إلى ما كتب فوجد أن سر الحياة كما سطره لم يعد أن الرجال يفضلون تعدد الزوجات بينما تفضل النساء الزوج الواحد . لقد أياسه هذا على الرغم ، من أن من الصعب أن ندرك السبب فربما نجد فى هذا القول من الحق أكثر مما يوجد فى معظم الكتابات الفلسفية .

وخطر مستشارى الزواج الحقيقى لا يقوم فى احتمال تقبل مقترحاتهم ، حتى الفتيان الذين تعلّموا فى الجامعات فى مجتمعاتنا (انجلترا) ودربوا ، يعرفون عادة ما يكفى عن الحياة ليتحققوا من عدم جدوى هذه المقترحات واستحالتها ومن الأمور الخفيفة أن نجد أن الجمهور والنقاد يرون ان الذين يعطون « وصفات » أو « روشات » الزواج اثناجح ليسوا فى حاجة إلى إلمام بالبيانات والحقائق والخبرات الشاملة فى هذا الميدان .

ولقد اتبعت اللجنة الملكية نفس الأسلوب فى دراستها لهذا الموضوع ، فجمعت عددا من التعبيرات عن رأى السائد والاتجاه الموجود بواسطة عدد كبير من الناس وعن طريق مجموعات مختلفة تهتم بالموضوع ، بدلا من أن تعين هيئة لبحث الموضوع من علماء الاجتماع وعلماء النفس والأطباء . (م ١٤ - علم النفس)

النفسيين لكي يبحثوا مختلف المشكلات ، ولكي يجمعوا ما يتوفر من أدلة معروفة عنه في الدراسات النفسية ، ولكي يدرسوا فروضهم ، ويقوموا بالبحث بحيث يمحض ويحقق هذه الفروض . ولا يعتبر ما يخص من مال ضئيل لمعهد للبحث يكرس جهوده لدراسة السلوك الانساني الجفسى واستكشافه ، سواء أ كان سويا أم غير سوى مضيعا يثير الحسد أو الضغينة ولا سيما حين تكون سعادة الانسان في خطر .

الفصل العاشر

آثار العلاج النفسي

إن كثرة حدوث الاضطرابات العقلية في الحياة الحديثة مخيفة حقاً . ويدرك قلة من الناس إدراكاً تاماً مضامين الاتجاهات الحديثة ، وتخصص نصف أسرة المستشفيات كلها تقريباً في بريطانيا والولايات المتحدة لمرضى يقاسون من الاضطرابات العقلية . فمن بين كل ٣٥ شخصاً نجد شخصاً يمرض مرضاً عقلياً بعض الوقت خلال حياته ، وفقاً لتقرير الأطباء ، كما نجد أنه قد رفض ١٤٪ من الأمريكيين ومن البيض ، المتعلمين الذين فحصوا قبل التحاقهم بالجيش الأمريكي لأسباب طبية نفسية ، وينبغي أن نضيف إلى ذلك العدد الكبير جداً الذي يقامى من انهيار عصبي نتيجة الحرب ، فحوالي ربع هؤلاء (والبعض يذهب إلى أن النسبة أعلى من هذا إذ تبلغ ٥٠٪) يترددون على الأطباء لأسباب جسمية في الظاهر مع أنهم يقاسون حقيقة تأو في الأسس من أمراض عقلية ، فلا عجب أن تشغل مشكلة شفاء هذه الاضطرابات والتخلص منها مكاناً بارزاً في الممارسة الطبية الحديثة .

وبينما نجد طرقاً معينة فعالة إلى حد ما في العلاج إلا أنها استبعدت في الاقطار الديمقراطية الحديثة على اختلافها ، فمثلاً لوحظ أنه حين يوضع العصايون في معسكر للأسرى (Concentration Camp) تميل كثير من أعراضهم إلى الاختفاء . وذلك لأن الخوف المباشر من الموت يسيطر على كل حيلهم الدفاعية المستيرية وعلى أنواع القلق لديهم . ويحتمل أن يكون هناك ارتباط إيجابي بين حدوث العصاب وبين ثراء البلد اقتصادياً . ففي الولايات المتحدة قد أصبح من المستحدثات والموضة ، المقبولة أن يكون للفرد اضطراب عصبي ، وينظر بتحقير إلى الشخص الذي ينتمى إلى

الفئة العليا من الطبقة المتوسطة إذا لم يتكلم عن محله النفسى بأنه نصحه بهذا أو ذاك من النصائح وما شابه ذلك الخ .

ومن الصعب بطبيعة الحال إلى حد ما أن نحدد مقدار انتشار العصاب في بلد دون أن تحدد كفاية الخدمة الطبية فيه ، فقد ينظر إلى الاضطرابات العصبية في قطر متأخر أو قد تشخص باعتبارها اضطرابات جسمية ومن ثم يعتقد أن العصاب في هذا القطر أقل منه في أقطار أخرى حيث يكون الأطباء أكثر يقظة ووعيا بالمرض النفسى . وهذا يجعل من الصعب جدا اجراء أى نوع من المقارنات الدقيقة بين قطر وآخر ، أو بين الاتجاهات داخل القطر الواحد . ومهما يكن من شئ فليس هناك شك في ضخامة المشكلة فكثير من الناس ينظر إليها نظرة خاطئة ، فيميلون إلى النظر إلى العصابين على أنهم مختلفين في النوع عن الأسوياء اختلافا تاما ، مثلهم مثل الشخص الذى كسر ذراعه ، أو أصيب بالسرطان فهو مختلف عن الشخص الذى لديه هذا التشويه أو ذاك المرض . وهذه نظرة للمشكلة قبل عليه نظرة تذكرنا على نحو ما بالفكرة البالية في المجال العقلى التى مؤداها أن الناس إما عباقرة أو ضعاف عقول أو غاديون . وأنهم يقعون فى فئات منفصلة لا تتداخل الواحدة منها مع غيرها على أى نحو . ونحن نعرف أن هذا غير صحيح وأن الذكاء عامل متغير مستمر يتراوح من ضعيف العقل إلى أعلى العباقرة ، ولا يعتبر العصابي بالمثل منعزلا عن بقية الناس ، فهو ببساطة يقع فى نهاية توزيع مستمر يتراوح بين المتزن تماما والشخص الناضج انفعاليا ويمر بالمتوسط إلى غير الناضج غير المتزن إلى من عنده استعداد أو إمكانية العصاب . ولو تعرض معظم الناس لضغوط كافية لأصيبوا بالهيار وكونوا مظاهر تصببية . والشخص الذى يقع فى الطرف غير الناضج غير المتزن ، يكون أكثر تعرضا للانهيار العصبى فى ظل إثارة ضئيلة بينما يستطيع الشخص الذى يقع فى الطرف الآخر من التوزيع أن يقابل ضغوطا متنوعة قبل أن ينهار .

ويترتب على هذا أن الذين يقاسون من الاضطرابات العصبية بدرجات مختلفة جزء من المجتمع العام وليسوا منفصلين في مؤسسات . وتدلنا الأبحاث المستفيضة في غير ما شك كثير على أن عينة متوسطة من الأفراد سوف تحتوى على ١٠ ٪ يقاسون من اضطرابات انفعالية حادة و ٢٠ ٪ أخرى أو ما يقرب من ذلك يقاسون من أشكال أخف قد تكثر من زياراتهم إلى طبيبيهم وتقل من توافقهم الاجتماعى وفى الزواج والعمل . هذه هى الحقائق فيما يتصل بحجم المشكلة . هل يستطيع العلاج النفسى أن يصنع شيئاً ليخلص الناس مما يقاسون من اضطرابات عصابية من هذا النوع أو ذلك ؟ لقد يعرف العلاج النفسى على أن ارتياد منظم مباشر للعمليات العقلية للمريض العصابى بوسائل لفظية لكى تساعد على تحقيق تكامل شخصى واجتماعى أكبر . وهناك صورتان أساسيتان للعلاج النفسى الصورة الفرويدية أو التحليل النفسى والطرق الأخرى التى يستخدمها الأطباء النفسيون غير الفرويديين والذين تنفوت طرقهم فى التوفيق بين المذاهب المختلفة شدة وقلة . وقد استخدمت الطريقتان استخداماً كبيراً جداً ويتوقع المرء نتيجة لمعالجة مئات الآلاف من المرضى الذين يعالجون كل عام أن تتوافر لدينا الآن نتائج تفصيلية عن فاعلية الصور المختلفة للعلاج ومسح الكفايات النفسية يكشف عن عدد من الحقائق المشوقة .

وثمة عدد كبير من التقارير وضعتها المستشفيات والأطباء النفسيون تتضمن بيانات عن أبحاث تتبعية لمرضاهم . وتكتب نتيجة العلاج عادة على النحو التالى : شفى - تحسن كثيراً - تحسن - ولم يتحسن هذا على الرغم من أن التقارير تستخدم أحياناً ألفاظاً أخرى . وهناك محاولة ضئيلة من جانب المؤلفين فى غالبية الحالات لأن يعرفوا ما يقصدونه بالضبط من هذه الألفاظ والحكم بانطباق هذا أو ذلك على المريض حكم ذاتى إلى حد كبير وينبغي أن تلاحظ هذه النقطة بعناية لأنها تدل على أن هذه الأحكام يمكن أن تقبل .
يتم حفظ كبير ولا يمكن بغير ذلك

ولو اخذنا هذه النتائج على الناس قيمتها الظاهرة على أية حال فسنجد اتفاقا ملحوظا بين متوسط نسب الناقهين التي امدنا المؤلفون المختلفون بها وقد قرر الذين يستخدمون طرقا توفيقية ان حوالى اثنين من كل ثلاثة مرضى يستعيدون صحتهم او ينحدون إلى التحسن اما هؤلاء الذين يستخدمون التحليل النفسى فإنهم يقررون ان حوالى نصف حالاتهم فقط شفيت ويرجع هذا جزئيا إلى حقيقة هي ان جزءا كبيرا من المرضى الذين يتلقون علاجا بالتحليل النفسى يميل إلى إيقاف العلاج وبناء على ذلك يجب اعتبارهم حالات مخففة . ولو حذفنا هذه الحالات لوجدنا أن نسب الناقهين ومن استعادوا الصحة بواسطة التحليل النفسى شبيهة بتلك التي حققها العلاج التوفيقى أى حوالى اثنان من كل ثلاثة ويبدو أن هذه الأرقام باعثة على الأمل فالعصابى الذى يجهل للعلاج لديه بالتأكيد فيما يبدو فرصة طيبة للشفاء..

وليس ثمة صعوبة على أية حال فى تقبل هذه الأرقام باعتبارها دليلا على فاعلية العلاج النفسى فنادج هذه الدراسات تتضمن المغالطة القديمة « بعد العلاج يحدث التحسن » ومن ثم يستنتج أن التحسن يرجع إلى العلاج وهذا الافتراض خاطئ بالتأكيد على الأقل جزئيا فقد لوحظ حدوث شفاء تلقائى من الاضطرابات العصابية بكثرة ونجد لدى كل مستشفى للأمراض العقلية قائمة انتظار طويلة من المرضى وأن بعض هؤلاء العصابين الذين طلب إليهم أن ينتظروا فترة ستة شهور أو أكثر حتى يتيسر لهم العلاج يقررون فى نهاية فترة الشهور الست بأنهم لم يعودوا فى حاجة إلى العلاج لأنهم استعادوا صحتهم استعادة كافية بدونه .

وعلى هذا فمن الواضح أننا فى حاجة إلى جماعة ضابطة ، أى جماعة من المرضى لا تعالج علاجا نفسيا ، ولكنها تشابه فى النواحي الأخرى العصابين الذين يعالجون . وتمدنا هذه الجماعة الضابطة إذن بأساس يمكن من طريقه مقارنة معدلات الشجفاء فى الجماعة التيبية ، أى فى الجماعة التى تتلقى

علاجاً توفيقياً أو علاجاً تحليلياً . ول سوء الحظ ، لا نجد واحداً من الأطباء النفسيين أو المحللين النفسيين الذين كتبوا لنا تقارير بنتائجهم قد استخدم مثل هذه الجماعة الضابطة ، ونتيجة لذلك ينبغي علينا أن نستشهد بدراستين تستخدمان كأساس لتقويمنا . وأول هاتين الدراستين تستخدم معدل التحسن في مستشفيات الأمراض العقلية بالولايات الأمريكية للمرضى الذين شخضوا على أنهم عصاةيون . فلم يتلق المرضى في هذه المستشفيات أى علاج نفسى بل مجرد حجزهم للرعاية custodial care وقد تلقوا أحياناً قدراً ضئيلاً جداً من العلاج النفسى فى العيادات الخارجية أو عيادات الاستقبال» ولكن هذا لم يكن كافياً لكي نضمنهم فى تعريفنا للعلاج بأنه الارتياح المنظم المباشر وثمة بعض الاعتراضات على استخدام الرقم كتقدير للشفاء التلقائى . فى المقام الأول ، لا يدخل العصاةيون مستشفيات الولاية ما لم يكونوا فى حالة سيئة حقاً لأن ازدحامها ، ونقص الأموال يحددان القبول بها بحيث يقتصر على الحالات الحادة جداً . ثانياً ، يلجأ إلى مستشفيات الولاية للأمراض العقلية عادة المرضى من مستوى اقتصادى وتعليمى منخفض ، ومن مكانه اجتماعية أدنى من المرضى الذين يقدمون إلى المستشفى الذى يدخله أعضاء جماعتنا التجريبية . وثالثاً ، اعتبار المريض الذى يسرح من مستشفى الولاية للأمراض العقلية لأنه شفى ، وهذا الشفاء لا يعادل بالضرورة فى معناه شفاء من يخرج من مستشفى خاصة لشفائه . فمعايير مستشفيات الولاية يحتمل أن تكون أقل شدة من معايير المستشفيات الخاصة . وقد نجد متى لاحظنا كل هذه التحفظات أن نسبة الذين شفوا أو تحسنوا فى هذه العينة مرة أخرى ، حوالى اثنان من كل ثلاثة ، أو أن النسبة أعلى قليلاً من تلك التى نجدها بين المرضى الذين تلقوا علاجاً نفسياً .

والأساس الآخر الذى حددناه قد يكون أكثر استحقاقاً للثقة . وقد اشتق هذا من ٥٠٠ حالة عجز يرجع إلى العصاب ، عولجت عند الأطباء

في الولايات المتحدة الأمريكية . ولقد أخذت هذه الحالات تباعاً من ملفات إحدى مؤسسات التأمين وقد مرض هؤلاء بالعصاب لفترة ثلاثة شهور على الأقل قبل أن تقبل دعاواهم خلال فترة الشهور الثلاثة هذه ، وأصبحوا غير قادرين على أن يمشوا في أى عمل يتكسبون منه أو يكافأون عليه طوال هذه الفترة . ولقد تردد هؤلاء المرضى بانتظام على أطبائهم للعلاج بواسطة المسكنات والمقويات والإيحاء والتشجيع ، ولم يحاول معهم أى علاج نفسى . ولقد أبدت عبارات الأطباء المتكررة ، والأبحاث المستقلة التى قامت بها شركة التأمين ، حقيقة عدم اشتغال المرضى بأى عمل منتج خلال فترة مرضهم . ولقد تلقوا خلال عجزهم ، فوائد عن العجز أو مساعدات ، وقد تكون حقيقة الدخل نتيجة العجز عائداً يمنع الشفاء . وكما يلاحظ واضح هذا التقرير الذى استقيمت منه هذه الأرقام ، لا يستطيع المرء أن يتوقع أن تكون النتائج للعلاجية فى مثل هذه الجماعة موالية . كما فى الجماعات الأخرى حيث يمكن أن يكون العامل الاقتصادى حافزاً هاماً على مساعدة المريض على أن يتكيف مع صراعه العصابى ومرضه .

ولقد تتبعنا جميع الحالات خلال خمس سنوات أو أكثر ، وفى حالات كثيرة تتبعنا المرضى فى فترة بلغت عشر سنوات بعد ظهور العجز . ولقد استخدمت الموازين التالية للشفاء ، وهى أكثر وضوحاً من تلك التى يستخدمها معظم الأطباء النفسيين والمحللين النفسيين فى عملهم أو على الأقل دقيقة مثلها : (١) العودة إلى العمل ، والقدرة على التكيف الاقتصادى على نحو طيب وباستمرار لفترة خمس سنوات على الأقل ، (٢) عدم الإقرار بأى مشكلات أخرى أو الإقرار بمشكلات طفيفة جداً ، (٣) القيام بتكيف اجتماعى ناجح . ولقد وجد باستخدام هذه المعايير أن ٧٣ ٪ من المرضى استعادوا صحتهم بعد عامين . وأن ١٠٥ ٪ أخرى ، ٤ ٪ على التوالى استعادوا

صحتهم خلال السنوات اللاحقة ، بحيث أن ٩٠ ٪ معاً برأوا بعد خمس سنوات . ولو أخذنا فترة العامين على أنها أكثر الفترات معقولة لأغراض المقارنة ، نجد مرة أخرى ، أنه في هذه العينة أيضاً ، اثنان من كل ثلاثة عصائين يشفون دون أن يستخدموا العلاج النفسى .

وهذه الجماعة الضابطة هي أيضاً ، بطبيعة الحال ، بعيدة عن أن تكون صحيحة تماماً ، فلا نستطيع أن نتأكد من أن الحالات التى نتناولها كانت مماثلة لتلك التى تكون الجماعة التجريبية . ومن ناحية أخرى فإن هذه الجماعة الضابطة تكمل الجماعة الأخرى لأننا الآن نتناول مرضى لم يعالجوا بالمستشفى باختيارهم كلية ، وجاءوا من طبقة اجتماعية واقتصادية عالية نسبياً ، وكان معظمهم مديرون . ومعلمون . وكتبة ، ومهنيون . وعلى نحو ما لذن ، تلغى عيوب إحدى العينتين عيوب الأخرى ، وتبقى الحقيقة أن تعطينا كلا من العينتين أرقاماً مماثلة للشفاء التلقائى .

ونجد من بين المرضى العصائين الذين عولجوا بواسطة التحليل النفسى أو العلاج النفسى التوفيق ، حوالى اثنين من كل ثلاثة يشفون ونجد ما يشبه هذا بين العصائين الذين يعالجهم الأطباء بطرق غير نفسية : أو أولئك الذين يحصلون على رعاية رقابية بسيطة إذ يتحسن اثنان من كل ثلاثة . ومن الصعب أن نفسر هذه النتائج على أنها تدعم على أى نحو الفرض القائل بأن للعلاج النفسى أثره المفيد . وهذه هي الحقائق : من السهل أن نأخذها بجد زائد وأن نستنتج أن العلاج النفسى لا أثر له على الإطلاق وسوف يكون من السهل بالمثل - ويبلغ من الخطأ ما تبلغه العبارة السابقة - أن ننبذها بقولنا أن البيانات الملخصة هنا خاطئة تماماً بحيث لا تستدعى اهتماماً جاداً . وهذه البيانات خاطئة ، ولكننا البيانات الوحيدة الموجودة . إذا كان علينا أن ننظر إلى أى تبرير للممارسات العلاجية النفسية الحديثة ، فإن علينا أن ننظر إليها . وإذا فعلنا هذا فإن النتيجة لا يمكن الهرب منها - لأنها تدل على أن العلاج النفسى لا قيمة له . بل إنها تحقق بوضوح فى إظهار أى نتائج إيجابية تترتب

على استخدامه . وما يزال في الامكان أن يكشف بحث أكثر دقة عن مثل هذه الآثار أو النتائج ولكن حتى يتم القيام بهذا البحث ، يجب أن ننهي بالتاكيد إلى حكم لم يثبت بعد بالبرهان .

وقد يكون من المشوق أن نتناول كيف يمكن أن ننفذ بحثاً أكثر صحة . أولاً وقبل كل شيء ، ينبغي بطبيعة الحال أن نصر على استخدام المجموعة الضابطة . أي مجموعة اختيرت على نفس الأساس الذي اتبع في اختيار المجموعة التي تعالج غير أنهم يتركون بغير علاج لفترة معينة . وهذا الشرط أسامى ، ولكنه كثيراً ما يشير اعتراضات تقوم على مبادئ أخلاقية : هل نستطيع نسوغ منع العلاج مهما كان مزعزع الأساس ومهما قل مانع فنه عن آثاره . في الشخص الذي يقاسى فعلاً في هذه اللحظة ؟ والمشكلة التي تثار مشكلة حقيقية . ولكن الإجابة لحسن الحظ يمكن أن تقرر دون أن نمسك بزمام المشكلة . إن لدى معظم المستشفيات قائمة انتظار طويلة على أية حال ، بحيث أن عدداً كبيراً من الراغبين في العلاج لا ينالونه في الحقيقة الواقعة وكل ما تتطلبه الطريقة التجريبية وما تقتضيه من دقة ليس هو حرمان الناس من علاج يستحقونه ، بل هو بالأحرى انتقاء دقيق يخضع لأسس اختيار العينات الإحصائية ، من بين هؤلاء الذين ما كانوا لينالوا علاجاً ما لفترة طويلة على أية حال . واعتبارهم مجموعة ضابطة في الدراسة العلمية المقترحة . ومن الضعب أن نجد اعتراضاً على هذا الإجراء يقوم على أسس إنسانية . وعلى هذه الأسس بالتاكيد لا نجد إلا مسوغاً ضعيفاً لأن نبعث الأمل في نفوس الناس . وندفعهم إلى أن ينفقوا وقتاً طويلاً ومالاً كثيراً في عمليات علاجية لا تعرف مدى فاعليتها .

ولو أننا سلمنا ، أن لدينا مجموعة تجريبية تخضعها للعلاج النفسي ومجموعة ضابطة . وقد اختيرتا على نحو بحيث تكون المجموعتان متساويتين في العمر ، ونسبة الذكور والإناث ، ودرجة التعليم ، والمكانة الاجتماعية - الاقتصادية ، وكذلك في نوع الاضطراب وشدة إذا كان ممكناً ، فإننا سنخضع

المجموعتين إلى بحث متعمق للشخصية بواسطة اختبارات نفسية وفسولوجية، وسوف نحصل أيضاً على تقديرات ذاتية عن أفرادهما فيما يتصل بسمات متنوعة مناسبة، وسوف نحصل على بيانات موضوعية تتصل بسلوكهم عن أقاربهم ومن المشرفات على أقسام المستشفى، ومن غيرهم ممن يختلطون بهم. وبعد أن تعالج المجموعة التجريبية، تدرس المجموعتان على نفس الأسس وتلاحظ الفروق بينهما باعتبار أنها ترجع فرضاً إلى العلاج النفسي وتأثيره.

ثم تعالج المجموعة الضابطة، في خطواته التالية، وتدرس مرة أخرى في نهاية هذه الفترة، وتقارن التغيرات التي حدثت للمجموعة خلال فترة العلاج هذه بالتغيرات التي حدثت في نفس المجموعة خلال الفترة السابقة التي لم تعالج فيها. وأخيراً تتابع المجموعتان خلال عدد من السنوات للدراسة آثار العلاج في المدى الطويل.

وقد مزرت في هذا المجلد المختصر مرورا خفيفا على ما قد يكون نقطة هامة في مثل هذه الدراسة، أعني التقويم الدقيق للشخصية وتغيراتها التي بدونها قد يكون البحث كله عديم القيمة. وقد يحدث التغير في المريض على أنحاء شتى، ومن المهم أن ندرس كل هذا قبل أن نستخلص أى نتائج وهكذا قد يشعر مريض بتحسن كبير. ولكنه يصبح مزجاً لأقاربه لا يطبقونه. وكثيرا ما يحدث هذا بعد أن تجرى عملية على فصوص المخ الأمامية فمن المستحيل إذن أن نعطي تقديرا شاملا لمدى الشفاء ونحن في حاجة إلى بحث أكثر تفصيلا ودقة لما حدث. إن تقارير الذات وملاحظة السلوك الاجتماعي من السهل الحصول عليها من حيث المبدأ على الرغم من أن الترتيبات المفصلة قد تحتاج إلى قدر كبير من المهارة الفنية وحين تعالج تغيرات الشخصية فإننا نحتاج إلى قدر كبير من الابتكار والبراعة.

إن الممارسة الشائعة هي أن يقدر الطبيب النفسي الذي يقوم بعلاج

الحالة هذه الصفات وهناك اعتراضات كثيرة هامة على هذا الإجراء . أولا . معروف أن هذه التقديرات غير ثابتة إلى درجة كبيرة . بمعنى أننا كثيرا ما نجد أن شخصين يقومان بهذه التقديرات مع تساويهما في الكفاءة والتعليم كثيرا ما يختلفان إلى درجة ملحوظة . ولكن التقدير غير الثابت لا يمكن أن يكون صادقا ولا نستطيع أن نقيم ما انتهى إليه من استنتاجات على مواد وبيانات غير ثابتة وغير صادقة . ثانيا . إن الطبيب النفسى الذى يعالج مريضا من مرضاه يصبح مرتبطا انفعاليا بنجاح علاجه أو إخفاقه ونحن لا يمكننا على الأقل أن تستبعد هذه العلاقة وينبغى أن يكون التقويم خلوا من امكانية تشويه لا شعورى من هذا النوع . ويتبع ذلك أنه ينبغى أن نجد طريقة أخرى لتقويم الشخصية ولا شك أن أصدق أنواع التقويم وأكثرها موضوعية هي الاختبارات الموضوعية وهذه الاختبارات غير مألوفة نسبيا عند معظم الناس الذين لا يعملون مباشرة في هذا الميدان وينبغى أن نكرس بضع كلمات لمناقشة الأساس المنطقي الذى تقوم عليه .

ماذا نعنى حين نقول إن شخصا ما قلق ؟ إننا نعنى أن حمرة الخجل تعلو وجهه لأقل إثارة وأن دقات قلبه تزداد تزايدا سريعا وترتعش يداه ويخف فخه ويختل هضمه وتستثار ظاهرات جسمية أخرى من هذا النوع أو ذلك بسهولة كبيرة وهذه هي الحقائق الموضوعية التى قد نشير إليها ونجد أنها على وجه العموم تنحوي إلى مصاحبة تقارير شفوية تفصح عن الخشية والخوف غتر المعقول أو المفهوم ويصبحها ميول اكتئابية وما شابه ذلك . وهناك علاقة وثيقة بين التقارير النفسية أو العقلية عن القلق والأعراض الجسمية . كما أن هناك تطابقا وثيقا بين التقرير اللفظي عن الشعور بالحرارة والقياس المادى الذى يزودنا به الترمومتر .

وحين نقارن مجموعتين من الناس ، إحداهما واضح أنها في حالة قلق شديد . والآخرى هادئة تماما ، وتشارك في إطار فكري موحد ، يمكن أن نشير بسهولة معقولة أن هاتين المجموعتين تختلفان في مقاييس موضوعية

كثيرة تقوم على الخصائص الفسيولوجية التي ذكرناها من قبل . وهكذا ،
لوقسنا سرعه دقات قلب الأفراد في المجموعتين في ظروف مريحة ، وبخفة
أطلقنا رصاصة فارغة في الهواء ، فسوف نجد تزايداً سريعاً جداً في دقات
قلوب المجموعة القلقة أكثر مما نجد عند المجموعة غير القلقة ، وسوف تكون
العودة إلى المعدل المألوف أقل سرعة في المجموعة القلقة . وبالمثل . إذا
قسنا التوتر العضلي في هاتين المجموعتين . بينما تنشغلان في عمل عقلي مضى
فإننا نجد توتراً عضلياً أكبر عند المجموعة القلقة منه عند المجموعة
غير القلقة .

وبالمثل يمكن أيضاً أن تمرر تياراً كهربائياً ضعيفاً خلال راحة يدهؤلاء
الأفراد ونسجل ما يحدث من مقاومة لمرور التيار في الجلد : وتغير هذه
المقاومة مع الاستثارة الانفعالية : ولو سألنا المفحوصين سؤالاً مخرجاً :
أو طلبنا إليهم أن يضعوا أيديهم في إناء مليء بالماء المثلج . أو حذرناهم من
أنهم سيتعرضون مباشرة لصدمة كهربائية فإن نقصان مقاومة الجلد في
المجموعة القلقة يحدث على نحو أكثر مما نجد في المجموعة غير القلقة .
وتستغرق المقاومة لديهم وقتاً أطول حتى تعود إلى الحالة العادية .

وهناك بعض الطرق الموضوعية الأخرى التي يمكن بها أن نقدر سمة
كالقلق وثمة طريقة أخرى أصبحت أكثر أهمية في الأعمال الحديثة وهي
الأفعال المنعكسة الشرطية . ومبدأ الفعل المنعكس الشرطي مألوف لدى
معظم الناس في الوقت الراهن على الأقل ، قدم قطعة من اللحم إلى كلب
فيسيل لعابه . دق جرساً دون أن تظهر اللحم فلن يسيل لعاب
الكلب ، ولو أنك دققت جرساً قبل أن تعطى الكلب اللحم وكررت هذا
عدداً من المرات ، فإنك ستجد أن الكلب في النهاية يفرز لعابه حين تدق
الجرس حتى دون أن تعطيه أى لحم . إن المثير غير الشرطي وهو اللحم
بارتباطه دائماً بالمثير الشرطي وهو الجرس ، قد انتقلت قوة تأثيره لتثير
الاستجابة وهي سيل اللعاب — عند الحيوان إزاء المثير الشرطي .

والإشتراط أكثر صعوبة في إحداثه عند الانسان ، ويشيع استخدام طريقتين بهذا الصدد وهما الفعل المنعكس إغماض الجفن وهما يسمى المنعكس السيكو جلفاني . ويحدث إغماض الجفن عل نحو طبيعي حين يصيب العين تيار هواء مندفع ويمكن أن يقاس إغماض العين بدقة إما بتصوير جفن العين على فيلم مستمر أو يلصق خيط بجفن العين يحرك قلبا يتحرك على سطح من الورق يغطي اسطوانة تدور . ويدق جرس قبل احداث الهواء المندفع . وتكرار هذا من الممكن في النهاية أن يحدث إغماض العين كاستجابة للمثير الشرطي - الجرس ، حتى بعد حذف المثير غير الشرطي - وهو الهواء المندفع .

سبق أن ذكرنا من قبل أن الفعل المنعكس السيكو جلفاني هو نقصان مقاومة الجلد لمرور تيار كهربائي نتيجة لاحداث مثير يستثير الانفعالات . ويمكن أن يشرط هذا بسهولة على النمو التالي . اعرض على الشخص سلسلة من الكلمات ، كل واحدة على حدة . كلمة مثل بقرة تتكرر على فترات زمنية غير منتظمة في هذه السلسلة . وكما ظهرت كلمة بقرة تعرض الشخص لصدمة كهربائية تثير الفعل المنعكس السيكو جلفاني . وبعد فترة ، يصبح لظهور كلمة بقرة بذاتها أثر هو لاحداث وإظهار الفعل المنعكس السيكو جلفاني .

أن الاشتراط متصل بالقلق لسبب بسيط هو أنه قد ظهر بما لا يدع مجالاً للشك أن السهولة التي بها يتكون الفعل المنعكس الشرطي تعتمد إلى حد كبير على قلق الشخص الذي تجرى عليه التجربة ، وتكون الأفعال المنعكسة الشرطية عند القلقين من الناس بسهولة أكبر من تكونها عند غير القلقين . وفضلا عن ذلك ، فهناك قدر كبير مما يسمى " تعميم المثير " ، عند القلق ، يشير إلى ميل الانعكاسات الشرطية لأن تحدث حتى على الرغم من أن المثير الشرطي قد يختلف قليلا عن المثير

الشرطي الأصلي . فإذا كان سيل لعاب الكلب مشروطا بصوت تردده ٢١٦ ذبذبة في الثانية ، فإن الكلب يستجيب بسيل اللعاب اذا حدث صوتا فجأة تردده ٣٤٠ أو ٥٨٠ ذبذبة في الثانية وكلما زاد اختلاف الصوت الأصلي عن الصوت الجديد ، كلما قلت الاستجابة الشرطية حتى لا نجد استجابة على الإطلاق في النهاية حين يصبح الاختلاف كبيرا . فهناك اذن مراتب من مشيرات تشابه المثير الأصلي مشابهة كبيرة ، وتحدث استجابة قوية إلى مشيرات تخالف المثير الأصلي بدرجة كبيرة ، وقد تحدث استجابة ضعيفة أو لا تحدث استجابة على الإطلاق . وهذا التدرج بطيء جدا عند الأشخاص غير القلقين عنه عند القلقين منهم . وبعبارة أخرى : يستجيب الشخص القلق إلى مشيرات مختلفة تماما عن المثير الأصلي بنفس القوة تقريبا التي يستجيب بها لمثيرات تماثل المثير الأصلي ، بينما نجد غير القلق يميز بينها تمييزا كبيرا .

ويظهر النقص في التمييز عند الشخص القلق أيضا في أنواع مختلفة من تجارب الاشتراط حيث يشترط الشخص لكي يتوقع صدمة كهربائية بعد سماع صوت ا ، ولا يتوقعها بعد سماع صوت ب . ويمكن تكوين هذا التمييز عند الشخص غير القلق بسهولة بحيث أنه بعد فترة وجيزة نجد تناقضا في استجابة الجلد بعد سماع الصوت ا ، لا نجد مثل هذا التناقض بعد سماع الصوت ب . وهذا التمييز أيضا أكثر صعوبة في تكوينه عند القلق الذي يستجيب لكلا الصوتين بنقص شديد في المقاومة :

وأنا لا أقصد بطبيعة الحال ، هنا بالتمييز ، التمييز الشعوري . فإذا سألت شخصا قلقاً ما إذا كان الصوت ا يختلف عن ب ، فإنه يجيب إجابة صحيحة . مثله مثل الشخص غير القلق تماما ، فقدراته الإدراكية ليست سبب صعوبته . وقد ظهر هذا بوضوح في تجربة حديثة عن الاستجابات لمثيرات لا تدرك إدراكا كافياً أو تاما Subception . يعرض الباحث في هذه التجربة عشر

كلمات على مفحوصة بترتيب جزائي، مستخدما للتاكتيكوب وهو آلة تعرض بطاقات أو شرائح أو صوراً في فترات زمنية وجيزة. ويحدد الزمن على نحو لا يستطيع معه المفحوصون دائماً تمييز الكلمة المعروضة ولا أن يدققوا في ملاحظتها. ومتى تحددت السرعة التي عندها يستطيع المتحوص أن يستجيب استجابة صحيحة بعض الوقت، يشرط الباحث الاستجابة السيكو حلقانية لخمس كلمات ويترك الأخرى ثم يعرض بعد ذلك الكلمات العشر على نحو عشوائي على المفحوص سائلاً إياه: أي هذه الكلمات سبق عرضها عليه، والنتيجة المشوقة والهامة في هذا البحث هي أنه عندما تعرض الكلمة التي تم تكوين فعل منعكس سيكو حلقاني إزاءها. كثيراً ما تحدث الفعل المنعكس، وعلى الرغم من أن الشخص يقرر أن الكلمة التي رآها إحدى الكلمات التي لم تشرط. وبعبارة أخرى على الرغم من أن الشخص مخطئ على المستوى الشعوري، وأنه يتناول كلمة محايدة، إلا أن جهازه العصبي يستجيب استجابة صحيحة للكلمة كثير شريطي. وهكذا يظهر التباين الواضح بين التقرير الشعوري والاستجابة الانفعالية غير الشعورية، الذي نجده المرة بعد المرة في استجابات العصايين والقلقين.

وبعد هذا الاستطراد يجب أن نعود إلى سؤالنا الأصلي. لقد رأينا أنه ينبغي أن يستبعد تقرير الطبيب النفسي عن التغيرات التي تطرأ على قلق مرضاه لأسباب مختلفة وينبغي أن يستخدم بدلاً من هذا طرقاً موضوعية كذلك التي ذكرناها من قبل يجب أن تحدد استجابات المرضى للضغط والاحباط تلك التي تظهر في ردود أفعالهم التوتيرية وفي ردود الأفعال الأوتونومية Autonomic. (الجهاز العصبي المستقل جزء من الجهاز العصبي الانساني يتناول على نحو خاص جهاز التنفس، ودقات القلب، والدورة الدموية، والهضم وارتباط ارتباطاً وثيقاً بالاستجابات الانفعالية والتعبير عنها). وينبغي أن يبحث المعدل الذي عنده يكونون الأفعال المنعكسة الشرطية، والدرجة التي بها يحدث

تعميم المثير ومدى ما يلحق بالتمييز من ضرر أو خال وهذا قليل من كثير من الطرق الموضوعية التي يمكن أن نستخدمها لهذا الهدف وليس من الضروري أن نعرض قائمة كاملة لكي نظهر ما يمكن أن يتم وفق هذه الخطوط والاتجاهات إذا أردنا أن نبحث الفرض القائل بأن درجة قلق مرضانا تقل قلة ذات مغزى نتيجة للعلاج النفسي .

ولقد ناقشت عن قصد عرضاً واحداً خاصاً ، وما يصدق على القلق يصدق على سمات وأعراض أخرى كثيرة قد يفترض أنها تتغير نتيجة للعلاج . وفي كل حالة نبدأ بفكرة يغلب عليها الغموض عن ماهية ما نبحث عنه ، ثم تعدل الفكرة الغامضة وتحسن وتفصل في محاولة لتحقيق تعريف إجرائي لها أي تعريف على أساس عملية تجريبية محددة يمكن أن يعيدها آخرون لينتموا إلى نفس النتيجة ، وبالتدريج نجد اللفظ الذي بدأ بنوع من التقدير ذاتي جداً يأخذ صفات التعريف الدقيق والقياس الذي يميز الاستخدام العلمي .

ما مدى احتمال أن قياساً موضوعياً من هذا النوع سوف يكشف أي آثار ملحوظة للعلاج النفسي ؟ ثمة دليل طيب يوحى بأن الاستجابات العصائية تقوم إلى حد كبير على أساس ورائي وأن تعرض الشخص للانهيار العصبي تحت الضغط خاصة لجهازه العصبي ، وليس من المحتمل أن يتأثر بالعلاج النفسي إلى أي درجة ملحوظة . ويعارض هذا الرأي تعاليم الاتجاهات النفسية المعاصرة التي تتبع الخطوط الضرورية ، والتي تدعى كما هو معروف ، أن العوامل الهامة في خلق العصاب أحداث بيئية تحدث في الأساس في دائرة العائلة ، وخاصة في السنوات الخمس الأولى من الحياة . ويقوم كثير من التعصبيه لهذه النظرة الفرويدية على مغالطة ، لها تاريخ محترم في علم النفس . وقد وجد في الجزء الأول من هذا القرن أن هناك ارتباطاً ملحوظاً بين ذكاء الآباء وذكاء أبنائهم . وأدى هذا بالقاتلين بالوراثة إلى المجادلة بأن الذكاء يجب أن يكون وراثياً ، لأنهم رأوا بوضوح أن الأطفال كانوا مشابهي لآبائهم

(م ١٥ - علم النفس)

في الذكاء بالوراثة . ويستخدم دعاة البيئة ، من ناحية أخرى نفس النتائج ليعضدوا دعاويهم بقولهم إن التشابه في الذكاء بين الآباء والأبناء يرجع في وضوح إلى حقيقة أن الآباء الأذكاء زودوا أطفالهم ببيئة مثيرة ، بينما زود الآباء الأغنياء أطفالهم ببيئة غنية . ولقد استلزم الأمر مضي عدة سنوات قبل أن يتحقق كلا الجانبين من حقيقة هامة هي أن التشابه بين الآباء والأبناء في حد ذاته حيادي فيما يتصل بالسؤال الخاص بالوراثة والبيئة .

ويبدو على أية حال ، أن المحللين النفسيين الذين ما يزالون يدعون في مجال نمو الشخصية أن هذا الارتباط يتضمن تنبأً علياً محمداً لم يتعلموا هذا الدرس . وهكذا يعتقد الفرويديون ، مثلاً ، أن نظرة تشاؤمية معينة تسببت عن فطام مبكر بينما يحدث الفطام المتأخر تفاؤلاً عند الطفل . وثمة بالضرورة دليل يظهر أن بعض هذا الارتباط موجود . وأن الأطفال الذين فطموا مبكراً يميلون إلى أن يشبوا متشائمين ومحافظين إذا قورنوا بالأطفال الذين يفطمون في سن متأخر وليس من الضروري على أية حال ، أن نفترض أن الفطام المبكر أي المؤثر البيئي هو الذي يحدث النمط السلوكي اللاحق . ومن الممكن بنفس القدر من الوجهة في الرأي أن نفترض أن أطفال الأمهات المتشائمات المكتئبات يميلون لأن يكونوا مثلهن ، وأن ترتب على هذا بأنه ميل موروث ، ومن الممكن أيضاً أن تميل الأمهات المكتئبات إلى التبكير في فطام أطفالهن . أو قد يعجزن عن أرضاعهم لفترة زمنية طويلة . وهكذا يمكن تفسير الظاهرة بالوراثة وبالبيئة بنفس السهولة . وما يصدق على هذه الحالة الخاصة يصدق بالتساوي على أمثلة أخرى كثيرة يسوقها الفرويديون ليدعموا بها فرضهم . والمطلوب هو الدليل المباشر بدلاً من التفسير ذي الجانب الواحد ذي النتائج الغامضة في جوهرها . ويبدو أن مثل هذه البيانات التي لدينا . وخاصة تلك البيانات المستقاة من دراسة التوائم المتماثلة والأخوة تعضد بقوة الرأي القائل بأن الوراثة تلعب دوراً بارزاً بالضرورة في أحداث الاضطرابات العصابية .

وهذا الرأي الذى ينص على أن الوراثة تحدد العصاب قد يعارض مناقشتنا المعدل البرء بين العصابين ، الذى حدث عن طريق العلاج النفسى أو بدونه . هذا المعدل الذى بدأ مرتفعاً بدرجة معقولة . ويمكن أن نسأل ، كيف يمكن أن يكون هناك أى نوع من الشفاء إذا كانت العوامل الوراثية هى التى تسبب العصاب ؟ والجواب هو أن المرء ينبغي أن يميز بعناية بين الاستعداد ، نحو العصابية neuroticism أى عدم الاتزان الانفعالى الموروث الذى يميل بالشخص إلى تكوين أعراض عصابية عند التعرض لضغط ، ويصاب فى النهاية بانهيار عصبي ، وبين العصاب Nurosis . وهو الذى ينتج عن فرض ضغط انفعالى على جهاز عصبي فيميل إلى الاستجابة لذلك عن طريق الحيل العصابية . وقد يظهر العصاب عند شخص كعدم اتزان انفعالى ضئيل نتيجة ضغط بيئي قوى مغرق وقد لا يظهر عند شخص آخر لديه استعداد شديد للعصاب لنقص الضغوط البيئية وثمة مقارنة واضحة بين الاستعداد نحو العصابية neuroticism والعصاب neurosis من ناحية وبين الذكاء والتعلم من ناحية أخرى . فالشخص البالغ الذكاء على الرغم من استعداده لأن يستجيب للتعلم استجابة متقبلة . إلا أنه قد يكون جاهلاً بسبب نقص التسهيلات التعليمية فى البيئة المحلية التى يعيش فيها . والشخص الذى قد يغلب عليه الغباء قد يكتسب اليسير من المعرفة عن طريق تدريب وتعليم خاص على الرغم من نقص قدرته الفطرية . وليس من المحتمل أن نغير العامل الفطرى عن طريق العلاج النفسى . أو أى أسلوب آخر لا يتناول الجهاز العصبي المركزى جراحياً . وقد نأمل على أية حال أن تخفف الضغط البيئى الذى يثير الاستعدادات الكامنة ويجعلها حادة . كما نأمل أن نحسن الإمكانيات التربوية التى يحول نقصها دون وصول كثير من الناس إلى المستوى التربوى الذى تؤهلهم له قدراتهم الفطرية .

الفصل الحادى عشر

التحليل النفسى والعادة والاشراط

منذ سنوات طويلة ، لم يوجد إلا معارضة قليلة لما يدعيه المحللون النفسيون من أن نظريتهم هي الوحيدة التى تفسر ظهور الأعراض العصابية وتكوينها ، وأن علاجهم هو النوع الوحيد المقبول من العلاج . وبينما يضيق الأطباء النفسيون عامة بهذه الدعاوى ، وبينما يحدث تقدم ملحوظ فى طرق العلاج الجسمى . إلا أن غالبية الاضطرابات العصابية ما تزال تعالج دائما تقريباً عن طريق أحد أشكال العلاج النفسى .

ولقد تزايد السخط وعدم الرضى فى السنوات الحديثة بهذا الموقف . ولقد كان اخفاق المعالجين النفسيين فى تقديم برهان على فاعلية عملياتهم الأمر الذى لاحظناه فى الفصل السابق ، عاملاً من بين العوامل الكثيرة المسهمة فى هذا السخط . وجاء نمو نظرية التعلم السيكلولوجية الراسخة كعامل آخر ، يقدم تفسيراً آخر بديلاً لتفسير فرويد لكثير من ظاهرات العصاب . وحتى وقت قريب جداً ، لم يؤد هذا الفرض البديل إلى وسائل فعلية عملية ، وترتب على ذلك أن ليس فى الامكان عقد مقارنة بين الاتجاهين مباشرة . غير أنه فى السنوات الأخيرة ، حدث تقدم ملحوظ فى اتجاه التعلم ، . ولكنى نوضح هذا بمثال يمكن أن ننظر إلى الطريقة الجديدة فى تطبيقها على مشكلة ضابقت الإنسانية سنوات كثيرة ، تبلغ فى الحقيقة آلاف السنوات وهى مشكلة البوال أو التبول اللا ارادى enuresis .

ولقد كتب پلبنى Pliny من قبل عن اهتمام القدماء العظيم بظاهرة الاسراف فى التبول ، ويخبرنا بأن أكثر الأدوية الشعبية شيوعاً لهذا المرض هو أطعام الطفل المصاب فيرانا مطهورة . واشتملت أنواع العلاج الأخرى

على ارتداء قميص نسائي لطيف عند التعميد وتناول سوس خشب وبول
خنزيرة استئصل مبيضها . وتجد هذه الطرق القديمة بعض الشيء ، ما يكملها
بفي تاريخ الطب الاكثر حداثة ، الذي يكتظ ، بتوصيات باستخدام عقاقير
يوهرمونات ، وأغذية خاصة ، وحقن ، وعمليات ، ومثيرات كهربية وغيرها ،
وتوصيات متنوعة مثل النوم على الظهر ، وعدم النوم على الظهر ويبدو أن
هذه الطرق تفيد حتى نقطة معينة . أولئك الذين يعتقدون فيها ، غير أن
نجاحها على وجه العموم كان ضئيلا نسبيا .

ولقد نجح فرويد كما يتوقع المرء ، في استخدام زاوية جنسية في دراسة
البوال ، ذاهبا إلى أنه ، كلما كان التبول غير ممثل لنبوة صرعية ، فإنه يتطابق
مع التنجيس . ولقد ذهب آخرون إلى أن البوال مظهر هستيري عن طريقة
تحولات أنواع القلق العميقة إلى عرض جسمي ، وقد أدت هذه الآراء وغيرها
من الآراء الطبية النفسية المشابهة إلى النظر إلى المشكلة على أنها نتيجة مؤثرات
ومحددات سيكولوجية ، ونتيجة لذلك نجد أن العلاج الآن يتم غالبا عن طريق
نوع من العلاج النفسي . ولا يتم التوصل إلى النجاح عامة ، في نسبة كبيرة
من الحالات ، اللهم باستثناء أن الاطفال بعد مضي سنة أو سنتين يميلون إلى
التخلص تلقائيا من الأعراض على أية حال وقد شفى أحد الأطباء النفسيين
الذي يرى أن البوال يتوقف كلية على ديناميات الشخصية ، ٥٠ في المائة من
الحالات التي عالجها نجح .

وسوف تكون نظرة هؤلاء الذين ينظرون إلى ضبط المثانة على أنها مشكلة
من مشكلات نظريات التعلم وأن البوال اخفاق في التعلم ، بخلافه . ولقد
جادل مورر مستخدما مبدأ الاشراف وقال هذا الاتجاه بأن امتداد المثانة
عند الصبي العصبي لا يؤدي إلى ايقاظه بل إلى ارتخاء العضلة العاصرة ، ومن
ثم إلى اطلاق البول . ويلزم ميكنزم يوقظ الطفل حين تمتلئ المثانة ولكن
قبل استرخاء منعكس العضلة العاصرة . ووفقا لذلك اقترح أداة صغيرة ،

تستغل الخصائص الكهربائية للبول . وتوصل الى عمل نوع من اللياديتكون من طبقتين من مادة ماصة ثقيلة تفصلان حاجزين من البرونز وهذه الأجزاء مربوطة ، خفيفة في الوزن ، تحمل ، ومرحبة للطفل لينام عليها . وعندما تكون الليادة (الفراش) جافة ، لا يكون هناك اتصال كهربائي بين الحاجزين وبمجرد أن يبل البول الفراش ، ينفذ بسرعة خلال المادة ويحدث هذا الاتصال دائرة كهربائية ، تدق جرسا ، يوقظ الطفل بدوره خلال تبوله . فيقوم الطفل إلى دورة المياه ليكمل التبول .

ووفقا لمبادئ الإشراف ، ينبغي أن يؤدي تكرار ارتباط امتداد المئات والايقاز لسماع الجرس إلى أن يكون الايقاظ نتيجة لتمدد المئات ذاته (المثير الشرطي) وحتى لو سحب الجرس (المثير غير الشرطي) ، ويتوقع إذن أنه بعد عدد من التكرارات ، يستيقظ الطفل قبل أن يحدث التبول وهذه الطريقة ، التي قد استخدمها فعلا آخرون قبل مورر منذ بداية القرن العشرين . قيل أنها تؤدي إلى نتائج بالغة الجودة . وقد قرر مورر أنه نجح في هذه التجربة مائة في المائة ، ويؤيد الآخرون الذين استخدموا هذه الطريقة فاعليتها غير العادية ، وقد نحت تغيرات الشخصية ، بقدر ما لوحظت ، إلى أن تكون تغيرات ايجابية سليمة ، ولم يظهر في أي حالة أي دليل على إبدال الأعراض . Symptom Substitution وهذا أمر هام لأنه قيل أحيانا أن أي محاولة للمعالجة مشكلة البوال مباشرة ، ستؤدي بالضرورة إلى إحداث نوع آخر من الأعراض عند الطفل .

ويشير مورر إلى أن الفرق في الاتجاه الذي يؤدي إلى قيام العلاج عن طريق الإشراف ، أو بالطرق الطبية النفسية على التوالي هي نقط الخلاف المستمر بين الكلاينيسكي والمربي . فالأخصائي المنشغل أساسا بالعمل العلاجي يجد أن آثار التربية السيئة واضحة جدا ، ويحتمل نتيجة ذلك ، أن يسمى النظر إلى ما يحدث من تدريب في التربية ويحتمل من ناحية أخرى ، أن

يعلى المربي باعتباره المسئول المفوض لكي يعمل على الحفاظ على القيم المقبولة والطرق التقليدية في الثقافة ، من أهمية عمله . وهذا الفرق في الاتجاه يؤدي بسهولة إلى اتهام الكلينيكي للمربي بأنه متوحش ساذق ، ويؤدي إلى اتهام مضاد من المربي للكلينيكي بأنه مثالي وغير واقعي وهذه مشكلة أوسع من أن تتناول هنا ، ويبدو أن هناك اتجاهات متميزة في الثقافة المعاصرة لاحتلال الكلينيكي محل المربي ، لا بسبب سياسة مقصودة شعورية وليس بسبب أن هناك حقائق تظهر تفوق طريقة على أخرى ، بل بسبب أسباب انفعالية وغير عقلية

ولدينا هنا مجال فسيح للبحث ، والحق أن المشكلة بالغة الأهمية لعالم النفس لأنها تتضمن السؤال الشامل د ما الذي يكون العصاب على وجه الدقة ؟ ، ويشير مورر مثلاً ، إلى أن كثيراً من العلاج النفسي الراهن قد أكد على افتراض أن العصاب ببساطة نتيجة سوء تعلم ، أو تعلم زائد ، وينفق وقت طويل وفقاً لذلك في محاولة جعل المريض « أن يختبر الواقع » أي أن يقوم بأداء س ، الأمر الذي اعتقد لفترة طويلة أنه خطر والذي يتحقق مع ذلك من أنه ليس خطراً ، ولیميز بين حينئذ والآن أي د أن يدرك أن الظروف قد تغيرت ، وأن الاتجاهات والمعتقدات ، والممارسات التي ربما كانت مسوغة في فترة مبكرة في تاريخ حياة المريض ، لم تعد ضرورية ولا مفيدة .

ويعارض هذه النظرة العامة ، تأكيد مورر لقصور تعلم العصابي أو عدم ملامته . فكما بين ، على الإنسان النامي أن يتقن قدراً هائلاً متراكماً من التعلم البديل والعوضي الذي نسميه ثقافة . وبعض عناصر الثقافة لا تخلق أي مشكلة لأنها تفيد في حل مشكلات مباشرة ، ولكن الثقافة تشتمل أيضاً على عناصر غير مرحب بها على الأقل في مراحل الحياة الأولى عند الإنسان . وهذه هي التوصيات الأخلاقية التي تلزم لاستمرار قيام الجماعة بعملها ،

والتي تبدو للطفل الصغير غريبة ولا وظيفة لها ، وإنما هي مجرد عوائق في طريق اشباعه ولذته . ومن وجهة النظر هذه ، تمثل الثقافة الكبيج والنبذ والتضحية . إنها تجبر العقل على أن يعيش في المستقبل لافي الحاضر ، والصعوبات في طريق تحقيق هذا التعلم عظيمة جداً ، والعصاى عند مورر هو الشخص الذى أخفق فى القيام بهذا التعلم والذى فشل فى تحقيق التكامل الذى يقوم على اكتساب وتعلم هذا التراث الثقافى .

إن الفرق بين هاتين النظريتين متميز ملحوظ ، ومن الضرورى أن نختار بينهما لأنهما تثيران مبادئ مختلفة لعلاج العصاى . فتفضل النظرة الفرويدية الجانب الكلينيكى ، بينما يفضل مورر الطريقة التربوية . وكل مالدينا من أدلة تجريبية لا يكفى لحسم الخلاف واختيار أحد الاتجاهين ، وربما تكون تجارب البوال هنا بالغة الأهمية أكثر مما هي فى الميدان العملى . ونجاح الطريقة التربوية ، والإخفاق الذى للطريقة العلاجية لا يمكن أن يعمم إلى مبادئ أخرى ، ولكنه يبين على الأقل أن هناك سندا من الحقيقة لفروض أخرى غير الفرويدية والمستمدة من التحليل النفسى ، وأنه ينبغى أن يبذل مجهود أكبر فى وضع علاج نفسى لا يقوم على فروض فرويد الخاصة التى ظهرت فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر .

ولقد تنبأت بشئ من التطويل البوال ، ولا ينبغى أن يعتقد أن الاشتراط قابل للتطبيق على هذا الاضطراب وحده . ويمكن أن نجد مثالا آخر للعلاج بالفعل المنعكس الشرطى فى مجال الإدمان على السكر . وفكرة قلب السعى للملح وراه شرب الخمر بواسطة طرق مقززة اصطناعية فكرة قديمة وإن ظهرت بشكل أو آخر ، ويمكن أن نقبس من بلينى Pliny مرة أخرى فى مناقشته لعدد من الطرق التى يبدو أنها استخدمت فى زمنه . وتقوم الطرق الحديثة على استخدام العقاقير مثل emetine hydro Chloride الذى يؤدى إلى غثيان وقى . ويتم الإشتراط كما يلى . يؤخذ المريض إلى حجرة ،

وترتب على نحو تحذف معه كل المثيرات المشوشة . ويعطى العلاج في الصباح لأن المرضى يستجيبون له على نحو أفضل عندما يكونوا صائمين ومستريحين . وبعد علاج مبدئي ، يحقن المريض بالاميتين ، وقبيل نوبة القىء المتوقع مباشرة ، يتعرض المريض لرؤية ورائحة وطعم أنواع المشروبات الروحية التي يفضلها في شرابه . وتستمر هذه الجلسات حوالى نصف ساعة ، وتكرر يومياً لمدة خمسة أو ستة أيام . وقد تبع ذلك ست جلسات علاجية وقائية في ستة أيام (تعزيز) وزعت على فترة زمنية يفصل كل منها عن الأخرى فاصل يتراوح بين أربعة واثني عشر أسبوعاً . وهكذا تستغرق العملية كلها ما يقرب من عام ، وفي بعض الأحيان تستخدم تعزيزات أخرى خلال السنة الثانية .

ويبدو تطبيق عمليات الاشرط هذه سليماً تماماً من الناحية النظرية . يرتبط المثير الشرطى ، الكحول ، بالمثير غير الشرطى ، حقن الاميتين ، وبعد تكرار الاستجابة غير الشرطية عدة مرات يميل القىء إلى الحدوث بمجرد تطبيق المثير الشرطى أى عند رؤية أو شم أو تذوق الكحول . ونتائج هذه العملية ، مشجعة وعلى العموم تفوق تلك التى حققها العلاج النفسى . وهنا أيضاً مجال آخر يمكن فيه أن تستبعد عادات راسخة بواسطة طريقة الاشرط وإعادة التدريب والتعلم .

والاشرط على أية حال ليس إلا طريقة واحدة من بين طرق كثيرة فى جعبة عالم النفس لكسر العادة . وهناك طريقة ثانية ، مرضية جداً حين يمكن تطبيقها ، وهى الإبدال . إذا كان من المرغوب فيه أن يتخلص من العادة أ ، من الممكن فى كثير من الحالات أن نبدل بها العادة ب ، وهى عادة حميدة . ولكنها تستخدم نفس الممرات الحركية التى تستخدمها العادة أ . ومن ثم تكفيها . ومن الأمثلة البسيطة جداً لهذا استخدام مضغ اللبان لى يتخلص من عادة التدخين فمن المستحيل أن تدخن فى نفس الوقت الذى تمضغ فيه لباناً ،

ونتيجة لذلك ، إذا كانت عادة مضغ اللبان ، مستقلة آلياً عدد السجائر التي تدخنها . وقد تحقق من هذا بوضوح منتجوا السجائر حين عرض اللبان في الأسواق لأول مرة ، وكانت استجاباتهم المنزعجة راجعة إلى هذه الطريقة في التخلص من العادة .

وهناك على أية حال ، سمات كثيرة غير مرضية تتصل بطريقة الإبدال في المقام الأول ، قد تكون العادة البديلة أسوأ من العادة الأصلية ، فكثير من الناس يعتبرون مضغ اللبان شيئاً غير مرغوب فيه أكثر من التدخين . وثانياً ، بعض الناس يستطيعون الجمع بين النشاطين ، اللذين يبدو أن متعارضين ، على الأقل نظرياً ، وأى انسان يرى شخصاً من رعاة البقر من تكساس ، يمضغ اللبان ، ويدخن ، ويتحدث ، ويأكل ويشرب ويسكى كل هذا في وقت واحد ، لا يثق في التعارض الفعلي بين هذه الأنشطة القديمة المختلفة . وفي المقام الثالث ، من الصعب جداً عادة أن نجد أى عادة تكون بديلاً يرغب فيه من يريد التخلص من عادة لديه . ولهذه الأسباب كلها ، نجد أن طريقة الإبدال ذات نفع محدود .

ويصدق عكس هذا تماماً بالنسبة للنوع الثالث . من ميكنزمات تحطيم العادة ، أعني الإيحاء . ولا يمكن أن يقال أننا نفهم فهماً جيداً على الإطلاق كيف يعمل الإيحاء ، ولكن هناك أدلة كثيرة تستند إلى حقائق تجعلنا لانشك على الإطلاق في قوته الممكنة . وقد تناولت إحدى هذه التجارب النموذجية فاعلية الإيحاء في التخلص من البثور إذا قورنت بالعلاج الطبي الأورثوذكسى . واستخدمت مجموعتان من الأطفال ، المجموعة الضابطة ، التي خضعت لعلاج عادى للتخلص من هذه البثور ، وخضعت المجموعة التجريبية للعلاج بالإيحاء . وتم هذا في الأساس برسم صورة ليد الطفل وعليها البثور على قطعة كبيرة من الورق ، ويقدر من الشعوذة ، برسم دوائر حول البثور وينقص حجمها في الصورة يوماً بعد يوم حتى اختفى البثور تماماً من الصورة . وهذا الاجراء ،

الذى يستخدم القابلية للإيحاء لا يقل عن الطريقة المشهورة التى استخدمها Tom Sawyer فى قصة Huckleberry Finn وجد أنه أكثر فاعلية من العلاج الطبى الأورثوذكسى . وقد تم التخلص من عدد من البثور استجابة للإيحاء فى المجموعات التجريبية أكثر مما تم التخلص منه بين أعضاء المجموعة الضابطة .

وليس من الضرورى أن يكون الإيحاء شعورياً ، لى يكون فعالاً . وثمة تجربة مشوقة شغلت بعض المفكرين . المعروف أن قضم الأظافر عادة تقاوم الانطفاء مقاومة خاصة . وفى هذه التجربة وضعت مجموعة من الأطفال الذين يقضمون أظافرهم معاً ، وقسموا جزافياً إلى مجموعة تجريبية ومجموعة ضابطة . ولم يفعل شىء مع أطفال المجموعة الضابطة ، الذين ناموا معاً فى حجرة كبيرة مجاورة لحجرة أخرى كبيرة كانت تنام فيها المجموعة الضابطة . ولاحظت المجموعتان خلال شهر لدراسة آثار العلاج فى المجموعة التجريبية . وكان هذا العلاج ببساطة هو جرامفون كهربائى يوضع بهدوء بعد أن يستغرق الأطفال فى النوم ، وكان يكرر باستمرار : لن أقضم أظافرى ، فقضم الأظافر عادة قدرة ، ولن أقضم أظافرى مرة أخرى ، وهكذا ، وكانت الأسطوانة لا تدار إلا بعد أن ينام الأطفال ثم توقف قبل أن يستيقظوا فى الصباح . ولم يقرر واحد منهم فى نهاية التجربة أنه سمع التسجيل على الإطلاق . ومع هذا كان هناك تأثير ملحوظ للإيحاء ، لأن عدد الذين تركوا قضم الأظافر من المجموعة التجريبية كان أكبر من حدث لديهم هذا فى المجموعة الضابطة . وهكذا يقارب الواقع الخيالات المسرفة الجامحة التى نجدها فى كتاب هكسلى ! Brave New World

وأكثر استخدامات القابلية للإيحاء شيوعاً ، على أية حال ، كانت وما زالت تنصل بالتنويم المغناطيسى ، وخاصة فى علاقته بظاهرة تعرف بالقابلية للإيحاء بعد التنويم . وهى ظاهرة غريبة جداً ، عرفت منذ ما يزيد على مائة سنة .

يوحي إلى شخص في حالة التنويم ، ويقال له أن ينفذ عملاً معيناً بعد أن يستيقظ ، وقد يكون الإيحاء أن يخرج من الحجرة ، ويلتقط مظلة ، ويحضرها ويفتحها أمام نظارة في وقت معين ، حين تدق الساعة الخامسة مثلاً ، أو حين يتمخط المجرب . وسوف ينفذ الشخص الذي نوم في كل حالة تقريباً ما أوحى إليه . وإذا سئل فيما بعد عن سبب قيامه بهذا الفعل ، فإنه يبرر هذا السلوك بنوع من التفسير شبه المعقول . وهكذا قد يقول مثلاً ، أنه بينما كانت المجموعة تتسكّم عن الخرافات ، تناولت المظلة وفتحتها في الحجرة حتى يظهر أني لم أكن اعتقد بالخرافات . وهذه الدوافع الزائفة تشوق أي فرد يعرف الدافع الحقيقي أعني أثر الإيحاء بعد التنويم ، لأن هذه الدوافع غير الحقيقية تشابه كثيراً من الدوافع التي يدلى بها الناس ليبرروا أعمالاً ، أسبابها الحقيقية لا شعورية بالنسبة لهم ، أو أسبابها شعورية ولكنها غير شريفة .

والحق أن هذه الإيحاءات البعد تنويمية قوية جداً ؛ في إحدى المرات نوم شخص لديه قدر ملحوظ من المعرفة بعمليات التنويم ، ونوم بموافقته ، وأخبر أنه في نهاية جلسة التنويم سيوقظ ، وبعد ذلك بعشرة دقائق سوف يتمخط المنوم المغناطيسي وعند صدور هذه الإشارة ، عليه أن ينهض من مقعده ، ويعبر الحجرة ويجلس على مقعد آخر ؛ وحين حان الوقت وتمخط المنوم المغناطيسي ، أحس الشخص بقلق غامض وقال في النهاية : التفت هنا أني أحس اجباراً واضحاً بأن أذهب إلى ذلك المقعد ، وأنا أراهن أنك أوحيت لي بعمل هذا بعد التنويم ، وأنا أوكد أني أكون ملعوناً لو أطعتك . وبعد ذلك ، أشرت في المناقشة دقائق قليلة وفي النهاية : وفجأة ؛ نهض واجتاز الحجرة ، وجلس في مقعد آخر وهكذا ؛ حتى حين يحاول شخص أن يحارب شعوره بالإيحاء بعد التنويم نجد أنه في النهاية قد يطيع الأمر مع هذا .

ولقد بذلت محاولات عديدة لاستخدام هذا النوع من الإيحاء في

التخلص من العادات - تنويم شخص ، واخباره أن منظر الكحول سيجعله يشعر بالغثبان والفرع في المستقبل ، وهذا يفيد فائدة مؤقتة : ولكن تتدهور قوة الإيحاء بعد يومين أو ثلاثة ويختفي أثره في النهاية تماما ، ويمكن المحافظة على هذا الأثر بإعادة تنويم المريض كل عدة أيام ، ولكن هذه الطريقة لا تعتبر عملية لأسباب عديدة ، ولا نوصي بها .

وبينما نضمحل آثار الإيحاء بعد التنويم مع تكرار تكراره إلا أن هناك دليلا على أن هذه الإيحاءات قد تبقى نشطة لفترة طويلة جدا وقد رويت حالات محققة حيث يقال للشخص فيها أن يكتب بطاقة يريد به مستخدما صيغة معينة ، مرسلة إلى المنوم في الساعة الثانية عشرة ظهرا من نفس اليوم بعد عام وعلى الرغم من أن الشخص المنوم لم يع هذا الاقتراح ، فإنه تفذه بكل تفاصيله . ومن ثم تصبح هذه الطريقة موضع أمل كبير ويرجع السبب في أن هذه الطريقة لا تبدو نافذة على الأخص لسوء الحظ إلى ما يرتبط بالفظ تنويم مغناطيسي من أفكار في أذهان الناس . ولقد ساءت شهرة التنويم المغناطيسي نتيجة استخدامه في العروض المسرحية والتدجيل على اختلاف أنواعه . وقليل من الناس من يريد أن يخاطر بشهرته لكي يقوم بالعمل التجريبي الضروري الذي يمكن وحده أن يخرج ظاهرة كالإيحاء بعد التنويم من فئة الأحداث المشوقة الغريبة ، وبتفسير الميكانيزم الذي تقوم عليه مما يجعلها خادما طيعا لصالح الإنسان .

وبصرف النظر عن الاشتراط ، والإبدال ، والإيحاء ، ثمة طريقة أخرى . للتخلص من العادات تستند إستنادا راسخا إلى المبادئ السيكولوجية على الرغم من أنها قد تبدو متناقضة في الظاهر عند النظرة الأولى . وواضح أن العادة في طبيعتها تكرر آلي لا شعوري . ولقد فهم الشاعر هذا المعنى فيها كاملا في وصفه لحشرة تسمى المثنية (لكثرة أرجلها) ، حين استلقت حركتها أرجلها التي لا عدد لها انتباهه فبينما كانت الحشرة تمضي على أساس .

العادة ودون أن تلتفت إلى مشيتها كانت تسير سيراً طبيعياً ، وفي اللحظة التي حاولت أن تحدث النمط الحركي بطريقة شعورية ، ضلت طريقها ولم تستطع أن تتحرك بوضعية واحدة . ويصدق هذا بصورة أخف على الحركة الإنسانية ، فإذا حاول القارئ أن ينزل الدرج لا بالطريقة الآلية المعتادة التي لا يلتفت فيها إلى الحركة الفعلية بل بتوجيه انتباهه شعورياً إلى كل خطوة محمداً كل مرة مكان وضع قدمه بالضبط ، فإنه سرعان ما يجد نفسه أسفل الدرج بساق مكسورة وباعتقاد راسخ بأهمية العادة اللاشعورية ويفسر نفس المبدأ بطبيعة الحال اقتدار لاعب الجواف الماهر الذي يستلقت انتباه خصمه لتفصيل حركاته حتى يهزمه ، وحينما يتم هذا على نحو آلي يجيء بارعاً مهتقنا ، وإذا انتفت عنه صفة العادة الآلية ، تصبح أعمالاً جديدة وصعبة . وبعبارة أخرى ، قد نتخلص من عادة ، بإخراجها من ميدان اللاشعور والسلوك المتكرر وبالإلتفات عن قرب لكل تفاصيلها .

وكيف يعمل هذا المبدأ في الممارسة الفعلية ؟ لقد استخدمه دونالد استخداماً كبيراً في التخلص من أنماط العادة التي قارمت أنواع العلاج الأخرى . فيطلب إلى الطفل الذي يقضم أظافره في إصرار مثلاً ، أن يذهب إلى عالم النفس ويجلس أمامه لمدة نصف ساعة كل يوم ويقضم أظافره عن عمد طوال تلك الفترة . ويقال للتدخين المدمن الذي لا يستطيع أن يتخلص من عادة التدخين أن يجيء للقاء عالم النفس يوماً بعد يوم وأن يجلس معه لمدة ساعة ويدخن سيجارة بعد أخرى دون إنقطاع ، مع الإلتفات الشعوري لكل شيق ولكل الأحاساس في حلقه وفمه . وسرعان ما اختفى قضم الأظافر وتدخين السجائر من أنشطة الأشخاص المعتادة وبدأ أن الشفاء ثابت نسبياً . ولقد طبق دونالد مبادئه في ميادين أخرى أيضاً . أن العلاج الذي يقضى بتكرار العادة التي يراد التخلص منها على الرغم من كونه متناقضاً إلا أنه نجح نجاحاً كبيراً في عدد كبير من الحالات . وقد تتبع هذا المبدأ تتبعاً ضئيلاً ، كما حدث في حالة الإيحاء ، بسبب الإيمان الشائع بالعلاج النفسي

الذى يتسم به علم النفس الحديث والطب النفسى وعلى الرغم من الإخفاقات المتتالية مع العصائيين المدمنين على الخمر ، وقاضى الاظافر ، والمدمنين على المخدرات ، وغيرهم ، فما زال المعالجون النفسيون يعتقدون أن إجراءاتهم هي الإجراءات الوحيدة التى تطبق فى تصحيح هذا النوع من العادات . وهناك علامات لحسن الحظ تدل على أن نظرة نقدية ابتدأت فى الظهور وأن العلماء سوف يجرون تجارب أخرى لتبين مدى ما يمكن أن تحققه الطرق الأخرى من نجاح . وهناك أساس نظرى عميق للإجراءات التى وصفناها — الاشتراط ، والابدال ، والإيحاء والتكرار — وكل زياده فى معرفتنا للعمليات الأساسية التى تقوم عليها هذه الطرق سينعكس بغير شك فى فاعلية العلاج الذى يقوم عليها .

ويحتمل أن يكون الجمع بين طريقتين أو ثلاث طرق أكثر فاعلية من أى منها ، وقد يتضاعف نفعها ، وقد يقوم أكبر دور للعلاج النفسى فى مصاحبته لهذه الطرق لافى أن يكون بديلا لها . وقد أضاف بعض الكتاب الذين استخدموا طرقا لكسر العادة من النوع الذى وصفناها هنا عبارة تعنى أنه فى رأيهم ينبغى أن يصاحب العلاج علاج نفسى وتبدو وجهة النظر هذه معقولة فهناك ضغوط وارهاق ينبعث من التخلص من عادة راسخة مما قد يتطلب مساعدة شخص آخر ، والا زادت عن قدرة المريض على الاحتمال دون الاضرار باتزانه العصبى . وهذه النقطة أيضا موضع البحث والاستقصاء التجريبي ، وكل ما نستطيع أن نقوله فى أمان هو أن عادات التوافق الانفعالى السيء التى تصاحب الاضطرابات العصائية أو فى رأى البعض تكون نواتها يمكن أن تعالج بنجاح بواسطة طرق جديدة اتضح نفعها من قبل ، وتبشر مسوغاتها النظرية بنجاحها .

الفصل الثاني عشر

ما هي أخطاء التحليل النفسي ؟

من المستحيل أن ننكر ما للنظريات الفرويدية من تأثير هائل على الطب النفسي ، والأدب ، بل وما لها من تأثير أيضاً على كل ماله علاقة بما نطلق عليه « أخلاق الجنس » ، من آراء وانطباعات شعبية ، إلى بعض القواعد والقوانين التي تتصل بذلك .

ويميل الأخلاقيون إلى الشك فيما إذا كان هذا الأثر في جوهره كان في سبيل الخير ، ولكن بعد الصيحة المبدئية التي ربما كان من المستحيل تجنبها ، هدأ معظم الناس وبدأوا يتقبلوا التحليل النفسي في سهولة وحتى في تخمس وهذا التقبل لا يتفق تماماً مع تعاليم التحليل النفسي ، التي تؤدي بالمرء إلى أن يتوقع نوعاً من المقاومة والعداوة لها ، والواقع أن مثل هذه لانجدها واضحة شاملة إلا عند علماء النفس وعلماء الاثروبولوجيا أي بين هؤلاء الذين درسوا نظريات التحليل النفسي ودعاويه دراسة مهنية تفصيلية ، أما عند رجل الشارع وعامة الناس فإن مصطلحي علم نفس ، وتحليل نفسي قد أصبحا مترادفين ، بل إن الالفاظ والمفاهيم الفرويدية قد حازت القبول تماماً من هؤلاء بحيث أنه يصعب علينا جداً تمييز الرواية ، أو القصة ، الحديثة عن الحالة الموجودة في سجلات العيادات الطبية النفسية .

وقد يبدو هذا على أنه ظاهرة فريدة تقريباً في ميدان العلم . فلا يحتمل في أي علم آخر أن نجد نظريات معينة وفروضاً تقبل بهذا الشروع وينبذها كثير من الخبراء . وهناك حالات قليلة معروفة مشابهة ، منها مسألة اينزكو في علم الوراثة ، والذي اعتمد على رأي وتعصيد الجماهير باعتبار أن « صوت الشعب هو صوت الله » ، إلى درجة أن بعض العلماء النقاء هددوا

نتيجة عدم ميولهم وعجزا عن التفاهم بصددها هددوا بعدم قبول آراء ليزنكو التي لا يوجد برهان علمي عليها، ولكنها لقيت تقبلا وموافقة من الناس العاديين. وقد نجد مثالا مشابها لهذا في تاريخ نظرية مركزية الشمس في الكون التي عصد فيها رجل الشارع هؤلاء الذين اعتقدوا أن الأرض هي مركز العالم، معارضين اتفاق رأى أولئك الذين لهم الرأى السديد في هذه المسألة والحكم المستند إلى أدلة .

ويبدو أننا بمساواة التحليل النفسى بالرأى الشائع نعيش في عالم مقلوب رأساً على عقب . أليس فرويد ذلك المبتكر الذى يضارع جاليليو ودارون ؟ أليس من الحق أنه مثله مثل هؤلاء العلماء العباقرة قد رجمه الجميع بالحجارة ، لىكى يشتهر ويشرف بعد سنوات كثيرة من الإضطهاد ؟ ربما لا يبلغ هذا التناقص الظاهرى في حقيقته بالدرجة التي يبدو لنا .

هناك نوعان لعلم النفس ، كما أن هناك طريقتان يمكن بهما أن نعالج أى مجموعة من الظواهر . وقد قارن ادنجتون Eddington هاتين الطريقتين في مثاله المشهور عن المنضدتين .. المنضدة المحسوسة ، التي يمكن أن يراها ويلبسها ، ولها وزن وملمس ، وتشكل جزء من بيئتنا اليومية ، والمنضدة العلمية ، المكونة من الكنوزات وبروتونات ، المكونة في الأساس من لاشيء يتخلله شحنات كهربائية سريعة الحركة جدا . وقد نقبل المنضدة العلمية على أساس ما للعالم الطبيعية من سلطة من حيث أنه هو الذى قرر وجود هذه الخصائص ، ولأننا وجدنا في الماضى أن التنبؤات التي تقوم على نظره عالم الطبيعة للعالم تغلب عليها الصحة ، ومع هذا ، فكثير منا يجد أن من المستحيل أن ننظر إلى العالم نظرة متسقة غير متناقضة على هذا النحو ، ونفضل أن نتعامل مع وحدات محسوسة تلك التي نعتقد على نحو غامض أننا نفهمها . ومن الواضح لنا أن الأرض مسطحة وأن الشمس تتحرك حول الأرض ، وأنتك لا تستطيع أن تصنع كينسا من حرير من أذن خنزير ، وقد ترك هذه الآراء

(م ١٦ — علم النفس)

مترددين حين نجد اعتراضا عليها مدعما بالحقائق القوية عكس ما نرى ،
ولكننا نفعل هذا عادة بغير كياسة ، ومع حنين للطرق القديمة الجذابة الطيبة .
ويحدث نفس هذا الاعتراض ، وبقوة أكبر في علم النفس ، وقد أظهر
الفلاسفة الألمان هذه النقطة بوضوح تام عند مقارنة علم نفس مبنى على
الحس العام يحاول أن يفهم الناس ، وعلم نفس يحاول أن يفسر سلوكهم على
أساس علمي . وكثيرا ما يقال أن لعلم النفس ماض طويل ، ولكن تاريخه
قصير ، وعلم النفس القائم على الحس العام هو النوع الذي يعتمد عليه
الكتاب والفلاسفة وغيرهم ممن يتحدثون عن الناس وهذا هو السبب في
الماضي الطويل ، أما النوع العلمي المفسر الذي ظهر قبيل نهاية القرن الأخير
فهو الذي نشير إليه باعتبار أن له تاريخا قصيرا . وكثيرا ما يختلط النوعان
بحيث أن كلمات قليلة قد تفيد في توضيح المسألة .

في معالجتنا للناس ، يصعب أن يقال أننا نسير على نحو عشوائي قائم على
الصدفة المجردة . وتعلمنا الخبرة أن نتوقع استجابات معينة من أنواع معينة
من الناس ، وقد تمكننا المعرفة الوثيقة من التنبؤ باستجابات أصدقائنا
أو أعضاء أسرتنا بدقة ملحوظة . وقد نعرف جيدا أن « ماري » عازسا ومن
الأفضل أن نتجنب حديث المخاطر الغرامية ، بينما « جوان » تحب السهر
ويمكن دائما أن نعلم عليها في أحياء حفل والإستمتاع بها وأن ديك Dick
يعتمد عليه وأمين جدا بحيث أنه من غير المنصوح به أن تناقش أمامه طرق
ووسائل تخفيف الأعباء الضريبية والإعفاء منها ، تلك التي تبعد قليلا عن
السلوك القويم ، بينما نجد فرد Fred يختصر ، ويحتمل أن يبالغ في هذا يوما
ليجد نفسه في السجن . وأن دولوريس فتاة سهلة مع الشبان ، وماك دين
مستقيم ، وجميع لا يفهم في مسائل النقود على الإطلاق ويميل إلى أن ينظر إلى
معظم الأشياء نظرة علمية ، وأن دوللي امرأة لرجل واحد ، وفخورة ببيتها ،
ونحن جميعا ندلي بهذه التعميمات بالنسبة لمن نعرف جيدا من الناس ، وقد

تزهو بأنفسنا لفهمنا للطبيعة البشرية ، ولدقة تشخيصنا . وكثيرا ما نعتقد أن مثل هذه الاحكام يمكن أن تكونها بدقة تقريبا عند أول نظرة ، ويذهب كثير من الناس إلى الحد الذي يعتقدون أن العلامات الجسمية الظاهرة كالذقن الرفيعة ، أو الشعر الأحمر ، أو الاذن اليهودية علامات لا تخطئ دالة على خلق الشخص . وقد لانعرف معرفة شعورية كيف نتوصل إلى أحكامنا ، ولاكتنا سوف ندافع عن دعوانا جازمين بصحتها حتى الموت .

وتصدر أحكام مشابهة كل يوم في المجال الفيزيقي أيضا فنحن نحكم على الأشياء بأنها ثقيلة أو خفيفة ، وعلى الهواء بأنه جاف أو رطب ، ونحن نتوقع أن تسقط الأشياء المادية حين لا يكون هناك ما يسندها وسوف نستغرب أن الماء لم يبللنا ، أو أن الشمس لا تسخننا . ولدينا مجموعة كاملة من التوقعات كونها خلال الخبرة ، ولحسن الحظ بالنسبة لنا أن هذه التوقعات كثيرا مما تكون على صواب .

وقد تبدو بعض مفاهيم الطبيعة مشابهة لمفاهيم نستخدمها في الحياة اليومية . مثلا المفاهيم الخاصة بالزمان والمكان . على أن من المهم على أية حال أن ندرك أنها بعيدة عن أن تكون متماثلة فقد قال نيوتن في Scholium التي سبقت كتابه Principa أن الزمان والمكان الذي نحس به أي أفكارنا اليومية عن هذه المفاهيم لا يجب أن نخلطها بالزمان والمكان الرياضي أو الحقيقي ، وأي إنسان يخلط بين الإثنين متهم بالجهل المطبق . ولا يحاول العلم الطبيعي أن يفهم الظواهر اليومية على أساس الحدس العام ، على الرغم من أنها في النهاية القصوى بدأت من هذا النوع من الملاحظة ، ويحاول العلم الطبيعي أن يفسر الظواهر الطبيعية على أساس قوانين عامة تشمل الظاهرة الفردية التي نعرض لها .

ويصدق هذا تماما على علم النفس . فعالم النفس إفاهم يحاول أن يكتسب الاستبصارا عما يدور في اذهان ونفوس الآخرين على أساس معرفة حدسية

عامة عن الطبيعة الإنسانية ، وقد يكون قد اشتق معرفته من ملاحظة الذات ، والاستبطان ، أو من ملاحظة الآخرين في مواقف متنوعة كثيرة ، أو من قراءة مسرحيات شكسبير والروايات الحديثة ، ولسنا ننكر أنه كثيرا ما يكون دقيقاً حاذقاً في حده . وهذا النوع من الاستبصار ، لو قام على خبرة عريضة وقدره طبيعية واهتمام بالناس ، لكان خاصية قيمة في مجالات الحياة الكثيرة ، ولا يمكن الغناء عنه بالنسبة للطبيب النفسى ، ومدير المستخدمين . personnel manager ، والقائد الاجتماعى ، والسياسى ، ومهما كان الاستبصار السيكولوجى ، والفهم في حد ذاتها قيمين ومفيدين . فلا علاقة لهما على الإطلاق بعلم النفس كعلم ، مثلها في ذلك مثله ، قدرة عالم الطبيعة ، على معالجة الأشياء المادية من حيث أنها تيسر له بعض الأمور في عمله ..

وسأجازف وأؤكد أن كثيراً من أعظم علماء النفس دون المتوسط في نوع استبصارهم فيما يتصل بالدوافع الإنسانية والأغراض الإنسانية ، وبالمثل كثير من علماء الطبيعة الممتازين كثيراً ما يعجزوا عن ضبط السكر يورتر في سياراتهم ، أو حتى في تصاييح فتيل محترق . والدعوى التي كثيراً ما تسمع أغنى أن علماء النفس كان ينبغي عليهم أن يتعلموا الكثير عن الطبيعة الإنسانية ، لو استخدمنا اللفظ بهذا المعنى ، غير مسوغة تماماً . فعالم النفس لا يعرف عن الطبيعة الإنسانية أكثر من جاره ، وإذا كان قطناً حكماً فإنه يدع دعاوية تغطي على رويته وتبصره .

وإذا لم يكن عالم النفس كعالم يحاول أن يفهم الآخرين ، فما الذى يحاول عمله إذن على وجه الدقة ؟ إنه يحاول أن يفسر سلوكهم على أساس نظام من القوانين العلمية العامة . وفي عمله هذا قد يستخدم ألفاظاً أخذت من أحاديث الحياة اليومية ، مثل الذكاء ، والانفعال ، والسمة ، والنمط ، والقدرة . وهلم جرا ، كما أخذ عالم الطبيعة ألفاظاً مثل المسكان ، والزمان والوزن ، والكتلة ، والفاظ كثيرة أخرى من لغة حياته اليومية . ولكن من الخطأ أن

تساوى الألفاظ المشوشة ، غير الدقيقة ، سيئة التعريف التي يشيع استخدامها بفهم العالم المصنوعة . الدقيقة في تعريفها المتميزة الواضحة . وهناك أوجه تشابه . وقدر معين من التداخل ، ولكن بالنأ كيد لا يوجد شيء يقارب التطابق التام .

وكثيراً ما تؤدي هذه الحقيقة إلى سوء الفهم . فعالم النفس يصدر حكماً فيما يتصل بتوارث الذكاء مثلاً . يستخدم الكلمة على نحو دقيق نسبياً بحيث تمثل مجموعة من الظواهر القابلة للقياس . ويفهم الرجل العادي العبارة على أساس أنها تتصل بفكرته هو عن الذكاء ، والتي قد تكون مختلفة وعادة ما تكون عن فكرة عالم النفس ، ويدل باعترافات لا صلة لها على الإطلاق بما يقصد إليه العبارة الأصلية . ويجد عالم النفس أن من الصعب معارضة هذه الانتقادات الآن كل الألفاظ التي يستخدمها لها مضامينها أو مفهومها الذي يتطلب تفسيراً ، والذي كثيراً ما يتضمن رياضيات بالغة التعقيد ، وكل منها يمكن فهمه على أساس المذهب الفكري الكلي وحده الذي تشكل جزءاً منه . وهذه الموانع من الفهم ، ضارة على وجه الخصوص لأننا كثيراً ما لا نشك في وجودها ، وبمضي الجدل خلال ساعات دون التوصل إلى اتفاق ولو ضئيل بين المخصمين والعبارات العلمية بالغة التعقيد ، وتشتق معناها في الأساس من مجموعة كاملة من الحقائق والفروض والنظريات ، التي لا يمكن مناقشة ذات معنى إلا مع العلم بكل هذه الحقائق والنظريات والفروض .

كيف تتصل هذه الاعتبارات بالتحليل النفسي ؟ ربما نستطيع توضيح العلاقة على أفضل نحو بالقول باختصار تام وعلى نحو يقيني (عقيدى) أن التحليل النفسي في نظري يحاول أن يفهم بدلاً من أن يفسر ، ونتيجة لذلك فهو في أساسه غير علمي ، وأن الحكم الذي صدر عليه يقوم على أساس من الاعتقاد والإيمان ، لا في ضوء البرهان والتحقيق ، ويستند شيوعه والاقبال عليه بين غير العلماء على وجه الدقة إلى طبيعته غير العلمية ، التي تجعله مفهوماً ،

وقابلا للتطبيق مباشرة على المشكلات كما يفهمها الآخرون ، واعتقد أن هذا الحكم تقرير لحقيقة ، وليس حكما قائما على الهوى ، والدين والفن نظامان غير علميان ، وعلى الرغم من ضالة اهتمامهما بالحقيقة العلمية أسهما في سعادة الإنسان اسهاما عظيما ، ولو قلنا أنهما أقل قيمة من العلم لضمن قولنا سلما ذاتيا من الموازين والقيم غير علمي في ذاته . ولكي لا يتضمن الحكم على نظام معين بأنه علمي أو غير علمي مضامين قيمية ، فإنه يلزمنا تعريف متفق عليه ، وإجراء علمي معياري ، ومثل هذا التعريف ، وهذه المعايير موجودة ، ويمكن أن نجدها في كتابات المناطقة ، وفلاسفة المناهج العلمية . وسوف يوافق الذين يالفون هذه الكتابات على أنه على الرغم من الخلافات التي تنشأ أحيانا حول مسائل ثانوية إلا أن هناك قدراً هائلا من الاتفاق حول النقط الأساسية .

وبحتمل أن يوافق على هذا التحليل كثير من المحللين النفسيين ، ويذهبون إلى أن عملهم يختلف في نواح كثيرة هامة عن الإجراءات العلمية المستقيمة (الآرثوذكسية) . ويونج واحد من بين عدد كبير من المحللين الذين يذبذبون طرق الدراسة العلمية مفضلا الطرق الذاتية ، والحدس ، والفهم اللا شعوري ولن نجد جدالا هنا بالنسبة لهؤلاء الذين يبحثون عن الدين أو الإيمان ، أو الجمال ، أو أي قيم غير علمية أخرى ، إذ ليس هؤلاء في حاجة إلى أن يخشوا أي نقد علمي . وهم من ناحية أخرى ليسوا في حاجة إلى أن يدعوا أنهم أثبتوا حقائق علمية ، وهم لا يستطيعون أن يذبذوا مناهج العلم ثم يدعون التوصل إلى نتائج . وهذه الرغبة في الحصول على أفضل ما يوجد في العالمين . كثيرة الشيوع بين المحللين النفسيين . ولكن من الصعب أن يقدم أي برهان منطقي دافعا عنها . وقد يصدق المحللون غير العلميين بطبيعة الحال ، مرات كثيرة في حدسهم ، وتخميناتهم واستبصاراتهم الحدسية ، كما صدق كثير ممن لم يسمعوا قط عن علم النفس والتحليل النفسي في فهمهم للدوافع الانسانية على نحو مدهش في زمنه ، ولكن التوصل إلى الزاوي الصائب في حالات

خاصة ليس بالضرورة علامة على صحة نظرات المرء وبظرياته وفروضه .
وعلى قيمتها العلمية . « وعكس هذه العبارة أكثر قرباً من الصواب . فالخطأ
في أمثلة معينة يعيب النظرية العلمية إلى درجة يلزم معها احلال أخرى محلها ،
أو على الأقل تنقيحها تنقيحاً كبيراً .

وبينما نجد كثيراً من المحللين يتصلون من أى قصد في أن يكونوا
علميين في عملهم ، إلا أن هذا القول لا يمكن أن نقوله عن الغالبية العظمى
التي تدعى في كتاباتها أن ما يقولون ليس مفيداً ، وهاماً ، ومثيراً ، وفريداً .
فحسب بل هو كذلك صادق بالمعنى العلمى لمصطلح الصدق . ويتمسك
هذه النظرة ، ويوافق معظم أتباعه على هذا المفهوم . وعلى هذا الأساس
يمكننا تطبيق معيارنا المتفق عليه ، لنرى إلى أى حد يصمد التحليل النفسى
ويدعم ما يدعيه .

وهنا يبدى كثير من المحللين اعتراضهم الأول فهم يقولون أن المفهوم
التقليدى الخاص بمقومات المنهج العلمى والحقيقة العلمية ضيق ضيقاً بالغافيه ،
وأن البرهان الذين هم على استعداد لتقديمه برهان علمى رغماً عن أنه يقع خارج
نطاق هذا المفهوم الضيق لمصطلح علم ، وبعبارة أخرى يبدأ المحلل النفسى
دعواه « بأن نتائج التحليل النفسى حقائق علمية ، وهى دعوى تثير الاهتمام
لأن تقديرنا لصحة الحقائق العلمية ناشئ من توصلنا إلى هذه الحقائق بطريقة
معينة هى « المنهج العلمى ، بيد أن المحلل النفسى يشرع مباشرة بعد ذلك في
تغيير مدلول المصطلح « علمى ، على نحو يجعله يشتمل على نتائج التحليل
النفسى التى نعرض لها .

وبما هو جدير بالملاحظة ان عادات اعادة التعريف البساعة هذه أمر
مألوف بطبيعة الحال في السياسة ، فكلمات براقه مثل « ديمقراطية ، كثيراً
ما تطبق على ديكتاتوريات عن طريق عملية التعريف التى تقلب معناها
المألوف رأساً على عقب ، وخير مثال لأولئك الذين ينغمسون في تمضية

الوقت بهذه الطريقة هو ما يعبر عنه قصة همتي دمتي Humpty Dumpty التي أصبحت مناقشتها لمعنى كلمة « عظمة » مثالا كلاسيكياً للتلاعب بالألفاظ .

« قالت إليس » لا أعرف ماذا تعنى بقولك « عظمة » ، وابتسم همتي دمتي باحتقار ، أنت لا تعرفين بطبيعة الحال — حتى أخبرك . لقد عنيت « كان هذا جدل حاد بالنسبة لك » ، واعرضت إليس على هذا . فقال همتي دمتي بنغمة يغلب عليها الاحتقار « حين استخدم كلمة فهمي تعنى ما اختار لها من معانى — لا أكثر من هذا ولا أقل » ، ولكن إليس قالت « أن السؤال هو ما إذا كنت تستطيع أن تجعل الكلمات تعنى أشياء كثيرة مختلفة أم لا تستطيع » ، فعقب همتي دمتي قائلاً « ان السؤال النهائي هو من يكون السيد صاحب السلطان » .

وتعتبر السيدة باركر إدى Barker Eddy مثالا مشهورا لهذه الممارسة فقد أعادت تعريف « العلم » في ضوء الدين وتوصلت إلى « ما أطلقت عليه » العلم المسيحي Christian Science ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى مضادة عرف الشبوعيون العلم تعريفاً جديداً على أساس المادية الجدلية الماركسية ، وهكذا توصلوا إلى الديمقراطية الشعبية ، وديكتاتورية البروليتاريا . وأمثلة إعادة تعريف المصطلح « علم » كثيرة معتمدة ، ومن أمثلة ذلك قارئة الكيف في مدينة بريتون التي عرفت العلم في ضوء « ما أطلقت عليه » التنبؤ العلمى عن الطالع ، على النحو الذى يتفق عليه غالبية هؤلاء . وما لاشك فيه ، أن الادعاء بأن التحليل النفسى علم ، لا يمكن أن يستقيم ويصبح أمراً له دلالة ومعنى ، إلا إذا عرفنا المصطلح « علم » بالطريقة التى اتفق عليها الغالبية العظمى من أولئك الذين درسوا تاريخ العلم وأنواعه المختلفة . فالسؤال الهام هو : هل التحليل النفسى علمى بمعنى آخر للمصطلح « علم » ، خلاق لمجرد تمكين أصحابه من التوصل إلى الإجابة عن هذا السؤال بالإيجاب ؟ فإذا لو كان الأمر كذلك لما أصبح لهذه الإجابة أدنى وزن أو قيمة .

ما الدليل الذى يستند إليه التحليل النفسى اذن ؟ إنه دليل فى أساسه كايينيكى لا تجريبي . وقد ناقشت فى المقدمة اتجاهات الكليينيكين والتجريبيين وان أعيد ما قات من قبل . ويكفى أن نذكر أن العمل الكايينيكى كثيراً ما يكون منتجاً ومشمرأ جداً فى النظريات والفروض ولكنه ضعيف فى البرهان والتحقيق ، بحيث أن الطريقة الكليينيكية بذاتها فى الحقيقة لا تنتج مثل هذا البرهان ، لأن الأبحاث تجرى لهدف معروف هو مساعدة المريض ، لا لاستقصاء الإجابة عن أسئلة معينة عن الطبيعة وحتى حين تخطط تجربة معينة بعناية لفحص صحة فرض معين ، فإنه كثيراً ما ينشأ صعوبات لا يمكن التغلب عليها فى التخلص من العوامل المشتتة ، وفى عزل الأثر المرغوب فيه ، ومثل هذا العزل فى العمل الكايينيكى مستحيل . والادعاء الذى يتردد على الاسماع بأن فروض التحليل النفسى تمحص على الأريكة التى يستلقى عليها المريض خلال جلسة التحليل ، تظهر سوء فهم واضح لما يقصد بتحقيق الفروض . ونحن لانستطيع أن نمحص الفروض الفرويدية على أريكة أكثر مما نستطيع حسم الخلاف بين فروض نيوتن وأينشتين بالنوم تحت شجرة تفاح .

ما نوع الادلة التى يقدمها فرويد وأتباعه ليدعموا دعاويهم غير الادلة الكليينيكية ؟ هناك نوعان رئيسيان من الادلة الاول يتصل بالطبيعة المتكاملة لجميع الفروض والنظريات والممارسات وأساليب العلاج يتكون منها التحليل النفسى الحديث ولا شك إن مذهباً متكاملًا من التكوينات الفرضية فى العلم له مميزاته الفريدة ، ولكن تكمن فيه فى نفس الوقت أخطار ملحوظة ، أما المميزات فتوجد فى التدعيم المتبادل الذى تقوم به أجزاء المذهب المختلفة بعضها للبعض الآخر . أما الحظ فيمكن فى الميل نحو التحيز فى التفسير على أساس أفكار المحلل النفسى القبلية وهذا الخطر ملحوظ فى التحليل النفسى على وجه الخصوص لان تفسير الملاحظات يشكل جانباً كبيراً من البناء الكلى للتحليل النفسى .

ويزيد من هذه الخطورة ، إحدى الخصائص الفريدة للتحليل النفسى ويعتبر هذه الخاصية من بقايا نظام ليولا Loyola القديم ، إذ ينبغي على كل محلل نفسى ان يمر بتحليل نفسى تدريبي ، تفسر فيه كل تصرفاته وأحلامه وخيالاته على أسس فرويدية ، ويكون فيه روابط انفعالية قوية مع معلمه ، روابط تجعله يميل إلى تقبل مثل هذه التفسيرات على أنها صحيحة ، وتعمل من المستحيل بالنسبة له أن يصدر أحكاما موضوعية غير متحيزة عن صحة المفاهيم التحليلية وتناسبها . ولبيان أن هذا الخطر ليس خياليا نذكر ما سلم به محللون نفسيون معروفون . فمثلا جلوفر Glover فى جدله المعارض لآراء فرويدى آخر يعتبره مفسدا وخطرا ويعمل تقبل محللين معينين لهذه الآراء على أساس ، نأ كدهم الانفعالى من صدق آراء المحلل ، تلك الآراء التى اكتسبوها خلال تحليلهم التدريبي المارق . وما يصدق على أحدهم يصدق على الآخر ، فإذا كانت آراء تلامذة ميلانى كاين M. Klein ترجع إلى تحيزهم الانفعالى الذى اكتسبوه خلال تحليلهم التدريبي ، فإن نفس التفسير يمكن أن يقال بكل نأ كيد عن آراء جلوفر وتابعيه .

والحق أن مثل هذا النوع من الجدل يشكل الغالبية العظمى من محاولات الفرويديين ، ومن الملاحظ أن هذه المحاولات لأنها ليست صادقة عليها لم تعد تعزى عادة إلى المحللين النفسيين أنفسهم .

وكثيرا ما لا ندرك إلى أى مدى يكون هذا التحيز الانفعالى الذى يتكون عن طريق التحليل النفسى التدريبي عائقا كاملا بين المحلل والناقد ، وهكذا يقرر فرويد « أن تعاليم التحليل النفسى تقوم على عدد لا يحصى من الملاحظات والخبرات ، وأن المرء الذى لم يكرر تلك الملاحظات عن نفسه وعن الآخرين لا يكون فى موقف يمكنه من التوصل إلى حكم مستقل عنها .

وهكذا يتطلب فرويد على نحو فعال وجوب إيمان الفرد بمذهبه قبل أن يستطع نقده ، وهو مطلب يصعب أن يتفق مع الإجراءات العلمية المستقيمة ، ولا تباع يونج دعاوى مماثلة ، حيث يقرر جا كوبي Jacobi أن المفاهيم النظرية والتفسيرات التي يعطيها الفرد لفهم مذهب يونج في التفكير ، تعتبر سليمة إلى حد ما ، أما إذا أردنا فهمها كاملاً لتفكير يونج فينبغي أن يختبر الفرد أثر عمله الحيوي مع نفسه هو ؟ وعندما نتحقق من أن هناك خمسة عشر مذهباً تحليلياً أو أكثر متعادين ، يذهبون إلى نفس الدعاوى ، يتضح أنه من غير الممكن أن يوجد إنسان كفء يستطيع الحكم بينها ، لأنه لن يجد من الوقت والمال ما يكفي ليتدرب على خمسة عشر نوعاً من أنواع التحليل النفسي المتنافرة .

وهكذا يصبح لا مفر من رفض الادعاءات التي قدمت عن الفروض الفرويدية باعتبارها تشكل جزءاً من المذهب ، أو النظرية ، ويجب النظر إليها على أنها فروض منبئة لا تقوم على أساس ، وهناك عدد كبير من هذه المذاهب ، تختلف كلها حول مسائل جوهرية ، وتعتمد على أدلة كلينيكية . ولكن إذا قامت كلها على أدلة مستخلصة من الأريكة أو العيادة ، فكيف نأمل في الحكم على هذه الادعاءات المتنافرة ؟ وإذا كانت الخبرة الكلينيكية لأصحاب ادعاء ما هي النوع الوحيد من الأدلة المتوافرة لديهم ، وكانت هذه الخبرات متناقضة تماماً ، فإنه ينبغي أن نعتد على الإيمان ، وأن نعلن أن المسألة بأكملها لا تقبل حلاً ونبحث عن برهان أكثر تقبلاً ، فحينما يدعى الفرويديون أن مرضاهم يظهرون في أحلامهم رموزاً تشابه في وضوح تلك التي يصفها فرويد ، بينما يدعى أتباع يونج بحماس مساو ، أن مرضاهم يوردون في أحلامهم رموزاً مشابهة لتلك التي بينها يونج ، فينبغي أن نبحث عن دليل تجريبي قبل أن نصدر حكماً عن هذين النوعين من الادعاءات إلا إذا حاولنا تفسير كلا النوعين من الوقائع على ضوء أنواع مختلفة من الفروض مستوحين التوقعات المعروفة للمحليل المستول عن النتائج فرويدياً .

كان أم يونجياً !

وينبغي أن ننظر إلى النوع الثاني من الأدلة القائم على الحقائق التجريبية الذي يقدمه المحللون النفسيون بعناية خاصة، دعني أقتبس مناقشة خاصة للتوضيح، مناقشة مأخوذة من كتابات فرويد، واخترتها لما لها من جاذبية بالنسبة للجماهير كثيرة. يجادل فرويد قائلاً أن جميع الأحلام في الواقع تشبع الرغبات، ويستشهد لتأييد هذا بتقارير عن الخبرات الشائعة أو المشتركة لدى المكتشفين الذين رأوا رؤيا كثيرة تدور حول الطعام عندما أضناهم الجوع، الجعان يحلم بسوق العيش، وهكذا فالحاجة إلى الطعام تولد الرغبة فيه، والحلم أو الرؤيا دائماً على استعداد لإشباع هذه الرغبات في الشراهة الشهى والقطاثر اللذيذة. وهنا نجد لدينا تدعيماً خارجياً لفرضنا، وأن الشروط العلمية فيما يبدو قد تحققت.

دنى أعيد صياغة هذه العبارة في ألفاظ أكثر انتظاماً في صورة علمية مألوفة. على أساس الملاحظة التفصيلية لأحلام كثير من المرضى، نصل إلى فرض هو، الأحلام تحقق الرغبات، ومن هذا الفرض نستنبط أن الرجال الجائعين ينبغي أن يحلموا بالطعام. وإذا أمكن أظهار أن الأمر ليس كذلك فإننا ندحض فرضنا دحضاً قاطعاً. ونجد أن فرويد هنا لا يزودنا ببرهان تجريبي من أى نوع، فهو يعتمد على برهان قصصى anecdotal من النوع الذى لا يعول عليه بدرجة كبيرة، فهو غير مباشر، ومنتقى وغير كامل. ويمكن أن نضفي عليه قيمة ضئيلة، ولدينا لحسن الحظ تقارير أكثر حداثة حسن ضبطها، تجارب فقد المشاركون فيها ربع وزن أجسامهم تقريباً. وقد حفظت سجلات تفصيلية عن أحلامهم، وأخفقت مقارنة هؤلاء بأفراد حسن أظامهم عن أظهار أى ميل ولو صغير عند من أنهمكهم الجوع أن تكثر أحلامهم عن الطعام بالنسبة للجماعة الضابطة وهكذا نجد أن الإجراءات التجريبية تبين فقط أن البرهان الفرويدى القصصى غير قاطع وغير دى هو وضع، بل أنها تدحض أيضاً فرضه الأساسى الذى يتصل بطبيعة الحلم وهدفه

ولقد قصدت بعض الأبحاث إلى استقصاء تفصيلي للتعيميات الفرويدية وفحصها على أسس تجريبية . وقد لخص أورلانسكى (Orlansky) وسيرز Sears ، وكثيرون غيرهما الأبحاث التجريبية التي تتناول مفاهيم فرويد ، وكانت النتيجة الهامة هي أن بالنسبة لكل فرض تم تدعيمه ، من الفروض التي قال بها فرويد ، هناك مقابله فرضان على الأقل مشكوك في البرهان عليهما من نظريته أو جاء البرهان مضاداً لما هو متوقع على نحو واضح . ولا تعتبر هذه النسبة أمراً غير مقبول في الفروض العلمية ولكن يبدو أنه يودى بمذهب فرويد كمذهب . ويمكن انقاذ الكثير ، وإدخاله في مذاهب جديدة لوصف الشخصية . والحق أن علم النفس سوف يظل مديناً بعمق ولسنوات طوال للعبقري الجريء الذي يبدع حياة جديدة في مذهب يغلب عليه أن يكون فلسفياً أكاديمياً . ولكن مهما أعلينا من قيمة هذه الفروض والاستبصارات فإن التحليل النفسى كمذهب متكامل يدعى أنه قادر على النظرة العلمية للطبيعة الانسانية مذهب ميت ، وأن ظل جثمانه ماثلاً للمؤمنين به .

كيف يرد التحليل النفسى على المجادلات القائمة على الحقائق التي تعارضه ؟ أولاً ، بادعاء نجاح عملياته العلاجية ، وهكذا يدعم نظرياته وما يقوم عليها من فروض ولقد ناقشنا البرهان الخاص بفاعلية العلاج النفسى في فصل آخر . ويمكننا أن نشير إلى النتيجة التي استخلصناها وهي أن البرهان الموجود خاطيء فنياً ، ومشكوك في قيمته ، حيث يقوم على الرأى الخاص بكل معالج نفسى تقريباً فيما يتصل بنجاح علاجه هو ، وهذا لا يتضمن إطلاقاً أى تدعيم للاعتقاد بأن العلاج يشفى العصابين الفنين ويخلصهم مما يقاسون منه . إذ يميل اثنين من كل ثلاثة مرضى إلى التحسن خلال العلاج ، ولكننا بالمثل نجد مريضين من كل ثلاثة يتحسنان دون أى علاج نفسى على الإطلاق . وهكذا يصعب أن نستخدم هذا الحد لتدعيم ادعاءات الفرويديين .

ويتصل الدفاع الثانى للمحللين النفسيين بسمعة من سمات مذهبهم سوف تكون مألوفة لؤلؤاء الذين درسوا المذاهب شبه الديزية والتي تتراوح ما بين

النبوة الانجيلية والمادية الجدلية . فالعبارات الأصلية محروطة بغموض وعامة ومعقدة بحيث لا يمكن الاستنباط منها على نحو محدد . ويصبح التفسير مع ذلك ضرورة ، وينشأ فئة من الخبراء كل منهم له أسلوبه الذاتي ، يدعى أنه يشرح الحقيقة الأصلية الخالصة . ويربط بينها وبين المشكلات المعاصرة والفكر الجارى . وكما بين المحلل إليس Ellis نفسه « لقد صيغت نظرية التحليل النفسى على نحو مفكك غير قابل للتحقيق بحيث شجعت بعض المحللين إلى الاتجاه نحو الغيبيات ، ولاشك أنه لا يوجد أبعد من ذلك عن العلم ويمضى اليس ليوجه الانتباه إلى حقيقة أن التحليل النفسى قد استطاع أن يجذب إليه عددا كبيرا من الأفراد ذوى العقلية الغيبية mystica ، ويرجع اليس هذه الظاهرة إلى أربعة أسباب رئيسية :

(أ) أن التحليل النفسى لم يتمسك تمسكا دقيقا بالمبادئ العلمية . ، بل سمح بانحراف غير علمى ملحوظ لمعتنتيه .

(ب) أنه اجتذب كثيرا من العصائيين ولديهم حاجة ملحة للدفاعات غير المنطقية الغيبية ، وينبغي أن يعودوا باستمرار إلى فلسفات دينية غيبية لكي تدعم عجزهم عن مواجهة حقائق الحياة المعاصرة العابسة .

(ج) أنه قد تسامح مع الصيغ العامة الغامضة التى لا تبعد عن المذاهب الصوفية أو الغيبية إلا خطوة واحدة ، والتى يسهل أن تفسر تفسيراً غيبياً

(د) كان شعائريا دينيا فى حالات كثيرة وغامضا وهو ما يميل إليه أصحاب المذاهب الصوفية بالضرورة . ومهما يكن من شيء ؛ فإن الحقيقة لا جدال فيها وهى أن نظريات فرويد ليست بسيطة ، وليست تقريراً واضحاً مباشراً للفروض يمكن أن نستنبط منها استنباطات تقبل التحقيق فى معقده ومتشابهة ، ومفككة obiter dicta تتطلب تفسيراً قبل أن تفهم ، وكثيراً ما تكون متناقضة ، ولا يسهل أن تخضع لعمليات البرهان والدحض العلمية . وهذا يجعلها تقاوم الدحض تماما . تقريبا ، وإذا لم تحقق الاستنباطات من

الفروض التحليلية النفسية ، فيمكن دائما أن نقرر أن الاستنتاج يقوم على فهم خاطئ . للفرض ، وأن تفسيراً بديلاً للفرض يؤدي بالضرورة إلى التنبؤ بالحقائق التي وجدت تجريبية . وهكذا نجد أن الفروض الفرويدية منبوعة تماماً ، ولكنها غير محددة بحيث لا تسمح بالاستنتاجات القائمة على حقائق بأي درجة من التأكد ، يحق لنا القول أنها غير علمية وعديمة الفائدة .

والدفاع الثالث للتحليلين النفسيين ؛ على أية حال ، وهو ضربة معلم ويدل على ذكاء تقني متوقد هو أنهم يستخدمون مفاهيم مثل التكوين الضدي ، الذي يتيح للشخص الذي ينبغي عليه من الناحية النظرية أن يظهر النمط السلوكي ، أن يستجيب بنمط مخالف ومضاد . وهكذا فالشخص الذي ينبغي عليه بسبب أحداث طفولية فرضية مختلفة من المفروض أن يكون هلوفاً قد يظهر عدوانياً شديد المراس عن طريق التكوين الضدي ، وهكذا ، يتحقق الفرض بغض النظر عما إذا كان المريض قد وجد هلوفاً أم عدوانياً . ويستخدم يونج حيلاً أخرى مشابهة بتقريره أن الأشخاص المنطويين في الظاهر منبسطون لاشعورياً ، بينما أولئك المنبسطون في الظاهر منطويون لاشعورياً . وهكذا جعل من الممكن تفسير أي نوع من السلوك بإرجاعه ببساطة إلى الجانب الشعوري أو اللاشعوري من شخص المريض . إن هذا الجانب من التفكير التحليلي أكثر من أي جانب آخر ، هو الذي يخدم المحلل كحيل دفاعية ، لأن كل الاستجابات مهما كانت يمكن أن تفسر على أساس حتى ولو لم يمكن التنبؤ بأي منها . ولكن بما لا شك فيه أن العلم لا يتألف من التفسيرات القائمة على الحقائق بعد التوصل إليها ، بل من التنبؤ الذي يمكن تحقيقه والتثبت من صحته . وهنا نجد أن مفهوم التكوين الضدي بطبيعة الحال عديم القيمة تماماً ، لأنه لا يساعدنا في الإلتقاء من بين عدد من الإختيارات أو البديلات الممكنة . ومفاهيم مثل التكوين الضدي تعتبر في أساسها فروضا جزافية تفسر بالضرورة الحالة الفردية لأنها وضعت وقدمت

لتشرحها وتفسرها على وجه الخصوص ، ولكننا لا تناسب أى إطار منظم ،
وهى لعنة بالنسبة للعلماء بسبب السهولة التى يمكن بها تقديمها وصعوبة البرهنة
على صحتها أو دحضها . فاذا وضعنا فرضا جرافيا لكل حالة جديدة وهذه هى
طريقة التحليل النفسى فى الأساس فإننا اذن لن نمضى إلى أبعد من الموقف
الحاضر حيث نستطيع شرح كل شىء والتنبؤ بلا شىء .

وحتى الآن ، قد انتقدنا العمليات التحليلية على أسس عامة ، وقد يكون
من المفيد أن نخصص وأن نقرر عددا قليلا من الاعتراضات التى ساقها
علماء النفس ضد جوانب مختلفة من التحليل النفسى المعاصر .

أولا : تعتمد نتائج التحليل النفسى على وقائع غير ثابتة أى لا يوثق بها .
وبياناته ومواده استنتاجات المحلل وعبارات تفوه بها المريض أثناء تحليله
وبيانات من هذا النوع فى أساسها ذاتية ، ومن ثم فهى تضع أمام العالم
صعوبات خاصة . ولا يمكن التغلب على هذه الصعوبات ، ويمكن أن تسجل
الجلسة التحليلية تسجيلا حرفيا ، وقد بين روجرز وغيره من المعالجين غير
التحليليين مدى فائدة مثل هذه التسجيلات وعظم قيمتها فى تحديد مسيرة
العلاج ، وفى تحقيق الفروض التى وضعها المعالج ، وفى مراجعة دقة ذاكرة
المعالج التى لا يعول عليها بدرجة كبيرة . ومتى اعتمد المعالج على الذاكرة
وحدها ، فإنه يسهل عليه أن يكون متقيا ؟ وأن يكون ما يسجله من تاريخ
الحالة مناسبا لأفكاره القبلية . وهكذا يندر أن يكون ما يقرره المحلل
فى مقالاته وكتبه هو كل البرهان الذى وجدته ، إذ أنه جزء حسن انتقاؤه
وهو عادة مأخوذ من عدد متبقى من الحالات . ولا يمكن أن نستنتج من
مثل هذه الوقائع نتائج عامة وخاصة لأن المحلل نادرا ما يحاول أن يقوم
بالمراجعة اللازمة لمواده وبياناته لكي يتوصل إلى الدليل المضاد لأفكاره القبلية
والتي تدعم فرضا مختلفا عن ذلك الذى تقدمه النظرية الفرويدية

(ثانياً) ولن يكون هذا خطراً إذا كانت البيانات والمواد التي يعرضها سجلات مباشرة لما حدث في الجلسة التحليلية على الأقل ، مهما انتقلت . ولكن نجد عادة أن الاتجاه التحليلي يسير الحالة نتيجة حكم قبلي وذلك بمزج البيانات والمواد الخام بالتفسير التحليلي . ويستطيع القارئ الذي يألف كتابات فرويد ، وكتابات أي من أتباعه أن يراجع بنفسه نسبة الحقيقة ونسبة التفسير في الحالات التي أوردوها ، وكما يسلم وتلز Wittels في تاريخه للحياة وفرويد ، أن طريقة فرويد الخاصة في البحث لم تكن تناسب وضع حدود وتعريفات دقيقة . وعن طريق الاستبصار في نفسه استطاع أن يفهم الظاهرة النفسية . وقد حملت كشوفه منذ البداية اعتقاداً قوياً يقينياً ، وكما يعلق إليس على هذه الفقرة ، وبينما نجد الاعتقاد الداخلي اليقيني سمة طيبة بغير شك من سمات الأنبياء ، إلا أن مساوتها عند العالم يجب أن تكون واضحة وضوحاً كافياً بحيث لا تسوغ أي تعليق آخر ، ويحتمل أن يكون هذا الاعتقاد الداخلي اليقيني هو الذي يجعل الكتاب التحليليين شغوفين بالاقناع عن طريق الجدل ، بدلاً من استخدام البرهان والدليل المستمد من الحقيقة ، والذي يؤدي إلى الخلط المعقد بين التقدير اللفظي والتفسير .

(ثالثاً) إن المحللين النفسيين يبالغون في التعميم في نتائجهم . فرويد يقيم صرحه الذي يفرضه علينا على تقارير لفظية لبضعة مئات من عصائبيي فيينا من الطبقة الوسطى . وبدلاً من أن يقيد نتائجه بالمجتمع الذي استقيت منه هذه العينة — كما تقتضي الطريقة العلمية السليمة — يعممها بحيث تشمل جميع أفراد الإنسان ، في جميع العصور وفي كل مكان . وبعبارة أخرى ، أعتقد فرويد أن لديه حقيقة عامة مقدسة من عينة غير ممثلة من الناس إلى حد بعيد . وما يصدق على العصائبيين المرضى « مفترضين للحظة أن ملاحظاته كانت دقيقة » ، وأن فروضه صحيحة ، وأضح أنه لا يصدق بالضرورة على غير العصائبيين من أهالي جزيرة تروبرياند Trobriand ، والحق أن مالمينوسكي قد

بين بتوضيحات مفصلة خصبة وعديدة أن نظريات فرويد مرتبطة جداً بثقافة معينة، ومحدودة ولا بد من أن تعدل تعديلاً ملحوظاً ، إذا أريد تطبيقها على نحو فعال على جماعات أخرى . فما يصدق على أناس من الطبقة الوسطى ، لا يصدق بالضرورة على أناس من الطبقة العاملة ، وفي فصل آخر قد ناقشت الحقائق التي تدعم هذه القضية بشئ من التطويل ، ولن أعالجها هنا مرة أخرى . وليس الخطأ خطأ فرويد وحده ، فمعظم تابعيه قد احتذوا خطاه ، وهناك عدة حالات حيث نجد أن ما أدعى أنه صواب في حالة قد عمم بالنسبة للإنسانية كلها . ومبالغة في التعميم من هذا النوع تضع التحليل النفسى خارج العلم ، وقبل أن تمتد النتائج إلى ما بعد الجماعة التي قامت عليها ، ينبغي أن يتوافر برهان علمى مقبول يسوغ هذا الامتداد والشمول .

(رابعاً) يطبق المحللون النفسيون مبادئهم المشهورة على الظواهر

الإجتماعية العامة دون وجود برهان على قابليتها للتطبيق ، وحتى لو كانت نظريات فرويد وفروضه قابلة للتطبيق بدقة وصرامة على الناس كأفراد ، فإن هذا لا يستتبع أننا نستطيع أن نفسر بواسطتها الظواهر الإجتماعية كالحرب ، والإضرابات الصناعية ، أو الانتاج الفنى . وقد وسع كثير من المحللين ، رغماً عن ذلك ، هذه النظريات لتعالج كل المشكلات الاجتماعية التي تقلقنا تقريباً ودائماً من وجهة نظر مذهبه أى دون رجوع إلى الحقيقة ، وعادة دون تواضع العالم الذى يقدم فرضاً . وهذه التأملات المشكوك فيها تعرض كحقائق ، ويلجأ على المجتمع أن يسلك بما يتفق معها ، وقد رأيت كيف اقترح فى وثيقة جادة قصد استخدامها فى دوائر رسمية أن القلاقل فى مناجم الفحم ترجع إلى صراعات لاشعورية انبعثت لدى العامل لأنه استخدم فأساً (وهى رمز لعضو الذكر الجنسى) على الأرض الأم (وهى رمز للأم) . ومثل هذه الأفكار المغربة فى الخيال يحتمل أن تجعل رجل الشارع الذى يجد صعوبة فى التمييز بين علم النفس ، والتحليل النفسى ، والطب النفسى «

يشنع عليه على الرغم من أن من المحتمل ألا نجد عالم نفس جاد يدلي بآراء من هذا النوع. ولقد حذر فرويد نفسه ضد «التفسيرات غير المميزة القائمة على التحليل النفسي» ، ولسوء الحظ نجد أن أتباعه لم يسترشدوا بنصيحته المنزلة .

(خامساً) حيث تستخدم الفروض الفرويدية لكي توجه البحوث ، فإننا كثيراً ما نجد أن هذه البحوث تفصح عن أفكار قبلية ، بدلا من أن تكون اختباراً هاماً للفرض. وهكذا ، فالفرض القائل بأن البيوت المتصدعة تنتج العصاب تؤدي إلى البرهنة على أن العصائين كثيراً ما يفدون من بيوت متصدعة. وهذه الحقيقة ، بطبيعة الحال ، ليست هامة ، ما لم يمكن إظهار أن من لا يقاسى من العصاب يفد من أسر متصدعة بأعداد أقل بفرق ذى دلالة احصائية. ولكن هذا الجزء الثانى من التجربة لم يقم به قط فرويديون. وتدل الأرقام التى نشرها الجيش الأمريكى أن نسبة كبيرة من العصائين جاءت من أسر متصدعة ، وتبين أيضاً ، على أية حال ، أن الجنود العاديين وخاصة حسنى التوافق ، يجيئون أيضاً من بيوت متصدعة بنسبة مساوية للسابقة تقريباً . وتدل هذه الأرقام على أن البيت المتصدع له دور ضئيل جداً فى تكوين العصاب ، ان كان له دور على الإطلاق .

ان إهمال الجماعات الضابطة لكي تزودنا بالجانب السلبى من الجدل الاستقرائى صفة مميزة جداً للتجريب الفرويدى. ويؤكد التسلسل العلى أو السببى المرة بعد المرة لأن أحداثاً معينة وجد أنها تحدث بكثرة فى السنوات المبكرة من حياة العصائين ، ولم تبذل أية محاولة قط لإظهار أن هذه الأحداث تحدث بتكرار أقل ، أو لا تحدث على الإطلاق فى حياة غير العصائين ، وقد يرد المحلل الحجة بقوله أننا جميعاً عصايون بعد كل شيء ، ما لم نحلل تحليلاً نفسياً طبقاً للقواعد التى يملها فرويد (أو يونغ أو ستىكل أو آدلر) . وأن هذه الأحداث إذن من المتوقع أن تحدث على نحو عام .

ولكن من الواضح أن هذا الجدل يبرهن على أشياء كثيرة ، فقد تكون جميعاً عصايين ، ولكن بعضنا أكثر عصابية من البعض الآخر ، وأنتا نرغب في الإلمام بأسباب هذه الفروق الفردية . أما إذا كانت الأسباب التي يبرزها فرويديون عامة ، فإنهم بنفس هذا التفكير لا يستطيعون مساعدتنا في تفسير حقيقة أن شخصاً يصاب بانحيار عصبي ، بينما نجد شخصاً آخر يتغلب على مشكلاته على نحو أقل عصابية .

(سادساً) إن مجادلات التحليل النفسي تفترض صحة ما تريد أن تقيم عليه الدليل وبذلك تتجنب موضوع الجدل : دعنا نعود إلى الجدل السابق القائل بأن البيوت التعسة تحدث العصاب ، ودعنا نفترض أنه قد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن هذه البيوت كانت أكثر في حياة العصايين منها في حياة غير العصايين . ولوجدنا على أساس هذا بأن البيوت التعسة أو المتصدعة كانت مسئولة على أي نحو عن العصاب المثالي لكان ذلك مثلاً واضحاً لمغالطة منطقية قديمة وتعرف هذه المغالطة عند الاحصائيين « بالخلط بين الأمور المقترنة مع بعضها ، وبين الأمور وأسبابها ، وكل ما يمكن أن يقال أنه ثبت أن البيوت التعسة والعصاب مرتبطان ، ولا يدلنا هذا الارتباط على التابع السببي المتضمن على الإطلاق . والتفسير الفرويدي تفسير بيثي ، ومن المعقول تماماً أن نثير تفسيراً وراثياً حول هذه الاتجاهات فتقول إن الميل إلى العصاب موروث ، آباء عصايون فأبناء عصايون . ولكن يحتمل أن يخفق زواج الآباء العصايين ، وإذن فسيدشأ أبناؤهم في جو منزلي تعس ، وسنجد نتيجة لذلك أن العصايين يفقدون من البيوت التعسة بكثرة مزعجة ، لا لأن البيوت التعسة تنتج العصاب ، بل لأن عصاب الآباء يحدث البيوت التعسة ، ويؤدي عن طريق الوراثة إلى عصاب الطفل . وأنا لا أدعي أن هذا الفرض الثاني الذي يفسر الظاهرة على أساس وراثي أكثر احتمالاً في صدقه من الفرض الفرويدي (على الرغم من وجود دليل ملحوظ على وجهة النظر القائلة بأن الميل العصابي

وعدم الثبات الانفعالي سمات موروثة إلى درجة كبيرة) ، وإنما أنا مهتم بتجاهل المحللين النفسيين الهادى للفروض غير الفرويدية التي قد تفسر الحقائق المزعومة بنفس الجودة. والعلم يتقدم يبحث الفروض المعاصرة بواسطة تجارب تم ضبطها بعناية ، ولا يتقدم بتجنب الموضوع : وحين يتحقق من أن الحقائق المدعاة نفسها مشكوك فيها ، وكثيراً ما تكون مجرد إسقاط لرغبات المحلل ، سندرك لماذا يعرض العلماء عن التفسير التحليلي للطبيعة الإنسانية باعتبار أنها لا تعدو أن تكون مجرد تأمل ذكي .

إن الاعتراضات على هذه الطرق في القيام بالأبحاث وفي تقديم البراهين والجدل ليست مقصورة على علماء النفس ، فكثير من الأطباء النفسيين الأورثوذكس يماثلون علماء النفس في لوهمهم . ويلخص اليوت سلاتر Elliot Slater المسألة تلخيصاً بالغ الجودة حين يقول : لقد تزايد الاتجاه بين السكياتيكين للتقليل من الآثار التي ترجع إلى الأسباب الوراثية ، وأن يعلموا طبياً نفسياً لا تذكر فيه هذه الأسباب ، أو تذكر ذكراً قليلاً . ولقد كان هذا الاتجاه وما زال ملحوظاً في بريطانيا ، ولكنه اكتسب قوة ملحوظة في الولايات المتحدة الأمريكية . وبدلاً من النمو المتسق ، الذي يحظى فيه الدهان والعصاب ، والتكوين والوراثة ، والتكوين النفسى والتكوين الفسيولوجى ما يستحق من عناية ، انصرف اهتمام المشتغلين في الميدان العملى وكرسوه على نحو أكثر شمولاً للعلاج النفسى والتحليل النفسى ، والطب النفسى الاجتماعى ، واختيار الموظفين ، والعلاج الجمعى ، والانشغال الزائد بالانثربولوجيا وعلم الاجتماع ، والنظرية السياسية . وهذا اهتمام متحيز وليس نمواً صحيحاً .

« ولا نغالى إذا قلنا أننا نشهد ظهور اتجاه لا علمى يكسب عدداً متزايداً من المؤيدين فهذه المدارس تتجاهل القوانين المألوفة للتفكير العلمى . وترك الحقائق المقلقة دون الالتفات إليها ، وتتضاعف الفروض بغض النظر عن

مبدأ الاقتصاد . وتعتبر التفسيرات التي قد تصدق على عدد معين من فئة صادقة بالنسبة للفئة ككل . وتعتبر التفسيرات التي تتفق مع نظرية والتي قد تكون صحيحة ، ثابتة ولا ينظر إلى تفسيرات ممكنة أخرى ، ولا تبذل محاولة للبحث عن دليل له قيمة نقدية تميز بينها . وتتجاهل الانتقادات الصادرة من خارج ، ولا يسمع إلا الرأي الذي بدىء به . والدعاوى عقيدية وينقصها التواضع العلمي والحرص . وهذه هي الميكنزمات العقلية التي تربطها بتطور المدين ، لا بتقدم العلم .

وإذا كان هذا الفصل ناقدا . فذلك لأنى مهم بمستقبل علم النفس . وعلى أية حال قد يظهر كثير من علماء النفس رغبتهم عن المسؤولية عن الآراء التي يقدمها المحللون النفسيون . وكثيرا ما يخفق المجتمع في التمييز بين التقارير العلمية التي تقوم على الحقائق والاستدلال المنطقي والاحصائي الدقيق وبين الآراء التي ناقشناها في هذا الفصل obiter dicta . والذي تقوم على اقتراضات وتفكير مفكك حالم . وإذا انعدمت الثقة بمضى الزمن في النوع الأخير فسيرتبط هذا بالتأكيد بعلم النفس كله وبالطب النفسى . بدلا من ارتباطه بالمجموعة المسئولة عنه .

ولا أحب أن يفهم أنى أنهم التحليل النفسى بقضة وقضيضة . فأنا أقدر مثل معظم علماء النفس تيار الهواء المنعش الذى جاء به فرويد وسط الجو الخائق المترب الذى ساد علم النفس الاكاديمى فى القرن التاسع عشر . فقد فتح بعقله الذكى أبوابا لا أحد يرغب فى إغلاقها ثانية . وقد زودنا استبصاره العميق الحاد بحصيلة هائلة من النظريات والفروض التى سوف تشغل الباحثين لسنوات طويلة قادمة وكل هذا يمكن أن يقدره المرء دون أن يقبل آراءه كلها على أنها وحى من سلطة أعلى ودون أن يفقد المرء قدرته على النقد . وفى اسهامات فرويد فى علم النفس نواح بالغة

الاهمية . غير أن هناك نواح أخرى كثيرة رديئة . ويجب أن يعمل علم النفس علمى على حذف النواحي الأخيرة والاحتفاظ بالأولى . والإجابة عن السؤال الذى يطرحه هذا الفصل ما خطأ التحليل النفسى ؟ إجابة بسيطة . التحليل النفسى غير علمى . ونأمل باستخدام الطرق العلمية التقليدية من استدلال علمى وتجريب أن نجنى كل كسب قصدت إليه عبقرية منشئة وواضحة .

الباب الرابع

سيكولوجية الإتجاهات

الفصل الثالث عشر

سيكولوجية القوالب السلوكية في الحاق القومى

منذ فترة وجيزة مضت ظهر في عدد من الصحف الانجليزية مقتطفات من مجلة روسية تسمى Odesskiye Novosti تعرض وصفاً تفصيلياً للضابط البريطانى النموذجى فى الوقت الحاضر . وترى هذه الجريدة أن دخل هذا الشخص المحظوظ . يبلغ آلافاً وكثيراً ما يبلغ عشرات الآلاف فى العام . وهو لا يحسب نفقاته لأنه يعجز عن حساب النفقات . ، والاجر الذى يتقاضاه من الحكومة لا يكاد يكفى لعطره وملابسه ، فالضباط الانجليز . وخاصة الشباب منهم ، يعيشون فى ثراء والظاهر أنهم ، لا يقومون بأى عمل من أى نوع على الإطلاق ، فهم ينفقون أيامهم ولياليهم فى أندية فاخرة جداً ناعمين بالثراء ، ولذا ، فلا عجب أن يشغل الضابط العادى عادة بصاحبتين فى نفس الوقت ، سيدة من المجتمع الراقى وفئة من فتيات البالية أو الأوبرا ، والضابط البريطانى كجندى فى برته وهى فاخرة محبوكة على جسمه ، أجهل ضابط فى أوربا من وجهة النظر المهنية .

ومن السهل أن نضحك من مثل هذه الهراءات الواضحة . ولكن هذه المقتطفات تبرز ميل التفكير الإنسانى الذى لا يقتصر على روسيا ، ولكنه شائع . وهو الميل للتفكير وخاصة بالنسبة للمسائل الاجتماعية والقومية يعتمد لاعلى أسس عقلية ، بل على أساس تعميمات جامدة ، وكلمة تعميم جامد Stereotype مشتقة من عادة الطباع الذى يصنع قوالب الورق وفق الشكل الذى يحتوى

على نوع صفحة الجريدة وحجمها . ثم يصب رصاصاً منصهرأ في هذا القالب ويتم الحصول على لوح رصاصى يستخدم فى طبع النسخ . وقد طبق والتر ليبمان W.Lippmann الصحنى الأمريكى المعروف لفظ تجميع جامد على ميدان الاتجاهات والأفكار بسبب خاصية جود العمليات العقلية التى تصب مادة الخبرة فى أنماط ثابتة محددة . وكما بين ليبمان ، فى معظم الحالات لا نرى أولاً ثم نعرف بل نعرف ثم نرى . وفى الخليط العظيم الملى . بالدوى والطنين والمشبع بالنضارة لعالمنا الخارجى ، نلتقى ما عرفته لنا ثقافتنا من قبل . ونميل إلى ادراك ما اتقينا فى القوالب الجامدة التى حددتها ثقافتنا .

ولهذه الطرق الجامدة فى النظر إلى الأشياء أخطار واضحة . إذ تميل إلى أن تكون غير متكيفة وقد تؤدي إلى كارثة لو أخذت مأخذاً بالغ الجد . فلو أن الروس قبلوا صورة الضابط البريطانى المقدمة لهم بجد ، فقد يصدروا صدمة شديدة حين يقارنوا بين صورة التعميمات الجامدة والواقع وللقوالب السلوكية مزايا واضحة أيضاً . فهى تزودنا بصورة عن العالم مرتبة ، غير متناقضة إلى حد قد يكون كبيراً أو قليلاً ، توافقت معها عاداتنا وأذواقنا ، وقدراتنا ، وراحتنا ، وآمالنا . وقد لا تكون هذه القوالب السلوكية أو التعميمات الجامدة صورة كاملة للعالم ولكنها صورة للعالم الممكن الذى توافقنا معه . وفى هذا العالم يكون للناس والأشياء مكانهم المعروف ويقومون بأشياء معينة متوقعة منهم . فنحن نشعر بالآلفة فيه ، ونلائمه ، ونحن أعضاء فيه ، ونعرف طريقنا فى أرجائه . وهناك نجد سحر المألوف ، العادى ، الموثوق به ، ونجد أخا ديدنا وأشكاله حيث تعودنا أن نجدها .

وربما كان أوضح ميدان نجد فيه الاتجاهات المعممة الجامدة هو ميدان الفروق القومية . وهو ليس الميدان الوحيد على أية حال ، ولدينا جميعاً

صور عقلية لجماعات معينة من الناس تجعلنا نسلم هذه الجماعات بخصائص معينة متجانسة مطردة . ونجد بعض هذه الخصائص أحيانا متتقا ومعبّر عنها في الرسوم الكاريكاتورية بصورة الرأسالى في جريدة «الدلي وركر» ، وهى جريدة إنجليزية شيوعية بقبعة العالية ، وعطفه الصباحى ، وحقيبة الذهب التى تمرغ وجوه الفقراء فى التراب ، تجد ما يعارضها فى جريدة الدلي اكسبرس ، صورة البولشفي ذى الذقن ، وقنبلة فى يده ، الذى يهدد بنسف البرلمان . ويصعب أن نجد أى جماعة كبيرة فى المجتمع - كالعوانس ، وزوجات الأب ، والسياسيين ، ورجال العصابات واليهود ، والنازيين والعمال ، والفلاحين ، واللندنيين ، وقائدى سيارات الأجرة ، و«كسارية الأنويس» - لا تتسم ببعض الخصائص الجامدة المعممة التى يتصف بها جميع أعضائها ، مهما كانت هذه الخصائص غير واقعية وغير مناسبة .

ولكن فى ميدان الفروق القومية تبدو للقوالب السلوكية عدوى خاصة وبيلة ، ربما لأنه فى حالة معظم الجماعات الأخرى تفرض الحقيقة ومعرفتها علينا أن نراجع أنفسنا ، أما بالنسبة للأقطار الأخرى فإننا نستطيع أن نبرر تفضيلاتنا فى ضوء تغيب المعرفة القائمة على الحقائق - وليس من يتمسك بهذا النوع من الآراء هم غير المتعلمين وحدهم ، فكثيرا ما تجد أستاذا متعلما ، قد كتب مجلدات عن الخصائص القومية للجماعات المختلفة . تقوم كلها تقريبا على خيالات هابرة ، وعلى تعصبات نمطية جامدة .

فالروح الحربية التى يوصف بها الألمان اليوم ، خلت منها تماما الأوصاف الجامدة التى شاعت عنهم منذ مائة سنة مضت ، حين كان ينظر إلى الفرنسيين على أنهم العسكريون بحق ، الذين أخذوا هذه الصفة بعد الأسبانيّين الذين تميل إلى النظر إليهم اليوم على أنهم شخصيات تصلح للردّهات الموسيقية . ويسجل التاريخ تغيرات أخرى كثيرة - فالسويديون المحبون للحرب ممن

ينجذب إليهم الخيال منذ مائتي عام مضت ، يعتبرون اليوم مثالا لدعاة السلام
الصبورين بالنسبة لكثير من الأمم الأخرى . ولقد قيل بحق أن المرء لا يستطيع
أن يتهم أمة بأكملها . ولا أن يصفها ، وما يصدق على أمة بأسرها ، يصدق
أيضا على الأجزاء المكونة لكل أمة . فلدينا أفكار جامدة معمرة فيما يتصل
بشخصيات الإيرلندي ، والويلزي ، والاسكتلندي ، أو البروسي ، والباقاري
والغيني . ولا يحتمل أن تكون هذه الآراء أكثر دقة وصحة من تلك التي
تتصل بالأمم بأكملها .

وهناك طرق تجريبية لبحث هذه التعميمات الجامدة ومن بين أوضح
هذه الطرق أن نسأل مجموعة من الناس ما الذي يميز الألمان ، والإيطاليين ،
والأمريكيين ، وهلم جرا . وتتفق نتائج هذه الدراسات على وجه العموم
إلى حد كبير مع ما يتوقع منها ، هناك اتفاق ملحوظ بين أفراد أى أمة فيما
يتصل بالسمات التي تميز الأمم الأخرى . بل وهناك اتفاق بين الأمم المختلفة
مثلا ، يتفق الأمريكيون والانجليز في رأيهم عن الجماعات الأخرى ، ولو أنهم
يتفقون على نحو أقل بالنسبة لأنفسهم : فيعتبر الألمان ، مثلا ، أنهم
ذوو عقلية علمية ، مجدون بواسطة الانجليز والأمريكيين على السواء ويعتبرهم
الأمريكيون ثابتين ، أذكاء ذوي عقلية رياضية ، متطرفي الوطنية .
أكفاء ، محبين للموسيقى ، ويعتبرهم الانجليز متعظمين ، عدوانيين ، وبالغى
الوطنية . بينما يعتبر كل من الأمريكيين والانجليز الإيطاليين محبين للفنون ،
مندفعين ، عاطفيين ، حادى المزاج ، محبين للموسيقى ، متدينين ، كثيرى
الكلام منتقمين . كسالى . غير موثوق بهم . أقذار . وينظر الأمريكيون
والانجليز إلى الزوج نظرة أسوأ من هذه . حيث يعتبرونهم مؤمنين بالخرافات
كسالى . سعداء . غير مباين . جهلاء . متباهين . مغرمين بالموسيقى متراخين ،
غير موثوق بهم أقذار ومتدينين .

أما الإيرلنديون فهم أفضل . فبينما نجدهم متدينين ، سعداء غير مباين ،
فإنهم يعتبرون أيضا ، حادى المزاج ، حاضري البديهة ، مجدين . وطنيين .

كثيرى الشجار عدوانيين ، عنيدى ومشارين . ويعتقد فى اليهود أنهم دهاة ، بخلاء ، مجدون ، أذكىاء ، مخلصون لأسرهم ، محسكون ، طموحون ، خبثاء ومشارون . ويوسمون أيضاً بالتدين . أما الصينيون ، فكما يتوقع المرء منهم ، يعتبرهم الانجليز ، مجدين ، مؤدبين ، متأملين ، أذكىاء ، ومخلصين لأسرهم أكثر مما يعتبرهم الأمريكيون ، الذين يعتبرونهم مؤمنين بالخرافات ، خبثاء كثيرى المناقشة ، جهلة مخادعين . أما التعميمات الجامدة أو القوالب السلوكية عن اليابانيين فيبدو أنها قد تغيرت تغيراً ملحوظاً نتيجة للحرب . وبينما نجدهم اعتبروا قبل الحرب أذكىاء تقديميين ، مجدين ، دهاة ، ومفكرين ، فإنهم يعتبرون الآن قساة ، متعصبين ، غدارين ولو أنهم مازالوا مفكرين ، ومجدين . لقد يودى مضى سنوات قليلة إلى إعادتهم إلى مكانتهم السابقة أما الأتراك فهم فى موقف أسوأ ، فهم فيما يظهر قساة ، غدارون ، حسيون ، أقذار ، خادعون ، دهاة ، يحبون الشجار ، والانتقام ، ويؤمنون بالخرافات . وهم يعرضون هذا كله بتدينهم الشديد . أما الفرنسيون ، فلسنا بحاجة إلى القول أنهم مثقفون ، متحدثون ، محبوبون للفن ، عاطفيون ، حاضرو البديهة ، بينما الروس مجدون ، أشداء ، متشككون شجعان ، وتقديميون .

ويعتبر الانجليز أنفسهم ذوى روح رياضية ، محافظين ، يحبون التقاليد تقاليديين ، وأذكىاء والغريب أن الأمريكين يوافقون على هذا ، ويضيفون إلى ذلك أن الانجليز أيضاً مثقفون ، مؤدبون ، أملاء ، مجدون ، ومنطرفو الوطنية ، وأنا لا أكاد أجرو على أن أكتب هذا وليسوا مرحين ! ويعتبر الأمريكيون أنفسهم مجدين ، أذكىاء ، ماديين ، طموحين ، تقديميين ، محبين للاستمتاع ، يقظين ، أكفاء ، غير ملتويين ، عمليين وذوى روح رياضية ، ووافق الانجليز على أن الأمريكين ماديون ، يحبون الاستمتاع ، ولكنهم يعتبرونهم كرماء ، متحدثون . وأكثر صفاتهم شيوعاً أنهم معتزون بأنفسهم .

والاتفاق الشديد الذى نجده بين الإنجليز والأمريكيين يحتمل أن يكون راجعاً إلى حقيقة أن هذه التعميمات الجامدة أو القوالب السلوكية مشتقة من الكتب والأفلام ، وغيرها من وسائل الثقيف التى تتقاسمها الجماعتان . ومن غير المحتمل أن تؤدى المقارنة بين القوالب السلوكية التى نجدها عند الأسبانيين والأتراك أو الروس ، إلى إظهار كثير من الاتفاق مع ذلك الذى أوردناه هنا . ولو حكمنا على هذا بالكتابات الألمانية ، فإنه يظهر ، أنه بالنسبة للألمان ، يعتبر الرجل الإنجليزي المتوسط . منافقاً ذكياً لاضمير له ، وهو بما أوتى من مهارة فائقة وبصيرة ، قادر بطريقة عجيبة أن يكون دائماً فى الجانب المنتصر ، إنسان يعوضه عن عجزه فى العمل وفى البيع اتقانه للأساليب الدبلوماسية غير السليمة المجازفة ، وهو انتهازى قاس جريء قادر على التكهن بالحوادث ، أنانى يحسب الملابسات مغرور ، وهناك تشابه قليل بين هذه الصورة للرجل الإنجليزي المقتبسة من وصف هارولد نيكلسن H. Nicolson وصورة أخرى كتبها ، أن الصورة الفرنسية للإنجليزي هى انه انسان غير رشيق ، غبى ، أحمق ، وغير دقيق ذر وجه شديد الحمرة . ويبد أن الفرنسيين يفكرون فى بشرتنا أكثر من تفكيرهم فى أشياء أخرى . وهم يعزون هذا إلى الاستهلاك الزائد للحم ساء طبخه وهم يميلون لهذا السبب لأن يعتبرون أبررة أفظاظا . وتتفق الصورة الفرنسية مع الألمانية فى نقطة واحدة ، أن الفرنسيين يشاركون الألمان فى الاعتقاد بأننا منافقون . . .

والآن معظم الذين يعتقدون فى هذه التعميمات الجامدة أو القوالب السلوكية يحتمل أنهم لم يروا مطلقاً عضواً من الجماعة التى يعتقدون اعتقاداً قوياً بهذه الآراء عن صفاتها . والنقص الكامل فى معرفتها لم يجعلهم يحجمون عن هذه المعتقدات أو يقل حماسهم لها ، أو يسمحون بأى نوع من الشك يتسرب إلى عقولهم عنها .

وليس الذى يجعل هذه التعميمات الجامدة خاطئة هو خطأها فليس من غير المحتمل على الاطلاق أن يكون اليهود فى المتوسط أكثر ولاء لاسرهم ، وأن يكون الأمريكيون أكثر فخرا . والزنوج أكثر ولعا بالموسيقى . وأن يكون الإيرلنديون أحد طبعاً ، والألمان أكثر جداء من الجماعات الأخرى . وإنما الذى يجعلها خطيرة ، هو عدم وجود أى نوع من الأدلة على صحتها ، والاعتماد على آراء غير محققة غامضة لا تركز على أرض راسخة ، تظهر فى مقالات صحفية يومية عابرة ، وفى أفلام تشبه الصحف .

وتبيل هذه التعميمات الجامدة عن قطر أن تكون موالية أو مهاجمة وفقاً لما إذا كانت هذه الأمة ككل تعتبر مقبولة أم مكروهة . ومن الممكن أن ترتب الأمم على أساس حبها وهنا أيضاً نجد الانجليز والأمريكيين يميلون إلى الاستجابة بطريقة متشابهة ، فهم يوافقون على أن يضعوا أنفسهم والإيرلنديين ، والفرنسيين ، والسويديين والألمان فى القمة ، وأن يضعوا الأمريكيين اللاتنيين ، والإيطاليين ، والأسبانيين واليونانيين ، والأرمنيين ، والروس والبولنديين فى الوسط ، وأن يضعوا المكسيكيين والصينيين ، والهندوسيين ، واليابانيين والأتراك والزنوج قريباً من القاعدة . ولا يعرف الترتيب الذى يعطيه أقوام آخرون خارج الدوائر الأنجلو سكسونية لهذه القوميات ، ولكن يمكن القول فى حذر أنه سيختلف اختلافاً كبيراً عن هذا الترتيب .

والقوالب السلوكية المشابهة لتلك التى وصفناها تحدد تفكيرنا الاجتماعى السياسى . فكثيراً ما نستجيب لأسماء الأحزاب لا الاقتراحات الفعلية التى تقدمها لنا . ولقد تمت البرهنة على ذلك بوضوح فى دراسة ، فيها قوبل الفلاحون والعمال فى الولايات المتحدة بمقابلات شخصية لمعرفة مقاصدهم الانتخابية ، والأحزاب التى يفضلونها ، ومواقفتهم ومخالفاتهم لاتجاهات

العمل المختلفة . فقد وجد أنهم يعارضون الأحزاب الشيوعية والاشتراكية ومرشديهم ، ومع هذا يوافقون على الأعمال التي تقترحها هذه الأحزاب أكثر من موافقتهم على تلك التي يقترحها معارضوهم المحافظون . وحين يكون الأمر أمر انتخاب ، فإن هؤلاء الناس سيصوتون ضد الأعمال التي يفضلونها . فعلا بسبب نظرهم القائمة على التعميمات الجامدة ازاء الاشتراكية !

ولقد حصلنا على نتيجة مشابهة في هذا القطر (انجلترا) حين قيست درجة تحرر الشخص ومحافظةه بواسطة مقياس دقيق ثابت . فقد وجدنا داخل ملحوظ . في هذا المقياس بين أولئك الذين صوتوا للمحافظين ، والذين صوتوا للأحرار ، والذين صوتوا للعمال . فقد وجد أن بعض المصوتين للحزب المحافظ أقل محافظة في اتجاهاتهم من بعض الذين صوتوا للحزب العمال . وعلى هذا تحدد اعتقادهم بدرجة كبيرة لا بأرائهم في المسائل الأساسية ، بل بأرائهم القائمة على التعميمات الجامدة عن هذه الأحزاب .

ولقد ظهر كثيراً ، أن الناس الذين يهاجمون صراحة الفاشية كثيراً ما تكون لديهم آراء مماثلة لآراء الفاشيين فالذي يعارضونه هو التعميمات التقليدية عن الفاشيين . ولا اعتراض لديهم على الجوهر الذي يكون الفاشية . هل هذا الميل إلى التفكير في قوالب جامدة متصل على أي نحو بأجزاء أخرى في الشخصية ؟ أو بأي مجموعة اتجاهات سياسية واجتماعية محددة ؟ هناك دليل تجريبي قوى نسبياً في هذا القطر على الأقل . على أن الميل إلى التمسك بآراء نمطية جامدة يوجد على نحو أكثر بين المحافظين ، مع ميل أقل إلى التمسك بهذه الآراء بين الأحرار والاشتراكيين .

وقد ظهر أن الميل إلى التمسك بتعميمات جامدة أكثر شيوعاً بين من يسمون « شخصية استبدادية » ، The authoritarian personality .

ولقد تناولنا حتى الآن الفروق في الخلق القومى ، من وجهة نظر التعميمات الجامدة المشابهة للسكراريكاتير . ألا يوجد أى دليل يبين فروقا

قومية حقيقية ، وألا يوجد طريقة تفسرها على أساس أسباب معقولة ومقبولة .
لقد وجد عدد من المحاولات لتعريف الفروق القومية تجريبيا ، وهناك
عدد كبير من النظريات في الميدان ، ولكن لا يمكن القول بحق أننا قد أحرزنا
أى تقدم معقول حتى الآن .

ويبدو محتملا أن الدليل الأنتروبولوجى فيما يتصل بالفروق بين القبائل
والأخلفة معقول ومرضى ، ولقد وجد عدد من المحاولات حديثاً لتطبيق هذه
الطرق على جماعات أكبر وأكثر تعقيدا تلك التى نسميها أما متحضرة .
وسأناقش هنا إحدى هذه المحاولات . ولكن قبل أن أفعل هذا أريد أن اقتبس
بعض أوصاف مختصرة لجماعتين بدائيتين لأبين نوع الأوصاف التى قد يزودنا
بها علم الأنتروبولوجيا وهذه الأوصاف تتصل بأحدى المجادلات العظمى عن
التعميمات الجامدة التى تشكل سمة مشوقة من سمات حياتنا السياسية وأغنى
بها . فضيلتى التنافس والتعاون . بإظهار ما يحدث لو أن واحدة منها قد نفذت
بإلى مداها .

فلدينا من ناحية الزونى Zunis وهم جماعة بيبيلو من الهنود فى نيو مكسيكو
وهذه الجماعة قد حرمت التنافس كقوة اجتماعية ناشطة . فتعاقب الجماعة المبادأة
الفردية لأنها تعتبرها هدامة . ولا تشجع كل كفاح فى سبيل الشهرة أو القوة
ويظهر الملاحظ أنهم وقورون ، غير معادين ، متواضعون ، وهم أناس يحبون
الاحتفالات الدينية ، وهذه تتم وفق نمط متماثل تحدده قواعد محددة بالنسبة
لكل مناسبة معينة . وينقصهم فيما يظهر عليهم الفردية تماما . وتقوم كل
حياتهم على طقوس . وقواعد شبه دينية ، تحدد بالضبط العمل السليم فى كل
مجموعة من الملبسات ، ويعتبر الإشتغال الانفعالى جزءا من القوى الهادمة
للتنافس وليس مسموحا به ، ومن ثم لا تدخل فى عقود زواجهم وانفصالهم
. وهى بالغة البساطة ، فالزوجه التى ترغب فى طلاق زوجها تنتظر ببساطة حتى
يخرج من الكوخ ، ثم تربط كل حوائجه معا فى حزمة صغيرة وتضعها خارج

الباب . وحين يعود الزوج إلى المنزل ، يدرك أنه قد طلق ، وينسل مبتعداً دون أن يظهر انفعالات شديدة . وهذا النقص في الانفعالية يمنع الزوني أيضاً من الانتحار ، حيث لا يوجد خاسر لأنه لا يوجد كفاج تنافسي ، فلا حاجة للتخلص من الحياة ، وحين يحاطون علماً بحوادث الانتحار الكثيرة بين البيض يعتبرون هذا دليلاً كافياً على تفوق نظمهم الثقافي .

وكمثال يبين الطرف المضاد ، دعنا نتناول قبيلة فينيوغينيا وهي الدوبيانز . فهناك يسود التنافس . أو تعتبر الجماعة بغير قانون ، أفرادها مخادعون ، متشككون ويتعاركون على الدوام . وهم مقسمون إلى مناطق ، وهذه مقسمة إلى وحدات حربية . ولكن لا توجد إلا رابطة قبلية ضئيلة بينهم . ولا يوجد فردان منهم على علاقة وثيقة لأنهما يخططان دائماً لكي يستولى كل منهما على ممتلكات الآخر ، أو على الأقل يعتبر كذلك بواسطة كل فرد . وحتى العلاقة الزوجية تصبح مسرحاً للكفاج التنافسي . فالزجل والزوجة ينفقان عاماً في قرية الزوج حيث تعامل الزوجة كعبد . تضرب وتسكف بالقيام بأحق الأعمال ، ويحاول كل فرد أن يجعل حياتها غير سعيدة بقدر الامكان . وفي السنة التالية ، على أية حال ، ينتقل الاثنان إلى قرية الزوجة وهناك يصبح الزوج عبداً ، وتساء معاملته ، واستخدمه ويضرب . ومتى أخذت الزوجة حقها بهذه الطريقة ، يتحرك الاثنان إلى قرية الزوج ثانية ، وتعيد السكوميديا نفسها بحذافيرها .

وكل نشاط ينشغل فيه الدوبيانز تنافسي ، وكل حياتهم تقوم على السحر . وبينما نجد الطقوس قوة دائمة توجد الثبات والاتزان ، نجد السحر مفككاً ولا يمكن توقعه . ولا وجوم للقوانين الطبيعية : فإذا ماتت بقرة لك ، فليس ذلك بسبب كبر السن أو المرض ، بل لأن شخصاً آخر استخدم السحر ليضرب بك في عراك مستمر قوامه التنافس . وعملك ، إذن ، هو أن تتوصل إلى المستول وتستخدم سحراً مضاداً لكي تؤذيه إيذاء أشد مما لحقك . ونتيجة

المذلك ، فالسحر وما يحتاج إليه من افتتان لتعزيزه مطلوب دائما . والسحر
اللقوى أهم ما يمتلك عند الدوبانز .

وهذه الأوصاف مأخوذة من كتب علماء الأنثروبولوجيا من مدرسة
النمط الثقافي ، Culture Pattern ، ويمكن أن ترى على نحو ما أنهم
يشاركون في القول بطبيعة القوالب السلوكية . وليس ثمة شك في وجود
فروق في سلوك الدوبانز والزوني يمكن أن توضح على أساس إحصائي ،
ولسكن الوحدة الواضحة في الصورة في كل حالة يحتمل أنه تم التوصل إليها
بممارسة معروفة جدا وهي ترك الملاحم الغريبة وإهمالها وهناك أفراد وجماعات
بين الدوبيين-انز يرفضون المشاركة في التنافس ، ويعتبرهم الآخرون
شواذا بدرجة قليلة . وبالمثل ، هناك أفراد شديدو التنافس بين الزوني لا بد
من تحذيرهم ، أو حرمانهم من الطقوس الدينية ، أو حتى قتلهم للاحتفاظ
بالنمط . ولكن حين يقال ويعمل كل شيء ، وحين تتخذ كل الاحتياطات
للممكنة ، لا يمكن أن نشك أن هناك فروقا حقيقية عميقة بين الجماعتين ،
وأننا لو اعتبرناهم أمتين ، يمكن أن ننظر في إمكانية البرهنة على
الفروق القومية .

ومن السهل أن نمضي من هنا لنعظ ، كما يفعل كثير من الكتاب ، فيما
يبتصل بأداب السلوك التي يمكن أن تستخرج من هذه الأمثلة لما يحدث حين
يمكن الأخذ بمبادئ معينة مثل مبدأ التعاون والتنافس إلى مديهما . وسأناقش
بدلا من هذا في شيء من التطويل الجهود التي حاولت أن تستخدم هذا النوع من
التفكير والاحظ ميدان الفروق القومية الأكثر تعقيدا بين تلك الأمم التي
حدث أن فكرنا فيها على أنها متحضرة ، وسأتناول على الأخص دراسة جورر
Geoffrey Gorer للأمريكيين ، التي أثرت تأثيرا كبيرا على كثير من الناس
الذين قبلوا نتائجها بغير نقد على أنها حقائق .

إن تمهيد هذا الكتاب يحدد نغمة ما يليه . فجورر يعلم أن عمله ، يقوم نهائيا
على خبرات ومقابلات ، وحب ، وصداقات ، وخلافات ، وسوء تفاهم ،

ومحاورات رقيقة وحوادث عارضة صبغت حياته في الولايات المتحدة التي دامت أطول من سبع سنوات ، ويمكن أن نرى منذ البداية إذن ، أنه عمل يقوم على تقارير الخبرات فردية لا تقريراً لحقائق صادقة عامة ، ومن ثم كما أشار بعض النقاد ، هو عمل صحفي أكثر منه علمي . وحقيقة أن عددا كبيرا من التعميمات قد قامت على أساس من المغامرات الشخصية ، لا تجعل هذا الحكم مختلفاً بطبيعة الحال ، فالعلم يتطلب أكثر من التعميم إنه يتطلب التحقيق ، وليس هناك إلا القليل في رواية جورر عما يبين أنه شاعر حتى بضرورة تحقيق التعميمات التي يقدمها .

ويشتق جورر فرضه ، متبعاً ممارسات التحليل النفسي ، مما يحدث من علاقات داخل الأسرة . وهو يقوم على وجه الخصوص ، على ما يسمى «الاب المنبوذ» . وهو يجادل مستخدماً حقيقة أن كثيراً من الأمر يكتن أطفال المهاجرين ، بأن هؤلاء الأطفال سوف يميلون إلى احتقار آبائهم وينبذهم بسبب طرقتهم الأجنبية ، وصعوباتهم في الاستيعاب ، وطرقتهم الأوروبية العامة غير الأمريكية . ويذهب الأطفال بطبيعة الحال إلى مدارس أمريكية ، ويتعلمون الطرق الأمريكية ، ويتقمصون بكل سبيل الثقافة الأمريكية . وكلما ازداد نجاح الاب المهاجر في تحويل أبنائه إلى أمريكيين ... كلما أصبحت أجنبيته مصدراً أكبر للنجل والحزى وكلما قلت أهمية كنموذج وموجه ومثال ؟

وسوف يتصور المرء أن الأم ، مادامت أجنبية مثل الاب ، فإنها ستقاسى نفس النبذ ، ولكن يبدو أن هذا لا يناسب فرض جورر . فكلتا تكمن لغة الأم وأساليبها . فإنها تحتفظ بأهمية انفعالية كمصدر للحب والطعام والتعزية . ويلاحظ أن هذا مجرد دعوى ، ولا يقدم جورر أى دليل عليها ، مما يمكن الحصول عليه مثلاً من مقابلة شخصية لعينة حسن انتقاؤها من الجيل الأول من الأمريكيين مكونة من بضعة مئات من الأفراد ، وإنما تقوم هذه القضية كلية على ما يحتاج إليه فرضه . ويستخلص جورر نتائج بعيدة المدى من هذه

الفكرة ، فكرة نيزد الأب . فهو يعلن أن الأمريكيين معارضون للسلطة على وجه الخصوص ، وأن هذا يرجع على نحو ما إلى نيزد الأب ، الذى يعتبر نوعا من صور السلطة الأصلية . وهو يقارن مولد الجمهورية الأمريكية بالمنظر الأول المشهور عند فرويد الذى يلتحم فيه الأبناء الذين ديسوا ليقتلوا الأب الاستبدادى ، وبسبب إحساسهم الغامر بجريمتهم وخوفهم من أن واحدا منهم قد يحاول أن يأخذ مكان الأب وضعوا معاهدة اسكى يثبتوا مساواتهم الشرفية ، التى تستند إلى التبرؤ العام من سلطة الأب وامتيارانه ونيزدها . وعلى أساس هذه الأفكار يمشى فى جدله ، ليصل إلى أن هذا منشأ المناداة بالمساواة بين المواطنين فى المسائل الاجتماعية والسياسية Equalitarianism . وكره السلطة الذى يعتقد جورر أنه يميز الأمريكيين .

ويستخلص جورر من نيزد الأب وعدم نيزد الأم ، الفرض القائل بأن الأم أصبحت الوالد المسيطر فى الأسرة الأمريكية ، وحدث هذا كما يقول تقريبا ، نتيجة التقصير أكثر من كونه نتيجة مطالبة من جانبها لامتيازات أخرى أو تأثير أكبر ، ويترتب الكثير فى رأيه ، على حقيقة أن الأم الأمريكية ، بناء على ذلك ، أخذت على عاتقها الدور المسيطر فى تربية أطفالها وهو يعبر عن هذا بقوله أن السمة المميزة الغربية للضمير الأمريكى هو أنه أنثوى فى معظمه ، لأن الأم تلعب الدور الأساسى فى تأديب الطفل أثناء إصابته وعقابه ، ويربط بين الواجب والصواب وأثر الآتى ، وهذا كما هو واضح يجعل دور الابنة سهلا مباشرا ، ولكن الأمر يختلف بالنسبة للابن الذى يحمل معه ، أينما حل ، فى داخله أما رقية ، أخلاقية ناصحة ، ولكن هذه القواعد بسبب صدورها عن نساء ، يشعر بها الأبناء على أنها مفروضة عليهم وأنها تسليمات أو إذعانات لمطالب الأنثى يقبلونها باعتبارها خيرا فى ذاتها وهذا التطابق للسلوك الخلقى مع الأنثوية يؤدى إلى نتيجة واضحة هى أنه فى ميادين الحياة التى تهتم بالأشياء أكثر من اهتمامها بالأشخاص كما فى مجال

الحرف والتجارة ، حيث نجد العنصر الاثني ناقصاً ، لا تطبق القواعد الخلفية .

ويحتمل أننا قلنا ما يكفي لكي نزود القارىء بفكرة عامة عن نوع البرهان الذى يقدمه جورر . ولن أحاول أن ألخص بقية كتابه بل سأناقش بدلاً من ذلك الصدق العلمى للطرق التى يستخدمها فى جدله وبرهانه ، وذلك بأخذ بعض أمثلة من نوع أكثر خصوصية ومعالجتها بتفصيل أكبر . ويشرح جورر أن الأمريكين يميلون إلى تربية أطفالهم المولودين وفق نظام جامد للإطعام دون أن يهتموا إلا قليلاً بحاجات الطفل ، التى لا يمكن معالجتها على نحو سليم متى استخدم أى نظام جامد . وبسبب هذا الجود فى نظام الإطعام يخبر الأطفال الصغار الأمريكيون الجوع والخوف منه . والظاهر على أية حال ، أن هذا ليس هو النهاية فالخوف من الجوع يبقى ، على الرغم من بقاءه فى صورة مخافة غير معقولة . ويمكن أن ترى أعراض هذا فى المخاوف التى يعبر عنها الأمريكيون بكثرة من أن أمريكا قد تضطر للعيش على السكفاف ، وربما تتعرض لمجاعة فعلية ، إذا تركت طعامها أو مواردها أو أموالها تنقل خارج القطر ، ويمكن أن ترى أيضاً فى القلق الزائد الذى تثيره ميزانية قومية غير متزنة ، أو خوف من نقصان أو إلغاء أى من اعتماداتها .

وهذه النتائج خطيرة خطيرة كافية . ولكن على أية حال ، هناك نتائج أخرى لها أهميتها فى تحديد اتجاه وسلوك الراشدين الأمريكين . ويمضى جدل جورر وبرهانه على النحو التالى . بعد أن أسس بما يرضيه النتائج المختلفة لنظام الإطعام ، يشير إلى أن من الأمور المتصلة بهذه النقطة أيضاً القيمة الشبيهة الفتشية العظيمة التى ترتبط بأداء النساء فى أمريكا المعاصرة . وقد حلت محل القيمة السابقة التى كانت تخلع على السيقان تقريباً . فتفوق الأداء المتباعدة على نحو حسن ، والممتلئة جيداً ، تحت ثياب محكمة أى مقدار

من العرى في الإثارة ويذكر حقيقة أن معظم نجوم الأفلام المختلفة قد حققن شهرتهن بارتدائهن «سويتز» ضيق محكم وأن أحد الأفلام The Outlaw حقق شهرة واسعة بسبب تأكيده لصدر البطلة وأن الجزء الذي يفصل بين الشدين هو أعظم موضوع الاستطلاع الشبقي، وأن عددا من الأفلام الانجليزية التي ترتدى الممثلات فيها زيا خاصا Restoration Costume وقد اعتبرت غير وقورة ولا لائقة لعرضها على الجمهور الأمريكي لأنهن لم يرتدين لباساً للرأس ويضيف جورر أن لإدمان معظم الأمريكيين الرجال على شرب اللبن دلالة رمزية .

ولا ينبغي أن يؤخذ جدل جورر وبرهانه على أنه عرض سريع كما يميل الإنسان إلى ذلك عند القراءة الأولى . وذلك لأنه يقدمه تقدماً جاداً ، وعلى الرغم من أن هذا قد يبدو عملاً من أعمال التبرع ، إلا أنه يمكن النظر إليه من وجهة نظر ناقدة لعدة دقائق . أولاً ، ماهي مضامينه ، وثانياً ، ما الدليل الذي يقدم على صحته ؟ تدل الحقائق على أن صدر الآتي الحسن التشكيل والتكوين جذاب بالنسبة للأمريكي المتوسط ، وأن الرقابة الأمريكية تعمل بطرق غريبة . ولا ينبغي على أن أشك في دقة هذه الملاحظات . فالموضوع الحقيقي الذي يثار أن هاتين النقطتين استخلصتا من حقيقة مدعاة هي أن الأطفال الأمريكيين ينشأون على نظام اطعام جامد . والآن ، يتضمن هذا علاقة سببية ، إن كانت تعني شيئاً فيجب أن تعني أن سكان الاقطار الأخرى لأنهم نشأوا دون مزايا نظام اطعام جامد ، لا يظهرون أى اهتمام بهذه الأجزاء من قوام الآتي التي يصورها جورر . وأن أقسام الرقابة عندهم لا اعتراض لها على المظاهر الشديدة مما اعتقد أن يسمى اصطلاحياً «انشقاق» Cleavage ، ولا يوافق شخص واحد من يالفون معارك الرقابة في هذا القطر أو في القارة الأوربية ، على هذه النقطة الثانية . فمحاولات النجوم أن تكشف عن أجسامهن عورضت دائماً لكي يحدث انزاع من جانب الأخلاقين بضرورة سترها ، وأنه بينما تأرجحت المعركة في هذا الجانب أو في

الجانب الآخر في مختلف الاقطار ، وفي مختلف الأزمان ، الا أنه من الصعب أن نربط النجاح والاختفاق فيها بانتشار نظم اطعام معينة .

أما بالنسبة للنقطة الأولى ، فمن الصعب أن نتحدث حديث الثقات عنها لأن الموضوع على الرغم من أنه مشوق بغير شك ، ومع أننا متحمسون كما يمكن أن يتحمس لمعالجته طلاب الدكتوراه ، لا يتوافر لدينا أرقام موثوق بها عن تفضيل الرجال للسيقات أو الأثداء ، في هذا القطر أو في القارة الأوروبية ، أو في الولايات المتحدة . وما دامت هذه البيانات ناقصة ، ينبغي أن نترك لخبرة القارئ الشخصية ليحكم على ما إذا كان برهان جورر وجدله معقولا أم لا .

إن النقطة المشوقة حقيقة ، بطبيعة الحال ، هي ، أن جورر يربط بين حدثين ينظر إليهما معظم الناس باعتبار أنهما غير مترابطين تماما ، أعني بذلك طبيعة نظم إطعام الطفل ، وطبيعة الخصائص الانثوية التي تجذبه جنسياً حين يكبر ، وهذا كقرض يبدو غير محتمل . ولكن ، على أية حال ، أى شخص يأخذ هذه النقطة مأخذ الجد ، يستطيع بسهولة تامة أن يجرى تجربة ليبحث ، عما إذا كان هذا الارتباط في الحقيقة الواقعة له وجود . فلو أخذنا ١٠٠ ذكر نشأوا على نظام إطعام جامد ، ومجموعة ضابطة مكونة من ١٠٠ شخص مماثلين للمجموعة الأولى في السن ، والوسط الاجتماعي ، والذكاء ، ولكنهم ينشئون على نظام إطعام حر مرن ، فلن نجد صعوبة في مقابلة هؤلاء شخصيا لمعرفة طبيعة تفضيلاتهم وما يجذبهم من جسم المرأة ولكن هذه الطريقة ليست طريقة جورر فقد صاغ الفرض كما لو كان حقيقة ، دون أن يزودنا بتحقيق له ، وقد أقام أكثر النتائج بعداً من حيث مداها على تقولات وحقائق منتقاة غير متصلة بالموضوع إلى حد كبير .

غير أن جورر على أية حال يقتبس أحيانا حقائق ، ولكنه حين يفعل هذا نجد أن هذه الحقائق كثيرا ما تكون معرضة للنقد . فهو يقرر مثلاً ،

كحقيقة ، اعتقاد الأمريكيين في المساواة الأساسية بين الأمريكيين ، وكدليل على ذلك يقتبس من اقتراعات الرأي العام ، التي فيها سئلت عينة ممثلة من الأمريكيين أن يحددوا الطبقة الاجتماعية التي ينتمون إليها ، ووجد أن حوالي أربعة أخماس المسئولين في كل مجموعة وصفوا أنفسهم بأنهم طبقة وسطى . وكما يقول : على الرغم من أن هذا الوصف من الناحية الموضوعية لا معنى له تقريباً ، إلا أنه من الناحية الذاتية مجبر إلى درجة هائلة ... هذا الاعتقاد في المساواة الأساسية ، يتمسك به حوالي سبعة أثمان سكان الولايات المتحدة ، على الرغم من الفروق في الدخل نتيجة للجد والمهارة ، ولو أن الفحص الدقيق سيبين أنه باستخدام "معايير المؤاكلة والمعيشة ، والتزواج ، والاصطحاب يمكن تقسيمهم موضوعياً إلى ثلاث طبقات اجتماعية .

ويمكن أن ننظر عن كثب إلى البرهان . ان الاقتراح الذي يشير إليه جورر هو الذي تم بواسطة مجلة فورتن Fortune في فبراير ١٩٤٠ . وقد سئل أفراد عينة ممثلة للمجتمع أن يصنف كل منهم نفسه في طبقة من ثلاث طبقات تذكر له وهي الطبقة العليا ، والطبقة المتوسطة ، والطبقة الدنيا ، وقد وجد عامة أن ٨ / ١ ادعوا أنهم طبقة عليا ، بينما رأى ٧٩ في المائة أنهم طبقة وسطى ، ورأت ٨ في المائة أنهم طبقة دنيا ، وكانت النسبة الباقية في فئة " لا أعرف " . ومن بين الأغنياء رأى ٧٥ في المائة أنهم طبقة متوسطة ، بينما رأى ٧٠ في المائة من بين الفقراء ذلك . ويبدو أن هذه الأرقام بالضرورة تؤيد جورر .

وهناك ، لسوء الحظ ، خطأ فاحش في هذه البيانات لا يمكن أن يغفلها أي فرد يألف طريقة الحديث عند الأمريكيين ، أو الانجليز في هذه المسألة . فلفظ " طبقة دنيا " لا يطبقه ، غالبية الناس على أنفسهم . ففي التكوين ذي الثلاث طبقات الذي يتحدث عنه جورر ، لفظ " طبقة عليا " ولفظ " طبقة وسطى " مقبولان جداً ، ولكن الطبقة الثالثة تسمى نفسها طبقة عالية ، لا طبقة .

دنيا ، ونتيجة لذلك لا يمكن أن نستخلص أى نتيجة معقولة أو موثوق بها من المسح الذى أجرته مجلة Fortune الذى يبدو مخططاً فى وضعه بدرجة كبيرة . ولقد ظهر ذلك تماماً فى البحث الذى أجراه سنترز Centers الذى وجد أن الناس حين تتاح لهم الفرصة ليدعوا أنفسهم « طبقة عليا وطبقة متوسطة » ، وطبقة عاملة أو طبقة دنيا . وجد أن ١ فى المائة فقط اختاروا اللفظ « طبقة دنيا » ، لكى يبين موضعهم الخاص بينما سُمى ٥١ فى المائة أنفسهم « طبقة عاملة » ، وكما بين سنترز ان الاجابات تطرد أى شك فى أن الأمريكين حساسين من ناحية الطبقة الاجتماعية وهذا يدحض أى مزاعم غير دقيقة مثل مزاعم مجلة « فور تشن » ، بأن أمريكا طبقة متوسطة .

ويبدو أن ما يترتب على هذه البيانات أن اعتقاد وجورر الأصل بالمساواة بين الأمريكين ، التى تقوم عليها معظم أجزاء كتابه ، خاطيء ، وأن البرهان الذى يستخدمه لتأييده ، ظهر أنه يقوم بصفة قاطعة على أخطاء فنية كثيرة ما نقابلها فى الاقتراحات التى تقوم بها مجلة فور تشن . وأنتا يجب أن تنادى إلى عكس هذه النتيجة التى تنادى بها مجلة فور تشن . ماذا تمنحس الآن عن مجموعة الأخوة الذين تعاهدوا على التمسك بالمساواة بينهم وبمقاومة السلطة ؟ أنتا نرى بدلا من هذا بناء طبقيا . يشعر الذين يشاركون فيه شعورا تاما بمكانتهم الخاصة ، وبالعلاقاتهم بالآخرين فى هذا البناء .

ونسوق هنا مثالا واحدا من بين أمثلة كثيرة يمكن أن نسوقها ، حيث نجد الحقائق مناقضة تماما لفرض جورر . ولكنه لا يحاول أن يزودنا بأى مناقشة للبرهان القائم على الحقائق ، فهو يستخدم الحقائق لتوضيح فرضه كلها ويجدها متسقة مع نظريته وكلها يمكن أن تستخدم لتبني معضدة لها فالنظرية هى الاهتمام الأول ولا تكون الحقائق هامة إلا بمقدار امكان استخدامها لتعضيد أجزاء من النظرية ، أما إذا ناقضتها الحقائق فإنها تتجاهل وإذا لم تتوافر حقائق فهذا أفضل وذلك لأن وضع الفروض والكتابة النظرية عنها ستمضى فى جو أكثر حرية .

وسيرى القارىء الان لماذا بينت من قبل أن معظم عمل جورر يجب
أعتباره كتابة صحفية لاعلمية

وقد استبدل جورر وغيره من نفس المدرسة تعميمات جامدة جديدة
أو قوالب سلوكية جديدة بأخرى قديمة بدلا من تزويدنا بحقائق تتصل
بالتفروق القومية ، والاعتماد على هذه الحقائق للتوصل عن طريق الدليل إلى
أسباب فرضية ثم تحقيق هذه الاستنتاجات بالطريقة العلمية العادية . وقد
حاولوا بدلا من هذا مبتدئين من افتراضات قبلية تحليلية نفسية ومتقلبين
إلى أسباب افتراضية ، تعرض على أنها حقائق دون محاولة تحقيقها تجريبياً .
وإذا كان الأمر كذلك ، فيمكن أن نسأل لماذا ، نناقش هذا الإسهام بهذا
الإطناب ؟ إن السبب الرئيسى هو أنه بينما يعتبر هذا النوع من العمل ضئيلا
من وجهة النظر العلمية ، إلا أنه مع ذلك يلعب دورا هاما ومحددا لتنمية علم
النفس . ويتم هذا على أنحاء شتى .

وفي المقام الأول يحتمل أن يقبل القارىء غير المتخصص في هذا الموضوع
هذه المجادلات والتصريحات على أنها إسهامات علمية لها وزن . وقد يأخذ
هذه الحقائق المزعومة مأخذ الجد ويكون على استعداد لأن يقيم سلوكه عليها .
وهناك بعض البراهين على أن كتاب هذه المدرسة قد أقتنوا السياسة وغيرهم
من القادة المسئولين عن الجمهور بدقة تحليلهم لسيكولوجية الروس واليابانيين ،
ولما كانت هذه التحليلات لا تستند على أساس من الحقائق أكثر من كتابات
جورر عن الأمريكين ، فإنه يترتب على ذلك أن العمل الذى يستند إليها
خاطيء ، سىء التوجيه والإدراك . وتميل التعميمات الجامدة أو القوالب
السلوكية أن تكون علامات سيئة في طريق العمل .

وأسباب التقبل المنتشر لهذا النوع من الكتابات السيكولوجية الزائفة
لا تحتاج إلى جهد للكشف عنها . إذ يستطيع الكاتب متى لم يهتم بالحقائق الجارحة
أن يضع صورة متماسكة للظاهرة ، ويستطيع أيضا متى اعتمد على التعميمات

الجامدة ، ووافق على تميزات قارئه ، باهمال الحقائق الثابتة ، أن ينبذ الحثيات التي تثقل الصفحات التي يكتبها عالم أكثر حرصاً . ولأنه يخاطب جمهوراً عاماً ، فإنه يستخدم أساليب صحفية في الإقناع والإيحاء بدلا من الأساليب العلمية في العرض النزيه غير المتحيز والإستنتاج الحذر . فلا عجب أن نجد كثيرا من الناس يشعرون أنهم هنا قد وجدوا في النهاية حلا للمشكلة التي حيرتهم خلال الأعوام .

ومن الممكن أن تكون النقطة الثانية أكثر خطورة . وسيقرأ القراء الناقدون ، وخصوصاً أولئك الذين دربوا في علوم أكثر دقة ، هذا النوع من الكتاب وتظهر عليهم مظاهر الشك ، ويعتبرون أنفسهم محقين في اعتقادهم أن علم النفس ليس علماً ولا يمكن أن يكون علماً ، متجاهلين حقيقة هي أن كتباً مثل هذه لا تمثل على أى نحو العلوم الاجتماعية ، بل على العكس ، تتجاهل قوانينها وتزويرها . إذ يسهل أن يظن أن مثل هذا الكتاب يمثل العلوم الاجتماعية ، ومن ثم تقبذ بكليتها .

والنتيجة الثالثة هي أن العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من السوق . فقانون جريشام ينطبق على العلوم الاجتماعية كما ينطبق على الاقتصاد ، وقد أضعفت سهولة العمل النظري تعاضيد الجمهور للعمل الذي يقوم به العالم الأكثر صعوبة ، ومثابرة ، واستغراقاً للوقت . ومن الممكن بالتأكيـد القيام بدراسة تجريبية حقيقية للفروق القومية ، والحق أنه يمكن القول أن مثل هذه الدراسة ستكون بالغة الأهمية في تنمية هيئة الأمم المتحدة في المستقبل ، وفي التهيئة الفعالة للقرارات التي تصدرها الهيئات العالمية . ومع هذا فإن لا يحتمل القيام بمثل هذه الدراسات التجريبية ولا تمويلها بينما يبقى أصحاب السلطة معتقدين أن الإجابة الصحيحة للمشكلة يمكن التوصل إليها بالتأمل الأرائكي ؛ أو أن العلوم الاجتماعية عاجزة عن التوصل إلى الإجابة على الإطلاق . وتشجيع هذين الاتجاهين المتضادين الذين يتساويان في إضرارهما بتطور علم النفس العلى ، يجعل عمل جورر وزملائه يستحق التصنيف باعتباره أحد

الاستعمالات السيئة لعلم النفس . وبدلاً من استبدال التفكير القائم على التعميمات الجامدة عن الفروق القومية بالمناقشة التي تقوم على الحقائق ، فإن هذا الاستعمال السيء يضيف تعميمات جامدة جديدة إلى التعميمات القديمة . وحتى ينجى اليوم الذى تحل فيه الحقائق محل مثل هذه التعميمات الجامدة ، قد يكون من المفيد أن نقرر مؤكدين أنه فى اللحظة الراهنة لا يوجد برهان على توافر نوع مقبول من التعميمات الشاملة فيما يتصل بالفروق بين الأمم .

الفصل الرابع عشر

اقتراع جالوب والرأى العام

« صوت الشعب من صوت الله » Vox Populi vox dei مثل يصدق في كل زمان ومكان في وصف العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، سواء كان الحاكم ديكتاتوراً أو ديمقراطياً ، ولا فرق في الواقع بين ديكتاتور كموسوليني في حالة اتخاذه لقرار تعارضه الغالبية العظمى من شعبه بما يجلب على نفسه وعليهم من شقاء وبؤس ، وبين أحد الوزراء في مجتمع ديمقراطى يعارض في قراراته رغبات واتجاهات ناخبيه ، وقد اهتم الساسة والقادة العسكريون ورجال الدولة اهتماماً عظيماً بالطرق التى يتعرفون بها على آراء هؤلاء الذين يعتمدون عليهم فى النهاية ، منذ العصور القديمة .

و ينبغي ألا نتخيل اطلاقاً ، أن محاولات القادة لمعرفة اتجاه الرأى العام قد بذلت بقصد الرغبة فى تغيير السياسة بما يتفق مع الرأى العام ، بل كثيراً ، ما قصد من هذه المحاولات الكشف عما إذا كان الأمر يتطلب القيام بدعاية أكبر لكي يتفق الرأى الشائع مع رأى القائد . وحين يشعر القائد بأن الرأى الشائع لن يقبل اجراء معيناً مثل تحريم هائل للحزب الشيوعى ، فقد يلجأ إلى الأمر بتنفيذ أعمال معينة ، مثل احراق الريشستاغ ، مما يترتب عليه تغيير اتجاه الرأى العام تغييراً كافياً يمكنه من تنفيذ وتحقيق هدفه الرئيسى .

ومهما كان هدف البحث عن آراء الشعب واتجاهاته فإنه رغبة عامة تماماً وقوية جداً ، ولا شك أن حركة الحكومات الديمقراطية فى اتجاهاتها إلى عمليات الانتخاب أو الاقتراع العام ، تبنى على أنه من الممكن الحصول على تقدير حقيقى لاتجاه الرأى العام عن طريق هذه العمليات ، ولم يكن

هناك حتى وقت قريب طرقاً أفضل لمعرفة الرأى العام ، مالم تفضل الاعتماد على حدس ما نسميهم خبراء وتقديراتهم الذاتية . وواضح ، أن الصوت الذى يعطيه الفرد فى الانتخاب غير معين أو مخصص على الإطلاق ، لأنه يعطى لحزب يمثل لا وجهة نظر واحدة فى موضوع واحد ، بل عددا كبيرا من وجهات النظر فى عدد كبير من الموضوعات ، ولا يستطيع أن يميز بينها حين يدلى بصوته . وعلى هذا قد يتفق مع المحافظين على اصلاح التعريفة الجمركية ويوافق الأحرار على المساواة فى الأجر على العمل المتساوى ، ، ويتفق مع حزب العمال فى ضرورة التأمين ، ولن يوضح صوته النهائى أى دليل على هذه التميزات والتقسيمات الدقيقة ، ومن المؤكد أنه سيصوت ضد وجهات نظر قد يتمسك بها ويدافع عنها بقوة ، أيا كان الحزب الذى يصوت له .

وقد تطورت أساليب الاقتراع كما تسمى هذه الأيام نتيجة الحاجة إلى الحصول على مقاييس أكثر دقة للمسائل الفردية ، وللتوصل لصورة أفضل عما لدى رجل الشارع من آراء مما يمكن الحصول عليه بملاحظة حجم الحشد الذى يفد لسماع الخطب السياسية ، ومزاجهم ، وبالاستماع للآراء التى يفصح عنها الناخبون لمرشحيهم وللعاملين فى الحزب خلال المناقشات وما يرسل إلى المجلات والصحف السياسية من رسائل وما إلى ذلك . ويبدو أن هذه الأساليب انبثقت مما كانت تقوم به الصحف الأمريكية من اقتراع Straw votes فى الجزء الأول من هذا القرن ، وفيها كانت تسأل رجل الشارع عن ينتوون انتخابه وثمة تطور آخر ساعد على صوغ طرق الاقتراع الحاضرة ، وهو استخدام الاستفتاء البريدى mail canvas ، الذى بدأت به بعض الصحف الزراعية منذ قرن تقريباً ، ثم استخدمه قسم الزراعة بالولايات المتحدة ، أولاً لجمع بيانات عن المحاصيل ، ثم بعد ذلك لجمع الآراء عن الموضوعات المختلفة . وأفضل مثال معروف لهذا النوع من العمل هو سلسلة الاقتراعات التى أجرتها مجلة Literary digest ، والى اتصلت بملايين (١٩٢ - علم النفس)

من المواطنين في الولايات المتحدة خلال عشرينات ١٩٠٠ ، وبداية الثلاثينات . واهتمت هذه الاقتراعات لا بمقاصدهم الانتخابية فحسب بل أيضا بما لدى الناس من آراء عن موضوعات مثل تحريم الخمر والسياسة الجديدة New Deal .

ولقد كانت المحاولات المبكرة في التنبؤ بنتائج الانتخابات والتوصل إلى الآراء والاتجاهات العامة في الموضوعات المختلفة في بعض الأحيان دقيقة جدا في تنبؤاتها ، وعلى هذا فإن مجلة Literary Digest تنبأت عام ١٩٣٢ عن عدد الأصوات التي سينالها روزفلت مع خطأ أقل من واحد في المائة . ويندر أن يحدث نجاح كهذا على أية حال ، وقد وجد في عدد كبير من الحالات أن التنبؤات كانت غير صحيحة إلى درجة كبيرة . وأرجع عدم الرضا عن عدم الدقة هذه إلى التطورات التي كثيرا ما تقترن باسم جالوب ، والنظام الحديث لمعرفة الرأي العام عن طريق الاقتراع .

وتعتبر المشكلات التي تواجه من يرغب في التحقق من الرأي العام في أي موضوع معين بسيطة نسبيا في بعض النواحي ، كل ما عليه أن يفعل ، إذا أردنا ألا يجاز هو أن يقابل الناس ويسألهم مباشرة عن اتجاهاتهم وهذا ما يفعله تقريبا رجل الشارع بغريزته ، وهو ما يعمل من يضع خطة الاقتراع اليوم مع ادخال تحسينات معينة . وعلى أية حال ، ثمة ثلاث مشكلات ، بهذا الصدد وتطلب اهتماما يتسم بالحرص . وهذه المشكلات الثلاث الأساسية هي :

أولا : إلى من نوجه السؤال أو مشكلة اختيار العينة . وثانياً : ماذا نسأل أو مشكلة المقابلة الشخصية ، ثالثاً . الاستنتاجات التي نستخلصها من النتائج أو مشكلة التفسير .

دعنا نأخذ مشكلة اختيار العينة أولا : إن ما نريد معرفته هو استطلاع رأي مجموعة معينة من الناس ، قل كل البالغين الذين يسكنون الجزر البريطانية وهم عادة عدد كبير جدا بحيث لا يمكن سؤال كل أفراد تلك المجموعة ومن الممكن لحسن الحظ ، أن نتوصل إلى تقدير دقيق جداً لآراء كل الجماعة

بِسؤال عينة صغيرة نسبياً من هذه الجماعة وإذا سألنا عينة صغيرة ، على أية حال يجب أن نتأكد تماماً من أن هذه العينة ممثلة لكل المجتمع وبعبارة أخرى ، يجب أن نتأكد من تمثل الرجال والنساء ، والكبار والصغار وأهل الشمال وأهل الجنوب والعمال والطبقة الوسطى ، وأهل المدن وأهل الريف بنفس النسبة في العينة التي يوجدون بها في المجتمع الأصلي الكامل. وواضح ، أنه إذا اختلف الرجال في آرائهم نحو موضوع معين عن النساء ، فإن اختيار عينة من الرجال فقط ، سيوصلنا إلى فكرة خاطئة تماماً عن الاتجاه الذي تتمسك به الجماعة كلها التي نهتم بها. وقد نختار عينتنا عشوائياً أي عينة يتاح فيها لكل عضو في الجماعة السكينة فرصة متساوية ليختار فيها . أو عينة طبقية وفيها نتأكد من أن يختار الناس على أساس نسب سبق تحديدها . ولكن ثمة ضرورة ملحة علينا في كلتا الحالتين ، وهي أنه قبل أن نستخلص أية نتائج لابد أن تكون العينة ممثلة للمجتمع حقيقة .

ومن الأمثلة الجيدة لما يمكن أن يحدث حين تكون العينة غير ممثلة ، هو ما حدث في اقتراع مجلة Literary Digest عام ١٩٣٦ . لقد أرسلت المجلة بطاقات بريدية إلى القراء ، وتلقت مليونين من الإجابات ، ومع ذلك فقد أخطأت في التنبؤ بما سيناله روزقلت من أصوات خطأ مقداره ١٩٪ . وهو خطأ كبير جعل المجلة تتجنب هذا الأسلوب من العمل فيما بعد . وحين نتذكر أن المجلة قد أجرت عام ١٩٣٢ أي قبل ذلك بأربع سنوات اقتراعا صحيحا لم يزد الخطأ فيه عن ١٪ فإننا نسأل ماذا حدث خلال الأربع سنوات التي انقضت بين الاقتراعين لكي نفسر هذا الاختلاف ؟ والإجابة بسيطة نسبياً . لقد وجهت المجلة استفتاءها البريدي لأشخاص أغلبيتهم من الطبقة الوسطى ، يقرأون مجلات كهذه ، ويملكون تليفونات وسيارات ، أناس يمكن أن توصف آراؤهم السياسية على العموم بأنها محافظة . وعلى هذا ، فهم عينة متحيزة إلى حد كبير بالنسبة للمجتمع وليست ممثلة له ، ولم يكن هذا أمراً هاما عام ١٩٣٢ ، لأن الفروق بين الحزبين السياسيين في الولايات المتحدة في ذلك الوقت ، الحزب الديمقراطي والحزب الجمهوري لم تكن

واضحة فيما يتصل باعتناق الأول للاتجاهات المحافظة والثاني للاتجاهات المتحررة ، فكلا الحزبين كانا متشابهين في هذا الصدد و متمسكين بالاتجاهات المحافظة . وترتب على ذلك أن نسبة المصوتين من الطبقة الوسطى من السكان الذين استفتتهم المجلة تنقسم بنسب متساوية كبقية السكان ، وترتب على هذا أن التنبؤ القائم على رأى هذه العينة كان صحيحا بدرجة معقولة ولكن روزفلت ، والسياسة الجديدة New Deal غير الموقف فجعل الحزب الديمقراطي أكثر تحورا ، وجذبا تأييد الطبقة العاملة ، بينما أصبح الحزب الجمهورى إذا قورن بالديمقراطي مرتبطا بالرأى المحافظ ، ومن ثم يجذب تأييد الطبقة المتوسطة . وما أن جاء عام ١٩٣٦ ، حتى أصبح التقسيم بين الطبقات الإجتماعية ، وعن طريق الاقتراع فى طبقة واحدة أعنى الطبقة المتوسطة حصلت مجلة Literary Digest على تقدير مدى التأييد الذى ناله « لوندون London ، المرشح الجمهورى ، ولم يتناسب هذا التقدير على الإطلاق مع التأييد الذى حظى به المرشح حقيقة مع السكان جميعاً .

وفى نفس السنة التى أخفقت فيها مجلة The Literary Digest فى التنبؤ بعودة روزفلت اخفاقا كبيرا ، على الرغم من أنها استفتت مليونين من الناس ، استطاع جالوب بعينه أصغر مكونة من ٣٠٠ فرد أن يقترب جدا من الاقتراع الفعلى وأن ينبأ بعودة روزفلت . ويبين ذلك أن المهم ليس هو حجم العينة بل تكوينها ، لأن عينة جالوب تكونت وفقاً لقواعد اختيار العينة الممثلة . وبرهان جالوب العملى على تفوق اختيار العينة الممثلة على الطرق غير المضبوطة التى شاعت قبله برهان مشير لهؤلاء الذين لا يثقون فى الجدل الاحصائى ، ولكن ينبغى أن نلاحظ أن مشكلة اختيار العينة بطريقة فعالة على أسس نظرية واحصائية قد درس منذ مدة طويلة قبل أن يظهر اخفاق اقتراع مجلة المختار هذه وقد اعتمد النقاد على هذه النظرية فى تبرير تقديم نتائج المختار والحقيقة أن علماء الرياضيات طوروا نظرية اختيار العينة بتفصيل كبير

جداً ، ومن الممكن أن تقدر الخطأ المحتمل في التنبؤ ، حين تعرف العينة وذلك بواسطة معادلة حسابية بسيطة .

كيف يمكن اختيار العينة فعلاً ؟ هناك طريقتان أساسيتان يسميان quota sampling اختيار العينة على أساس التقسيم ، والثانية area sampling اختيار العينة على أساس المساحة . ومعظم المؤسسات التي تقوم بإجراء الأبحاث (الاستفتاء) تستخدم هذه الطريقة ، وفيها يحدد للذين يقومون بالمقابلة الشخصية عدد محدود من الناس ذوو خصائص معينة ، عليهم أن يقابلوهم ، فقد يقال لهم أن يتصلوا بثلاثة رجال تزيد أعمارهم عن ٥٠ سنة ، وخمس نساء تقل أعمارهن عن ثلاثين سنة وهكذا . وعلى الرغم من أن هذه الطريقة تستخدم على نطاق واسع ولها مميزات البساطة والرخص ، فإن لها عيوباً معينة واضحة . إنها تتطلب من يقوم بالمقابلة الشخصية أن يقدر متغيرات مثل العمر والطبقة الاجتماعية ، وهكذا ، وهي متغيرات لا يمكن قياسها دائماً على نحو دقيق قياساً شخصياً . ويمكن أن يسأل القائم بالمقابلة بطبيعة من يقابل عن عمره وطبقته الاجتماعية ، ولكن الإجابة التي تتناول العمر لا تكون دائماً صحيحة . ولا سيما حين نسأل نساء ، ويغلب أن تكون إجابات الرجال عن هذا السؤال دقيقة ، ويبدو أن الذين يميلون إلى اعتبار أنفسهم في طبقة أعلى بانتظام عدد لا بأس به . وامكانيات الغش والتزوير من جانب القائم بالمقابلة ممكنة حيث تخترع الإجابات دون أن يقابل فعلاً أي إنسان ، أو يدرجه خطأ من يقابلهم في فئات حددت من قبل . ويحتمل إمكان التخلص من هذه العيوب بالتدريب والمران السليم ، والأجر المناسب ، وباختيار من يقوموا بالمقابلة الشخصية مع مراعاة خصائص شخصية معينة . ولكن حين يقال كل هذا ويتم العمل به ، يظهر اختيار العينة على أساس التقسيم باستمرار أخطاء أعظم في التنبؤ مما يمكن أن يفسر وينسوخ على أساس الخصائص النظرية لاختيار العينة . ولا يهم هذا كثيراً إذا كانت الأخطاء عشوائية ،

ولكن يبدو اسوء الحظ أن الأخطاء تظهر تحيزاً متميزاً . ويبدو هذا التحيز في جميع الأقطار التي تستخدم مؤسسات للقيام بعمل استفتاءات واقتراعات فهذه المؤسسات تتجه إلى المبالغة في تقدير أصوات مرشحي الطبقة الوسطى المحافظين ، وفي التقليل في تقدير مرشحي الطبقة العاملة والاشتراكيين ويظهر هذا في الولايات المتحدة حيث يتجه التقدير إلى الانقاص في أصوات الحزب الديمقراطي وإلى زيادة تقدير أصوات المحافظين . وقد ظهر هذا الاتجاه بوضوح كبير في انتخاب ١٩٤٨ ، حين أصبح ترومان Truman رئيساً ، على الرغم من التنبؤات الوثيقة بعكس هذا التي ظهرت في اقتراعات سابقة .

ويبلغ متوسط الخطأ في التنبؤات الانتخابية التي تقوم بها هيئات الاقتراع حوالي ٣٪ ، وهو رقم يتوقف جزئياً على نظام الانتخاب ودقته ، ولكن يبدو أنه ثابت ثبوتاً ملحوظاً على وجه العموم في جميع الأقطار التي استخدمت هذا النوع من الاقتراع . وقد يبدو مثل هذا الخطأ ٣٪ دالاً على الدقة النسبية ، ولكن من السهل أن نبالغ في تقدير فاعلية الاقتراع . فنجاج طرق التنبؤ كثيراً ما تفحص بمقارنتها بنتائج طريقة بسيطة للتنبؤ . مثل هذه الطرق الآلية هي أن تنبأ بأن الأصوات ستوزع في كل ولاية أو دائرة انتخابية بالضبط كما توزعت في الانتخاب السابق . ومن المعقول أن نتوقع ، إذا كانت حملات الاقتراع Polls هذه مفيدة أن تنبؤاتها أفضل من هذه الطريقة الآلية . وقد وجد في الولايات المتحدة ، أن دقة هذه القاعدة الآلية في التنبؤ خلال الفترة التي أمكن عمل مقارنات فيها (١٩٣٦ - ١٩٤٨) تبلغ من الجودة ما تبلغه النتائج التي توصل إليها بالاقتراع تقريباً . وقد يرجع هذا إلى أن الفترة لم تكن مرحلة تغير سياسي سريع ، وتؤدي المقارنة في إنجلترا إلى تفضيل الاقتراع ، ومهما كانت نظرنا إلى هذه الطرق ، فهناك شك ضئيل في أن من الممكن أن يتم اختيار العينة بطريقة أكثر دقة مما يحدث في الوقت الحاضر ، رغماً عما تتكلفه هذه الدقة - غير المضمونة - من تكاليف باهظة .

ومن الطرق التي تضمن اختيار عينة أدق تلك التي تقوم على المساحة وفيها تنقسم المساحة أو القسم إلى « أحياء » ويقسم كل « حي » إلى وحدات سكنية . وعن طريق عملية اختيار عشوائية ، تنتقى وحدات سكنية معينة ، ويختار أناس معينين في كل وحدة سكنية تحدد بحيث لا يكون لمن يقوم بالمقابلة الشخصية أي اختيار فيما يتعلق بمن ينبغي أن يقابل . وتؤكد هذه الطريقة اختيار العينة العشوائية ، ومن ثم فهي أفضل من الناحية الفنية من اختيار العينة على أساس القسم . ولكن عيبها هو أنها باهظة التكاليف جداً . وعلى من يقوم بالمقابلة الشخصية أن ينشغل من جزء من المدينة إلى جزء آخر لكي يجري مقابلات شخصية متتابعة ، وإذا لم يوجد المفحوص في البيت ، فعليه أن يتصلوا به المرة بعد المرة حتى يجدوه في بيته ليقابله . ولا يسمح بأي إبدال ، لسبب بسيط جداً هو أن من يمكنون بالبيت معظم الوقت يختلفون في نواح كثيرة عن يميلون للبقاء خارجة فترة طويلة . وهكذا في مسح قصد منه محاولة تقدير عدد الذين أسهموا في توفير أطعمة وقت الحرب بالعناية بزراعة حدائق النصر ، وجد أن نسبة من يزرعونها ممن يمكنون بالبيت حين ذهب القائم بالمقابلة لأول مرة أعلى من النسبة التي تساهم في هذا عن ينفقون وقتاً طويلاً خارج البيت ، والذين أمكن مقابلاتهم في فرص لاحقة ، وتبين أنه كلما ازدادت الزيارات اللازمة لمقابلة شخص ، انخفضت نسبة المشاركين في زراعة الحدائق .

وتميل المؤسسات الحكومية ، في كل من الولايات المتحدة وفي هذا القطر (إنجلترا) إلى أن تستخدم طريقة اختيار العينة على أساس المساحة ، لأنها كثيراً ما تصدر قرارات تنصل بسياساتها على أساس ما تتوصل إليه من معلومات ، ومن الضروري أن تكون هذه المعلومات بالغلة الدقة . ويتجنب اقتراح جالوب وغيره اختيار العينات بهذه الطريقة على العموم لأنها لا تؤدي إلى زيادة في الدقة تبرر ما تتطلبه الزيادة في التكاليف .

أما وقد انتهينا من اختيار العينة ، فإن المشكلة تتعلق بالأسئلة التي توجه إلى أفراد العينة . وكيف نمنع آثار التحيز من افساد النتائج ، والمشكلة الأولى التي تواجهنا هي تعبير المرء عن سؤاله بطريقة تجعل المسئول يفهمه مهما انخفض ذكاؤه ، ومهما كانت تربيته فقيرة ، وقد يبدو هذا سهلاً ، ولكن الحقيقة الفعلية أنها مشكلة جد معقدة وصعبة . وقد يفيد أحد الأمثلة في توضيح كيف يمكن أن يخفق حتى خبراء الرأي العام الذين تمرسوا في هذه الناحية . فلقد قامت مؤسسة أمريكية باستفتاء الزوج في الولايات الجنوبية عن اتجاهاتهم نحو فرض ضرائب على المهن الحرة ، ووجدوا ما يحيرهم وهو أن أفراد العينة عارضوا هذا العمل ، والمعتاد أن الجماعات الفقيرة تفضل فرض ضريبة على الأرباح . ولذا أرسل خبير من واشنطن لبحث المسألة . ولقد كتب إلى واشنطن بعد مسح مختصر ، قائلاً أن الزوج لم يجدوا ما يبرر فرض ضرائب على الأنبياء Prophets ! وهنا نلاحظ أن الغموض نشأ من تشابه اللفظ ، Profit ، ربح من ناحية ، واللفظ Pofet بنى من ناحية أخرى ، فقد فهم أفراد العينة في المصطلح على وجه غير ما يريد واضح الاستفتاء . وقد أوضح هذه القصة الحقيقية الصعوبات التي تواجه الخبير في صياغة أسئلته . ويبدو أن حل هذه المشكلة يكون عن طريق ما يسمى بالاختبار القبلي ، أي تطبيق مجموعة الأسئلة التي يعتقد أنها مناسبة مفهومة على عينة صغيرة من المجتمع الكبير لتبين مدى فهمهم لها . وإذا كانت نتائج هذا الاختبار التمهيدى غير مرضية فلا بد من تعديل الأسئلة مرة أخرى ، وإعادة تجربتها ، حتى يتأكد الاختبار القبلي تماماً من فهم أفراد العينة بوضوح وجلاء .

وليس الفهم على أية حال كل شيء ، فلكي يكون السؤال ذا معنى يجب أن يتعلق بالأراء الموجودة لدى الشخص واتجاهاته ، وإلا كانت غير ذات معنى . وقد سألت إحدى المؤسسات ، بعد الحرب بفترة وجيزة ، في استفتاء « هل تعتقد أن الملك جورج ملك اليونان يجب أن يسمح له بالعودة إلى وطنه ؟ »

وقد أجاب ما يزيد على ٦٠٪ ممن سئلوا بنعم . وتعرض هذا لهجوم في كثير من الأماكن على أنه تعبير عن رأى يؤيد الجانب المحافظ في كفاحه من أجل القوة ذلك الرأى الذى كان سائداً في اليونان في ذلك الوقت . ولقد قامت دراسة في نفس الوقت وجهت إلى الناس سؤالاً مختلفاً نوعاً ما وهو : هل سمعت مطلقاً عن الملك جورج ملك اليونان ؟ ، وكانت النتيجة أن نسبة صغيرة جداً من المجتمع لديها أية معرفة بهذا الملك . وهكذا جاءت نسبة كبيرة من الإجابة بنعم انعكاساً للاتجاه الطبيعى إلى القول : إذا كان هذا الفقى ملك اليونان ، لماذا لا يعود إليها بدلاً من أن يكون دليلاً على تفضيل جانب أو آخر من الجانبين السياسيين في اليونان . وعلى هذا يجب أن يحرص القائمون بالاستفتاء في محاولاتهم في أن يقيسوا اتجاهات موجودة لا في أن يخلقوا اتجاهات مزيفة تغطى ضرورة خاطئة عن الرأى العام .

وحتى حين تصاغ الأسئلة بوضوح وتتصل بالمشكلات الحقيقية جداً فهناك نقاط خاصة يجب أن نتذكرها . وأحد هذه ، هو أثر السياق . فقبل أن تدخل أمريكا الحرب ، أختيرت عينتان من الأمريكيين وسئلتا عن أفضلية السماح لمواطنى الولايات المتحدة بالانضمام للجيش الانجليزى أو الألمانية ، ولقد وضعت الأسئلة لعينة بحيث جاء الجيش الانجليزى أولاً ، وتلاه الجيش الألمانى : وأجاب ٤٥٪ بنعم فيما يتصل بالجيش الانجليزى ، بينما أجاب ٣١٪ عن الجيش الألمانى . وطرح السؤال على الجماعة الأخرى عن الجيش الألمانى أولاً ثم الجيش الانجليزى . وكانت النسب ٤٠٪ / أجابوا بنعم عن الانضمام للجيش الانجليزى وأجاب ٢٢٪ بنعم عن الجيش الألمانى . وهكذا أمكن الحصول على أرقام مختلفة تماماً ، وتوقف هذا على ترتيب وضع السؤالين .

ومن السهل أن نرى ما حدث هنا . لقد فضل الأمريكيون على وجه الخصوص الجانب الانجليزى ومالوا إلى أن يجيبوا بنعم عن السؤال ، أينبقى

أن يسمح للمواطنين بالولايات المتحدة أن ينضموا للجيش الانجليزي ؟ ،
و حين ووجهوا بسؤال مشابه يتصل بالجيش الألماني ، أدى بهم اتجاههم
المحايد إلى الإجابة على نحو مشابه ، على الرغم من أن هذا الاتجاه ضعف
نتيجة لعدم حبهم لجهاز الحرب الألماني . ومن ناحية أخرى إذا طرح السؤال
« ينبغي أن تسمح الولايات المتحدة لمواطنيها بالانضمام إلى الجيش الألماني
قبل السؤال الآخر ، فإن الجواب الطبيعي جداً لمؤلاء الأمريكيين جاء بالنفي ،
و حين طرح نفس السؤال عن الجيش الانجليزي . فإن الصفة الحيادية لسكان
الولايات المتحدة - في ذلك الوقت - أدت على نحو ما ، إلى الحصول
على نفس الإجابة بالنسبة إلى الألماني .

وثمة اعتبار آخر يؤثر في إجابات أفراد العينة المفحوصة إلى درجة كبيرة
وهو العلاقة الواضحة أو الضمنية الموجودة في السؤال ، ومثال ذلك السؤال
الآتي : هل يجب أن نبدأ التفكير في السلام الآن ؟ ، الذي طرحته مؤسسة
للاستفتاء في منتصف الحرب أجاب عنه ٨١٪ من الأفراد بنعم ولكن حين
صيح السؤال البديل بطريقة واضحة ، وكان ينبغي أن نكسب الحرب أولاً ، ثم
نبدأ في التفكير في السلام ؟ ، أجاب ٤١٪ فحسب بالموافقة على التفكير
في السلام الآن . وهكذا ، أمكن أن تحدث تغيرات ظاهرة ملحوظة في الاتجاه
نتيجة لصوغ السؤال صياغة واضحة .

وتنشأ مشكلة ثالثة حين تقضى الضرورة وضع أسئلة تتصل بمشكلات
تبدو الاتجاهات النفسية إزاءها على وجه العموم متصارعة مع السياسة القومية
والأفكار الشائعة . وحين توجه أسئلة من هذا النوع ، قد يكشف المستولون
عن آرائهم الحقيقية ، لكنهم قد ينجون إلى الأدلاء بما يعتبر إجابة مقبولة
من الناحية الاجتماعية . وقد أظهرت التجربة التالية دليلاً واضحاً على هذا .
لقد سئلت جماعتان من الناس « هل تعتقد أن اليهود أصحاب سلطة وتأثير

كبير في سياسة إنجلترا ، وفي إحدى الجماعتين كان الفرد يسجل الإجابة ، مع اتباع الوسائل العادية ، من كتابة الاسم والسن والمهنة وما إلى ذلك من إجراءات مألوفة عادية في مثل هذه الحالات ، أما في المجموعة الأخرى فقد أعطى قطعة من الورق ليكتب عليها الإجابة ، وقد طلب أن يطويها ويضعها في صندوق كبير كتب عليه كلمة « سري » بخطوط حمراء كبيرة ، ويحمله من يقوم بالمقابلة الشخصية . ولقد سلم ٥٦٪ من قوبلوا بالطريقة العادية باتجاهات مضادة للساميين في إجاباتهم إذ اجابوا بالإيجاب عن السؤال السابق ، بينما أجاب ٦٦٪ من الذين اشتركوا في الاستفتاء السري بكلمة « نعم » . والفرق الناتج ١٠٪ أكبر بكثير من أن يجرى نتيجة الصدفة ، ويدل على ميل متميز بين بعض الناس إلى إبداء إجابات مقبولة اجتماعيا عن هذا السؤال حين يستلون بالطريقة العادية .

إن ميل المسئولين إلى أن يدلوا بإجابات تتفق مع ما يعتقد أنه رأى السائل ، أو يتفق مع الآراء الاجتماعية السائدة ، قد يفسر بعض النتائج التي تتعلق بتحيز السائل فقد سئلت عينة في إحدى التجارب التي أجريت في الولايات المتحدة قبل دخول أمريكا الحرب ، سؤالاً يتعلق بمساعدة إنجلترا . وقبل أن يذهب الباحثون ليسألوا أفراد العينة سئلوا هم أنفسهم عن رأيهم في هذا السؤال ، ثم قورنت نتائج مقابلاتهم الشخصية بأرائهم . فمن فضل منهم مساعدة إنجلترا وجدوا أن ٦٠٪ ممن سألوهم يعضدون هذه المساعدة ، بينما يرى ٤٠٪ البعد عنها . أما المستبرون الذين أرادوا عدم مساعدة إنجلترا فقد وجدوا أن ٤٤٪ فقط ممن سألوهم يريدون تعضيد إنجلترا ومساعدتها ، بينما أثر ٥٦٪ البعد عن هذا . وواضح أن هناك بعض التحيز في النتائج ، على الرغم من أن من قاموا بالمقابلة الشخصية كانوا قد دربوا بالطبع على ألا يبدو أي دليل على آرائهم .

وهذا أمر مرغوب فيه ، ولكنه صعب التحقيق وكثيرا مايكون مستحيلا . فلمحة المستبر ، وتربيته وطبقته الاجتماعية قد تحدد قبلها إلى خدما إجابات من يقابلهم من الأشخاص . وهكذا سئلت جماعة أمريكية في إحدى المناسبات عن اتجاهها إزاء نظام نقابات العمال ووجد أن ٤١٪ فقط يعضدون هذا في المجموعة التي سألها شخص من الطبقة المتوسطة ، في حين أن ٥٦٪ كانوا معضدين لهذا في المجموعة التي سألها أشخاص من الطبقة العاملة . وواضح أن المسؤولين استشفوا أن المستبر الذي ينتمى إلى الطبقة المتوسطة يقف من هذا موقفاً مضاداً ، وأن المستبر إذا كان من الطبقة العاملة فإنه يعضد هذا النظام ، وهكذا صاغ المسؤولون اجاباتهم بحيث تسير آراء المستبرين .

وواضح أن هناك صعاب كثيرة تحول دون التخلص من التحيز ، وثمة طرق عديدة تتبعها المؤسسات التي تقوم بالإستفتاء في محاولتها لتجنب مثل هذا التحيز . وإحدى هذه الطرق مايسمى بالاقتراع السري المنصف ، وفيه تسأل عينتان مع استخدام أسئلة تختلف صياغتها لكل عينة . فإذا اتفقت النتائج ، فقد يؤخذ هذا دليلاً على أن صياغة السؤال لم تجلب تحيزاً ملحوظاً . وحين تظهر فروق يصبح تكرار البحث كله مع صياغة الأسئلة في كلمات جديدة أمراً ضرورياً . ومن الممكن فيما يتصل بتحيز من يقوم بالمقابلة الشخصية ، أن يستوثق من آراء الأفراد المسؤولين ، وأن تصحح الفروق التي وجدت بين المسؤولين ذوي الآراء المختلفة في ضوء معرفة آراء القائمين بالمقابلة . وبينما توجد هذه الإمكانيات ، إلا أن الهيئات التي تقوم بعمل الإستفتاءات لا تستخدمها لأنها كثيراً ماتشعر أن دراسات تجريبية من هذا النوع باهظة التكاليف . وليست ضرورية على الإطلاق . وكثيرا مايستطيع خبير التوجيه ، أن يتجنب الأخطاء الواضحة ، ولكن من وجهة النظر العلمية يقل الاعتماد على النتائج التي تنشرها هذه المؤسسات نتيجة لإخفاقها في أن تبحث كل أسباب الخطأ الممكنة في كل مناسبة .

ولقد تناولنا حتى الآن سؤالين الأول يتصل بمن نسأل ونستفتى ، والثاني كيف نسأل أسئلتنا ؟ وينبغي أن نعالج الآن السؤال الأساسي الذي يتصل بكيفية تفسير البيانات التي تجمع ومواد البحث . وهناك أنواع معينة من مواد البحث لا تتطلب كثيراً من التفسير بطبيعة الحال ، فالنبيؤ الذي يسبق الانتخاب بأن المرشح سوف يحصل على ٦٠٪ من الأصوات وأن المرشح به سوف يحصل على ٤٠٪ ، له أهمية علمية قليلة ، وأهمية صحفية كبيرة . أنه يدلنا اليوم بدرجة معينة من عدم الدقة على ما سوف نعرفه بدقة تامة على أية حال غدا . وحتى إذا قبلنا الدعوى بأن هذه التنبؤات تبرهن على الدقة العامة للاقتراع فإنه لا يمكن أن نقبل أن هذا يصدق على الأنواع الأخرى من الأسئلة ، فمن الممكن أن يكون الاقتراع صحيحاً يبين مقصد الشخص الذي يدل بصوته ، ولكنه غير صحيح في الكشف عن آرائه عن قانونية الدعاية ، أو حقيقة الله .

وحين تعالج المشكلات الاجتماعية العامة مثل الاتجاهات المضادة للسامية في المجتمع ، تصبح مشكلات التفسير حادة . وعلى سبيل المثال ، دعنا ننظر إلى إجابات عن السؤال الذي ذكرناه من قبل ، هل تعتقد أن اليهود أصحاب سلطة وتأثير كبير في سياسة هذا القطر (إنجلترا) ؟ واضح أن حوالي ٦٦٪ من السكان يعتقدون أن الأمر كذلك . هل نستنتج من هذا أن ٦٦٪ في المائة من السكان لهم اتجاهات مضادة للساميين ؟ واضح أن الجواب بالنفي ، ولو أننا سألنا سؤالاً مختلفاً هل توافق على أن يحتكر اليهود كل شيء بحيث يضرون الإنجليز ؟ ، فإننا نحصل على نسبة مئوية مختلفة تماماً . ونستطيع أن نجعل مسألة الاتجاهات المضادة للسامية متفاوتة في انتشارها من ٣٪ إلى ٨٠٪ ، وذلك لأن الإجابة تعتمد على صوغ السؤال الذي نسأله ؟ وواضح أن هناك خطأ كبيراً في هذه الطريقة في تقدير الاتجاه الاجتماعية العام .

ويبدو أن الصعوبة تنبعث مما تعودت عليه مؤسسات الاقتراع في كتابة نتائجها ، فقد تعودت وضعها في صورة نسب مئوية للإجابة عن أسئلة فردية « بنعم ولا ، ، ولا أعرف ، ، ولعل مقارنة هذه الطريقة بطريقة أخرى توضح الفرق بينهما . أفرض أننا اردنا أن نحصل على مقياس لمتوسط طول السكان . نستطيع أن نفعل هذا بأن نرسل عددا من الباحثين ومعهم عصي ذات أطوال متساوية وان نسالهم ان يقيسوا عينة ممثلة للسكان ، وأن يبينوا لنا نسبة الأفراد الذين كانوا أطول من العصي ، ونسبة أولئك الذين تساوى طولهم مع العصي ، ونسبة الذين قصرُوا عنها . وسوف نحصل بهذه الطريقة على مجموعة من الإجابات مشابهة لتلك التي تحصل عليها الهيئات التي تقوم بالاقتراع ، فقد نجد أن ٧٠ ٪ كانوا أطول من العصا ، و ٥ ٪ في المائة كانوا يساؤونها في الطول ، و ٢٥ ٪ في المائة كانوا أقصر . ولا تدلنا هذه الحقيقة على أى شيء عن متوسط الطول في السكان ما لم نعرف بالضبط طول العصا . ولكن اللفظ « طول العصا » يتضمن نظاما كاملا للقياس يمكن قياس طول الإقامة على أساسه ، وإذا كان مثل هذا النظام للقياس موجودا ، فالقياس الفعلي للطول الحقيقي لكل شخص في العينة يبلغ من البساطة مثلبا تباعه طريقة التصنيف . ويمكن أن توضع النتائج في صورة متوسط عدد من البوصات .

وما لم تعرف الدرجة المضبوطة للاتجاه المضاد للسامية في الإجابة عن سؤال معين ، فإن معرفة النسبة المئوية لمن يوافقون على هذه العبارة من السكان ، لا تدلنا إلا على القليل عن انتشار الاتجاه المضاد للسامية وليس ما نريد هو أن نسأل سؤالا واحداً يقرر النسبة المئوية لمن يجيب بنعم ، وبلا وبلا أعرف ، بل مقياساً للتقدير يمكننا من الحصول على الدرجة المتوسطة للاتجاه المضاد للسامية تلك التي نمثل ما يحصل عليه من استخدام الياردة لقياس الطول ، وليس من شك في أن العبارات التي تقوم على أساس مقياس لتقدير القيم يصعب تفسيرها عند قراءة الصحف ، ولكن لها قيمة علمية

لا تظهر في النسب المئوية التي تصدرها مؤسسات الاقتراع في الوقت الحاضر. ولا تؤثر هذه الاعتبارات ، على العموم في الفائدة العملية للاستفتاءات ولكنها على أية حال ، تنقص من أهميتها في العلوم الاجتماعية إنقاصاً خطيراً وتعتبر الاسهامات التي حققها الاقتراع في المجال العلمي قليلة جداً ، ولقد حدثت تعميمات معينة على أساس مآجع من بيانات هامة بالاستفتاءات ، مثل ملاحظة ان رأى الجماعات العاملة يميل إلى السيطرة على السياسة الداخلية في الدول الديمقراطية بينما يغلب ان تسيطر آراء الطبقة المتوسطة على سياساتها الخارجية ، ولكن مثل هذه التعميمات نادرة ، ومعظم النتائج تقرير عن حقائق فردية معينة ، مؤداها انه في مناسبة معينة أجابت نسبة معينة من عينة خاصة من السكان بنعم عن سؤال معين .

وتعتبر الحقائق الآن المادة الخام للعلم . ولكن العلم يتطلب أكثر من الحقائق . فبدون إطار نظري أو فرض يمكن أن تساعد الحقائق على تحقيقه أو رفضه ليس لها من أهمية أو صحة خاصة . ومن الخطأ إذن ، أن نفترض أن استفتاء الرأى العام ذو قيمة من الناحية العلمية لأنه يثبت حقائق لها درجة معقولة من الثبات ، ولكن إذا كانت هذه الحقائق متكاملة مع النظرية أو المذهب العام ، فقد يكون لها أهمية علمية أبعد ، وقد تقتبس لن دعم نظرية أو أخرى ، ولكن ثمة خبراء قليلون في مجالات علم النفس الاجتماعى النفس الاجتماعى ، أو علم الاجتماع ممن وجدوا أن هذه النتائج مفيدة وقيمة .

غير أنه من الناحية العملية ، يجب أن تجرى استفتاءات للرأى العام ، وأن تقوم المؤسسات المختلفة للسح الاجتماعى ، وه مؤسسة دراسة المستمعين لمحطة الإذاعة البريطانية B. B. C. Listener Research . وكثير من المؤسسات الحكومية الأمريكية بقياس الاتجاهات والآراء أزاء مسائل ذات تنوع كبير بواسطة الاقتراع والاستفتاء ، وأن تستخدم أساليب اختيار العينة . وقد تفيد أمثلة قليلة لتبيان نوع العمل الذى قامت به المؤسسات .

وقد اختيرت هذه الأمثلة تقريباً بطريقة عشوائية من بين عدد كبير جداً من الأبحاث التي تمت في هذا الميدان . وبعض هذه الأمثلة تتصل بمسائل بسيطة نسبياً ، والبعض الآخر يتبادل مشكلات عظيمة الأهمية . والمثال الأول الذي أريد أن أسوقه مستقى من عمل مؤسسة حكومية بريطانية هي The Social Survey انشأت خلال الحرب وقامت وما تزال تقوم بعدل هام منذ ذلك الوقت . وهي تقوم بدراسات دائماً استجابة لمصالح حكومية متنوعة ، تريد أن تقيم سياستها على بيانات واقعية فقد أثير في عام ١٩٤٨ السؤال عن عدد أوسمة الحرب التي ينبغي صنعها . وكان هناك سبع ملايين شخص تقريباً يستحقون ما يقرب من ٣٠ مليون وسام . وظهرت الحاجة الى معرفة النسبة التي سوف تطالب بأوسمتها من بين الملايين السبع ، وطلب إلى مؤسسة المسح الاجتماعي أن تقوم بالبحث وقد قدرت أن حوالي ٣٥ في المائة ممن يستحقون الأوسمة سيطلبون بها . ولقد ظهر فيما بعد أن ٣٤ في المائة طالبوا فعلاً بأوسمتهم . وعلى أساس هذا التقدير أمرت الحكومة بصك عدد أصغر بكثير من العدد الذي كان لازماً لو أن الجميع طالبوا بأوسمتهم . وبلغ ما اقتصدته الحكومة مبلغاً يتراوح ما بين ١٠٠ و ١٥٠ ألف جنيه إسترليني ، وهو مبلغ من المال غطى وحده تكاليف المؤسسة التي قامت بهذا العمل لمدة سنة كاملة ،

ويتصل المثال التالي بمسح خاص بدليل التليفون ، قامت به نفس المؤسسة . ويستخدم المشتركون في الخدمة التليفونية في لندن دليلين للتليفون أحدهما خاص بسكان لندن ، والآخر خاص بالضواحي التي تحيط بالمدينة . وتساهم الحكومة في ذلك الوقت لرغبتها في الاقتصاد في الورق والمال عملاً إذا كان الدليلان ضروريين حقيقة . فطلبت من مؤسسة المسح الاجتماعي نتيجة لذلك أن تبحث الاستخدام الفعلي لدليلي التليفون معاً إذا كان من الممكن منع طبعه وتوزيعه دون أن يقلل هذا من راحة المشتركين ، ودون

وجاءت نتيجة البحث بأن من الممكن سحب دليل التليفون الخاص بالضواحي ، وأن هذا لا يضايق المساهمين كثيراً ، ولا يؤدي إلى تزايد كبير في طلبات الاستعلام . وبناء على ذلك سحب دليل الضواحي من المساهمين . وأبانت النتائج منذ ذلك الوقت حكمة هذا القرار ، وتم توفير أطنان عديدة من الورق ومبالغاً يتراوح بين ١٥٠ ، ٢٠٠ ألف جنيه . ويمكن أن نستشهد بأمثلة لا نهاية لها من هذا النوع ، وفي كل منها تظهر إمكانية التنبؤ بالتصرف الإنساني في قطاع من السكان ، وإمكانية تشكيل الفعل السياسي والاجتماعي بما يتفق مع هذا . والسياسة الاجتماعية التي تعتمد على التخمين أكثر نفقة وأقل كفاءة من تلك التي تقوم على المعرفة والدراسة ويمكن أن تزودنا مؤسسات الاستفتاء مثل هيئة المسح الاجتماعي بهذه المعرفة بمحد أدنى من التكاليف والنفقات . ومن الصعب أن نتجنب الاستنتاج . وإذا كنا جادين في محاولتنا في التخطيط ، فإن مجال عمل هذه المؤسسات التي تجمع البيانات سيزداد ويتسع بل ويجب أن يزداد ويتسع ازدياداً كبيراً ، لأن مثل هذا التخطيط يقوم على ما يجمع ، وإذا كانت المؤسسات الصناعية والتجارية تنفق أموالاً تتزايد يوماً بعد يوم على أبحاث التسويق market research أي على محاولتها للكشف عن حقائق تتصل ببيع منتجاتها ، فإن الحكومة التي تؤثر إجراءاتها وتصرفاتها على القطر كله ، ينبغي أن تتزود بالحقائق التي تقيم عليها مثل هذه الإجراءات على نطاق واسع .

وثمة مثال آخر هام من نوع مختلف تماماً ، يبرز فائدة قياس الرأي . وقد قام بالبحث هذه المرة هيئة خاصة في جيش الولايات المتحدة . وفي نهاية الحرب ، ظهرت حاجة ماسة لتسريح القوات الأمريكية على نحو سريع وعودتهم إلى بلادهم . ولقد وضعت القيادة العليا نظاماً ، ظهر بوضوح أنه غير عادل ، واغترض عليه الجنود بحيث أنه بدا للوهلة الأولى أن ثورة عالمية توشك أن تنتشر بين القوات فيما وراء البحار . ولعلاج هذا الموقف ، أعطيت (م ٢٠ - علم النفس)

تعليمات لعلماء النفس ولعلماء العلوم الاجتماعية ليضعوا نظاما للتسريح يقوم على ما يعبر عنه الجنود المهتمين بالامر من آراء . وسئل عدد كبير من الجنود في فترة وجيزة من الزمن ، وأمكن وضع نظام يمثل اجماع الرأي ، لمن يتأثرون بالخطأ . وقد ثبت أن هذا النظام عادل ومنصف وأنه أدى وظيفته بدون تعقيد كبير ، وهكذا أمكن تجذب ما يمكن أن يكون مصيبة كبيرة ، لافى العلاقات الامريكية الاهلية والسياسة الداخلية ، بل أيضاً في الموقف السياسي في العالم في ذلك الوقت .

ويمكن أن نفحص الاستنتاجات الرئيسية الآن ، لهذا العرض . يمكن قياس الاتجاهات والآراء بالنسبة لعدد متنوع شامل من الموضوعات . ويمكن أن يتم هذا مع دقة نسبية باستخدام الطرق المناسبة في إختيار العينات وفي المقابلة الشخصية ولقد أبانت النتائج التي توصل إليها في الماضي باستخدام هذه الطرق الأهمية العملية الهائلة لهذا القياس في سياق التخطيط الديمقراطي ، ولا نبالغ إذا قلنا أن هذه الطرق بقدرتها على أن تنظر إلى الأمام تكون للسياسة بمثابة العين للإنسان . وثمة شك ضئيل في أننا سنرى في المستقبل القريب نمواً سريعاً في استخدام هذه الطرق وما يشابهها من أساليب ، وهكذا تستبدل المعرفة بالظن ، والإحصاء بالتخمين .

وأدى الانشغال بالمسائل العملية على أية حال ، بهؤلاء الذين يستخدمون هذه الأساليب إلى إهمال الاستخدامات العلمية لها . بمعنى وضع فروض وتحقيقها . وهذا تطور سيء ، لأن هذا التطور لن يكون سريعاً جداً الا حين يعمل العلم المجرد والتطبيقات معاً ، يساعد كل منهما على تقدم الآخر . وكان التأثير في مجال قياس الاتجاهات كاية تقريباً في اتجاه واحد ، ولم يحدث تبادل ، ولقد وضع العلماء الاكاديميون طرقاً ، ومعادلات احصائية ثم تبع ذلك أن استخدمها أناس عمليون لم يقدموا شيئاً يذكر في مقابل استخدامها . ولقد أدى انعدام التبادل الفعلي بين هذين الاتجاهين بالعلوم الاجتماعية إلى الامعان في الاكاديمية وقلل اتصالها بالواقع ، الامر

الذى لم يكن يحدث لو تم هذا الالتقاء ، والأمر الذى ترتب عليه أن حيل بين العلوم الأكاديمية وبين كثير من التقدم المستمر فى المجال العلمى الذى كان من الممكن أن يتطابق ويتجاوب ويتعارف على نحو أفضل . وبسبب هذا النقص فى التكامل ينبغى أن يتحمل هؤلاء الذين يقومون بالجانب العلمى من الاستفتاء نصيبهم من اللوم ، ولكن نصيباً أعظم من هذا اللوم يقع بغير شك على هؤلاء الأفراد والهيئات المسئولة عن الإهمال التام تقريباً الذى تعرضت له العلوم الاجتماعية حتى الآن ، فلا يوجد كرسى استاذية لعلم النفس الاجتماعى فى المملكة المتحدة وهذا مثال واحد على سوء الأحوال ، ولا يوجد قسم يعمل فى الأساس على إيجاد تكامل بين ما يحدث من أنواع التقدم فى هذا المجال الحيوى الهام . وعلمينا أن نعلم كفاية تقريباً على التجارب التى أجريت فى الولايات المتحدة ، حيث توفر التكامل والارتباط بين النشاط الأكاديمى والعمل ، وحيث يتوافر تعاضد أقوى بكثير من رأى العام للعلوم الاجتماعية . ولقد عضد الناس بأفواههم فحسب القول بأن العلوم الطبيعية قد فاقت قدرتنا فى السيطرة على مآلنتجه ، وأن علمينا أن نحاول تحقيق تقدم مماثل فى سيطرتنا على أنفسنا وبيئتنا الانسانية . وثمة دليل ضئيل فى سياسة الحكومات أو الجامعات يدل على أننا مخلصين فى التمسك بهذه الآراء . أما إذا كان الناس يؤمنون بقلوبهم بما يقولون بأفواههم فأنا ينبغى أن نخبر قريباً ازدهار أقسام العلوم الاجتماعية ، ونموا فى الاهتمام بالبحث الذى تجريه هذه الأقسام ، وتحسنا فى طبيعة البحث . ولا تستطيع العلوم الاجتماعية بدون هذا التعاضد العام أن تعيش ، فبدونه تجمد وتتوقف ولو فكر هؤلاء الذين ينقدون عالم النفس أو عالم الاجتماع لعدم استطاعته علاج كل شئورنا ، لأدركوا أن هذا العالم لا يستطيع أن يعمل فى فراغ ، أو بغير تعاضد قد يمكنه من أن يبقى فى المجال الذى أخَّاره ، وأن يتقدم فيه .

الفصل الخامس عشر

علم النفس والسياسة

يهدف هذا الفصل إلى إيضاح ما للحقائق النفسية في كثير من الأحيان من تأثير على المشكلات السياسية فالعلاقة بين السياسية وعلم النفس قد تكون مباشرة تماما كما يحدث في استخدام اقتراع جالوب Gallup polls لتوجيه الانتخابات (ونجد أن المرشح الخاسر يتم عادة مثل هذا الاقتراع بالتحيز بينما يقدرها المرشح الناجح تقديرا حسنا لأنها تتبع الأسس العلمية بدقة) . ومما يكن من شيء . فإن أثر علم النفس في نواح أساسية من التفكير والعمل السياسي أهم من هذه الخصومات الحزبية الضيقة .

وظالما أن الأحزاب السياسية ليست مجرد جماعات السلب تجتمع معا لتقسم الغنائم ، فإنها تتجه إلى أن تصطنع مبادئ ومعتقدات تكمن وراء سياستها وهذه المبادئ والمعتقدات ترتبط بصورة معينة للطبيعة الإنسانية وبأسس للدوافع الإنسانية ، وبمدى قابلية الطبيعة الإنسانية للتغير ، وبالطرق والوسائل التي يمكن بها توجيه الإنسان وضبطه . وكثيرا ما يعتنق الأفراد هذه الآراء اعتناقا ضمريا بدلا من أن يكون ظاهرا ، وهي تبدو واضحة جدا للشخص الذي يعتنقها بحيث لا تستحق المناقشة ، وقد ينظر إليها على أنها بديهيات من يعترض عليها يخالف المعقول .

وحينما تفحص هذه البديهيات . بغیر تحيز في ضوء الحقائق العلمية ، كثيرا ما نجد لها صراحة ، ومع ذلك يميل رجال السياسة إلى أن يستجيبوا إليها بقسوة وعنف . ولعل أوضح الأمثلة لهذا الصراع بين العلم والعقيدة السياسية ما نجده في الاقطار الديكتاتورية . ففي ألمانيا النازية ، قمع كل دليل يلقى الشك على سمو الجنس الآري ، أو حتى على مجرد التفكير فيه قمعاً لا هوادة .

هية . وكان لا بد أن تعاد كتابة الكتب المدرسية لتتفق مع التوجيهات السياسية . ولقد حرم العلماء الذين أبوا أن يسايروا الاتجاه من عيشتهم . وتعرض بعضهم لمآس . بينما كان بعض هذه الحالات مضحكا . فقد اكتشف أحد علماء النفس المعروفين بعد أن وصف الجنس المسكروه الذي ينتمى إليه بأنه يتميز بشعر أشقر ، أن هذا الجنس في الواقع أسود الشعر قائمه . وإذا كان نعلم أبطاله فله أيضا مخرجوه . ويحتمل أن يظهر كلاهما خلقهما في الصراع بين العلم والسياسة .

ولقد تصارعت العقيدة السائدة في روسيا مع الحقائق العلمية فالا اعتقاد بأن جميع الناس خلقوا متساوين ، ويمكن تغييرهم إلى ما لانهاية يؤدي بسهولة إلى إنكار نواحي النقص الوراثية وأسبابها . وحين تعارض الحقائق الراسخة العقيدة السياسية ، فإن السياسي يستجيب لهذه الحقائق بالإنكار دائما ، ودون تغيير تقريبا ، وذلك بدلا من أن يغير من عقيدته . ويمتد إنكار السياسي في ظل الديكتاتورية إلى ما وراء الحقائق ، إلى حقوق وجود العالم نفسه واستقلاله . ففي عام ١٩٣٦ صدر قرار من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي بوقف أعمال علماء القياس النفسي والتربوي الذين يستخدمون اختبارات عقلية في مجال الفروق الفردية . ولقد أضحى هذا القران مع أشياء أخرى أن كلا من النظرية والتطبيق فيما يسمى بالبدولوجيا - علم الأطفال ، pedology تمثل مواقف علمية مزيفة ومضادة للماركسية . وهذه المواقف تقوم أولا على القانون الأساسي للبدولوجيا المعاصرة وهو أن نمو الأطفال يتوقف على العوامل البيولوجية والاجتماعية . واعتماده على تأثير الوراثة . ونوع من البيئة غير المتغيرة . وهذا القانون الرجعي العميق يناقض تماما الماركسية وتطبيقها في البناء الشيوعي ... وقد يكون ظهور هذه النظرية نتيجة للنقل الأعمى للمبادئ والآراء غير العلمية البرجوازية التي تهدف إلى الحفاظ على الطبقة الحاكمة ، تلك المبادئ التي تعمل بناء على ذلك على البرهنة على أن المواهب والحقوق الخاصة تبرر وجود الطبقات المستغلة

والأجناس العليا، ومن عملها من ناحيته أخرى أن تبرهن على أن الطبقة العاملة أو الأجناس الدنيا محكوم عليها بالانخفاق الجسمي والانفعال.

وقد انتهى الجدل الطويل حول هذه النقطة إلى إصدار القرارات التالية:

١ - أن تنتهى علاقة علماء الطفولة بالمدارس، وأن تتلخص من جميع الكتب المدرسية التي تتعلق بهذا الموضوع.

٢ - منع تعليم علم الطفولة كعلم خاص في معهد التربية.

٣ - أن تنقد الصحف الكتب التي تنشر حديثاً عن نظريات البدولوجيا المعاصرة.

٤ - أن ينقل هؤلاء البدولوجيون الذين يتقبلون النقل إلى ميدان التربية كعلمين، وهذا الصراع الذي يتصل بغير شك بمسألة لزنكو Lusenko ذات الشهرة السيئة، والذي انتهى بتحطيم علم النفس الروسي فعلاً، بحيث لم يتبق منه في الأساس إلا طفل غير شرعي لعلم وظائف الأعضاء ليس له مبادئ أو طرق خاصة به.

وما يشير الاهتمام، أن نلاحظ أن القرار الذي صدر نفسه يشتمل بأن الأسباب الحقيقية لمعارضة البدولوجيا لا تقوم على أي برهان علمي بأن الطرق المستخدمة لم تكن موضوعية، أو أن النتائج التي توصل إليها ليست مدعومة تدعياً سليماً بجرمة البدولوجيين كانت ببساطة أن نتائجها مناقضة تماماً للماركسية ولمارستها في البناء الشيوعي وليست هذه المحاولة إلا التجاء إلى العقيدة السياسية لنقض معتقدات علماء النفس الروس المبكرين، وهذا يشبه التجاء إلى العقيدة الدينية منذ ثلاثمائة سنة لنقض نظرية كوبرنيكس وجاليليو عن مركزية الشمس.

ومن الخطأ أن نستنتج من هذا المثال أن علم النفس وقد وقع في صراع مع اليسار المتطرف، يجب أن يخضع بالتالي للاتجاهات السياسية اليمينية المضادة. فهذا أبعد ما يكون عن الواقع. وفي الولايات المتحدة، حيث يحتمل أن يكون

علم النفس الاجتماعي أكثر نمواً وتطوراً عنه في أي قطر آخر ، ينظر إلى علماء النفس على أنهم حمير وبلاشفة خطرين . ويكفي أن يسمع رجال الأعمال المحافظون لفظ " العلوم الاجتماعية " لكي يرتعدون فزعاً ويهرعون طالبين من أعضاء الكونجرس اجراءات ضد أولئك الذين يوجهون الجامعات ويبدو أن علم النفس يشبه سندريلا العلوم ، أهدر اليمينيون واليساريون المتطرفون دمه ، وتسامح الدول الديمقراطية معه قليلاً ، حيث يتوقع المرء ترحيباً وكرماً أكثر من التسامح وما سبب هذا الإكراه العام لعلم النفس ؟

ينظر الساسة على اختلاف مذاهبهم إلى علم النفس بريية ، لا لأنه متحالف مع فرع معين من فروع السياسة ، بل لأنه يحاول أن يصنع البرهان القائم على الحقائق . والتفكير العلمي . موضع " التفكير الجامد Stereotyped thinking " والتشبك بالعقيدة والمذهب دون انحراف . فالسياسي معتاد على مجاهدة عقيدة سياسية تعارض عقيدته . وليس من العجيب أن نجده يعارض ويهزأ من منهج قد يبدو بمضي الزمن مهدداً له يؤدي إلى إفلاسه كأن يجد قضية تناقض على أساس ما يميزها من حقائق لأن هذا يحرمه من سلاحه المفضل .

وسوف نسوق مثالا لتوضيح الفرق بين طريقة كل من السياسي وعالم النفس توضيحاً أكبر . دعنا ننظر إلى ما أثير من جدل منذ عدة سنوات حول مشكلة السن المناسب لترك المدرسة . فكثير من المناقشات التي أثيرت لا تنصل على الإطلاق بعلم النفس بطبيعة الحال ، وواضح أن عالم النفس بحكم إعدادة ليس لديه كفاءة خاصة تمكنه من تناول ما تتضمنه هذه المشكلة من مسائل اقتصادية . ومع هذا ، فيبدو أن من المتفق عليه بوجه عام أن للأسئلة النفسية دوراً هاماً تلعبه فيها ، وعلى هذا فقدرة كثير من الأطفال على الاستفادة من منهج دراسية إضافية من المسائل الأساسية في المناقشة والنقطة الهامة التي علينا أن نلاحظها هي أن كلا من الجانبين حاول أن يحل المسألة على نحو تعسفي ، البعض يقول في صراحة أن الأطفال سوف يستفيدون ، والبعض الآخر ينكر هذه الاستفادة . ولكن هذا سؤال عن حقيقة يمكن

الإجابة عنه على أساس بحث تجريبي يخطط تخطيطاً سليماً . ولماذا اذن يثار الجدل على أساس الآراء إذا كان من الممكن أن يستند إلى الحقائق ؟

وبدلاً من أن يتجاهل السياسي هذه النقطة تجاهلاً تاماً ، نجده يعترض على وجهة النظر هذه . ويأخذ هذا الاعتراض عادة الصورة التالية : أنت تدعى أن لدى العلوم الاجتماعية حقائق وطرق تلقى ضوءاً على المشكلات التي تواجهنا والأسئلة التي تلقانا . ولكن هذا الجدل يبدو بغير أساس . ولقد سألتنا علماء الدراسات الاجتماعية النصيحة فيما يتصل بمشكلات معينة ، مثل النقيب في مناجم الفحم . وكانت إجابات بعضهم مخففة إخفاقاً تاماً ، حيث قدموا أعذاراً واهية بأنهم لم يقوموا بأية دراسات في هذا الميدان بينما كانت إجابات البعض الآخر سخيفة لا تتصل بأى أجزاء عملي قد نقوم به . وليس أحب إلى نفوسنا من أن نجد إجابات وحلولا لمشكلاتنا ، ويبدو لسوء الحظ أن هذه العلوم الاجتماعية المتباهية ليست في مكان يتيح لها أن تزودنا بهذه الإجابات والحلول . ولكننا نبحث على المضي في الدراسات الاجتماعية ، ولدينا في الوقت ذاته عمل نقوم به لا يحتمل انتظار نتائج هذه الدراسات التجريبية .

هذه الإجابة مقبولة في الظاهر ، ولكنها إن ثبتت لو فحصناها عن قرب دعنا نوضح هذا بملاحظة ما يحدث في العلوم الأخرى في موقف مشابه ، دعنا نأخذ أول مثال انتاج القنبلة الذرية ، يعلن علماء الطبيعة أنه يمكن انتاج قنبلة ذرية بعد عدة سنوات من البحث ومن بناء معامل غالية التكاليف . على الرغم من أنهم غير متأكدين من هذا ، ، ويوافق الساسة على أن المشروع مرغوب فيه ، ويمضي علماء الطبيعة لدراسة المشكلات العديدة التي تنبعث من العمل المعين لهم . ويتم انتاج القنبلة في الوقت المناسب ، وبتكاليف مذهلة ، ويستمر البحث أكثر من عشر سنوات لتحسين التصميم الأول المليء بالأخطاء . وسنلاحظ الفروق التالية بين الأحداث التي نسجلها هنا :

١ — يطلب إلى عالم النفس أن يجيب عن الأسئلة مباشرة ، بينما يسمح لعالم الطبيعة أن يجرى تجاربه سنوات طوال قبل أن يطلب إليه تسويغ عمله .
٢ — ويتوافر لعالم الطبيعة الأموال غير المحدودة تقريبا للقيام بأبحاثه الميدانية ، ولتنفيذ عقده النهائي ، بينما يعمل عالم النفس بدون تعاضد مالى على الإطلاق .

٣ — يتناول عالم الطبيعة المادة التى يدرسها ، بينما يمنع عالم النفس فى حرص من الاقتراب من عمال مناجم الفحم ، أو من الجماعة التى يدرسها .
وسوف يتضح أن المقارنة بين عمل عالم الطبيعة وعالم النفس تجعل اخفاق الأخير يكاد يكون مؤكدا . فموقف عالم النفس شبيه بموقف عالم الطبيعة وقد قيل له . « أريد منك أن تخبرنى عما إذا كنت أستطيع أن أجد معادن معينة فى القطب الجنوبى . أنا أمنعك من أن تذهب إلى هناك ، أو أن تتحدث إلى أناس كانوا هناك ، وإن أزودك بأى أموال للقيام ببحثك ، وأريد منك إجابة فورية » . وليس من المتوقع أن ينجح أى من علماء الطبيعة فى ظل هذه الظروف ، ويحتمل أن يعزف أى عالم للطبيعة حتى عن محاولة القيام بالبحث .

وإذا سلمنا إذن ، بأن المطالب المعتادة التى قد يطلبها السياسى من عالم النفس سخيصة بسبب الظروف التى على الأخير أن يعمل فى ظلها ، فما نوع المطالب التى تعتبر معقولة ؟ دعنا نأخذ مرة ثانية مثال التغيب ، ودعنا نفترض أن المجتمع حقيقة جاد فى رغبته فى حل هذه المشكلة . سيدأ فى إنشاء معهد للبحث ، ربما تحت رعاية مجلس البحوث الاجتماعية الذى كثيرا ما نوقش تكوينه دون أن يودى هذا إلى نتيجة ذات أهمية — وله هيئة مكونة من بعض العلماء الاجتماعيين البارزين فى القطر ، وأن يكونوا على علاقة وثيقة بالأقسام الجامعية المناسبة . وسوف تتوافر الأموال للقيام بأبحاث على نطاق واسع وعلى أسس سليمة من التخطيط فى اختيار العينة ، والتقويم الإحصائى

لمواد البحث . وإن يصرح للباحثين بالاتصال بعمال المناجم فحسب، بل سوف يشجعوا على هذا فعلاً، وعلى الاتصال بقيادة اتحاد العمال والمسؤولين في الصناعة والمتصلين بها . وإن يكون هناك ضغط لتصفية أى جماعة خاصة ، فالتأكد سوف ينصرف إلى التقارير التي تقوم على الحقائق ، والنزاهة العلمية ، والتوصيات المعقولة القائمة على الحقائق . وسيكون هناك مجال للتجريب . وإذا كان الغرض الذي قام عليه البحث هو أن اللامركزية وإدارة عمال المناجم على نحو مباشر عن طريق لجان الورش سيؤدي إلى التقليل من التخبث ، فإن تطبيق هذا النظام وتجربته يمكن أن تنفذ على الأقل في قسم أو قسمين . وليس هناك بطبيعة الحال أى ضمان بأننا سوى نكتشف حلاً للمشكلة أو نتوصل إلى اجابة لها ، ولكن في ضوء مثل هذه الخبرة التي مررنا بها فيما يتصل بأسئلة مشابهة ، تبدو احتمالات النجاح معقولة وطيبة .

وقد يكون من الضروري أن نفعل أكثر من مجرد إقامة منظمة خاصة للبحث . فلا بد أن يدرب العلماء، وقد درب عدد قليل من العلماء الاجتماعيين في هذا القطر في الوقت الحاضر، وقد يكون من الضروري توافر منح دراسية للطلاب المأمول فيهم ، والراغبين في دراسة علم النفس ، أو علم الاجتماع ، وقد يكون من الضروري أن ننشئ كرسيًا للأستاذية في علم النفس الاجتماعي . أو في علم الاجتماع التجريبي . وهناك كل أنواع الصعوبات التي قد يستشعر بها للبرهنة على أن هذا النوع من الخطط مستحيل التحقيق . وتبقى حقيقة عديدة ، على أية حال ، وهي أن هناك مناسبات جربت العلوم الاجتماعية فيها على نطاق واسع، اتضح أنه غير مرغوب فيها . وربما يكون الأحجام وخوار العزيمة أو كد الطرق إلى الاخفاق في الحياة القومية وأثرهما في هذه الحياة لا يقل عن أثرهما في الحياة الفردية .

ويعتبر العوز المادي ونقص التسهيلات الأخرى عائقاً كبيراً في تنمية العلوم الاجتماعية ، ولكن بما لا شك فيه أن الغموض العاطفي الذي ينتاب

المثقفين ازاء تنمية الدراسات الاجتماعية أشد أثراً في إعاقه تنميتها .
فن ناحية ينظر إلى العلوم الاجتماعية في شيء من السخرية والاستهزاء .
وذلك أولاً لأن موظفي الحكومة وزعماء اتحادات العمال ، والسياسيين ،
ورجال الأعمال وغيرهم ممن يدعون أنفسهم بالرجال العمليين يعرفون جيداً
ما يقومون به من عمل ، ولا يريدون نصيحة أو مساعدة أناس أكاديميين غير
عمليين لا أمل فيهم في الواقع . وثانياً ، لأن فكرة إخضاع السلوك الإنساني
إلى الدراسة العلمية ومحاولة صياغة قوانين له مع ما فيه من عدم انتظام ظاهر
يناقض الآراء الشائعة بأن الإرادة حرة وغير ذلك من آراء شائعة ومن ثم
فإن محاولة إخضاع السلوك للدراسة العلمية تبدو عملية سخيفة .

وحين توضع الأمور على بساط البحث الواقعي يظهر لنا أنها سببها خاطئة .
ومن الممكن أن نبين كما حدث وثبت بالدليل أن خبرات رجال الأعمال وعمارساتهم
من مقابلات شخصية بقصد اختيار المتقدمين لشغل بعض الوظائف أمر
عديم الجدوى ولا قيمة له أو كما ظهر من أن تنبؤات الساسة المحترفين ورجال
الصحافة فيما يتعلق بالانتخابات خاطئة تماماً ، كما حدث في انتخابات ١٩٤٥ في
انجلترا ، فقد تنبأ جميع خبراء السياسة بأن الانتخاب سيسفر عن نصر لحزب
المحافظين بينما تنبأ اقتراع جالوب بفوز حزب العمال وهو يقوم على أسس علمية
يصطنعها علماء النفس ومن ثم نسب الناس إلى علماء النفس قوى سحرية من
الاستبصار والفهم قد لا يدعوها هم لأنفسهم مثل هذا المزيج من السخرية
والخوف والتلقك كثيراً ما يظهر بالنسبة لعلم النفس المرضى . وقد أدى التهديد
الذي يحدته أى علم جديد لما تعارف عليه الناس من طرق راسخة في التفكير
وفي عمل الأشياء ، كما بين التاريخ المرة بعد المرة إلى زيادة الاستجابات المتقبلة
تارة والمهاجمة تارة أخرى مع عدم الانتظام الواضح في الآراء .

وقد تخطر للعقل أمثلة السخرية بسهولة أكثر مما تخطر أمثلة التلقك ،
غير أنه من الضروري أن نتذكر الاعتقاد الشائع ، الذي لا يجد له معضداً

في التجربة الحقيقية ، إن العلاج النفسي سوف يحل كل مشكلاتنا الخاصة بمبحث العقوبات ، بما يمكن المجرم الذي يعالج بنجاح من استئناف حياته كمواطن صالح أمين ، أو الاعتقاد الذي يساري الأول من حيث الشيوع والذي ليس هناك ما يعضده بأن الحروب يمكن أن تمنحى بعلاج كل فرد عن طريق التحليل النفسي في سن مبكر وهذا الاعتقاد بأن لعلم النفس قوة سحرية لا يقل في اعاقته للنقد العلمي في علم النفس من الرفض المباشر . ففي كلتا الحالتين لا يعترف بعالم النفس كعالم يطبق الطرق العلمية المجربة على موضوع جديد وصعب ، وفي كلتا الحالتين لا يشجع في القيام بالأبحاث لدراسة المشكلات الإنسانية في المكان الوحيد الذي يمكن فيه أن ينجح . في المنجم وفي الورشة ، في المعسكر وفي السجن ، في دار النقابة أو في المصنع .

ولكن هذا الجو أخذ في التغير بالتدريج على أية حال . فلقد بدأت المؤسسات الصناعية ولا سيما في الولايات المتحدة ، ترى الامكانيات غير المحدودة التي يمكن أن تقدمها العلوم الاجتماعية فيما يتصل بضبط السلوك والتنبؤ به ، وفي هذا القطر ، انجلترا ، استخدمت القوات المسلحة ومازالت تستخدم ، وكذلك ديوان الموظفين ، والحكومة نفسها ، عن طريق المسح الاجتماعي ، الطرق السيكولوجية في الانتقاء ، وفي قياس الاتجاهات والتنبؤ بها . وليس هناك إلا شك ضئيل في أن تأثير الطرق السيكولوجية في المجالات المختلفة المذكورة سيزداد سريعاً ، ويظهر ذلك في تزايد عدد الاختصاصيين النفسيين في الصناعة ، والمؤسسات الحكومية ، وفي الأعمال الأخرى التطبيقية والعملية بمعدل كبير ، ويمكن أن نرى تطورا مماثلا في انجلترا أيضا . وكثيرا ما يمنع الجهل والخوف والعوائق الانفعالية الأخرى التي تحول دون النقب السهل للمعالجة العلمية ، استخدام الكشف السيكولوجية إلى أقصى حد ، ولكن معرفة مناهج العلوم الاجتماعية وطرقها قد تؤدي بمضي الوقت إلى إزالة هذه العوائق . فقليل جدا من الطلاب يمر بمرحلة الجامعة في الولايات المتحدة دون أن يدرس بعض مقررات علم النفس ، وحين

تشتغل الأعداد الهائلة من طلاب الجامعات والكيانات الأمريكية ، وحين يختار من بينهم القادة في الصناعة والحكومة ، والمهنة ، يمكننا أن نتنبأ بثقة بأن الجيل القادم سوف ينظر إلى علم النفس على أنه صديق مألوف ومعين وعلى أنه دخیل غير مرغوب فيه وما يدعو للأسف ، أن نجد انجلترا وقد كانت من الرواد في تنمية علم النفس كعلم على يد رجال من أمثال جالتون وسيرمان ومكدوجل تخسر فرصتها في أن تشارك في جنى ثماره ومكاسبه . ومن الخطأ أن نتصور أن علم النفس يؤثر على السياسة في جوانبها العملية المباشرة فحسب فبعض وجهات النظر تذهب إلى أن نواحى احتكاك أخرى قد تكون أساسية وأكثر أهمية . وكما أشرنا في بداية هذا الفصل ، تقوم الفلسفات السياسية جزئياً على الأقل على نظرات عن الطبيعة الإنسانية يعتنقها أصحاب هذه الفلسفات اعتناقاً راسخاً ، وإذا استطاع علم النفس أن يلقي بعض الضوء على صدق أو خطأ هذه المعتقدات فمن المفترض أن يكون له علاقة بالفلسفات السياسية التي تشتق منها . وقد لاحظنا من قبل كيف قام الصراع في الاتحاد السوفيتي بين العقيدة السياسية التي تقوم على أساس فرض تساوى الناس في القدرة والسمات الهامة الأخرى ، وبين الحقائق العلمية التي تبين عدم التساوى وتأثير الوراثة . وهل يمكن اقتفاء أثر الصراعات بين الحقيقة العلمية ، والفروض التي تسكن وراء الديمقراطية السياسية .

ولقد طفقت خلال عدة سنوات أوجه السؤال التالي من بين أمثلة أخرى للتلاميذ الذين كانوا يدرسون مقررات جامعة لندن في علم النفس الاجتماعي من الخارج «ما شكل الحكومة التي تناسب الناس على أفضل نحو إذا ما خاق جميع الناس متساوين في القدرة ؟ ب» إذا وجدت فروق فردية فطرية عظيمة بينهم في القدرة ؟ ولقد بينت ما يزيد عن ٩٠٪ من الإجابات أن الديمقراطية هي المثال الأعلى للحكومة إذا تساوى جميع الناس في القدرة ، أما إذا وجدت فروق عظيمة بينهم فيها فإن حكومة من النوع الأوتقراطى أو الديكتاتورى

تسكون مناسبة على أفضل . وإذا سلمنا بأن وجود الفروق الفردية في القدرة قد لقي تدعياً من الدراسات العلمية أكثر مما لقيت المساواة فيها ، فهل نستنتج أن معتقدنا الديمقراطي يقوم على وهم ؟ أم هل نقبل حقيقة أن الديكتاتورية في روسيا تسير في الظاهر الاعتقاد بأن المساواة الإنسانية تبلغ من القوة حداً تؤدي معه إلى دحض كل دليل مضاد وتبرهن على أن ٩٥ ٪ من تلاميذ مقررات هذه الجامعة قد يتعرضون للخطأ ؟ .

وقبول كل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الافتراض بأن الناس سواسية ، على الرغم مما يوجد بينهم من اختلاف كبير في نظامها السياسي ، يوجب علينا التمثل في الإجابة عن السؤال السابق . فإذا كان الروس يصرون على إمكانية تحسين الإنسان بغير حدود ، على أساس أن كل فرد متساو مع الآخر ، فيجب أن نتذكر أيضاً الاعتقاد الأمريكي ، بأن كل إنسان يبلغ من الصلاحية ما يبلغه الآخر ، إن لم يكن أحسن منه قليلاً ، وربما كانت هناك أخطاء قليلة في المناقشة ، في الانتقال من حقائق عدم التساوي إلى الرغبة في الديكتاتورية تجعلنا نتأدى إلى قرار مختلف إلى حد ما .

ويفترض الذين يجادلون بأن عدم التساوي يؤدي بطبيعة الحال إلى الديكتاتورية ، أن المتفوقين في الذكاء ينبغي أن توكل إليهم القيادة ، أو أن يكونوا ديكتاتوريين ، وسوف يكونون كذلك . وهذا غير محتمل في الغالب ، على أساس ما لدينا من سوابق تاريخية وتجربة سيكولوجية . والموهوبون ذوو القدرة العقلية الحقيقية الذين اتخذوا رداء الديكتاتورية في التاريخ قليلون وبلغت نسبة ذكاء أقدرهم ١٣٠ أو ما يقرب من ذلك . وهو أقل بكثير من العالقة الأذكاء الحقيقيين من حيث المستوى . وقد بينت التجربة أن القيادة عادة تنصاع وتوكل لهؤلاء الذين يزيدون قليلاً في ذكائهم عن زملائهم ، على ألا يكونوا بالغى الذكاء ، فالطفل أو البالغ الذي تصل نسبة ذكائه إلى ١٦٠ أو أكثر نجد لديه اهتمامات وأساليب في التفكير ، وطرقاً

للجدل أبعد من فهم تابعيه ، ولو استثنينا النواحي العقلية ، نجد الذكي جدا لا يحتمل أن يختار كقائد مثله في ذلك مثل الغبي جدا . فالديكتاتورية إذن ، لن تقبل المساواة بين القيادة والقدرة ، ونجدها على العكس تحرص على استبعاد الذكي بواسطة هؤلاء الذين أدت بهم مواهبهم المتواضعة وشخصياتهم القاسية إلى مراكز القوة . ويقدم لنا التاريخ أمثلة كثيرة من هذا النوع بعضها حديث جدا .

فإذا لم تؤد الديكتاتورية إلى وضع أعلى الناس مواهباً في مواضع القيادة ، فلا يمكن أن يقال أن الديمقراطية الحاضرة تنجح في عملها هذا نجاحاً عظيماً . ولعل الأحداث المؤسسية المضحكة معاً ، التي تبعت دخول دجون ستيورات ميل ، في المجال السياسي تفيدنا في هذا الصدد . فالقلائل الذين قرأوا بآمانة خطب أعضاء البرلمان الإنجليزى أو الكونجرس الأمريكى لن ينكروا ما بهذه الخطب من نقص حتى في معرفة الحقائق الأولية ، وما تنسم به من عدم وجود اتساق منطقي ، وما تبرز من جذب في الفهم . وهكذا قد يكون الذكاء البارز معرقلاً في الوصول إلى منصب مرتفع في الأقطار الديمقراطية ، كما في البلاد الديكتاتورية ، فالخصائص المطلوبة للنجاح هي تلك التي تروق للجماهير وهي ذات طبيعة انفعالية لا عقلية ، وحتى مع هذا ، فإن تفاعل العمليات الديمقراطية وتنافس الأحزاب في الدول الديمقراطية يتيح للذكاء فرص الاستماع إليه بمضى الزمن أكثر مما تسمح به الديكتاتورية الجامدة . ويحتمل أن يكون النظام الاغريقى القديم الذى يختار موظفى الحكومة بالقرعة يتيح للشخص البالغ الذكاء فرصة أعظم ، لأن القرعة ليست في جوهرها متحيزة ضد الذكاء .

هل نستطيع أن نفعل شيئاً أفضل من الطرق التي عرضناها حتى الآن ؟ فقد تجرأ عدد قليل من علماء النفس على التأمل في هذا المجال ، ولكن يحتمل أن يوافق الكثيرون بول هورست Paul Horst في اعتقاده أن أعلاهدف

يمكن أن يكافح علماء القياس والتقويم في تحقيقه هو تطوير ونماء مقاييسهم وأساليبهم التي يحتاج إليها المجتمع الذي يطمح في أن يستغل إلى أقصى حد حقيقة أن معظم الناس لم يخلقوا متساوين . وهو أيضاً يقدم توصيات معينة قد تبدو لأول وهلة غريبة ، ولكن الرغبة فيها مع ذلك قد توضع موضع الجدل ونقيد منها .

وأحد الامكانيات الواضحة التي وضعها موضع الاعتبار ، ولكنه في النهاية نبذها من نظام الخدمة المدنية ، والاختيار على أساس القدرة كما تقاس سيكولوجياً ، والترقي بالكفاءة كما يظهر ذلك في العمل ، ليشتمل على وظائف كثيرة متزايدة يختار من بينها . وهو يكتب قائلاً : لماذا لا تتطلب الولايات المتحدة من رجال الكرنجرس ومن أعضاء مجلس الشيوخ أن يبرهنوا على براعتهم في العلوم الطبيعية ، وفي الاقتصاد ، وفي علم الاجتماع ، والعلوم السياسية ، ومجالات المعرفة الأخرى التي تتصل بالتشريع الذكي المستنير ؟ والحق ، أنه قد لا يكون كثيراً أن يسأل الذي يرشح نفسه لرئاسة الولايات المتحدة ، أن تتوافر لديه بعض المعرفة عن القوى التي تؤثر في تكوينها القومي السليم ، وأن يطلب إليه أن يبرهن على أن لديه الحد الأدنى لمثل هذه البراعة . وهو يستطيع إذن أن يقترب مباشرة من تشكيل حكومي متحسن متطور ، بالاصرار على قياس الفروق الفردية التي لها علاقة بهذه الوظيفة ، وعلى اختيار من هو أكثر كفاءة لها .

وقد تعني هذه الطريقة بطبيعة الحال ، أن تشغل كل الوظائف العامة عن طريق الاختبار والفحص ، وهكذا يصبح الاختيار شيئاً يتصل بالماضي . ويحتمل أن تجعل الصعوبات العملية والضغط العاطفي والانفعالية مثل هذه الخطة غير عملية ، ونتيجة لذلك يعتبر هورست امكانية ثانية ، وطريقة أخرى هي أن نحدد تعسفياً ، كما نعمل الآن ، الأعمال التي تشغل عن طريق الامتحان ، وتلك التي تملأ بالانتخاب ، وهنا نعول على الفروق الفردية

بين المصوتين على أن نتأكد أن أكثر الناس كفاءة في الادلاء بصوته هو الذي يقوم بالانتخاب ، وفي الحالة الأولى ، يمتحن المرشحون ، وفي الحالة الثانية يمتحن المصوتون ، تاركين للمرشحين أن يثبتوا جدارتهم للانتخاب كما يحدث في الحاضر .

ومهما كانت نظرتنا إلى هذا الاقتراح من الوهلة الأولى ، فليس من شك أن المؤهلات التعليمية تتمشى مع الحكومة الديمقراطية ، وهذا التوسع عن مجرد الألمان بالقراءة والكتابة إلى المعرفة والقدرة قد تكون أقل ثورية مما يبدو عليها . ولقد قمت بدراسات طوال عدة سنوات للاتجاهات الاجتماعية مستخدماً استفتاء يشتمل على السؤال التالي من بين أسئلة أخرى : « هل تعتقد أنه يجب أن يسمح بحق التصويت لمن لديهم حد أدنى معين من الذكاء والمعرفة وحدهم ؟ » ولقد أيد أغلبية المحافظين في عينة من الطبقة الوسطى من المدينة هذا الاقتراح (٥٥ ٪) ، وانقسم الأحرار بالتساوى تقريباً (٤٧ ٪ موافقين) ، بينما يعارض الاشتراكيون ، ولو أنهم لا يعارضون بشدة كما يتوقع المرء (٣٩ ٪ موافقون) ، وكانت العينات من الطبقة العاملة أقل تقبلاً ، ولكن على الرغم من ذلك فمنهم أقليات كبيرة العدد توافق على هذا الاقتراح . وقد تشابهت استجابات العينات الأمريكية والجماعات السويدية والألمانية ، وتبين أنه في جميع هذه الأقطار يتوافر إحساس بعدم الرضى عن نوع السياسيين الذين يختارون بواسطة نظام الانتخاب الحاضر .
electoral System

وينتهى هورست إلى أن يؤيد مزيجاً من الطريقتين « بطبيعة الحال ، إذا أخذنا الفروق الفردية مأخذ جد . وأردنا أن نفيد منها إلى أعظم حد ممكن لتأكد من اختيار موظفي الخدمة العامة الممتازين . فعلى أن نمزج الطريقتين . وفي هذه الحالة ، على المرشحين أن يملأوا بامتحانات تأهيلية قبل أن يسمح لهم بأن يرشحوا أنفسهم لمنصب ، وعلى الناخبين أن ينجحوا في امتحانات مناسبة قبل أن يسمح لهم بالتصويت للمرشحين .

لم نقصد أن نؤخذ هذه الأفكار بطبيعة الحال بجحد وتحمس بالغ شديد .
فلا اعتراضات عليها واضحة جداً ، بحيث أن تنفيذها يعتبر مبالغاً مكافئاً .
ومع ذلك فلا ينبغي أن نغفلها بسهولة على أنها تخيلات للعلم الحديث . وهل
بلغ نظامنا السياسي حقيقة من الكمال بحيث لا يدع مجالاً للتحسينات ؟
هل نحن متأكدون أن هؤلاء المؤهلين على أفضل نحو ، ينجحون دائماً في
الوصول إلى مراكز ذات أثر وقوة سياسية ؟ وما لم نستطع الإجابة بنعم عن
هذه الأسئلة دون أن نعلق عليها شروطاً ، فينبغي أن نناقش اقتراحات
للتحسينات الممكنة ، بحيث توضع موضع المحاولة لما لها من مميزات وفوائد .

لم اعط إلا مثالا واحداً للطريقة التي أثرت بها نتائج البحث في علم النفس
الحديث في السياسة . ويستطيع القارئ اليقظ أن يجد كثيراً من الكشف
الأخرى المذكورة في صفحات هذا الكتاب ، تتصل بتفكيرنا السياسي . وإن
يجد ، فيما أعتقد ، أن الصورة غير الدقيقة المليئة بالظلال للطبيعة الإنسانية ،
التي بدأت تبرز من البحث السيكولوجي تتفق مع مزاعم حزب سياسي
أكثر من اتفاقها مع مزاعم الأحزاب السياسية الأخرى . ويبدو أن
الأحزاب اليمينية واليسارية قد تمسكت بحقائق نفسية معينة وأكدها مع استبعاد
حقائق أخرى لا تقل عنها في الأهمية . ومن المرغوب فيه رغبة واضحة ،
التوصل إلى تركيب Synthesis ، ولكن ينبغي ألا يكون هذا التركيب مجرد
وسط للعقائد المتباينة ، بل نمواً عضوياً ، مثل ذلك الذي يمكن أن يحدث
على أساس بحث علمي مستقل غير متحيز للقوانين التي تحكم السلوك الإنساني .
وقد اقتبس الإجابة التي قالها فاراداي Faraday لأقدمها إلى هؤلاء الذين
يشكون في فائدة علم النفس في هذا السياق بسبب ما ينسب إليه من أنه غير
عملي ، أو لأنه حقيقة غير ناضجة ، فقد قال في مناسبة مشهورة حين عرض
نموذجاً صغيراً لأول مرة للدينامو الذي اخترعه ، وحين اقتربت منه سيدة
قائلة ، هذا شيء صغير حسن يا سيد فاراداي ، ولكن ما فائدته ؟ . أجاب
الرجل العظيم وما فائدة الطفل ؟ .

Bibliotheca Alexand



0616950

مطبعة لجنة البيان العربي

٢٧ جامع الاسماعيليه بالقاهرة

س ٢٧٠٧٩